رؤية يمنية في أدب الرحلات

مشاهدات وانطباعات من الشرق والغرب

بسم الله الرحمن الرحيم

مؤسسة الرسالة ناشرون
انتشار بألوان الطيف

دمشق - سورية
هاتف: ٢٣٢١٢٧٥ ١١ (٩٦٣)
فاكس: ٢٣١١٨٣٨ ١١ (٩٦٣)
ص.ب: 30597

بيروت - لبنان
هاتف: ٥٤٦٧٢٠ - ٥٤٦٧٢١
فاكس: ٥٤٦٧٢٢ ١ (٩٦١)
ص.ب: ١١٧٤٦٠

Resalah
Publishers
Damascus - Syria
Tel:(963) 11 2321275
Fax:(963) 11 2311838
P.O.Box: 30597

Tel: 546720 - 546721
Fax: (961) 1 546722
P.O.Box: 117460
Beirut - Lebanon

الطبعة الثانية
١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

Http://www.resalah.com
E-mail: resalah@resalah.com
facebook.com/ResalahPublishers
twitter.com/resalah1970

ISBN 978-9933-23-212-2

①

الطبعة الثانية

رؤية يمنية في أدب الرحلات

مشاهدات وانطباعات من الشرق والغرب

تأليف السفير

عبد الوهاب محمد إسماعيل العمراني

مؤسسة الرسالة ناشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـــداء

إلى مَنْ غَرسَ بين أبنائِه ومُرِيديه حُبّ الاطّلاع والمعرِفة

إلى والدِي فَضِيلَة القَاضِي العلّامة

مُحمّد بْنِ إسْمَاعِيل العمْرانِي

أطال الله فِي عُمره وأحْسَنَ خاتِمته

تقـــــديم

د. عبد العزيز المقالح[١]

بديع وفاتن هو أدب الرحلات، ويمكن القول إنه بات في الآونة الأخيرة بخاصة ينافس الشعر والرواية لدى القارئ الباحث عن المعرفة والمتعة والرؤية الفنية للأشياء والكائنات. وكتاب الصديق السفير عبد الوهاب العمراني ليس دراسة في أدب الرحلات فحسب لكنه فصل من فصول الرحلات المهمة التي حرصت على تقديم أجزاء من هذا العالم عبر الانطباعات العميقة والمشاهدات المتأنية. وما أحوج البشر إلى مثل هذه الكتابات، لا سيما الغالبية العظمى منهم الذين لم تتح لهم الظروف مبارحة أوطانهم فاكتفوا بأن يتعرفوا على العالم من خلال حدقات الرحّالة الذين لم يستأثروا لأنفسهم بما رأوه ووعته ذاكرتهم في كثير من خواطر العالم، بل كانوا أحرص على أن يشاركهم القارئ متعهم ومرائيهم، وهو نوع من الإيثار جدير بالتقدير والإعجاب.

واللافت في زمننا أن الأرض التي كانت إلى عهد قريب تترامى إلى آماد يصعب الإحاطة ببعضها، قد جعلتها المعرفة الحديثة تنكمش في وعينا الحاضر إلى درجة جعلت البعض من أبنائها يعتبرونها قرية صغيرة يمكن التجول في أحيائها وشوارعها بسهولة. وليس الفضل في ذلك لوسائل الإيصال والاتصال وحدها، بل ولهؤلاء الذين يتنقلون فيها من مكان إلى آخر تصاحبهم أقلامهم وأحياناً كاميراتهم ليقرِّبوا بها البعيد. وتبقى الأقلام في جميع الحالات أكثر قدرة على الإمساك بحقائق هذه الأرض وخفاياها من الصور الجامدة أو المتحركة وهي ـ أي الأقلام ـ أصرح وأصدق من خلال الكلمات التي تتكلم عن تكوينات البلدان، وآثارها وتاريخها وعقائدها وتقاليدها، وما يتميز به هذا البلد عن غيره من مناظر طبيعية أو مواقع تاريخية ومناطق للعلم ومسارح للتسلية.

ولا أخفي أن هذا الكتاب قد أمتعني وأضاف إلى معلوماتي الكثير مما كنت أجهله عن عدد من البلدان التي زارها مؤلفه عبد الوهاب العمراني وأمضى في بعضها وقتاً كافياً يمده بما يرغب

(١) أديب يمني وعربي غني عن التعريف ورئيس مركز الدراسات والبحوث اليمني.

فيه من تكوين رؤية الباحث المتتبع لا الزائر السائح العابر الذي ينظر إلى واجهات المدن بل إلى روحها وأبعاد مكوناتها الثقافية والحضارية وما يشغل أبناءها من هموم وما تحركهم من آمال. وإنني ومعي ألوف القراء نغبطه على الظروف التي هيأت له القيام برحلاته الشرقية الغربية ومكنت له من الاطلاع الواسع على الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية للبلدان التي زارها أو أقام فيها أثناء عمله الدبلوماسي والتي استطاع خلالها أن يختزن في ذاكرته كما في يومياته جوانب مهمة من المشاهدات والانطباعات الواقعية.

في المقدمة التي كتبها المؤلف أكثر من إشارة إلى أهمية الترحال وإلى ضرورة أن يكون الرحالة واعياً لهدفه باحثاً في البلدان التي يزورها ـ كما يقول ـ عن القيمة والمعنى، وليس عن التسلية وشغل القارئ بالسطحي من الأمور، وهذا ما يؤكد أنه كان قد استعد لذلك بقراءة قائمة من كتب الرحلات القديم منها والحديث ليتمكن في رحلاته الشرقية والغربية من تمثل القيمة والمعنى لهذه الرحلات، وأعتقد أنه نجح إلى حدّ بعيد فجاءت رحلاته تحقيقاً لأهدافه، كما جاءت لغة الكتاب بديعة تلقائية خالية من التكلف والتصنع يمكن للقارئ متابعتها بسلاسة ويسر(١)، وكلما قطع جزءاً من الكتاب زاد شوقه إلى استكمال بقية الأجزاء. وبوصفي واحداً من أوائل قرائه أتمنى أن يواصل السفير عبد الوهاب العمراني كتاباته عن أسفاره الجديدة بالمستوى الأدبي الراقي وإخلاص الأديب المبدع.

كلية الآداب ـ جامعة صنعاء

في ١٧/ ٢/ ٢٠١٢م

(١) (... أن المفتاح السحري في كتابة الرحلات لا يكمن في إجادة وصف الديار والأنهار والجبال والوديان والسهول ولا في الحديث عن اختلاف العادات والتقاليد بين المجتمعات المختلفة وما يشبه الأساطير في تصوير غوامض المدن بل يكمن في هذه اللغة البديعة وبالأصح الطقس اللغوي المتميز الذي لا يخلو من عفوية...) مقتطفات من تقديم الدكتور المقالح للكاتب المعروف جمال الغيطاني لكتابه الرائع «مقاصد الأسفار» الصادر عن دار النهضة في مصر في العام ٢٠١١. ويعتبر جمال الغيطاني من رواد كتابة الرواية في مصر والوطن العربي وحائز على جائزة القصة الروائية والمسرحية العربية.

تصدير الطبعة الثانية

السفير الدكتور حميد العواضي[(١)]

«لَيْسَ مَنْ لَزِمَ وَطَنهُ وَقَنعَ بِمَا نَمَى إِلَيْهِ مِن الأَخْبَارِ مِنْ إِقْلِيمِهِ كَمَنْ قَسَّمَ عُمْرَهُ عَلَى قَطْعِ الأَقْطَارِ، وَوَزَّعَ بَيْنَ أَيامِهِ تَقَاذُفَ الأَسْفَارِ، وَاسْتِخْرَاجَ كُلِّ دَقِيقٍ مِنْ مَعْدنِهِ، وَإِثَارَةَ كُلِّ نَفِيسٍ مِن مَكْمَنِهِ»

أبو الحسن المسعودي

قبل سنوات عديدة نشرتُ دراسة عن أحد أهمّ كتب الرّحلات في القرن التّاسع عشر الميلادي، وهو كتاب «**صفوة الاعتبار بمستودع الأقطار والأمصار**» الذي ألفه محمد بَيْرم الخامس التونسي (١٨٤٠ ـ ١٨٨٩). وحاولت أن أبيّن أصالة التّأليف في فن الرّحلات فيما كان يُعرف قديماً عند العرب بكتب «المسالك والممالك». وكيف أنها شكّلت في القرن التّاسع عشر مدخلاً للفهم المشترك، ولا سيما أن أهم كُتّابها مثل رفاعة الطّهطاوي في «تلخيص الإبريز إلى تخليص باريز»؛ وأحمد فارس الشّدياق في «السّاق على السّاق...» و«كشف المخبّأ...»؛ وخير الدّين باشا التّونسي في «أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك» وسواهم، قد حاولوا أن يقدّموا مقارباتٍ مميزةً تقوم على التّنوع في التّحليل والتّفسير والنّقل والتّأويل لمجمل مظاهر حياة المجتمعات التي زاروها في نسق من الإِخْبار و

(١) عميد المعهد الدبلوماسي بوزارة الخارجية اليمنية وسفير اليمن سابقاً لدى اليونسكو ـ باريس.

الاعتِبار. وقد أصاب كتبَ الرحلات تطورٌ ملموس تعدّد في نتائجه؛ فقذف بها في أرجاء شتى من الأنواع والأجناس. وأخذت الاختصاصات الأدبية والعلمية، على حد سواء، تتنازع النتاج الفكري القادم إليها عبر الرحلات. ربما لأنه يقع خارج نطاقها وبعيداً عن معارفها المباشرة وبه يُمْكِنُها أن تتجدّد في ذاتها وتُجدّد مخرجاتها. ومن هنا جاء الاهتمام بالرحلة متنوعاً والنظر إليها متعدداً لما لها من الفائدة في وجوه شتى من وجوه الحياة الإنسانية. لقد أسعدني أخي وزميلي الدبلوماسي المميّز عبد الوهاب محمد إسماعيل العَمْرَاني لثقته بي لأكون من أول قراء هذا الكتاب ويسعدني أكثر بأن أسطّر بعض الكلمات وهو بصدد إخراج الطّبعة الثّانية من كتابه «**رؤية يمنية في أدب الرّحلات ـ مشاهدات وانطباعات من الشّرق والغرب**» الذي صدر قُبيل ذلك في طبعة أولى لقيت ترحاباً، لاسيما في أوساط زملائه في المهنة الدبلوماسية لما أثاره فيهم من ذكريات الترحال وموقف الانتقال. بل لعل كتابه هذا قد استنهض في بعضهم همة الكتابة عما سجلوه في تنقلاتهم المختلفة بصيغة أدبية أو تقريرية.

وتكمن أهمية الكتاب الذي بين أيدينا في أنه قد نجح في أن يجمع بين المنزع التقريري والمنزع التفسيري من ناحية، وبين الوجهة الأدبية والوجهة الإعلامية من ناحية ثانية، كما جمع بين الملاحظة الفردية والرأي العام المشهور، والخاطرة المرتجلة والمعلومة الموثقة. وبالتالي فإن قراءة متأنية له تبوؤه موضعاً وسطاً بين أدب الرحلات والجغرافيا الثقافية والخواطر الذاتية. باعتبار أن الجغرافيا الثقافية تقربه من الاختصاص العلمي التقريري بما يتضمنه من معلومات فكرية وأدبية وفنية وتاريخية وسياسية واقتصادية وسياحية. و أدب الرحلات يشدده إليه بما انطوى عليه من وصف وعرض ولغة. وقد تبدت الذات في حركتها المتنقلة في الزمان والمكان وتدخلها في توجيه المعلومة والرأي. هذا من وجه.

ومن وجه آخر فإن المكتبة اليمنية تفتقر لهذا النوع من الكتب مقارنة بمجمل محتويات المكتبة العربية. ولعل السفيرعبدالوهاب العمراني بكتابه هذا يعد أول مؤلف تناول بهذه الشمولية نطاقاً واسعاً من الدول والأماكن التي شملتها تلك المشاهدات أو في وصف أدب الرحلات كجانب نظري؛ حيث تضمنت مقدمة الكتاب طرفاً من تاريخ أدب الرحلات عند العرب وغيرهم منذ أقدم العصور وحتى عصرنا الحاضر. كما يحسب له أنه أوجز في هذا السياق دور اليمنيين في هذا الجنس من الكتابة.

يجول بنا الدبلوماسي من خلال سطور الكتاب برحلة في أصقاع متنوعة في العالم: بغداد، اسطنبول، أصفهان، تاج محل، جزر الملايو، سنغفورة.. ثم يذهب بنا غرباً إلى المغرب الأقصى ويَجول بِنا في أزقة ومساجد فاس ومكناس وبوابات مراكش ويصعد بِنا إلى مُدن الأندلس غرناطة وقرطبة وإشبيلية وغيرها فضلاً عن مدريد تلك الحواضر العريقة التي يفوح منها عبق التاريخ العربي والإسلامي، ثم يصعد بنا شمالاً إلى باريس بألقها ورقتها وبروكسل عاصمة أوروبا ثم يختتم الرحلات في أقدم المدائن وأجلِّها عاصمة الإغريق.

و لاشك أن قراءة كتب الرحلات هي رحلة في ذاتها بما لها من قيمة ترفيهية وتثقيفية تثير فضول القاطنين وتستثير معارف المرتحلين. فهي تختزل التنوع جغرافيةً وثقافةً ولغاتٍ، كما تبرز التّعدد والتّفاصيل. وقد ظهرتْ صُورة الرَّحّالة طالِباً وكاتباً باحثاً وموظفاً دبلوماسياً. وقد لا يكتفي غالباً بالمشاهدة والملاحظة العابرة بل يذهب إلى القراءة والتأويل مذهباً يوسع من مدارك المعرفة المباشرة التي يريد تقاسمها مع قارئه.

إن أهمَّ ما أحسست به بعد قراءة هذا العمل هو كيف أن الدبلوماسي ينبغي أن يكون همزة وصل بين بلده وبلد اعتماده في نطاق مهمته الدبلوماسية، لكنه مطالب أن يكون ترجماناً بين الثقافات ينقل من هذه إلى تلك، ومن تلك إلى هذه في نتاج قابل للتداول والبقاء وقابل أن يتطور بتحول الأيام وتواليها.

لقد أتحف الزميل عبد الوهاب العَمْرَاني المكتبة الدبلوماسية اليمنية بكتابه عن الاتحاد الأوربي حين عَمَلِ بعثتنا هناك نائباً للسفير، وأتحف المكتبة اليمنية والعربية بهذا العمل الذي يخرج عن الكتب الفنية ذات الأغراض العملية التطبيقية إلى الكتب التثقيفية. وهو في جميع الحالات يخدم غرضاً أسمى هو الثقافة في معناها الواسع الذي لا تخوم له ولانطاق.

وأختم بقول فرنسيس بيكون عن السفر: «ان السفر تعليم للصغير، وخبرة للكبير»

صنعاء - الروضة

٢١فبراير ٢٠١٣

مُقَدِّمَة

إذا كان لكُل كِتَاب قصّة فلِهذا الكِتَاب قصّتانِ جانِب شخصيّ وآخر أدبي، فالأول يتَمثلُ في ذِكريَات عن رحَلات مُتفرِقة بدأت حلقاتُها مُنذُ نحو خمسة وثلاثين عاماً مَضت ولطالما راودتني أحلامي بأن تتحول يوماً ما إلى كِتاب بعد أن نُشر القليل منها على شكل مقالات في هذه الصحيفة أو تلك.. وقد ساعدت ظروف دِراستي في الخارج على معرفة بعض البُلدان عِندما غادرتُ مدينتي صنعاء أواخر السبعينيات ومنها تمكّنتُ من زيارة مُدن عربية وأوروبية.. ومن ثم عملي في السِلْك الدُّبلوماسي منذ منتصف الثمانينيات والذي فتح لي آفاقاً أرحب لمعرفة عدد لاباس به من البُلدان من شرق آسيا وبُلدان عربية وأفريقية وأوروبية وحتى كندا وأمريكا.

أمّا الجانِب الثاني وهو الأدبي فأملي أن تُثمر كِتابة وتدوين مشاهَداتِي وانطِباعَاتي محاكاة لأدب الرحلات بغَضّ النَّظَر عن شكله أو مضمونه ولا أدَّعي مجاراة أعلام أدب الرَّحلات الأوائل أو المعاصِرين، ولا أنكر تأثري وإعجابي بهم واستفادتي بشكل أو بآخر بمن كتبوا في هذا المجال ولإيماني بأن كتابة قصص الرحلات لاينْبَغي أن تكون مُجرَّد وصف نمطي أو سرد للرحلة فحسب، بل الوقوف والتأمُّل في محطات زمنية ومكانية بحثاً وتمحيصاً في التاريخ والجغرافيا والبحث عما وراء الأسباب، ومن هنا فإن هذا الكتاب المتواضع رَغم اتباعه أساليبَ منهجية متعددة في آن واحد إلا أنها في تسلسُل أحداث الرحلات لن تكون بالضرورة في سِياقها الزَّمني حيث رأيت بأن المتعة تكمن في الجري وراء الفكرة أينما ذهبت.. كما أن الدول التي زرتها نحو خمسة وثلاثين بلداً لن تكون محشوةً بتفاصيلها في هذا الكتاب حيث رأيت من الأفضل أن أكتب أولاً عن أهم تلك البلدان ولاسيما منها التي تركت أثراً في وجداني وذاكرتي وهي بضعة بلدان في هذا الكتاب من جملة البلدان التي زرتها، كما أنه لن يكون هناك تساوٍ من حيث الوصف بين هذا البلد أو ذاك، بالنظر لظروف موضوعية وذاتية لزيارتي لكل من تلك البلدان مقتدياً بكتابات الرحالة الأوائل، الذين أُعجبتُ بأسلوب كتاباتهم القدماء منهم أو المعاصرون، وبنهْجِهمْ في الوصفِ والتّحليل حيث كان وصفهم ليس فقط من حيث العمران والطبيعة، بل شمَل عادات أهل تِلك البُلدان وطبيعة عيشهم من لِبس وثقافة ودين وفن

وعلاقاتهم بالبلدان العربية وغير ذلك مما يلفت نظر الزائر، وهنا تكمن المتعة، والتي تعطي القارئ صورة «بانورامية»وكأنه يعيش وسط تلك الشعوب لاسيما إذا كان الكاتب يتحلى بأسلوب بلاغي وأدبي جذابين، وآمل أن ينهل القارئ ما يصبو إليه من فائدة ومتعة في آن واحد ولاسيما وإن كان للقارئ خلفية معقولة في هذا المجال أو في مواضيع مشابهة.

وقد رافق مسيرة التِّرحال طوال تلك السنوات رغْبةٌ متواصلة في الاطلاع عن كثب على كُتب الرحلات أو الاستطلاعات التي تتناولها المجلات والدوريات أو تلك المشاهدات عبر أجهزة التِّلفَاز التي دفعتني إلى المزيد من القراءة لاسيما عن الدول التي زُرتها أو أنوي زيارتها «إن كتب الله عمراً وصحة» وطبيعة الكتابة عن الرحلات يستوجب أسلوباً خاصاً وليس مهماً أن يكون نسخة عن كتاب ابن بطوطة الشهير أو كتب من لحقه من الرحالة في مختلف الأزمنة سواء من العرب أوالعجم.

وأدركت بأنه من الأفضل في هذا الفنْ النثري تناول التفاصيل الدقيقة لسير الّرِحلة وما يُرافقها من مشاهدات واقِعية مرتبطة بالمخزون التاريخي والاجتماعي..

وعليه فإن كتابة الرحلات فنٌّ يتناول أيضاً عقائد وأديان وسياسة بل واقتصاد وعلاقات اجتماعية لبلد ما.. وبالنسبة لي وبحكم طبيعة عملي وتخصصي العلمي فإن ما كتبته خلال أكثر من ثلاثة عقود من مقالات في صحف ومجلات يمنية أو عربية هو في الغالب في الشأن السياسي والعلاقات الدولية وكان نادراً في المواضيع الاجتماعية والسياحية وغيرها.

وقد يختلف الأسلوب من بلد إلى آخر كما أسلفت بالنظر للفوارق الزمنية وخصوصيات كل بلد.... فبعضها يقتضي استحضار التاريخ والجغرافيا والنواحي الاجتماعية وثمة بلدان أخرى يُحبّذُ أن يكون الباحث أو السائح أديباً وفيلسوفاً..! فزيارة أثينا مثلاً لابد أن يزور المرء متاحف ومعالم تعكس حضارة الإغريق وفلسفتهم، وزيارة أصفهان مثلاً لابد أن تستدعيك آثارها لاستحضار تأريخ حضارة المسلمين عربًا أو عجماً، أما زيارة كربلاء فلابد أن يستذكر المرء مأساة الإمام الحسين والحديث عن الشيعة والتشيع وهو الأمر نفسه عند زيارة الأندلس فمعالم غرناطة وقرطبة وأشبيلية تدعُ موسِيقى الموشّحات الأندلسية أو أغاني زِرياب تَتَسلَّل إلى أذنيك المسايرة لإيقاع رقصات الفلامكنو الإسبانية ولو بعد قرون خلَت!

وبدأت نواة وفكرة كتابة تلك الخواطر والانطباعات عن تلك الأماكن التي زرتها تباعاً خلال العقود الثلاثة الماضية كمذكرات احتفظت بها لنفسي وهاهي اليوم تلقى النور في كِتاب، ولكن بعد أن عُدت لعدد كبير من الكُتب والدّوريات والصُحف ووسائل إعلامية أخرى كالتلفاز وتصفح للانترنت الذي كان له الأثر في تنمية واسترجاع معلوماتي وعدت بذاكرتي لتلك الرحلات وكأنها حدثت بالأمس، وهكذا بدأت فكرة إعداد هذا الكتاب الذي استغرق وقتاً ليس بالقصير، عندما كنت أخلو لنفسي لحظات بعد عناء الترحال لكتابة ملاحظات أولية، و لم أكملها إلا بعد حين..

رحلاتي في تلك البلدان لازالت لها ذكريات، وكتبت فيها عن كل بلد رأيته من زاوية مختلفة فباريس لها ألف وجه على حد تعبير الفنان الراحل يوسف فرنسيس (باريس الألف وجه)، واليونان تجذبك بآثارها وأسلوب حياتها تماماً كأغلب بلدان جنوب المتوسط بدءاً من بيروت وانتهاء بمدينة مالقا في جنوب إسبانيا، وأمريكا لها مذاق خاص وآسيا هي الجمال بعينه سواء في ربوع الهند ومعالمها أو شوارع وأسواق سنغفورة وجزر ماليزيا، وطهران وأصفهان لهما لون خاص بالجمال في الخلق والخليقة والطبيعة، وإسطنبول التقى فيها إبداع الإنسان بهبة الطبيعة وعبق التأريخ.. ومتعة التجوال في أزقة فاس ومِكْناس ومراكش... كل بلد له وصف خاص ومذاق مختلف ليس لكاتب واحد بل لكل من يكتب في أدب الرحلات.

خلال أكثرمن ثلاثة عقود عرفت بلداناً كثيرة بدءاً من سنغفورة وماليزيا والهند في شرق آسيا مروراً بإيران وبلدان عربية من المشرق إلى المغرب، وبُلدان أوروبية وإفريقية وحتى الولايات المتحدة من شرقها في نيويورك وواشنطن وحتى غربها في سان فرانسيسكو على المحيط الهادي ومن شمالها في كندا على ضفاف أجمل شلالاتها (نياغرا فولس) الشهيرة، وحتى أطرافها على حدود المكسيك في شواطئ فلوريدا الدافئة ..وملاهي ديزني لاند الأعجوبة!

رحلة أدبية فكرية نَمَتْ مع تنامي شخصيتي منذ مراحل الشباب الأولى قبل العشرين حتى الخمسينيات من عمري أردتُ لها أن ترى النور عبر هذه السطور لتحمل الهمَّ الجمعي بكُل صوره..رحلة فكْرية بطابع اجتماعي وعمق تأريخي.

لقد سعيت خلال تلك الرحلات ـ كما ذكرت ـ بأن أدونها في ذاكرتي أولاً وفي دفتري بقراءة أولية ثانياً إلى أن يأتي اليوم الذي تجد طريقها للقارئ الكريم لعلّه ينهل منها بعض المعرفة والطرافة والغرابة. . . وسعيت لأن أجمع بين الحِسّ الذاتِيّ والجمْعِيّ وأن أقرأ في عيون الإنسان البسيط في تلك البلدان همومهم وآمالهم وتطلعاتهم وطريقة تفكيرهم، فالإنسان هو الإنسان بغضِّ النّظر عن قومِيته ومِلَّته ولونه ومركزه. . . من خلال كُل ذلك يكتشف المرء سرَّ الحضارات وتطورها والفوارق بين الأمم. والتحضر بالطبع لايقاس بمعناه المادي المجرد بل بقيم ذلك المجتمع وعلاقاته الإنسانية وثقافته وعمقه التاريخي. .

تلك الرحلات تزامنت مع قراءة قبل وبعد أيّ زيارة لبلد ما، علّها تبحث عن القيمة والمعنى، وعلى هذا النحو تماهتْ سِياحَتي بإمكانياتي المتواضعة شرقاً وغرباً قبل التحولات والعواصف والمحن التي ألمّت بالعالم وتركت آثارها السياسية والاجتماعية والاقتصادية على أغلب سكان المعمورة بدءًا بانهيار سور برلين وسقوط بلدان المنظومة الاشتراكية وتبعات غزو صدام للكويت وتداعياتها المؤسفة. بداية بالحرب والحصار وانتهاء بسقوط بغداد بالصورة الدرامية التي شاهدها العالم الذي ذكرنا بسقوطها في عهد هولاكو وسقوط غرناطة في الأندلس. مروراً بأحداث الحادي عشر من سبتمبر في الولايات المتحدة التي جاءت بذريعة تدشين مرحلة من حروب واشنطن على أفغانستان والعراق وغيرهما. . . وانتهاء بما عرف بربيع الثورات العربية والتي اختلط فيها الحابل بالنابل وأطاحت بأصنام أخرى غير مأسوف عليها. .

عشت سنوات الدراسة في العراق قرب المستنصرية ومسجد أبي حنيفة النعمان وتمثال أبي جعفر المنصور قبل أن يهدمه الشعوبيون عقب غزو بغداد الذي أعقب سنوات من الحصار.

عرفتُ بوابة إيران (خرم شهر) قبل شهور من الثورة الإيرانية وعرفت إيران في العمق بعد نحو ربع قرن من انتصار ثورتها وكان بالطبع فارقاً كبيراً سيتناوله الفصل المتعلق بإيران.

وزُرت دبي عام ١٩٧٧ وزرتها بعد ذلك مرات بعد عقود من أول زيارة وبالطبع شهدت تحولات عظيمة بفضل الطفرة النفطية والإرادة والسياسة الحكيمة لحكّام الإمارات. .

وعرفتُ مصر الكِنانة في سبعينيات القرن الماضي، والتي تضاعف عدد سُكانها خلال تلك

السنوات التي خلت، وشهدت هي الأخرى جملة من التحولات للأسف بعضها كان للأسوأ، فمصر في السبعينيات كانت تعيش عصر الزمن الجميل!

كما عرفت عمان ودمشق وبيروت في فترات متفاوتة وحصل الكثير من التغيرات التي تعتبر مزيجاً من التحول الإيجابي والسلبي، وهو انعكاس للحالة السياسية والاقتصادية قبل أن يهل ربيع الثورات العربية..!

لم يحصل ذلك التغيير الجذري في أوروبا فباريس التي زرتها ابتداً من مطلع التسعينيات هي نفسها تقريباً بعد أكثر من عشرين عاماً إلّا أن التغييرات والتحولات الحَادّة حصَلتُ في بُلدان أوروبا الشرقية التي خضعت لعقود تحت السيطرة الشيوعية وتحولت بين عشية وضحاها إلى الرأسِمَاليِة الأمر الذي أحدث ارتباكاً اجتماعياً وخللاً في معيشة البعض، وظهرت أقلية من أصحاب الملايين مقابل ازدياد الفقراء واتساع الهوَّة بين هؤلاء وأولئك، وارتفع مستوى الجريمة وزادت العنصرية ضد الأجانب وظهرت التيارات اليمينية والمتطرفة، كان ذلك قبل أن يحدث تحول اقتصادي لتبدأ ملامح الاستقرار الاقتصادي بعد أن انضمت دول شرق القارة للاتحاد الأوروبي[(١)] وبعضها حتى الآن ليس أفضل حالاً من تركيا التي تتربص لدخول النادي الأوروبي فاقتصادها مؤخراً يعتبر أفضل من بعض تلك البلدان الشرقية ولكن يؤخذ عليها أنها بلد إسلامي ولم يدرك الأتراك بأن الاتحاد الأوروبي هو كما قال بابا الفاتيكان السابق: نادٍ مسيحي...!

تركيا شهدت تحولات منذ زيارتي لها في نهاية السبعينيات فغدت وكأنها قطعة من أمريكا وليس من أوربا فلم تكن في ذلك الوقت ـ أواخرالسبعينيات ـ مؤهلة للسياحة والتسوق بالنظر للانتعاش الاقتصادي على النحو الذي هي عليه اليوم (فالمولات) المستحدثة التي زاحمت بازار اسطنبول الشهير قد أعطتها نوعاً من الأصالة والمعاصرة،كما أنها تطوّرت صِناعياً بصورة متسارعَة ودَخْلُ الفردِ قفزَ إلى مايقارب الضعف خلال عشر سنوات وذلك كان بفضل سياسة

(١) يلاحظ الأوربيون وهم أكثر من ثلاثين دولة شرقية وغربية وبمجرد انتهاء الحرب الباردة وبدأت أنظمة جديدة ديمقرطية هرعت أوروبا الغربية لنجدتها واحتوائها تحت مظلة الاتحاد الأوروبي ورغم تعثر اقتصاد بعضها كاليونان وإسبانيا إلا أن أوروبا متضامنة وهم قوميات ولغات متباينة ويجمعهم الدين بينما نحن العرب أمة واحدة ولغة واحدة وتأريخ مشترك وتغيرت أنظمة وجاءت أخرى ولكن كل يغني على ليلاه لم يتفقوا حتى أنظمة الخليج التي هي متجانسة أصلاً اجتماعياً واقتصادياً وثقافياً..!

حزب الرفاه الاجتماعي بقيادة أردوغان الذي حوَّل بوصلة أنقرة باتجاه القبلة وليس للغرب، مدركاً بأن مصلحة بلاده هي مع الشرق وليس مع الغرب!

عرفتُ أمريكا قبل أحداث الحادي عشر من سبتمبر الشهيرة ولم يكن هناك وجود لأي نفس عنصري . . . وصعدت مع أفراد أسرتي إلى أحد برجي التجارة الدولي التوأم قبل أن تعصف به أحداث سبتمبر من العام ٢٠٠٢، وحولته بالفعل إلى أثرٍ بعد عين!

يبدو ولطبيعة الكتابة عن رحلتي لإسبانيا و إيران والهند والعراق وإسطنبول وفاس ومراكش وغيرها، وبما تحتويه من معالم وآثار وكنوز عربية إسلامية قد تناولتْ ربما الجزء الأكبر من هذا الكتاب ويغلب على وصف الرحلة لتلك البلدان ملامح تاريخية وأدبية، وبالطبع فإني لست شاعراً أو أديباً أو مؤرخاً ولكني أحاول ببساطة نقل مشاعري في تجربة أدبية متواضعة.

تعلّقت بشغف بهذا النوع من الكتب منذ بدايات سنوات الشباب، وتعاملت مع أدب الرحلات[(١)] منذ وقت مبكر على الأقل في مخيلتي وقراءتي وانعكس بعضها في مقالات متواضعة في هذه الصحيفة أو تلك[(٢)] وعندما بلغتُ سن العشرين كنت قد زُرت نحو تسع دول رغم إمكانياتي المادية البسيطة وما كانت لتكون لولا ظروف دراستي خارج اليمن في العراق التي سافرت إليها براً وبحراً وليس عن طريق الجو مما سمح لي بزيارة بعض البلدان وكانت البداية وبعد عام دراسي في العراق اتجهْتُ لأوروبا الشرقية عبر إسطنبول، تمكنت بحمد الله من زيارة بلغاريا ويوغسلافيا (قبل تقسيمها) والمجر ثم العودة من نفس الدول بواسطة القطار المجري السريع وحتى إسطنبول مرة أخرى ومنها عدتُ إلى العراق عبر سوريا.

(١) وكما جاء تعريفه في إحدى الموسوعات بأنه.. نوع من الأدب الذي يصور فيه الكاتب ما يجري له من أحداث وما صادفه من أمور أثناء رحلته التي قام بها لبلد ما. وتُعد كتب الرحلات أهم المصادر الجغرافية والتاريخية، لأن الكاتب يستقي المعلومات والحقائق من المشاهدة الحية، والتصوير المباشر مما يجعل قراءتها غنية وممتعة.

(٢) وبين دفتي هذا الكتاب محاولة متواضعة للمساهمة في هذا اللون من الأدب الذي رغم قدمه وحداثته فإنه يكاد يتوارى بين كومة من ثورة المعلومات السريعة ووسائل الاتصال التي جذبت الملايين وحجمت من دور الكتاب بصورة عامة لاسيما في أوساط الناشئة والذين خطفتهم جاذبية الميديا المعاصرة من انترنت وتلفاز وخلافه.

مدخل حول أدب الرحلات

حظي أدب الرحلات باهتمام كبير قديماً وحديثاً، عرفه العرب وبلدان الشرق ثم انتشر عند الغرب بعد اكتشافاتهم خارج القارة الأوروبية.

تعتبر الرحلات أو قراءتها من أوسع أبواب المعرفة والثقافة الإنسانية لِكشف المجهول والوصول إلى الغاية، والمعرفة والإحاطة بالعادات والتقاليد، والتعريف بأوصاف البلدان الطبيعية ومناخاتها، كما أنها مصدر للمؤرخ والجغرافي والاجتماعي، وفيها قدوة وأسوة لمن يريد أن يعتبر ويتأمل.. فقد فطر الله الإنسان على حب الاستطلاع واكتشاف المجهول.

وأدب الرحلات عند العرب غني بتراثه منذ أكثر من ألف سنة مضت، بل وتعود بداياته التوثيقية إلى مطلع القرن الثاني الهجري. فعندما توسعت الفتوحات الإسلامية وأصبحت حدود الدولة الإسلامية تمتد من الهند والصين شرقاً إلى مياه الأطلسي غرباً ومن آسيا الوسطى وجبال القوقاز شمالاً إلى الصحراء الإفريقية الكبرى جنوباً. ووجد الفاتحون أمامهم آفاق عوالم جديدة تزاحمت فيها الغرائب والعجائب واختلفت فيها الألسن وتلونت المشاهد الطبيعية وتغايرت الأقوام والشعوب بعد أن كانوا حبيسي جزيرتهم وصحرائهم، وأثارت هذه العوالم في نفوس الفاتحين مكامن الاطلاع وحب المعرفة، وسرعان ما انطلقت جموع الرحالين والمستكشفين والعلماء والتجار نحو هذه الآفاق، وخلال بضعة قرون من السنين تراكمت نصوص هذا الأدب وتكونت في نهاية العصور الإسلامية الوسيطة مكتبة أدبية جغرافية عظيمة تعتبر في أيامنا واحدة من أندر وأثمن كنوز تراثنا العربي الإسلامي، ولعل من أقدم نماذجه الذاتية [(١)] في القرن الثالث الهجري وفي عهد الدولة العباسية كانت رحلة (سليمان السيرافي) بحراً الى المحيط الهندي ورحلته للهند والصين وآسيا الوسطى، ورحلة (سلام الترجمان) إلى جبال القوقاز وبحر قزوين بتكليف من الخليفة العباسي الواثِق بالله للبحث عن سدّ يأجوج ومأجوج! وقد بدأ رحلته من سر

(١) الدكتور خضر مُوسى محمد حمود، «أشهر أعلام الرحالة العرب ونتاجهم»، دار الكتب العلمية في بيروت إصدار عام ٢٠١١ ص ٢٥.

من رأى، أي سامراء!، ورحلة (وهب القرشي) و (اليعقوبي) لبلدان في آسيا وشمال إفريقيا .

أما في القرن الرابع الهجري فنقرأ عن رحلات (لابن فضلان) و (المسعودي) و (ابن حوقل المقدسي) وغيْرهم[١]، وفي القرن الخامس الهجري برزَ ابن بطلان والبيروني وأمّا (أبو الريحان البيروني) فهو نموذج جديد في أدب الرحلات حيث تجاوز التأريخ والجغرافيا إلى دراسة ثقافات المجتمعات وعاداتها ولغاتها بعد أن عاش فيها ردحاً من الزمن، حتى أنه أجاد اللغة الهندية القديمة، في حين كان أبرز الرحالة في القرن السادس الهجري (الإدريسي) ويعود له الفضل في وضْع أول خريطة للعالم وهو صاحب كتاب (نزهة المشتاق في اختراق الآفآق) ويعد كتابه أعظم مؤلفات القرون الوسطى و (أبوبكر بن العربي) الذي يُعدّ مؤسس أدب الرحلات في الأندلس وله مصنّفات عدة منها (ترتيب الرحلة للترغيب في الرحلة) و (أبو حامد الغرناطي) واحدٌ من كبار رحالة ذلك القرن ويكاد يبلغ مكانة ابن بطوطة في العصور اللاحقة وذلك نظراً لكثرة البلدان التي تنقل فيها، وقد زار الغرناطي الشرق والغرب والصين والهند وإفريقيا، و (ابن جبير الأندلسي)[٢]وفي القرن السابع الهجري أيضاً عُرفت رحلات كل من (ياقوت الحموي) و (ابن سعيد الأندلسي). و (لسان الدين الخطيب)[٣] قبل أن تظهر رحلات (ابن بطوطة) الشهيرة وهو صاحب كتاب (تحفة النُظّار في غرائِب الأمصار وعجائِب الأسفار)[٤] و (ابن خلدون) في القرن الثامن الهجري المتزامن مع القرن الثاني عشر الميلادي، وكانت تلك الفترة بداية لفصل جديد في هذا النوع من الأدب الذي شهد أعلاماً أُخر أمثال لسان الدين الخطيب الغرناطي!

فالرحالة ابن بطوطة هو من جاب الأرض طولاً وعرضاً كما يُقال وله من العلم والخصال

(١) من الموسوعة العربية العالمية، مادة الرحلات.

(٢) رحلة ابن جبير الأندلسي وكذا الإدريسي المغربي الأندلسي في «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» ويقال بأنه أول من وضع خريطة للعالم.

(٣) ومن أشهر كتبه «خطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف».

(٤) من أمهات كتب أدب الرحلات التي استمرت نحو ثلاثين عاماً انطلق في طنجة ومات فيها. فابن بطوطة وغيره ممن كتبوا عن الرحلات هم في الجملة يرمون لفكرة واحدة هى التقاء حب الرحلة مع إبداع في الأسلوب وتوفر فرصة نقل تلك الفكرة.

الحميدة الكثير، وفي هذا يقول الكاتب فؤاد قنديل مؤلف كتاب (أدب الرحلة) واصفاً ابن بطوطة بأنه (أشهر الرحالة العرب على الإطلاق لم يبلغ غيره مابلغه من ذيوع الصيت في الشرق والغرب بفضل شخصيته القوية التي تفيض حيوية بفضل ثقافته وعلمه وذاكرته النابضة وإقباله على الحياة، فضلاً عن قوة الجسم والجَلَد وحُبِّ المعرفة والولع بالسفر . .)[(١)]. قام ابن بطوطة بثلاث رحلات في حياته استغرقت تسعة وعشرين عاماً: الأولى من العام ١٣٢٥م وحتى ١٣٤٩ م جاب فيها بلاد مراكش (ويقصد المغرب) والجزائر وتونس وطرابلس الغرب ومصر وتعذر حينها سفره إلى الحِجاز بسبب قيام حروب حينها بين المماليك وبعض المتمردين، ولكنه تابع رحلته إلى فلسطين ولبنان وسورية ثم الحجاز واليمن وعمان، ثم رحل إلى العراق وبلاد العجم أي «فارس والهند وآسيا الوسطى سمرْقند وبخارى»، وكانت رحلته الثانية من العام ١٣٥٠م وحتى ١٣٥١م فلم يمكث في فاس كثيراً ورحل في تلك الرحلة إلى الأندلس، أمّا رحلته الأخيرة من العام ١٣٥٢م وحتى ١٣٥٤ م فقد اتّجه جنوباً لبلدان إفريقية ومنها السودان.

لقد ترك ابن بطوطة تراثاً قيماً في العهود اللاحقة وصفها الأديب جورج غريب[(٢)] في كتابه «أدب الرحلة» بأن (رحلة ابن بطوطة تظل مصدراً كبيراً من مصادر علمي التاريخ والجغرافيا في القرون الوسطى، ولاسيما من الناحيتين السياسية والاجتماعية). ورغم أنّ ابن بطوطة كان عالماً وقاضياً إلّا أن رحلته لم يكتبها بنفسه وإنما كان يُلقّن كُتَّاباً محترفين في ديوان سلطان فاس بالمغرب لذا جاءت أكثر تشويقاً واحترافاً . .)!

أما رحلات العلّامة ابن خلدون [(٣)] الذي طاف بلداناً في الشرق والغرب وكتب عنها بأسلوبه العذب والذي عرف بأنه «أبو علم الاجتماع» ولم يتم تسليط الضوء عليه كرحّالة أيضاً

(١) فؤاد قنديل «أدب الرحلة» ص ٤٤٨.

(٢) جورج غريب في كتابه «أدب الرحلة تأريخه وأعلامه» ص٥٦.

(٣) ولد العلامة ابن خلدون في تونس وهو من المهاجرين المورسكيين وكانت أسرته تقطن في الأندلس وبعد سقوط إشبيلية انتقلت إلى شمال إفريقيا وتعود جذور أسرته إلى أصول يمنية حضرمية.
ويرى ابن خلدون: (أن الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة هي لمزيد وكمال التعليم) وفي فصل آخر في مقدمته (يرى أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم ويتحلون من المذاهب والآراء والفضائل تارة علماً وتعليماً وإلقاء وتارة محاكاة وتلقيناً بالمباشرة... إلخ).

وترك أثراً طيباً، تنقّل في بلدان المغرب العربي والأندلس ورحل إلى مصر وأخذ العلوم من بعض شيوخ الأزهر ورحل إلى القدس.

وفي القرن التاسع الهجري عُرفت رحلة (سليمان بن أحمد المهري) و (ابن ماجد)

فرحلة المهري كانت لغربي المحيط الهندي أي شرق إفريقيا وكذا لجنوب شرق آسيا فكانت له صلات بحرية مع السواحل الهندية ومدينة مالقا في الملايو (ماليزيا) ولاهتماماته الجغرافية فقد ألَّف كتاباً نادِراً أسماه (معجم الأعلام الجغرافية) وكُتباً أخرى حول المِلاحة البحريةِ والفلك. بينما كان علاقة ابن ماجد مع عالم البحار طويلة إمتدت لخمسين عاماً وله مؤلف باسم (أصول علوم البحر والقواعد) وعندما بلغ السبعين عاماً ونيفاً تعرف في مدينة (مالندي) بشرق إفريقيا بالرحالة والبِحار البرتغالي فاسكودي جاما والذي كان قد يئس من الوصول إلى الهند عن طريق البحار، كما أنه أرشده للإبحار عن طريق رأس الرجاء الصالح..

أما في القرن العاشر الهجري (الفزان الفاسي الغرناطي) وفي القرن الذي تلاه فكانت رحلة التونسي (العياشي المالكي) وذلك في القرن الحادي عشر الهجري [(١)].

ولتجارة العرب الأوائل فيما وراء البحار منذ القرن الثامن الميلادي دور في انتشار هذا النوع من الأدب وقصص السندباد البحري التي انطلقت إبان ازدهار البصرة قبل دمار المدينة في ثورة الزنج بعد أواسط القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي، فكان بعض الرحالة يجمعون بين التجارة وطلب العلم ومنهم (المقدسي) الذي عقد العزم على السفر بتجارة إلى ساحل إفريقيا الشرقي وأثناء رحلة ابن فضلان واجه في إقليم الفولغا خياطاً من بغداد وهذا دليل على رحلة أصحاب الصنائع إلى مدن العالم من أجل العمل والرزق ومنهم الفنانون والمَهَرة.

وكذلك بالنسبة لليمنيين الحضارمة والذين نشروا الإسلام في جنوب شرق آسيا ومنها جزيرة جاوه وبلاد الملايو [(٢)].

(١) ورحلة لتونسي آخر هو ابن عمر.

(٢) التي تعرف اليوم بأربع بلدان هى أندنوسيا وماليزيا وسنغفورة وجزيرة بروناي وتشير إحصاءات لتلك البلدان بأن نحو أربعة ملايين من أصول عربية يمنية أغلبهم في إندنوسيا ولكنهم انصهروا في تلك المجتمعات ولم يبق محافظاً على لغته العربية أو مرتبطاً بوطنه الأم إلا نحو عشر ذلك العدد..

في العصور اللاحقة تطور هذا النوع من الأدب ولا يسع المقام هنا لسرد التفاصيل ولكنه إجمالاً وفي العصر الحديث قد دخل طوراً جديداً فغدا أدب الرحلات شكلاً فنيًا داخلاً في الأدب، ولم يعُدْ دراسة تاريخية وجغرافية حيّة كما كان من قبل، ومن نماذجه في القرن التاسع عشر على سبيل المثال لا الحصر (رفاعة الطهطاوي) الأزهري الذي رافق أول بعثة أرسلها محمد علي باشا للدراسة في فرنسا ليكون واعظاً وإماماً لتلك البعثة فكتب كتابه الشهير الذائع الصيت وطُبع أكثر من مرّة والمسمى (تخليص الإبريز في تلخيص باريز) الذي يمثل رؤية شرقية عربية وإسلامية ورغم الانبهار الواضح في مضمون الكتاب إلا أنه ينتقد في نفس الوقت بعض طباع وسلوك أهل باريس في ذلك الزّمن، كما سافر القارئ العربي عبر الورق إضافة إلى ذلك عبر كتب قيمة أُخرى كرحلات الأمير شكيب أرسلان ومؤلفه الشهير (الحِلَل السُندُسِيَّة فِي أَخْبَار البِلاد الأندلُسِيَّة) وجرجي زيدان صاحب (الهلال) [(١)]، وانْتَعشت الكِتابات في هذا المجال في عصر النهضة بالنِسبة للثقافة العربية في القرن التاسع عشر ومطلع القرن الماضي عندما ظهرت أعلامٌ في هذا الأدب وتمحورت كتاباتهم حول البحث عن سبب تخلف بلدان المشرق بغية اللحاق بمنجزات الحضارة الإنسانية.

ومن ضمن تلك الرحلات ماكتبه الأديب أمين الريحاني[(٢)] وأشهر كتبه (ملوك العرب) حيث وصف زياراته لبعض البلدان لعربية منها مصر والعراق والشام واليمن. ومن ثم ظهر عدد من الرحالة أو من كتبوا في أدب الرحلات [(٣)].

فتاريخ أدب الرحلات في القديم والتأريخ المعاصر ـ سواء في أدبيات الشرق والغرب ـ غني بتراثه، بعضه حقيقي وبعضه من وحي الخيال (كألف ليلة وليلة) (ورحلات السندباد)

(١) تعتبر مجلة الهلال التي أسسها جورجي زيدان وهو لبناني هاجر إلى مصر من أعرق المجلات العربية والتي لا زالت إلى يومنا هذا وقد بدأ أول عدد في العام ١٨٩٢م.

(٢) أديب لبناني هاجر في صباه الى نيويورك وألف كتباً بالعربية والإنجليزية.

(٣) على سبيل المثال توفيق الحكيم وعلي الطنطاوي وناجي جواد ومحمد ناصر العبودي وأنيس منصور وغيرهم كثيرون.

(وبساط الريح) وفي الغرب في (الإلياذة والأدويسية) لهوميروس (ورحلات الجحيم والفردوس) (والكوميديا الإلهية) لدانتي. . . إلخ، وهذه العينة من أدب الرحلات لها وقعها الخاص عند الكثير من القرَّاء بينما الغالبية تُفَضِّل أدب الرحلات المستند لحقائق تاريخية واقعية وغيرها.

وفي القرنين التاسع عشر والعشرين ورغم التطور الثقافي وانتشار المطابع في أغلب البلدان العربية عموماً إلا أن هذا اللون من الأدب ـ برأي النقاد ـ قد تراجع بريقه ليس بسبب قلة الرحلات وكِتابتِها بلْ بِسبب تقارب العالم وتطوره في التواصل عن طريق التوسّع في النشر والمطبوعات وكذا توفر أجهزة إعلامية كالمذياع والتلفاز والسينما وغير ذلك، وبالتطور الحضاري هذا وتجانس الشعوب والأمم فَقَد هذا الأدب بريقه وأبعد عنصر المفاجأة والانبهار للكتاب والقارئ على حد سواء! بحيث أصبح السفر جزءاً من الحياة العادية والسياحة بمفهومها الحالي بعكس ما كانت عليه الأوضاع في الماضي، فالرحَّالة الأوائل كانوا أدباء ومؤرخين وجغرافيين ومكتشفين، لذلك جاءت كتاباتهم سجلاً وافياً ودقيقاً وعميقاً عن انطباعاتهم عن حياة الشعوب التي زاروها، ومظاهر سلوكهم وعاداتهم وتقاليدهم ونظمهم الاجتماعية والسياسية إلخ. . بينما في وقتنا الحاضر لاتفرز رحلات الملايين من المسافرين يومياً إلا ماندر من تسجيل انطباعاتهم وفق معايير أدبية وعمق تاريخي واجتماعي وغيره.

الانطباع السائد لدى المؤرخين والدارسين بأن الرحَّالة الأوائل كانت رحلات بعضهم بإيعاز وتشجيع ودعم رسمي من ملوكهم، باعتبار أن الرحلة البعيدة كانت تتطلب نفقاتٍ لا يستطيعها المسافر العادي مهما بلغ حبه للترحال والاطلاع على أحوال الناس والحيوان والنبات والطبيعة، لكن اليعقوبي والمسعودي يحدثاننا عن رحلاتٍ لهما أفادا منها في كتابة كتبهما من دون أن تكون لهما علاقة أو اهتمام بالتواصل مع الدوائر الرسمية.

وهو الأمر نفسه في التاريخ الأوروبي وفي نظرة لسيرة الرحَّالة الغربيين الأوائل نلاحظ أنهم كانوا يقومون برحلاتهم رغبة في الحصول على عطايا الملوك التي يمكن أن تعود عليهم من وراء كشف جغرافي جديد، كما كان يتمنى (كريستوفر كولومبوس) الإيطالي عندما كان يسعى للوصول إلى الهند طمعاً في كنوزها، فوصِل إلى جزر الكاريبي في القرن الخامس عشر، وظن خطأً أنها الهند.

وفي قراءة في الفكر الغربي فإن رحلة فاسكو دي جاما، والذي قام برحلة طويلة عبر رأس الرجاء الصالح ولم يكن له ذلك لولا مساعدة البحّار العربي ابن ماجد[(١)]، وللغرب تراث حافل في القرون اللاحقة حيث استفادوا دون شك من تراث الإسبان والبرتغال فقد ترك العرب لهما إرثاً مهماً في كثير من علوم عصرهم بما فيها الاكتشافات والرحلات، وتواصلت العلوم بكافة تخصصاتها بدوران عجلة الحضَارةِ وكان ذلك تمهيداً لعصرِ النهضةِ في أوروبا الذي انطلق من إيطاليا وبرز منها الرحَّالة ماركوبولو[(٢)].

ومن هنا فإن تراث العرب في الأندلس كان أساس انطلاقة روّاد علوم البحار في الغرب حيث تم اكتشاف الضفة الثانية للأطلسي (أمريكا) من قبل الرحَّالة[(٣)] البحَّار (كرستوفر كولومبوس) مكتشف القارة الأمريكية مع أنه كان يعتقد بأنه سيبحر لجزُر الهند الشرقية من غرب القارة، وقد تزامن ذلك النهوض الغربي مع بداية أفول الحضارة العربية في الأندلس والتي ظلت تحتضر أثناء دول الطوائف لعدة قرون انتهى بسقوط غرناطة المدوّي.

اهتم المستشرقون في الغرب بترجمة وطباعة (رحلة ابن جبير) لأنها شكلت مرجعاً موثوقاً لا غنى عنه للمؤرخين الجغرافيين ولكل من يريد الاطلاع على أحوال الحياة الاجتماعية في القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي، ويعتبر كتاب رحلة ابن جبير «تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار» من أهم كتب الرحلات الإسلامية، ويلي في الأهمية كتاب رحلة ابن بطوطة الذي كُتبَ بعده واستند اليه في بعض المعلومات في الجغرافيا البشرية، ويعتبر بعض الدارسين أن لا مثيل في أدب الرحلات الإسلامية لأسلوب ابن جبير في رحلته، إذ أنه اعتمد أسلوباً مرِناً أثبت فيه تمكنه من آليات الرصد والتوصيف.

(١) لم يختلف المؤرخون في أنساب بعض العلماء مثلما اختلفوا عن نسب وموطن ابن ماجد، فبعضهم يرون أنه قد ولد بأنه ينسب إلى مدينة جلفار التابعة لمملكة هرمز في ذلك الزمان وهي الآن إمارة رأس الخيمة الحالية وبعضهم يرجع أصله إلى قبيلة تميم في نجد، إن ابن ماجد نفسه لم يقل بأنه تميمي! كما قيل بأنه من ظفار في عمان ويقولون بأنه من أصل يمني. ولقب بأسد البحر ويعد كتابه الشهير «الفوائد في أصول علم البحر والقواعد» مرجعاً للبحارة والباحثين لقرون.

(٢) وهو إيطالي من مواليد البندقية.

(٣) ومن المفارقات أن رحلته تزامنت بسقوط غرناطة في العام ١٤٩٢م.

ويعتقد عدد من النقاد بأن دراسة نماذج الرحالة الأوربيين في العصور الوسطى رغم أهميتها وقيمتها العلمية ومساهمتها في توثيق هذا التراث إلا أنه لاينبغي أن تجعلنا نَنْبهرُ بحجم إنجازاتهم والتي سبقهم في هذا الرحَّالة المسلمون كما تم توضيحه ولأن تعاقب الحضارات تُلَقِّنُ بعضها الأُخرى فقد استفاد رحالة الغرب من تجارب من سبقوهم من العرب والمسلمين الذين جابوا قارات العالم القديم، بل إن هناك من قرّر اكتشاف القارة الأمريكية قبل كرستوفر كولومبوس سواءَ من أهل الأندلس أوالعثمانيين في أوج قوة دولتهم(١)!

وكانت كتب المستشرقين الغربيين عن رحلاتهم للشرق تنمُّ في الغالب عن تنميط وانحياز في إطار رؤية غربية في حين كتابات الرحَّالة العرب كرفاعة الطهطاوي وجرجي زيدان وغيرهما ركزت على محاسن الحضارة الغربية والإعجاب بها(٢).

وكان لأهل المغرب والأندلس باعٌ طويل في أدب الرحلات فأغلب الرحّالةِ في تلك العصور هم من شمال إفريقيا وتحديداً من تونس والجزائر والمغرب وهذا انعِكاس للحالة الثقافية والنهضة التي سادت بلاد الأندلس خلال ثمانية قرون، وكانوا يتصدرون ناصية أدب الرحلات حتى القرن التاسع الهجري.

(١) وفي هذا السياق هناك دلائل وبحوث تشير بأن كرستوفر كولومبوس قد سبقه بحارة من الأندلس والمغرب والدولة العثمانية حيث أكد الأكاديمي التونسي د. محمد الجويلي أن البحارة العمانيين هم الذين اكتشفوا أمريكا وليس كريستوفر كولومبوس. في أكثر من دراسة! كما أن كولومبوس نفسه قد استعان ببحارة مغاربة في رحلته..

(٢) وهكذا فإذا كانت رؤية الغرب في أدب الرحلات قد تمحورت في تنمط الشرق والشرقيين عبر رسم صور دنيا لهم بواسطة مخيلة جائعة إلى السحري والعجائبي فإن أدب الرحلة العربي نحو الغرب والعالم يتضح من خلال ماتقوم به مؤسسة ارتياد الآفاق مشكورة للشاعر الإماراتي محمد السويدي والمدير التنفيذي نوري الجراح تلك المؤسسة التي أعادت طبع أكثر من مئة كتاب في هذا المجال تعتبر ثروة فكرية يفتخر بها العرب والتي ركزت أساساً على تتبع ملامح النهضة العلمية والصناعية وتطور العمران ورصد التطور في نمط العيش عند الغرب والبناء الاجتماعي والحقوق.. لذا انصرفت أغلب كتابات الرحالة العرب في تلك الفترة بتكحيل أعينهم بصور النهضة الأوروبية في تلك المجتمعات مندفعين بشغف في البحث عن الجديد والمفيد. والتي بدأت في العام٢٠٠٠ .

وأنْتَجت الأنْدلس أعلاماً في كافة العلوم الإنسانية ومنها أدب الرحلات لعلماء أندلسيين[١].

ومن المسلَّم به أن أدب الرحلة العربية عامة والأندلسية[٢] (المغاربية) خاصة كان له أثر كبير في كتب الأسفار في الشرق والغرب ولاسيما الإسبان والبرتغال، الذين استمروا في النمو في مجال علم البحار والترحال وتدوينها ابتداء من القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلادي بحكم احتكاك المَمالِك المسيحية في وسط الجزيرة الايبيرية [٣].

وعندما نسرد أعلام رحّالة مسلمين بالطبع نقصد العرب وغيرهم مشارقة أو مغاربة أو من أهل الأندلس وفي بلاد فارس لعلّ أبرز أعلام من عرفوا بالرحلات هو (ناصر خسرو) كما أن ابن فضلان مسلم من مواليد تركيا، كما يعد الرحالة التركي (اوليا جلبي درويش) قد جال في بلداناً عديدة أكثر من ابن بطوطة نفسه أي نحو ٤٤ عاماً، ولعل قلة شهرته لدى العرب لأن كتاباته كانت باللغة التركية، ويعتبر رمز أدب الرحلات في تركيا.

دور اليمنيين في أدب الرحلات:

رغم موقع اليمن الجغرافي المنعزل بين صحاري وبِحَار فإن ذلك لم يمنع دوره ومساهمته في الشأن الثقافي والفكري عبر العصور ومن ذلك أدب الرحلات فبقدر مكانة اليمن في أفئدة الغربيين والعرب[٤] لاكتشافهم هذا البلد بِقدر ما خرج منه رحّالة يمنيون جابوا الآفاق وساهموا بتدوين رحلاتهم، ولعل الكثير ممن لايشدّهم أدب الرحلة من اليمنيين وغيرهم يجهلون

---

(١) من أشهر أعلام أدب الرحلات في الأندلس ابن جبير وأبو حامد الغرناطي وكتابه المعروف «تحفة الألباب» وأسفار ابن الخطيب لسان الدين وغيرهم كثيرون.

(٢) ويُعَدُّ أبو زكريا، يحيى بن الحكم البكري الجياني الملقب بـ «الغزال» أحد رجالات الأندلس المشهورين في الأدب على امتداد الوجود الإسلامي بها. حيث قام بزيارات لعدة بلدان منها عمق أوربا وفي شمالها.

(٣) قبل سقوط غرناطة المدوي والتي سنأتي على ذكر تفاصيله ضمن مفردات هذا الكتاب.

(٤) لعل أبرز رحلات الغربيين هى رحلة العلامة نيبور مع أربعة من العلماء الى بلاد اليمن بين عامي ١٧٦١ والعام ١٧٦٧ وقد انبهر أولئك الأوروبيون القادمون من شمال الكرة الأرضية لصنعاء في القرون الوسطى. وكذا كتاب «اليمن من الباب الخلفي» لهانزهو لفريتز وترجمه صبري حمادي وكتاب «كنت طبيبة في اليمن» مطلع القرن المنصرم وترجمه الأستاذ السفير محسن العيني رئيس الوزراء الأسبق منذ أكثر من نصف قرن!

إسهامات أعلام يمنيين مغمورين في إثراء المكتبة العربية من هذا النوع من الأدب مثل الرحالة سليمان المهري صاحب كتاب (العمدة المهرية في ضبط العلوم البحرية)[١].

وفي هذا السياق يطالعنا كتاب الأستاذ عبدالله الحِبْشِي في كتابه (الرحالة اليمنيون شرقاً وغرباً) بإلقاء الضوء على دور عدد من الرحالة اليمنيين في كثير من البلدان العربية والإفريقية والآسيوية. . منهم الرحالة الأديب عمارة اليمني الذي رحل إلى بلاد فارس وبغداد والكوفة وبلاد الشام وأقطار أخرى، وكذا رحلة الحيمي في بلاد الحبشة[٢].

ومن ذلك أيضاً رحلة (أبوطالب) إلى العراق ورحلة غمضان الكبسي[٣] إلى أسطنبول حيث يُظهر انبهاره وتعجبه مما شاهده في إسطنبول (حاضرة الدولة العثمانية) فعند وصوله إليها ذكر كأنه دخل عالماً خيالياً أسماه دار السّعادة!

ومن ضمن الرحالة اليمنيين الأديب العلامة الشيخ محمد الحبشي من أهل حضرموت والذين لهم باعٌ طويل في الثقافة وأدب الرحلات على وجه الخصوص في القارة الافريقية جنباً إلى جنب مع إخوانهم العمانيين ولكنهم فاقوهم بالترحال شرقاً إلى الهند وشرقها من الجزر الملاوية والتي تعرف الآن بأربع دول هي ماليزيا وإندونيسيا وسنغفورة وبروني، ولعل أبرز من كَتَب من حضارم إندونيسيا في الثقافة وأدب الرحلات العلامة الحامد[٤] وهو صاحب رحلة الحامد في إندنوسيا والتي أسماها (رحلة الحامد في بِلاد جاوة) والتي أثنى عليها وأعجب بها علي أحمد باكثير[٥] وتميزت رحلته بالجمع بين الأسلوب الوصفي الحديث وبين جمال التعبير

(١) سليمان المهري المولود في جزيرة سقطرة وسمي بالمهري لأنه من قبائل المهرة في أقصى الحدود الشرقية اليمنية المجاورة لعمان وقد عاش في زمن الرحالة العربي المشرقي ابن ماجد.

(٢) وكانت رحلة الحيمي لبلاد الحبشة في القرن الحادي عشر الهجري وتعتبر نموذجاً وبداية للرحلات الدبلوماسية لأهل اليمن والحيمي قال عنه الإمام الشوكاني في ترجمة له (بأنه أحد أعيان الدولة المؤدية آنذاك ومن أكابر العلماء وأفاضل الأدباء وقام بالأمور العظيمة المتعلقة بالدولة إلى جانب انشغاله بالعلم دراسة وتدريساً وكان يوجهه الإمام المتوكل على الله إسماعيل في المهمات إلى أقاليم اليمن وخارجها نظراً لفصاحته ورجاحة عقلة وقوة تدبيره).

(٣) وكلاهما من مواليد صنعاء القديمة.

(٤) ولد صالح بن علي الحامد في مدينة سيئون التأريخية بحضرموت باليمن سنة ١٣٢٠ هجرية.

(٥) هو أديب يمني شهير عاش في مصر وولد في إندنوسيا. وكان بينه وبين الشاعر والأديب والرحالة الحامد صداقة وزار الأخير مصر بدعوة من علي أحمد باكثير.

وإشراق البيان، ولا غرابة، فكاتبها أحد الأدباء الكبار الذين أبدعوا في الشعر عموماً والحديث منه على وجه الخصوص.

ورحلة العلامة الصوفي الكبير أحمد بن حسن العطّاس [١] لبلدان عربية وآسيوية وكذلك رحلة الصوفي الزاهد محمد بن هادي السقّاف الذي رحل إلى مصر والقدس وبلدان أخرى، ورحلة العلامة الأهدل من تهامة للهند ورحلات لقمان.

وكان العلامة محمد زبارة [٢] المولود في ١٣٠١ هـ والمتوفى في ١٣٨٠ هـ من أنشط اليمنيين في ذلك الوقت في مطلع القرن العشرين الذين عرفوا الرحلات وقد ذكر أخبار رحلاته في كتابه (مباحث دينية وأدبية) فقد رحل من صنعاء إلى مكة في عام ١٣٤٧هـ بقصد الصلح بين الإمام يحيى والملك عبدالعزيز بن سعود، وذكر رحلته في كتابه المذكور وفي آخر تلك السنة

(١) وهو أيضاً من حضرموت وولادته في منتصف القرن الثالث عشر الهجري.

(٢) وهو علامة معروف وشهير باليمن وسليل أسرة علم وابنه مفتي اليمن السابق كان العلامة محمد زَباره من الرواد الأوائل الذين خاضوا في القضايا الاجتماعية في عهد الإمام يحيى، وأظهروا الظلم البشع على اليمنيين على تباين فئاتهم الاجتماعية ولقد كانت قوة الهجوم أو التصادم مع الإمام يحيى من قبل العلامة محمد بن محمد بن يحيى زَباره بمثابة وقوع الصاعقة على رأس الإمام. فقد عقد محمد زَبارة مؤتمراً صحفياً في البلدان التي زارها كالهند، العراق، والهند. وانتقد فيه الإمام يحيى انتقاداً لاذعاً في أسلوب حكمه وكشف مساوئ نظامه.وهذا ما أكده المؤرخ الكبير إسماعيل الأكوع أو الباحث حسين زَباره حول الأسباب التي أدت بالعلامة والمؤرخ محمد بن محمد زَباره انتقاد أسلوب الإمام يحيى في حكم اليمن بقوة، فيقول: «... إن مؤرخنا بطموحه وذكائه وتكرار سفرياته وملاحظاته وجد تأخر اليمن علمياً وإدارياً واقتصادياً ومعيشياً وتنظيماً لحياة المواطنين مقارنة ببعض الدول العربية والإسلامية في المنطقة، ومن المؤلفات اليمنية التي طبعها العلامة والمؤرخ محمد بن محمد زَباره في مصر هي «فتح القدير الجامع بين الدراية والرواية في علم التفسير» للإمام الشوكاني خمسة أجزاء، و«الروض النضير» في أربع مجلدات و«تحفة الذاكرين» و«مجموع الرسائل اليمنية» و«البرهان القاطع» ومؤلفه «نيل الوطر في تراجم نبلاء القرن الرابع عشر» و«نيل الأوطار» و«البدر الطالع» لشيخ الإسلام الشوكاني.

وقد سنحت له الظروف أن يقوم برحلات عديدة إلى الكثير من البلدان العربية والإسلامية، فكانت من نتائجها أن اطلع عن كثب على الهوة العميقة و الشاسعة التي كانت تعيشها تلك البلدان ويعيشها اليمن من ناحية واطلع كذلك عن قرب على الأوضاع السياسية التي عاشتها تلك البلدان العربية والإسلامية تحت قيود الاستعمار الأجنبي (إنجلترا، وفرنسا).

رحل إلى مصر لطبع الكتب اليمنية والأخذ عن شيوخها حيث مكث فيها سنتين وفي العام ١٣٥٠ هـ عزم إلى القدس لحضور المؤتمر الإسلامي وعاد إلى صنعاء ومعه العلامة (شوكت علي) المصلح والعالم الهندي الشهير، كما رحل زيارة إلى الهند والعراق وإيران والشام ومصر والحجاز ويقول العلامة زبارة إنه في أول سنة ١٣٥٥ هـ عزمت من صنعاء إلى عدن فإلي بومباي في الهند واستقبلني فيها الزعيم شوكت علي ثم سرت إلى البصرة وبغداد ونزلت في دار العلوم ثم استدعتني الحكومة الإيرانية بواسطة وزيرها في بغداد فسِرت إلى طهران وغيرها من أمهات المدن الإيرانية ومنها إلى خراسان وأصفهان وغيرها وزُرت مليكها رُضاء شاه بهلوي واتصلت بأكابر العلماء في العلوم الإسلامية، كما كان تقديمي للكتب القيمة اليمنية لمكتبة بغداد العامة وغيرها ورجعت إلى ملك إيران ومن صنعاء نظمت قصيدة أولها[(١)]:

لتزهُ بأنوار طهران السعادة طهران   وتعتز فوق المشرقين خرسان

وكما كان لليمنيين دور تجاري وثقافي في جنوب شرق آسيا وشرق إفريقيا كان لهم أيضاً حضور ثقافي في تلك الأماكن، وقبل ذلك كان لهم حضور في شمال إفريقيا[(٢)] ولهم دور مشهود في فتوحات العرب في الأندلس، فبعد انتصارات العرب المسلمين اتجهت الجيوش من عرب المشرق والمغرب العربي والذين كانت غالبيتهم من القبائل المغربية والبربر وفيهم أعداد لابأس بها من عرب المشرق والكثير من القادة وهم في أوج انتصاراتهم في القرن الأول الهجري، كان جلّ جيوش عرب المشرق من اليمن حسب ماتذكره المصادر التاريخية وكانوا جنوداً وقادة من القبائل العربية اليمنية [(٣)] والمعروف تاريخياً حينما دخلت جيوش طارق بن زياد في العام ٩٢ هجرية بأمر موسى بن نصير كان قد سبقها بعام واحد الحملة العسكرية

(١) في أواخر بداية عهد حكم الأسرة البهلوية التي جاءت على أنقاض الدولة القاجارية وقبلها الصفويون.

(٢) واحتكاك الحضارات القديمة في جنوب الجزيرة (اليمن) بحضارات بعيدة عنها ضارب في عمق التاريخ فقد أطلق الإغريق القدامى على اليمن بالعربية السعيدة وكانوا يتاجرون معها البخور واللبان وبعض البهارات. وكذلك مصر وشمال الجزيرة العربية ومع السواحل الإفريقية وبلاد فارس والهند.

(٣) عبد الرب الصنوي «اليمنيون في الأندلس» إصدار وزارة الثقافة اليمنية عام ٢٠٠٤ الطبعة الأولى ص٢٥.

الاستطلاعية تمهيداً للفتح التي كان على رأسها قائد يماني متميز ينتمي إلى قبيلة المعافر[١] وهو طريف بن مالك اليعفري ، وكان منهم جنود وقادة من قبائل كهلان وأزد ويحصب وخولان اليمنية أبوالسمح الخولاني وغيرهم، . فعبر الشواطئ المغربية إلى مدينة طريف والتي تسمى الآن (طريفا) أو تريفا بالإسبانية (Tarifa) وسميت هذه البلدة إلى يومنا هذا باسمه وتقع في أقصى جنوب الأندلس وأقرب للسواحل المغربية منها عن جبل طارق؛ أي أقل من خمسة عشر كيلومتراً[٢]!

ومن هؤلاء القادة المشهود لهم عبد الملك بن أبي عامر اليعفري ومغيث الغساني وعلقمة اللخمي[٣]. وكما شارك اليمانيون في أيام الفتح الأولى في صنع الاستقرار وإدارة ممالك الأندلس المتعاقبة وكان بينهم ولاة مناطق وحكّام وعلماء أمثال أبوبكر ابن العربي المعافري[٤] غيره.

وإجمالاً فقد تميَّزت كِتابات الرحّالة اليمنيين رغم قِلتها خِلال القرون الماضيةِ تنوعاً في هذا الجِنس من الأدب والذي تميّز برصد مُختلف الجوانِب الحياتيةِ والمعالم الحضارية التي قصدوها وعكستْ صورة واضحة عن أحوال تلك الشعوب وبعضها سرداً ذات طابع أدبي ويمثل ذلك رحلة جاوة للأديب صالح الحامد بينما مثلت طابع آخر مثل رحلات السفارات ويمثل ذلك الحيمي والعلامة زبارة وآخرون وتضمنت مدوناتهم مذكرات شبه يومية وسيرة ذاتية بلغة أدبية وكل نتاجهم الفكري أفضى إلى الكشف عن الانتماء إلى ثقافة الذات والفهم لثقافة الآخر .

(١) نفس المصدر السابق ص ٤٠.

(٢) بل هي أقرب نقطة من البر الإسباني للمغرب. ويمكن رؤيتها بالعين المجردة وقد شاهدتها بنفسي عند زيارتي للمغرب وكذا من الأرض الإسبانية حين زيارتي للجنوب إسبانيا الأندلس.

(٣) حسين مؤنس. «فجر الإسلام» ص ٦٨.

(٤) وأبو بكر ابن العربي المعافري الإشبيلي (نسبة لإشبيلية المولود فيها وهو وينحدر من أصول عربية يمنية فقبيلة المعافر لا زالت في اليمن إلى يومنا هذا وبرز في علوم شتى وقد رحل في طلب العلم فطاف جميع عواصم العالم المتحضر حينها مثل بغداد والقاهرة والإسكندرية ودمشق وخراسان والتقى كبار العلماء في تلك البلدان.. وأبرز مؤلفاته هي الناسخ والمنسوخ والمسالك على موطأ مالك والعواصم والقواصم وغيرها ويعتبر خاتمة علماء الأندلس.

وإذا كانت الرحلات تجارب ومغامرات ورؤىً للآخر، فهي أيضاً وصف توثيقي وإثنولوجي[(١)] وسعة أُفق. وإيمان بوحدة بني البشر، وقد اهْتمّ بنصوص الرحلات في التراث العربي أخيراً نُقاد الأدب، والمهتمون بالعلاقات بين الثقافات والحضارات والمتتبعون للعجيب والغريب وإبداعياتها.

لأدب الرّحلات سِحره الخاص وذلك لقِدمه من ناحية ولأنه ليس أدباً تسجيلياً، من ناحية أخرى فتلك الفنون رغم إبهارها فإنها تحجِّم من خيال مَنْ يتعامل معها بينما الحرف والكلمة يطلقان العنان لخيال القارئ ويحلقان به في آفاق أوسع![(٢)] لقد انتشر أدب الرحلات لأنه يتجلى في تفاعله مع الناس والبشر القاطنين في البلد المزار[(٣)].

وعبر التاريخ القديم والمعاصر حضّ الأدباء والشعراء على تمجيد هذا النوع من الكتابة وعلى السفر والترحال لأن فيه فوائد جمَّة حيث قال الإمام الشافعي:

تغرّب عن الأوطان في طلب العلا ... وسافر ففي الأسفار خمسُ فوائد

تفرّج هم واكتساب معيشة ... وعلم وآداب وصحبة ماجد

ويقول شاعر آخر في هذا السياق:

في الذكريات وفي الترحال أشجان ... فيها من العلم والعرفان الوانُ

أطوف حول زوايا الأرض أدرس أحـ ... ـوال الشعوب وما صاروا وما كانوا

ولأدب الرحلات جاذبيته لأنه ينبض بالحياة والحركة والثقافة والتنوع والسفر وما يكتنف ذلك من مفاجآت ومغامرات أحياناً..! فمن خلال سطوره يعانق الكاتب روح المكان والزمان ويتجلى تفاعله مع الناس الذين يلاقيهم وهم يمارسون حياتهم بصورة عفوية تلقائية بعيداً عن التكلف أو التصنع، ويتجلى ذلك في محاولته قراءة الوجوه والملامح والبحث فيما وراء

(١) تعرف الموسوعة العربية الشاملة علم الإثنولوجيا بأنه علم دراسة الإنسان ككائن ثقافي وبأنه الدراسة المقارنة للثقافة..

(٢) أحمد شبلول كتاب «أدب الرحلات من اسطنبول إلى قرطبة» أحمد فضل شبلول الطبعة الأولى ٢٠٠٦ دار الصفاء ـ الإسكندرية.

(٣) وقد ذهب الرحالة المسلمون إلى أماكن كثيرة لأسباب شتى، وبعضهم كان يدوِّن رحلته، ويسجلها قصة باقية عبر العصور. فمن أسباب تدوين الرحلات أن يطلب الحاكم من الرحالة تدوين الرحلة.

الأسباب، وقد ينجح في ذلك وربما العكس ولكنه في الجملة سعيدٌ بما ينقله شفاهاً أو كتابة حيث يمتزج الأسلوب بالعاطفة والانفعال والخيال. .

تنوّع أسلوب هذا النوع من الأدب وتَحَوّل من السّرد القصصي المجرد لوصف حياة الشعوب المختلفة وغيره، معتمداً على السرد وامتلاك ملكات الحسّ القصصي والرواية في سرد الأحداث المشوق بما يقدّمه الأديب من متعة ذهنية كبيرة والقدرة على جذب انتباه القارئ، وكان قبل القرن العشرين يستدعيه عنصر الدهشة الذي ينتج عن قلة وسائل الاتصال في العالم القديم وتباعد أصقاع العالم القديم آنذاك لذا كان عنصر المفاجأة كبيراً وكان للأشياء سحرها الخاص وللاختلاف نكهة مثيرة لذلك لم يكن ثمة وسيلة لنقل مايحدث في أي مكان في العالم القديم سوى مايكتبه الرحالة، وبالطبع ليس كل الرحالة كتّاباً فالرحالة العاديون ينقلون مايرونه من عمران وعادات وطباع وأنماط سلوك ونحو ذلك شفاهاً؛ لذا تصبح أغلب رواياتهم بعد أن يتداولها الناس مبالغاً فيها بل أشبه بالأساطير في حين غدا عالم اليوم قرية صغيرة بفضل تكنولوجيا المعلومات والاتصالات[(١)].

الانبهار هو جوهر لذة الترحال كما يرى الدكتور المقالح حيث يقول: «ليس السَّفر حسناً في حد ذاتِه ولا هوَ شيئ في ذاتِه، وإنما يأتي حسنة من الانبهَار بالأشياء التي تراها العين لأول مرة فإذا ما تكرر النظرُ إلى الشيء الواحد أكثر مِنْ مرة صار مألوفاً ومملاً. . . !»[(٢)].

والرحلة هي إبحار في أعماق الحضارات، وكتابٌ مفتوح يروي تاريخ أمم سادت ثم بادت، ليكتشف دلالاتها فيرى الناظر كيف كانت وما آلت إليه، ولاتزال الرحلة في وقتنا الحاضر رغم فقدانها عنصر المفاجأة والانبهار وفقدان بريقها بحكم تقارب العالم والثقافات إلا أنها لازالت مصدراً للعلوم والثقافة والمتعة، فالإنسان بطبيعته تشده المغامرة واكتشاف الغرائب والمجهول وليس مَنْ رأى كَمَن سَمِع. !

ونَخْلُصُ مِن ذَلِك، وفي رُؤية نَظرية لأدب الرِّحْلة فإضَافة لِما سَبق مِن اعتبِارات جُغرافية وتاريخِية، وصَف وتحليل لأحوال الشعوب وتقاليدها ونحو ذلك فإن كل ذلك يُصنَّف في

---

(١) من كتاب الدكتور أحمد الدوسري «الأبيض والأخضر» رحلة في أسرار الزمان والمكان في المغرب، دار الدوري المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت الطبعة ٢٠٠٦ الأولى ص ١١.

(٢) مجلة دبي الثقافية العدد تسعون السنة التاسعة والصادرة بإمارة دبي الإمارات العربية في شهر نوفمبر ٢٠١٢.

المضمون والجوهر فحسْب، ويبقى الشكل الأدبي هو الأساس كي يصنف في جنس أدب الرّحلَات، وعليْه فالرِحلة في هذا السياق، تمْتَلِكُ أدبيَّتها عبر تَفاعُلاتها مع هذا الرَّصيد الْمُتلاَقِح في مُسْتَوياتِهِ المُختلِفَة، ولاسيما منذ القرن التاسع عشر الذي تطور شكل أدب الرحلات أكثر تألقاً عن ذي قبل ومِن هذا المنظور يجْعلُ من الَّرحْلة نصّاً لا يمتلك أدبيته إلا إذا حملَ خصائِص الأسلوب الجميل أي الخصائِص البلاغية المميزة ، وبهذا تُصْبحُ الرحلةُ أدباً يصْدُقُ عليه مايصدقُ على المدَوَّنَة الأدبية في جَانِبها الأسْلُوبي بصِفةٍ خاصة من رشاقة التعبير وجَمَال الأَداء وحُسْنِ اسْتخْدام المُحسِّنات البديعية والمعنوية ونحوذلك.

وإذا لم تضمَّ الِّرحْلةُ الْخصَائِص السَّابِقة أعلاه، فإنها لا تَنْدرجُ تحْت «أدب الرحلة»[1] ولا يَجِب إضَافَتُها إلى الأدب، بل إنها مجرَّدُ رِحْلةٍ تُحَقِّقُ غَايَات عديدة، ماعَدا الغَاية الأدبية. ! إنها تجربة ذاتية تتداخل فيها القصة السردية والسيرة الذاتية فضلاً عن كل الاعتبارات المذكورة وإلا قد يندرج تحت إطار أدب المسالك والممالك.

ووفق هذا المفهوم أرى بأن تراث أدب الرحلات بِقدر اكتشافه للماضي بتداخل التاريخ والجغرافيا (باعتبارهما توأمين لاغنى لأحدهما عن الآخر) فالجغرافيا حَجرُ الزاوية في الرحلة خاصة أن هذه الأخيرة تنتمي إلى الأدب الجغرافي الذي تداخل فيه «المسالك بالممالك» و«معاجم البلدان بخرائط الْمَدَرِ[2] والْحَضرِ»، ودراسة الحضارات بآثارها وشِقَّيها المادي والمعنوي يساهم في تشكيل الحاضر ويرشد لرؤية مستقبلية في الوقت ذاته، ويؤدي بلا شك دوراً كبيراً في التقارب بين الشعوب والتعرف على البشر في أنحاء العالم المختلفة، واكتشاف الجديد والاطلاع على المجهول، والوصول إلى البعيد، فطول مقام المرء في بلدته يضيق أفق ذهنه ويخمد قوى نفسه، وقد يحبط مطامحه. . ومن هنا يرى المفكر (دانيتو) بأن المرءَ لايستطيع الإلمام بمدينة ما طالما أنه يقطن فيها. . ! فللبعيد إغراء وللمجهول سحر. . !

(١) وهذه المقدمة حول تاريخ وطبيعة أدب الرحلات هي جزء من دراسة بدأت أعدادها وقد تنشر قريباً في دورية عربية متخصصة وقد تكون أيضاً ومستقبلاً نواة لبحث شامل في الجانب النظري ولاسيما حول دور اليمنيين في أدب الرحلات على مر العصور وسينشر بإذن الله على شكل كتاب.

(٢) الْمَدَر: تكاد تكون مرادفة للحضر فالعرب المتمدنون أي سكان المدن والتي تبنى بيوتها من الطين أي الْمَدَرِ، في حين سكان البادية الصحراء بيوتهم من الوَبرِ، لذا يقال سكان المدر والوبر.!

الطريق إلى بغداد

ظلّ هاجِسُ الترحال يراودني منذ سنوات الثانوية وقد غدت تلك الأحلام حقيقة عندما أتيحت لي فرصة الدراسة في الخارج ودخولي مجال السلك الدبلوماسي، ووقتها كنت آمل بالدراسة في أرض الكِنانة، وقد شاءت الأقدار أن أرحل إلى بلاد الرافدين ومع ذلك فقد كان سفري للعراق عن طريق القاهرة فشددتُ الرِّحال في منتصف يوليو من عام ١٩٧٨ على أمل أن أحظى بمنحة هناك فلم يتحقق ذلك ولكنها تحولت لسياحة وهي ثاني بلد بعد دولة الإمارات العربية التي زرتها قبل ذلك التأريخ بأكثر من عام(١)... وهكذا فقد قضيت نحو أسبوعين في كل من القاهرة والإسكندرية تمكنت خلالهما من زيارة أهم معالمها السياحية كالأهرامات ورحلة نهرية في النيل العظيم والمتحف المصري المشهور والأزهر وبرج القاهرة والأحياء القديمة والحديثة لمدينة القاهرة.. ولم أكن أعرف بأني ـ كما يقال ـ سوف أشرب من ماء النيل مرة بل مرات، كما تسنى لي القيام بجولة في الأماكن السياحية في الإسكندرية وكان لحسن الحظ وقتها وجود بعض من أقاربي وأهلي في مصر.. ومنها ركبت باخرة إلى اللاذقية فدمشق ثم العراق عن طريق الأردن وكانت تلك أول مره أركب السفينة وستظل ذكريات لاتُنسى، فكانت سفينة عملاقة فيها غُرف منفردة ومقهى ومطعم وملاعب رياضية ومسبح ونحو ذلك من المرافق السياحية، و في منتصف يوم صيفي جميل شقت بي الباخرة عباب البحر لأول مرة ورغم أني كنت في غرفة مستقلة فقد كنت طوال الرحلة أقضي الأوقات في الفناء الخارجي على المسبح الجميل وكانت السفينة تعجُّ بالمسافرين بينهم عرب ومنهم عمال مصريون ينوون السفر للعراق عندما كان يستقطب الملايين من العمالة المصرية في أوآخر السبعينيات وتعرفت على

(١) أتيحت لي آنذاك فرصة السفر للإمارات السبع في رحلة طلابية تتكون من أربعين طالباً بطائرة خاصة بدعوة من الشيخ زايد بن سلطان وكنا نحو أربعين طالباً وطالبة من كافة المدارس الثانوية باليمن حينها وقابلنا وقتها وزير التربية عبد الله عمران تريم وفي حفل عيد العلم والمعلم بحضور الشيخ زايد الذي أعلن بأن للدكتور مانع سعيد العتيبة أول إماراتي يحصل على شهادة في ذلك المجال، وتسنى لنا زيارة كل مدن الإمارات وحتى العين وخورفكان وغيرهما.. وأنا في سن الثامنة عشرة وكان ذلك بداية لعشق الرحلات.

شاب مصري روى لي نكتة بهذه المناسبة تعكس استياء العراقيين أيامها من كثرة المصريين وخلاصة الطرفة هو أن أحد سكان بغداد وجد قارورة مغلقة على ضفاف دجلة وما كاد يفتحها حتى خرج جني يقول له: (شبيك لبيك.. عبدك بين يديك) فقال الرجل البغدادي.. أريد أن تحقق لي أمنية واحدة وهي إخراج الثلاثة ملايين مصري من العراق، وهنا أجاب الجني بلهجة مصرية.... (حرام عليك يابيه... دُول ناس غَلابة...!).

ولأن السفن في رحلاتها الدولية تقضي اليوم بأكمله في عرض البحر[١] فقد كانت رحلة طويلة ولكنها ليست مُمِلَّة قضيتُها بين زرقة الماء والسمَاء.. أتأمل حركة البحر وأمواجه و ألاحظ الأحياء المائية تغوص وتظهر فجأة ويبدو أنها أسماك الدلفين، على ظهر السفينة يتاح للمسافرين اقتناص فسحة للتأمل والاسترخاء ومراقبة الإبحار بين شمس ساطعة وبحر لُجِّيٍّ تتلاطم أمواجه بدلال...

مِن وقت لآخر يحلق سرْب من الطيور فوق مُحيط السفينة بخِفَّة توحي بنشاط وسعَادة في صورة بانورامية توحي بأحاسيس لاتُنسى، ولاسيما وقت الأصيل والشمس تنسج ألوان الطيف وابتسامات المسافرين على محيا البعض والكثير منهم مستغرقٌ في التأمل باعتبار تلك اللحظات ـ رغم رومانسيتهاـ إنها مدعاة للتأمُل في ماتخبئه الأقدار لمن فوق السفينة بعضهم ساقتهم الأقدار لطلب الرزق والبعض للعلم والمعرفة وآخرون لمجرد التنزه والاستجمام!

(١) وقتها كنت أعتقد كغيري بل وكثير ممن لم تتح لهم فرص السفر بحراً وعندما كانت وسائل الاتصال التلفزيونية محصورة في أماكن محدودة بأن السفن مهما كان حجمها لم تكن بالضخامة التي عليه إلا منذ عقود ولكن بعد نشر قصة السفينة العملاقة تيتانيك بمأساتها والتي غرقت في قعر المحيط عام١٩١٢، وكانت مدينة مصغرة عائمة .. كان ذلك الإنجاز البشري قبل نحو مئة عام بسفينة تعبر ضفتي الأطلسي وبذاك المستوى من الرفاهية والرقي يدرك بأن عالم البحار خبرات ونتاج جهد إنساني منذ قرون.
لقد عرف الإنسان السفر عبر البحار منذ الأزل وعرف البشر بأن ثلثي الأرض هو من البحار، وكانت الأشرعة تدفعها الرياح فهي القوة الأساسية لسير السفن ولكن مع اكتشاف الطاقة البخارية في القرن السابع عشر ومن ثم الكهربائية في القرن التالي أي الثامن عشر فقد قفزت صناعة السفن وشهدت إقامة بواخر الركاب العملاقة منذ بداية القرن العشرين وفي النصف الثاني من القرن الماضي بعد الحرب العالمية الثانية تطورت صناعة الطيران النفاث ومنذ بضعة عقود مضت غدت الوسيلة الأولى للسفر حيث يتحرك الملايين على مدار الساعة في أجواء هذا الكون!

كان السفر بحراً في الزمن الغابر ضرباً من المغامرة فالسفن الشراعية تشُق طريقها بما تشتهيه الرياح وكان للإبحار مواسم يعرفها البحَّارة والقبطان بدِقة. . عندما كان البحر مليئاً بالغموض والمجهول وكان لا يركب البحر إلاّ التجّار والمغامرون أو من قسى عليه الزمن، أما اليوم فالسفر بحراً غدا متعة للمسافر طالت الرحلة أم قصرت فهو لن يبقى في كرسي دون حركة بل بإمكانه وبحسب الدرجة أن يختار الطعام والغرفة وتوفر مرافق صحية ومسبح ونحو ذلك فغدا السفر وفق هذا المفهوم متعة واستجماماً وهناك سفن أكثر رفاهية من هذه التي أقلَّتني لميناء اللاذقية ففي أمريكا رأيت سفناً كأنها مدينة عائمة فيها عدد من المصاعد الكهربائية والمطاعم والنادي الصحي، ومكونة من عدة طوابق وكأنها فندق خمسة نجوم!

بانت ملامح اللاذقية تظهر في الأفق وماهي إلا لحظات حتى أشرفنا على ميناء هذه المدينة الساحلية الرائعة. . استكملت إجراءات الخروج وأقلَّتني سيارة أجرة لفندق صغير ليس بعيداً عن مركز المدينة التي تجولت فيها بقية اليوم في جولة سريعة وغادرتها صبيحة اليوم التالي إلى دمشق والمسافة بينهما نحو ساعتين، لم أعد أتذكر وكان قبيل الظهر، وعلى الفور توجهت للسفارة اليمنية وقبل انتهاء الدوام قابلت بعض المسؤولين في السفارة الذي عرفني على زميل لي في الدراسة الثانوية كان قد سبقني للدراسة في الخارج بشهور وكان من حسن حظي متواجداً حينها في مبنى السفارة بعدها نزلت في بيته المتواضع مع بعض زملائه نحو يومين وكان رفيق دراستي وقتها مخططاً لرحلة إلى حلب ورغم أني وقتها لم أكن متحمساً لكثرة التجوال من ناحية، ومن جهة أخرى كنت حريصاً على الاحتفاظ ببقية مدخراتي من مالٍ لوقت الحاجة فلا أعلم ماسيكون، وفي حال استتباب أموري الدراسية والاستقرار فإن بقي شيء من المال فلا مانع حينذاك من أن أقوم برحلة لخارج العراق في المستقبل وهكذا كان! ولهذا جاريته في ذلك لأني مرتبط به وليس من مصلحتي رفض طلبٍ مغرٍ كهذا ولاسيما أننا سنكون ضيوفاً على زميله وبقيت بمعيته حتى مغادرتي سوريا ولم نبت في الشهباء سوى ليلة واحدة ويومها قمنا بجولة أولية في حلب القديمة والحديثة، وخلال ثلاثة أيام في دمشق ويوم بعد العودة من حلب كان فرصة للتجوال في أهم مفاصل المدينة وبالطبع زرت أهمها كغيري من الزوار الذين يأتون لأيام قليلة كالجامع الأموي وسوق الحميدية وضريح الناصر صلاح الدين الأيوبي وميادين دمشق وشوارعها الرئيسية وبعض من أحيائها قبل أن يزحف العمران بالصورة التي هي عليه اليوم

وكانت غوطة دمشق قبل مايقارب الأربعة عقود كلها بساتين ومزارع، لم تكن دمشق قبل خمسة وثلاثين عاماً تعج بالسكان كما هي عليه اليوم ربما كانوا أقل من نصف سكانها اليوم . .[١] عموماً سوريا اختلفت شأنها شأن أغلب البلدان العربية ولكن انطباعي الأول في أول زيارة أنها كانت أفضل مما هي عليه الآن ليس فقط بمقياس ارتفاع مستوى المعيشة للزائر والمقيم ولكن وفق معايير أخرى فعاصمة الشام كانت ضواحيها غوطةً وهادئةً وقد تعددت زياراتي لها خلال العقود الماضية وشاهدت معالم أخرى ومدناً أخرى في سوريا ولكنها كما يلاحظ غدت مأهولة أكثر من أي وقت مضى . . واليوم وبعد التحولات التي شهدتها سوريا تحتاج لبضع سنوات حتى تتهيأ لاستقبال زائريها مثلما كانت عليه!

حينها لم يطب لي المقام في دمشق لأن التخصص الذي أرغب فيه لم يكن متوفراً آنذاك فنصحني الملحق الثقافي بالذهاب إلى بغداد، وكانت حينها المنافذ مغلقة لدرجة إغلاق الحدود أمام المسافرين وكان لابد من الاتجاه جنوباً إلى عمان في الأردن ومكثت فيها نحو يومين، وأتذكر عندما وصلتها كان مطارها الرئيسي والوحيد وسط المدينة في منطقة تسمى (ماركا) لدرجة أني خرجت من الطائرة إلى فندق قريب مشياً على الأقدام!!

وهكذا ودعني زميلي وسافرت إلى عمّان الذي لم أبقَ فيها سوى يومٍ واحِد وفي صباح اليوم التالي غادرت إلى بغداد وخلال الفترة القصيرة في عمان تمكنت بجولة سريعة في مركز المدينة ولم تكن آنذاك في التوسعة التي هى عليه اليوم فمنذ ذلك الوقت قد شهدت جملة تحولات[٢].

(١) ولا يتسع المقام لتفاصيل زياراتي لبلدان الشام الثلاث فربما سيكون ذلك في الجزاء الثاني لهذه المشاهدات.

(٢) ولم أكن أعلم بأني وبعد أكثر من ثلث قرن سأعيش بها فترة وهي في أزهى حلتها عندما انعكست الأمور وصارت أرقى من بغداد بفضل الاستقرار والدعم الدولي لاقتصادها رغم أن موارد الأردن شحيحة ويقال بأنها أفقر أربع بلدان في المياه ورغم ذلك يلاحظ الزائر والمقيم بأن المياه لا تنقطع ويعيش كثير من السكان بأمن ورفاهية نسبية مقارنة بجارتها الغنية العراق... ربما يكون النفط لبعض الأقطار نقمة بدلاً من أن يكون نعمة! وهو الأمر نفسه بالنسبة لليبيا وتونس على سبيل المثال فالأولى أغنى من الثانية وحالة الأخيرة أفضل بكثير منذ نصف قرن وحتى اليوم.

أقلّتني الحافلة وبدأت رحلتي إلى بغداد وكان الطريق بالفعل طويلاً مع بعض من الركاب من العمالة المصرية، والذين كانوا يتوافدون إلى هذا البلد في تلك السنين وعبرنا الحدود في (الرطبة) التي أصبحت الآن على مايبدو داخل الأراضي الأردنية وقد تغيرت المنافذ خلال ثلث قرن. . !

ظلت الحافلة تنهب الأرض نهباً في الصحراء العراقية وعرفت فيما بعد أنها محافظة الأنبار المجاورة لكل من الأردن وسوريا وتعتبر الأنبار بمساحتها الشاسعة نحو ثلث العراق تقريباً[(١)].

بعد خروجنا من الأنبار أصبحنا على قاب قوسين أو أدنى من عاصمة الرشيد على مشارف الزوراء. . مدينة ألف ليلة وليلة. . بدأت أطراف بغداد تتجلى أمام عيون المسافرين في الحافلة. . وعقلي ووجداني مشتَّت بين التأمل والمشاهدة وبين التفكير عما سيخبئه القدر لي خلال أربع سنوات سأعيشها على ضفاف دجلة. .

في الأيام الأولى لوصولي ـ ولعلها بداية أغسطس ـ حظيت بمرافقة طلاب يمنيين أطافوا بي عدداً من الأحياء الأساسية، والزوراء عاصمة مترامية الأطراف وعريقة وحاضرة العرب لقرون، خططها وأسسها أبو جعفر المنصور في بدايات الدولة العباسية وكان يزينها تمثال نصفي له في بغداد تم للأسف هدمه غداة الغزو ولكن قيل بأنه قد بني من جديد!، وقد وصف ابن بطوطة[(٢)] بغداد بأنها «دار السلام وحضرة الإسلام ذات القدر الشريف والفضل المنيف مثوى الخلفاء ومقر العلماء. . . ».

بغداد أغنية..!

سميت الزوراء ومدينة السلام، عاصمة الرشيد وحاضرة الدولة العباسية، وهي من المدن العالمية التي قارعت الأحداث وقارعتها، وقاومت الزمن وقاومها، ما من مدينة من مدن العالم العربي والإسلامي انفردت بشهرة واسعة وذاع صيتها في الآفاق مثل بغداد، واسم بغداد كان ولا زال يرن في آذان الدهور ورسمها لا يزال متعالياً على تعاقب العصور.

(١) والثلث الثاني هو بضع محافظات شمال بغداد هي صلاح الدين ونينوى (الموصل) والمحافظات الكردية. والثلث الأخير هو تقريباً عشر محافظات جنوبية، يقطنها أغلبية شيعية.

(٢) ومن ضمن ما قاله ابن بطوطة وفي هذا السياق يصفها بأن المساجد بها كثيرة وكذلك المدارس إلا أنها خربت، «وحمامات بغداد كثيرة مطلية بالقار الذي يجلب من عين قرب الكوفة»!

لقد تناول وصف بغداد عدد كبير من المؤرخين والباحثين ، فوصفوا مجدها وتراثها وآثارها وأخبارها وحضارتها . وقد وصفت بغداد بأنها كانت من أعظم المدن هندسة وإحكاماً والتئاماً والتصاقاً . قال الجاحظ في وصفها : «رأيت المدن العظام بالشام والروم وغيرهما فلم أرَ مدينة قط أرفع سَمكاً، ولا أجود استدارة، ولا أوسع أبواباً ولا أعظم نبلاً ، ولا أجود فصيلاً من الزوراء وهي مدينة أبي جعفر المنصور ، كأنما صِيغت في قالب وكأنما أفرغت إفراغاً . . » .

هي قبلة العلماء في عصورها الذهبية قبل أكثر من ألف عام وفي العهود اللاحقة احتضنت أعلام فكر وأدب . . وشُدّت إليها الرحال من كل حَدَب وصوب طلباً للعلم، زارها مستشرقون وباحثون من الشرق والغرب، في غابر زمنها وفي عصورها الحديثة (طاغور) من الهند ورحالة[(١)] ومستشرقون من الغرب وتغنى بها الشعراء وفتن بها الأدباء والرسامون كتَّاب وشعراء ومبدعون، غنت عنها أم كلثوم وفيروز وكتب الجواهري ونزار قباني أعذب الكلمات في الزوراء مدينة ألف ليلة وليلة وحكايات علي بابا وعلاء الدين التي ألهمت بأساطيرها المعمورة، قال عنها ابن بطوطة مالم يقل عن أي بلد . . في أطراف بغداد وبالقرب منها يقبع إيوان كسرى لال وعند أقدامها تتماوج مياه نهر دجلة الذي تلون ماؤه باللون الأسود لكثرة الكتب التي قذفت فيه عند سقوطها على يد (هولاكو)!، ومنذ ذلك الوقت بدت بلد السواد في حزن وتقهقر . . .

ولِدَ فيها الإمام ابن حنبل وعاش بها الإمام مالك والشافعي وأبو حنيفة وزارها الإمام

(١) وزارها في عصرها الحديث منذ عهد الملك فيصل الأول ومن بعده غازي أعلام من مصر والشام وآسيا، ومن الهند زارها شاعر الهند العظيم طاغور والأديب الهندي والمصلح الاجتماعي شوكت علي قبل استقلال الهند، وزارها الشاعر والأديب المصري الشهير علي الجارم والذي كتب قصيدته الشهيرة عن بغداد منها الأبيات التالية :

بَغْدَادُ يَا بَلَدَ الرَّشِيدِ ... وَمَنَارَةَ الْمَجْدِ التَّلِيدِ
يَا مَوْطِنَ الْحُبِّ الْمُقِيمِ ... وَمَضْرِبَ الْمَثَلِ الشَّرُودِ
يَا سَطْرَ مَجْدٍ لِلْعُرُوبَةِ ... خُطَّ فِي لَوْحِ الْوُجُودِ

البخاري والفارابي وغيرهم[١]، بغداد والمدن القريبة منها ضمت رفات أئمة وأولياء وقريباً منها عاش الجاحظ وسيبويه وانتهاء بعمالقة الشعر والأدب في العصر الحديث نازك الملائكة والجواهري والرصافي وبدر شاكر السياب.. وكذا علماء الذرة!..

تزخر بغداد بالكثير من المعالم التاريخية والحضارية، وأهمها القصور الأثرية والمساجد الإسلامية القديمة و دور العلم مثل دار الخلافة و القصر العباسي ومسجد الخلفاء العباسيين والمدرسة المستنصرية والتي تشكل بمجموعها ظاهرة جديدة و فريدة في الفن المعماري الإسلامي. فإلى جانب العمارة وجدت الزخرفة التي وصفت بأنها لغة الفن الإسلامي، وتقوم على زخرفة المساجد والقصور والقباب بأشكال هندسية أو نباتية جميلة تبعث في النفس الراحة والهدوء والانشراح، وسمي هذا الفن الزخرفي الإسلامي في أوروبا باسم أرابسك.

وتبوأت بغداد مكانة سياسية مرْموقة، باعتبارها طيلة قرون مركز الخِلافة العباسية الممتدة من المحيط الأطلسي غرباً وحتى حدود الصين شرقاً، وازدهرت فيها الصناعات الحرفية والتجارة، وتميزت بالتفاعل الخصب مع حضارات الآخرين. وأصبحت إحدى أكبر مدن العالم وأجملها، وحاضرة العلوم والفنون وملتقى العلماء و قبلة الدارسين من شتى بقاع الدنيا طوال عهود نهوضها وازدهارها، لكن نجمها أخذ بالأفول مع بداية غروب شمس الدولة العباسية، وتعرضت لكثير من الغزوات الخارجية والتقلبات الداخلية، فقد غزاها المغول والصفويون والعثمانيون و الإنكليز، حيث عانت المدينة الأمَرَّين خلال فترة احتلالها على مر العصور.

وفي الآونة الأخيرة أي العقود القليلة الماضية غدت للأسف رهن الصراعات السياسية والحروب، والغريب أن عدد سكان بغداد في أواخر الخمسينيات أي عشية الثورة العراقية (ثورة عبدا لكريم قاسم) يقارب الثلاثة ملايين والآن وبعد نحو ستين عاماً تقريباً أصبح عدد سكانها الضعف أو أكثر من ذلك بقليل، وربما كان ذلك بسبب عدم الاستقرار فقبل ستين عاماً كانت مدناً مثل صنعاء وعمّان ودبي وجِدة على سبيل المثال لايتجاوز عدد سكانها مئة ألف وفي أكثر

(١) قال الإمام الشافعي ليونس بن عبد الأعلى: يا يونس، أدخلت بغداد؟ قال: لا، قال: ما رأيت الدنيا، ولا رأيت الناس! وكان الشافعي يقول: ما دخلت بلداً قط إلا عددته سفراً إلا بغداد، فإن حين دخلتها عددتها وطناً. وكان يقال: الأرض كلها بادية وبغداد حاضرتها، ومن لم يرها لم ير الدنيا.

الأحوال مئتي ألف، في حين أصبحت هذه المدن تعد بالملايين حيث تضاعف عدد سكان بعض المدن نحو عشرين مرة!

والكاظمية[١] بقبابها الذهبية وزخارفها المبالغ فيها على طراز العتبات المقدسة في النجف الأشرف وكربلاء وقُم وغيرها من حواضر الشيعة تلفت أنظار الزائرين وهي من الأماكن الهامة للزيارة في مدينة بغداد وليس من معلم إسلامي في عاصمة الرشيد أجمل منها؛ لأن نهر دجلة يحتويها من ثلاث جهات وليس هناك مسجد يشبهه في الأهمية إلا مسجد الإمام (أبو حنيفة النعمان) في قلب حي الأعظمية بمدينة بغداد.

كانت الكاظمية في بداية العصر العباسي منطقة لمقابر قريش والعلويين، وبعد دفن الإمام موسى بن جعفر المسمى بالكاظم[٢] المتوفى سنة ١٨٣ أي ٧٩١ ميلادية وحفيده الإمام محمد الجواد، غدت الكاظمية أكثر أهمية؛ لأنها تحتضن ضريح الإمامين كما يضم حي الكاظمية رفات أكبر عدد من الأشراف والفقهاء والكتاب والشعراء والمؤرخين من بينهم الشريف الرضي والمرتضى والقاضي أبو يوسف والإمام أحمد بن حنبل وابن الجوزي وابن الأثير.

مضى نحو ثلاثين عاماً أو يزيد منذ مغادرتي العراق وقد تغيرت أحوالها رأساً على عقب.. قبل سنوات كنت أقرأ كتاباً للعلامة علي الطنطاوي[٣] وضمن مذكراته في كتاب (بغداد) كان يقارن بين بغداد في أيامه أي في الثلاثينيات من القرن الماضي وبين بغداد في الثمانينيات والتسعينيات من ذلك القرن وها أنا أقارن بين سبعينيات القرن الماضي وهذه الأيام.!

(١) أبرز أحياء بغداد الكاظمية في جانب الكرخ منها والأعظمية في الجهة المقابلة أي الرصافة وبينهما تدفق مياه دجلة إلى مصبه في شط العرب. فالأولى محورها مسجد وضريح الإمام الكاظم وهذا الحي معقل لأكثرية شيعية بينما الجهة المقابلة للأعظمية محورها مسجد الإمام أبو حنيفة وتصنَّف حسب مسميات العقد الأخير بأنها معقل السنة.!

(٢) والمدفن عبارة عن جامع كبير يتميز بقببه الذهبية وصحنه الكبير ويتوسط ميدان شهير كان الشيعة يتظاهرون فيه أو يقومون بالعزاء إلا أن أيامنا في العراق كان ممنوعاً إظهار أي طقوس شيعية في أيام عاشورا وغيرها ولكن بعد سقوط نظام الرئيس صدام حسين وإعلان سقوط بغداد أصبح كل شيء مباحاً وأصبحت بغداد والعراق حظيرة لكل من الأمريكان والإيرانيين.! على حد قول الكثير من أبناء العراق.

(٣) ولد في دمشق ودرس في سنوات الشباب في العراق وكان جده قد هاجر من طنطا في مصر إلى الشام وقضى آخر حياته في مدينة جدة وتوفي بها عام ١٩٩٩.

وبعد مرور نحو عشر سنوات على سقوطها أصبحت بغداد غير بغداد السبعينيات فقد تغير تقريباً كل شيء حتى ناسها وشعبها تغيرت طباعهم فالغرب والاستعمار لايستهدف كيان الدولة واقتصادها فحسب بل يسعى إلى تغيير النفوس والطباع، وربما نجح في ذلك للأسف!!!

كان هدف الغزاة الجديد هو جعل العراق الجديد يبحث عن هويته، وكان ذلك من خلال دستور جديد أعده المحتلون مليء بالألغام سواء من حيث مكوناته أو علاقة تلك المكونات التي يمكن أن تفضي يوماً ما إلى دويلات...(١)

سكنت في بغداد بالقرب من كليتي التي درست فيها كلية القانون والسياسة والتي كانت بين الوزيرية وحي الأعظمية في منطقة تُدْعى (راغبة خاتون) وكان السكن عِبارة عن قسم داخلي من جُملة الأقسام وهي بيوت أشبه بفلل تُستأجر بالقرب من الكُلِّيات، وكان ميدان الأعظمية الرئيسي الذي يضم جامع أبي حنيفة النعمان والذي لايبعد سوى أمتار(٢) من سكني ولازلت

(١) من ضمن التحولات في الفكر السياسي العراقي الحديث هو التحول من القومية المفرطة إلى الشعوبية والعراق بمكوناته هو نفس العراق منذ قرون والعرب هم الغالبية ولكنهم في دستور (بريمر) صار تقسيم العراق على أساس عرب وكرد وشيعة! فالتقسيم إما أن يكون شيعة وسنة فحسب، أو عرب وكردا! لقد ألصق حزب البعث صفة العروبة بالعراق بطريقة قسرية، لقد صار البعض ينظر إلى العروبة باعتبارها اختراعاً بعثياً! لذلك يجب التخلص منه لأنه من مخلفات النظام السابق. وبدل ما كان متعارف عليه بأن العراق وخلال تأريخه مكون من ملل ونحل شأنه شأن دول الجوار العربية وغيرها إلا أن الحاكمين الجدد يسوقون تعريفاً جديداً للعراق باعتباره دولة مكونات يمكنها أن تمضي في حال سبيلها إذا لم يرق لها العيش المشترك. ومن ناحية قانونية فإن الدستور العراقي الذي كتب تحت إشراف سلطة الاحتلال لا ينص على أن العراق جزء من الوطن العربي ولا يقر بأن شعبه جزء من الشعب العربي. بل إن الفقرة الوحيدة في هذا المجال تقول إن المكون العربي فيه هو جزء من الشعب العربي. وما اعتماد الدستور فقرة تؤكد أن للعراق لغتين، وهو أمر لم تعهده أكثر دساتير العالم تسامحاً، إلا ضربة قاصمة لآخر ما يمكن أن يربط العراقيين بأصولهم العربية بينما في دستوره القديم ينص على أن الكرد ليسو أقلية بل ما يقارب ثلث الشعب العراقي ولغتهم هي الثانية.

(٢) تتزين الأعظمية بالشموع والأنوار كل عام بمناسبة عيد المولد النبوي الشريف ويحتفون به أكثر من الشيعة الذين يركزون في مناسباتهم إما على عاشوراء أو الغدير أو ذكرى وفاة الإمام علي وغيرها رغم أنها أزمنة مقدسة عند كل المسلمين.!

أتذكر المشي برِفقة أصدقاء على كورنيش الأعظمية للفسحة ونتأمل بعض المعالم العمرانية في (الكاظمية) التي تقع في الضفة الأُخرى المقابلة لكورنيش الأعظمية.

وذات مرة ذهبت مع زملاء الدراسة للتنزه في الضفَّة الأخرى للنهر (بباص المصلحة) رقم (٦) ـ هكذا كان يسمى في بغداد ـ حتى وصلنا صحن جامع الإمام الكاظم وكانت ليلة عاشوراء، ولا أدري ماالذي حفزني من فضول للذهاب في تلك الليلة إذ شاهدت فجأة تجمع آلاف ممن يريدون إحياء ذكرى عاشوراء بالطريقة التي كانت من قبل مجيء نظام حزب البعث وماهي إلا لحظات حتى رأيت العشرات يهرعون هاربين بجلودهم ودوّت أصوات زخات الرصاص حيث وصلتْ بعض السيارات المدرعة وعليها جنود مدججون بالسلاح ورموا قنابل مسيلة للدموع، ولم تمضِ سوى دقائق حتى انفضّ الجمع الكبير وحينها انسحبنا بهدوء راجعين حامدين وشاكرين الله على سلامتنا . .

وكنا نستخدم (الباص) الأحمر ذا الطابقين على غرار (باصات) مدينة لندن وبسعر زهيد عشرين فلساً[١] تنتقل بها من ساحة الميدان في أول شارع الرشيد مروراً بباب المعظم ثم بشارع علي بن أبي طالب مخترقاً (الوزيرية) التي يطل عليها مبنى اتحاد نساء العراق واتحاد شباب العراق ثم يعرج من المجمع العلمي العراقي ليدخل أحياء أخرى مثل راغبة خاتون في الأعظمية ونعبر جسر الأئمة الذي يقع على نهر دجلة (وهذا الجسر له قصة)[٢] ويواصل إن أردت إلى عمق حي الكاظمية في الضفة الأخرى لنهر دجلة!

(١) كان الديناريساوي ألف فلس وكل خمسون فلساً تسمى درهماً. وخلال ثلث قرن حدث تضخم في الاقتصاد العراقي بحيث غدا الناس يشترون سلعاً نافعة بالآلاف. ويتدارس المختصون في الاقتصاد في العراق حالياً حذف ثلاثة أصفار من عملتهم اقتداء ببعض البلدان التي طبقت هذه العملية مثل السودان الذي حذف صفرين من عملته عام ٢٠٠٧، وتركيا التي حذفت ستة أصفار من عملتها عام ٢٠٠٥، وحذفت زمبابوي في أفريقيا عشرة أصفار من عملتها عام ٢٠٠٨م.

(٢) أذكر أن أحد زملائي من الطلبة العراقيين وصف لي قصة تسمية الجسر إذ أصر السنّة أن يكون باسم جسر الإمام الأعظم أبي حنيفة بينما أصر الشيعة بأن يسمى جسر الإمام الكاظم وصار عراك وشجار إلى أن تدخلت القوات الحكومية في عهد عبد السلام عارف وطرح لهم حلاً وسطاً وسماه جسر الأئمة إرضاءً للطرفين.!

ومن ذكرياتي في بغداد أنني وبعض الأصدقاء شاهدنا فلماً سينمائياً في دار سينما بابل والتي لا تعرض سوى الأفلام السياسية «الوطنية» مثل فلم (القادسية) الشهير وأفلام تمثل أدب الحرب (بحكم معاناة العراق في تلك الفترة لأيام عصيبة وسنوات الحرب مع إيران، مثل فلم (الحدود الملتهبة) ومن الأفلام التي لازالت ذكراها في مخيلتي فلم (الأيام الطويلة) والذي يحكي قصة صدام حسين، والذي عرض في أواخر السبعينيات بعد أن تولى صدام السلطة، وكان قد نشر في بداية الأمرعلى شكل قصة في كتاب من جزءين للكاتب العراقي (عبدالأمير معلة) قبل أن يصبح رئيساً فعلياً وكان صدام وقتئذ نائب رئيس مجلس قيادة الثورة بينما عرض كفلم سينمائي وقت أن صار رئيساً فعلياً للعراق.

الفلم يتناول قصة صدام منذ أن شارك في محاولة اغتيال الزعيم عبد الكريم قاسم في شارع الرشيد أثناء خروجه من وزارة الدفاع القريبة من أطراف شارع الرشيد في منطقة باب المعظم وساحة الميدان ، وجرح وقتها صدام برصاصة في ساقه، وهرب إلى منطقة «الدور» القريبة من مسقط رأسه وقريبة أيضاً من المكان الذي قبض عليه فيه من قبل القوات الأمريكية بعد نحو أربعين عاماً مما كان يسمى «بالنضال السري»[(١)] ثم حاول صدام عبور نهر الفرات بمساعدة صاحب قارب لكن الأخير رفض لشكوكه بإلحاح صدام المريب وبعد سماع محاولة اغتيال الزعيم من خلال الراديو الأمر الذي جعل صدام يعبر النهر سباحة [(٢)] ومنها فرَّ إلى قرى مجاورة في طريقه إلى سوريا التي بدأ يبث منها نداءات عبر الأثير إلى الشعب العراقي بضرورة محاربة «نظام الدكتاتور عبد الكريم قاسم» إلا أن صداماً لم يَطِبْ له البقاء في سوريا فرحل إلى القاهرة حيث واصل فيها دراسته الجامعية إلى أن عاد عقب ثورة البعث الأولى في العام ١٩٦٣بعد الإطاحة بنظام عبدالكريم قاسم وهكذا لم ينهِ صدام دراسته الجامعية إلا بعد انقطاع وبعد أن أصبح نائباً لرئيس الجمهورية (أحمد حسن البكر) حيث كان مشغولاً بالسياسة والحزب و«النضال السري»!

---

(١) حادثة محاولة اغتيال الزعيم عبد الكريم قاسم كانت في عام ١٩٥٩م وكان الانقلاب على الزعيم في ١٩٦٣م في الستينيات سجن صدام وفي ١٩٦٨م كان انقلاب البعث الثاني وكان صدام في هذه المرة مشاركاً فعلياً.

(٢) ثم صار تقليداً لدى صدام أن يعبر النهر سباحة من وقت لآخر إحياء لتلك المحاولة في الأيام العصيبة.

وللأمانة فقد كان عبدالكريم قاسم قريباً من الشعب والفقراء وقيل: إنه عند إعدامه لم يكن لديه سوى خمسين دينارًا فقط ولكنه بالمقابل كان أيضاً دكتاتوراً إلى حدٍّ ما و لكن ليس كصدام حسين الذي توحي فترته القاسية بأنه هو العراق والعراق هو صدام! وكان قاسم يحسب على الشيوعيين وهو ليس بشيوعي ولكنهم في عصره عاشوا فترتهم الذهبية مقارنة بنهاية السبعينيات عندما تولى صدام مقاليد الحكم وعانوا الأمرَّين. وتاريخ العراق للأسف كله تصفيات وانتقام منذ أيام العباسيين الذين أخرجوا بعض الأمويين من قبورهم وحتى العهد الأمريكي الجديد، ففي التأريخ المعاصر عبدالكريم قاسم سَحَل نوري السعيد [(١)] في الشوارع وعلق رأسه في بوابة وزارة الدفاع وماهي إلا سنوات قليلة حتى أطيح بقاسم نفسه وقتل بطريقة بشعة على يد عناصر حزب البعث، وفي نهاية مطاف تلك الحقبة انتهى العهد بصدام شنقاً وهكذا!

وقد توسعت بغداد لتصبح من كبريات مدن الشرق الأوسط، وفي أواخر السبعينيات[(٢)] كانت السلطات العراقية وقتها تفكر في إنشاء أول (مترو) في الوطن العربي وبدأت حفر عشرات الشوارع وقد تزامن مع فكرة إنشاء شبكات (مترو) في القاهرة والجزائر وطهران وربما القاهرة كانت أول عاصمة تحقق ذلك الهدف، بسبب الكثافة السكانية والاستقرار النسبي رغم أن الجزائر وإيران والعراق لها إمكانيات مادية أكبر، ولكنها مُنيت بمشاكل داخلية وتقلبات سياسية... .إلخ وهو الأمر الذي عرقل تلك المشاريع الطموحة والعملاقة والتي خففت من اختناقات المرور في تلك المدن الكبيرة.

في بغداد كنا نقضي أوقات الفراغ إما في اتحاد طلبة اليمن أو مكتبة الجامعة أو التجول على (كورنيش) الأعظمية أو شارع الرشيد وأبي نواس، كنا نحرص على أن نلتقي بأصدقائنا

(١) نوري السعيد من أبرز الشخصيات العراقية في القرن العشرين وقد شكل نحو ثلاثين وزارة في عهده ولأن الحكم الملكي في آخر عهده كان بيد بضعة أشخاص على رأسهم نوري السعيد لأن الملك فيصل الثاني كان قاصراً وقد أسند مؤقتاً لخاله الأمير عبد الإله الذي كان وصياً على العرش.

(٢) عرفت من بعض المختصين في هندسة وتخطيط المدن في جامعة بغداد بأن العاصمة العراقية مطلع الثمانينيات تساوي أو تفوق مساحة القاهرة رغم أن الأخيرة ضعف سكان بغداد وقتها، ولكنه أوضح بأن توسع بغداد أفقياً وليس عمودياً كدمشق والقاهرة على سبيل المثال كان ذلك قبل ثلاثة عقود وربما الآن اختلفت الأمور.

اليمنيين في مثل تلك الأماكن لضيق السكن، وكان سوق الأعظمية عامراً بالدكاكين التي تبيع كل البضائع المحلية والمستوردة وفيها دار سينما ولكن أكثر دور السينما كانت في المنطقة الواقعة بين شارع الرشيد وشارع السعدون وفيه تنتشر عدد من دور السينما منها بابل وسميراميس والفردوس والسندباد وغيرها، وكان شارع السعدون يضم أيضاً شركات خطوط الطيران العربية والأجنبية والمكتبات والمطاعم التي تقدم الكباب مع اللبن (لبن اربيل) الشهير!

بغداد شأنها شأن بيروت التي بُليت بالتوزيع الجغرافي المذهبي والأثني فهناك أحياء للسنة وأخرى للشيعة وأحياء للأكراد والتركمان... إلخ، وعندما يكون طارئ ذو صراع مذهبي تتحول المدينة إلى كانتونات... أما أيام الاحتلال الأمريكي فقد فصلت الأحياء عن بعضها حيث بُنيت أسوار من الخرسانة في كثير من المناطق! قال أحدهم معلقاً: لو تمَّ بناء منازل من تلك الأسوار لبنوا مدينة كاملة!

اكتب هذه الملاحظات بعد عقد من الزمن على السقوط المدوي لعاصمة الرشيد وأكثر من عام على إنسحاب معظم جيش الاحتلال الذي جثم على صدور العراقيين أكثر من ثماني سنوات وجعل العراق لقمة سائغة للإيرانيين... فعلاً لقد دفع العراقيون ثمن حماقة نظامه السابق وحكامه الجدد فتمَّ تهجير نحو ثلاثة ملايين خارج العراق ومثلهم داخله، فخارج العراق توزع معظمهم في دول الجوار وأكثرها سوريا تليها الأردن ثم مصر ولبنان وتركيا وإيران. فضلاً عن تواجدهم وهجراتهم لعدد من بلدان عربية وأوربية وأمريكية. كما نتج عن الاحتلال تعرض الملايين لعاهات جرَّاء المعارك أو ضرر مادي وفقدان شرائح كبيرة لأعمالها أو مساكنها ونحو ذلك.

تحولات في المجتمع العراقي:

كان المجتمع العراقي حتى نهاية السبعينيات مجتمعاً متماسكاً إلى حدٍّ ما، رغم الهزات العنيفة التي رافقت ثورة ١٤يوليو ١٩٥٨وانقلاب ١٩٦٣ وبعده انقلاب ١٩٦٨والأحداث الدموية التي رافقته، حيث اتسم المجتمع العراقي انذاك بصورة عامة بالبساطة في نمط الحياة ومستوى المعيشة وقناعة أغلبية أفراد الشعب العراقي بذلك ما دام هناك تكامل وتكافل اجتماعي واحترام متبادل للقيم والمعايير والقوانين العرفية والوضعية، التي كونت وسائل ضبط اجتماعية تقوم بتقييم وتقويم السلوكيات الاجتماعية المنحرفة وساعد في ذات الوقت على معرفة واحترام

القيم المركزية المشتركة، وهي قيم ومعايير متبادلة وتقوم أساساً على الثقة المتبادلة مع الآخر، وعلى سبيل المثال كانت أبواب البيوت مفتوحة لا تقفل أحياناً حتى في الليل، وكان الناس يسهرون حتى ساعات متأخرة من الليل ويتبادلون الزيارات ويتمتعون بوسائل لهو وترويح مختلفة دون خوف أو وَجَلٍ، وكانت المعاملات التجارية والتبادلية تعقد على أساس الثقة والاحترام المتبادل، لقد كان المجتمع العراقي مصدر القيم الأساسية كالتماسك العائلي والالتزام بالأعراف الاجتماعية واحترام القانون والالتزام الخُلقي، إلى جانب التعقل في السلوك والتعفف عن ممارسة الرذائل وتحمُّل المشاق والحشمة والالتزام بالقيم والمعايير الاجتماعية واحترام المؤسسات القانونية والاجتماعية والدينية وغيرها التي ساعدت على التكافل والتماسك الاجتماعي والعائلي والأخلاقي.

منذ مطلع الثمانينيات من القرن الماضي، كانت نهاية حقبة وبداية أخرى عندما دخل العراق عهد شمولية الحزب الواحد وتداعيات الحرب العراقية الإيرانية التي اعتبرت من أطول الحروب في العصر الحديث بين دولتين مستقلتين والتي اندلعت مطلع الثمانينيات، ووضعت تلك الحرب الطويلة أوزارها لتلد أخرى ولتزد من هموم العراق المضافة جراء تبعاتها، وعليه فالراصد لتأريخ العراق المعاصر يتضح بأنه لم يهدأ نسبياً إلا لعامين (أي منذ انتهاء الحرب مع إيران عام١٩٨٨ وحتى عام ١٩٩٠)[(١)] ومن ثم دخل معمعة تداعيات غزو الكويت وما تبعها من حروب وحصار جائر دام ثلاثة عشر عاماً انتهى بحرب من أقسى الحروب، وتواصل بعدها مسلسل عدم الاستقرار إلى يومنا هذا للأسف!

ومن الممكن تصور الأضرار الجسيمة التي لحقت بالبنية التحتية خلال ثلاثة وأربعين يوماً من القصف الجوي المكثف التي تعرضت لها بغداد. فقد ألقت قوات التحالف الغربي حوالي ١٣٠ ألف طن من المتفجرات التي دمرت منشآت عسكرية ومحطات توليد الكهرباء ومصافي النفط، والمصانع والمخازن الحيوية، وخطوط السكك الحديدية والطرق والجسور والمطارات، ومصانع البتروكيمياوية وشبكة المواصلات والتليفزيون وغيرها. وبهذا دمرت

(١) وضعت الحرب العراقية الإيرانية أوزارها في ٨/٨/١٩٨٨ وخلال العامين التاليين بدأ العراق يهيئ لقيام مجلس التعاون العربي والذي انهار بعد تفجر أزمة غزوه للكويت..

أغلب مقومات الحياة الحديثة وأصبح العراق يعاني من عجز وشلل كاملين في جميع مرافق الحياة، بعد الخسائر الكبيرة في الناتج المحلي وتوقُّف صادرات النفط والتجارة الخارجية، إضافة إلى الخسائر الفادحة في البنية الصناعية التي طالت المنظومة الكهربائية والمنشآت النفطية والمؤسسات الصناعية والتجارية وغيرها، وقد بلغت الخسائر أكثر من ثلاثمئة مليار دولار.

كما تفككت البنية الاجتماعية والنفسية والأخلاقية، وتحللت منظومة القيم والمعايير الاجتماعية والدينية والأخلاقية وأدَّت إلى تدمير إنسانية المواطن العراقي وإهانته وإذلاله وتشويه شخصيته وجعلت هذا الجيل كبش فداء، وكان المواطن البسيط يعتقد بأن نهاية حكم صدام وسقوط بغداد بأنها مرحلة نهاية المشكلات وبداية الاستقرار فإذا هي بداية لمشاكل أخرى بعد أن انكسرت الشخصية العراقية ومنظومة القيم وتهدمت المؤسسات والبنية التحتية التي عانى منها الشعب العراقي منذ سقوط بغداد ورزح تحت ظروف أسوأ من عهد حكم صدام حسين رغم أنها نتاج لتلك الفترة وبعد عقد من سقوط بغداد والعراق من سيئ إلى أسوأ رغم مظاهر الاستقرار الزائفة بتوفر بعض سبل الحياة التي كان محروماً منها ولاسيما في جوِّ عسكرة المجتمع أو توفر سلع كانت محصورة في أقلية كالإنترنت وأجهزة الخلوي وإمكانية تلقي القنوات الفضائية، بل وزيادة الدخل بصورة عامة إلا أن الأمن والأمان يكاد أن يكونا مفقودين.

عشر سنوات وبلاد الرافدين في تخبُّط وفساد مطلق وتناحر بين مكوناته القومية والطائفية والسياسية، بدأت خلافات طائفية وتزامنت بتناحر وانقسام بين العرب والكرد في ظل حالة من الفاقة والعوز وحالة عدم الاستقرار لبلد يعوم فوق بحيرة من النفط!

وعليه فإن احتمالات دخول العراق تجربة الربيع العربي بعد رحيل أغلب القوات الأمريكية وقيام ثورة فيه بغرض تغيير النظام الطائفي الذي يرزح تحته أصبح أمراً لامناص منه، وهاهي مؤشرات ذلك تلوح في الأفق حيث بلغت الاحتجاجات ذروتها وتتزامن مع ذكرى مرور عشر سنوات على الاحتلال. !

وبحكم إقامتي في العراق فترة نهاية السبعينيات وبداية الثمانينيات فقد عايشتُ السنوات الأولى لقيادة صدام حسين عندما كان نائباً لرئيس مجلس قيادة الثورة ولكنه كان الحاكم الفعلي إلى أن تسلم الحكم رسمياً بعد تنحي البَكْر «لأسباب مرضية حسب ماقيل حينها»! في يوليو من

العام ١٩٧٩ عندما تسلم الحكم وبعدها بأيام قليلة قيل بأن هناك مؤامرة تستهدف النظام، والغالب أنها مصطنعة كي يتخلص صدام من مناوئيه في الداخل والخارج ومنهم حافظ الأسد[١] عندما كانا وقتها في وئام مؤقت لم يدم طويلاً انتهى بتلك «المؤامرة المزعومة» وسمعت بوصول صدام للحكم وبعد أيام قليلة من قصة المؤامرة المزعومة، وأذكر أني كنت حينها في إجازة صيفية في إصطنبول وأوروبا الشرقية عدت بعدها ودخلت الحدود العراقية قادماً من سوريا وقد شاهدت بدايات التغيير على بوابة العبور الحدودية عندما أزيلت صور الرئيس المُقال البكر وقد وضعت مكانها صور حديثة للرئيس صدام حسين بدلاً من صوره السابقة التي تصفه بأنه السيد النائب فقط!

وقتها بدأت بغداد تتهيأ لحكم الفرد وعبادة الشخصية؛ فقد طلب صدام من عدد كبير من الشعراء أن يكتبوا قصائد لأغانٍ تمجّده وصدرت خلال السنوات القليلة التي تلت تسلمه الحكم عشرات الأغاني حتى باللغة الكردية، وعُلقت صور للقائد في أهم شوارع وميادين بغداد تصل بعضها لأمتار عديدة! في تلك الفترة، أي قبل تولي صدام المقاليد وبعد تقلد المنصب بصورة رسمية كان معروفاً بأنه كان الحاكم الفعلي في كلا الفترتين، وقد لاحظت شعبية كبيرة حينذاك للرئيس صدام حسين، إلا أن الجو النفسي العام والظروف الداخلية والإقليمية[٢] ساعدت على بروز زعيم من ذلك النوع ورغم ذلك فصدام بقدر أنه ساهم في تهديم مابناه؛ لأنه قام على أسس غير ديمقراطية وإنسانية، إلا أنه كان حريصاً على بناء دولة حديثة من الطراز الأول سواء على المستوى العسكري أو المدني فتطورت العلوم والثقافة والفنون إلى حدٍّ كبير كما أن

(١) وقتها كان بعد قمة بغداد التي أخرجت مصر من الجامعة كان كل من سوريا والعراق في وئام وكانوا بصدد إعلان وحدة البلدين والحزبين وفي حال تحقيق ذلك كان سيكون البكر رئيساً والأسد نائباً ومعنى ذلك خروج صدام من المعادلة وهذا ما يؤكد انقلاب صدام على رفاقه وعلى جناح البعث السوري.

(٢) حينها سقط نظام الشاه وسقطت مشاريعه التي كانت امتداداً لحلف بغداد المنحل قبل ستة عقود وجاء نظام ثوري يناصب الغرب العداء وفي قلب الوطن العربي أخرجت قمة بغداد مصر من الجامعة العربية بعد اتفاقية كامب ديفيد وزاد دخل العراق أضعافاً عما كان عليه وبدأ بطموحات كبيرة للعراق والأمة وغدت بغداد محوراً للدبلوماسية العربية... حينها بدأ مسلسل جر العراق وإيران لصراع طويل ومن ثم التفرد بالعراق.. الذي انتهى بالسقوط المدوي واستمرت دوامة التآمر عقداً من الزمن بعد ذلك!

الشعب رغم الطابع الاشتراكي وعدم تلمُّس مظاهر الرفاهية الكبيرة التي كانت في دول الخليج كان منعماً بالرخاء النسبي وكانت الخدمات الأساسية من إنارة ومياه وصحة وتعليم متوفرة بأيسر السبل، ولو تمت مقارنة العراق مطلع الثمانينيات بعراق اليوم فلا مجال للمقارنة على الأقل في مستوى الأمن المتدني وسوء الخدمات والبطالة والأمية التي زادت، بل والفساد الذي جعل الدولة العراقية بعد الاحتلال أكثر دول العالم فساداً.

في تلك السنوات كان العراق يعيش أيام العز سواء في المستوى الاقتصادي أو الحضور السياسي العربي والإقليمي عندما غدت بغداد عاصمة محورية تعيد مجد عاصمة الرشيد.

وكان التطور العلمي في تنامٍ ملحوظ، واعتبرت العراق ثاني دولة شرق أوسطية تنفق على البحث العلمي بعد إسرائيل، وكادت الأمية أن تنتهي خلال سنوات قليلة لولا الأقدار التي عرجت بالعراق لطريق التدهور ابتداء بحرب الخليج ومروراً بالحصار وانتهاء بسقوط بغداد الذي سيسجله التاريخ كغزو المغول لبغداد.

وكان صدام صاحب مشروع نهضوي طموح أشبه بمحمد علي باشا بل وفاق عبد الناصر إلا أن دوائر الاستعمار وبعض ذوي القربى عرباً وعجماً وقفوا حائلاً أمام ذلك ـ كما أن إيران صاحبة مشروع نهضوي طموح ولكنها بنظر ووفق رؤية مغايرة فكيف فكلاهما ينطلقان من أرضية اما ثيوقراطية إسلامية أو قومية وكانت فرصة لدوائر الغرب المتربِصة بهذة القوتين أن تنهيهما معاً! وبصورة لا تكلف الطرف الثالث مسؤولية أخلاقية مباشرة أو أن يتكبد أعباء مادية بل ببترول الدولتين يتم إنهاء ذلك الحلم، هذا بالنسبة لتدخل الغرب أثناء الحرب بينهما، أما موضوع غزو الكويت للعراق ومن ثم غزو العراق نفسه فهذا موضوع آخر، وفي هذه المشاهدات رؤية متواضعة حول تلك الأحداث المؤسفة!

الشيء الذي لاحظته آنذاك بأن العراق كان يتجه لعسكرة الدولة بحيث كان يبني جيشاً شعبياً إلى جانب الجيش الرسمي ويكدس السلاح باهتمام ملحوظ.. وتزامن ذلك مع تسارع الأحداث على حدوده الشرقية المتمثل بسقوط الشاه وانبلاج الثورة الإيرانية والتي كانت على طرفي نقيض مع مبادئ البعث ورغبة الغرب والأنظمة العربية الخليجية فتحالفت قوى إقليمية ودولية لِوَأْدِ الثورة ولم يفلحوا في تحجيم الدور الإيراني أو التأثير على نهضة إيران بدليل أنها صعدت كالصاروخ بمجرد انتهاء الحرب ففي عقدين ونيف بعد انتهاء الحرب غدت إيران أكبر قوة في المنطقة.

وكنت كغيري من الطلبة ألاحظ شمولية الحزب الواحد الذي سيطر على كل تفاصيل الحياة في العراق والمقترن بنشاط سياسي وثقافي ذاتَ لونٍ واحدٍ، وهو الأمر الذي أدّى إلى أهم نكسه لهذا النظام حيث لم تقم للعراق قائمة منذ الغزو الغاشم، فقد أتت مجموعة حاكمة تحمل عقد التأريخ الأسود تعاونت مع المحتل لتبدأ سلسلة من المآسي والمحن حيث يعيش نحو ربع الشعب تحت خط الفقر والبطالة في أعلى معدلاتها ومجتمع يئنُّ من آهات أكثر من مليون شهيد ومليون أرملة وملايين الأيتام وبلد ينتشر فيه الجهل والمرض بينما كان قبل ثلاثة عقود خالياً من الأمية، ويتميز بنظام صحي وشبكة تأمين شاملة وشهدت بغداد في الثمانينيات نهضة علمية شاملة، وبرغم أن العراق يبدو الآن عند بعض الشرائح أفضل حالاً في مستوى المعيشة بظهور سلع وأساليب حياة لم تكن معتادة ومتوفرة قبل عقد من الزمن كحرمانهم من خدمة الانترنت والشبكة الفضائية التلفزيونية و خدمة الهواتف الجوالة... إلخ إلاّ أنه بالمقابل حدثت تحولات يمكن أن توصف بأنها مخيفة وأسوأ مما كانت عليه عراق الثمانينيات ولعل أسوأ مافي عراق اليوم هو انعدام الأمن بصورة لم يعشها في أي فترة مضت متزامنة مع تدني مستوى الخدمات وانتشار حالة الفوضى وتفشي الفساد مما جعلها أقرب لدولة فاشلة رغم أن إنتاج العراق النفطي بعد نحو عقد من السقوط غدا يقارب الثلاثة ملايين برميل يومياً وهو إنتاج غزير يفترض بأن عائداته ترسم مستقبلاً أفضل للعراقيين[(١)].

عرفت عراقيين في الداخل العراقي والخارج طاعنين في السن من الرعيل الأول وممن عايشوا الحياة العامة سياسياً واجتماعياً في أربعينيات وخمسينيات القرن الماضي يثنون على الحقبة الملكية، حيث كانت ملكية دستورية، وعايشَت الديمقراطية في وقت مبكر في المنطقة العربية وغدا هؤلاء يعيشون على ذكريات الماضي الجميل، بات يكفيهم سَماع ذكرياتها

(١) وبعد بضع سنوات حسب تأكيدات مختصين سيتضاعف الإنتاج ليتجاوز الستة ملايين ورغم ذلك فالفقر في أوسع نطاقه إلا الأمن والشرطة فهم يتقاضون مرتبات مغرية ويعتبر الجيش العراقي والإسرائيلي من أكثر الجيوش في الشرق الأوسط سخاء لجنودها رغم أن جيش صدام كان يتقاضى الضابط بضع دولارات. وبعد نحو سنتين سيكون إنتاج العراق أكثر من عشرين ضعف من إنتاج اليمن ولذا لا مجال لمقارنة البلدين فالعراق يسبح فوق بحيرة من النفط ويفترض إن يتساوى سكانه مع بلدان الخليج، وفي ظل حكومة المالكي يعتمد العراق أساساً على النفط ليس إلا..!

والاستئناس بأخبارها ليعيشوا أحاسيس وقيم افتراضية حُرموا منها في زمن جمهوريات العَسكر التي توالت على حكم العراق منذ ١٩٥٨ وحتى اليوم.

رُبما أن مقولة الزمان لايأتي بأفضل مما كان تُطبق على تاريخ العراق الحديث، فهاهم اليوم الجيل التالي يتغنون برغد العيش في سبعينيات وثمانينيات القرن الماضي، رغم أنها فترة حزب البعث الذي أعاد اعتبار بعض رموز الحكم الهاشمي للعراق حيث أمر آنذاك الرئيس صدام حسين بعمل تمثال للملك فيصل الأول باني ومؤسس دولة العراق في القرن العشرين..

إن سواد عامة الشعب ومزاجه خلال نحو قرن مضى يتمحور في فترتين هي الحكم الملكي والسبعينيات، ولو بقت وبقي النظام الملكي الدستوري حينها لكان وضع العراق قبل نصف قرن وليس الآن أفضل من الأردن في مطلع الألفية الثالثة.. بل ولكان أفضل من أي قطر عربي من الخليج إلى المحيط لأنه يحظى بثروات نفطية ومائية فحسب، بل بعقول وعلماء ومبدعين كانت محل تآمر خارجي وفي كل مجالات الحياة[1]، وتراث فكري وعلمي لا نظير له!.

وعندما سقطت بغداد بعد حصار ظالم دام نحو ثلاثة عشر عاماً انتهى بحرب قاسية غاشمة، وشاهدت كغيري لحظات سقوط بغداد وأنا في بروكسل من خلال شاشة كبيرة في مقصف واستراحة للمفوضية الأوروبية في الاتحاد الأوروبي بحكم عملي حينها كنائب لسفير بلادنا في بروكسل والاتحاد الأوروبي.

كنت قبل السقوط بأيام قليلة في اجتماع مع نظرائي من السفارات العربية في بلجيكا حيث كنا نجتمع شهرياً ضمن نشاط في لجان إعلامية أو برلمانية بغية إيجاد جهد عربي موحد للتعامل مع مؤسسات الاتحاد الأوروبي، وكان مكاني في الغالب بجوار مندوب العراق وفجأة وبعد السقوط لم أعد أجد مندوب العراق فسألت عنه قالوا لي بأنه قد طلب اللجوء السياسي وأغلقت السفارة لفترة طويلة حتى تمَّ تعيين أشخاص من النظام الجديد..

(١) تماماً هو الحال في مصر التي كانت أيام محمد علي توازي في حضارتها إيطاليا واليابان وأفضل من كوريا وهاهي منذ ذلك الحين اختزلت الزمن لتصبح قوى صناعية كبرى بينما مصر متعثرة في همومها الاقتصادية والسبب في كلا تجربتي مصر والعراق باختصار هي حكم العسكر، وهو الأمر نفسه في سوريا واليمن..حتى تركيا لم يتعافَ اقتصادها إلا بعد أن تحررت ليس من بعض المبادئ الكمالية فحسب بل ومن تسلط المؤسسة العسكرية... وهو الحال نفسه في اليمن الذي همومه ليست متشابهة فقط في قضية تسلط المؤسسة العسكرية منذ نصف قرن ولكن أيضاً لها ظروفها الخاصة الاجتماعية (القبلية) وغير ذلك.

جولة في بغداد أواخر السبعينيات!

لنبدأ جولتنا من شارع الرشيد الذي شيد مطلع القرن العشرين في أواخر عهد العثمانيين والذي لم يظهر بشكله الحالي إلا في عهد الملك فيصل الأول اشتهر الشارع في الستينيات والسبعينيات بتحوله لقلب بغداد النابض ففيه المقاهي والمكتبات والمطاعم ومن خلاله يتفرع عدد من الشوارع الضيقة والأزقة والأسواق المتعددة الاختصاصات منها سوق (الشورجه) العتيق، كما أن المتحف العراقي الشهير يقع في أحد شوارعه الفرعية وفي وسطه ساحة تسمى ساحة الرصافي يتوسطها تمثال الشاعر معروف الرصافي وينتهي الشارع ببنك الرافدين وعمارة الاتصالات الشاهقة والتي قيل: إنها أصيبت أثناء الحروب الأخيرة مع الأمريكان وكان الشارع مليئاً بدور السينما والمسارح وأحد تلك المسارح غنت فيه الفنانة الشهيرة الراحلة أم كلثوم أغنية (بغداد. . ياقلعة الأسود)، والتي أصبحت لعقود تذاع من تلفزيون وإذاعة العراق قبل نشرة الأخبار ولم تنته إلا بسقوط بغداد الأليم في أبريل من العام ٢٠٠٣، وكانت بغداد على مدى عقود مزاراً لأعلام ومفكري وساسة وطالبي علم من الشرق والغرب.

في قلب بغداد وميدانها الرئيسي «ساحة التحرير» يطل نصب الحرية[١] والذي غدا شعار المدينة منذ ستة عقود، وتتوزع من ساحة التحرير أهم شوارعها التي تنبض بالحياة منها الرشيد والجمهورية والسعدون.

يُلَمْلِمُ شارع السعدون أطراف بغداد بعد أن يلفظها شارع الرشيد والأسواق المتفرعة منه، يبدأ شارع السعدون بتمثال عبد المحسن السعدون مرتدياً«سدارته الفيصلية» [٢] متأبطاً حزمة

(١) نصب الحرية في العراق من تنفيذ النحات العراقي المشهور جواد سليم الموجود في ساحة التحرير في منطقة الباب الشرقي ببغداد والتي تسمى أيضاً ساحة التحرير. وهو عبارة عن سجل مصور صاغه الفنان جواد سليم عن طريق الرموز أراد من خلالها سرد أحداث رافقت تاريخ العراق مزج خلالها بين القديم والحداثة حيث تخلل النصب الفنون والنقوش البابلية والآشورية والسومرية القديمة إضافة إلى رواية أحداث ثورة يوليو تموز من العام ٥٨، النصب يحتوي على ١٤ قطعة من المصبوبات البرونزية المنفصلة وعندما نطالعه تكون الرواية قد ابتدأت من اليمين إلى اليسار كما في الكتابة العربية.

(٢) كانت السديرية و الطربوش الأسود هو زي فقط للطبقة المثقفة أو ما كانوا يسمون في العراق بالأفندية.

أوراق مطوية ويعتبر من أقدم تماثيل بغداد حيث أقيم في بداية الثلاثينيات من القرن العشرين، وقد أزيل التمثال مؤقتاً من مكانة أكثر من مرة عندما كان في بداية جسر الجمهورية، وكذلك عندما تم إنشاء نفق التحرير وآخرها بعد غزو بغداد عندما سرق ثم أعيد لينصب مكانه. !

تكثر في شارع السعدون المكتبات ودور السينما منها سينما النصر والسندباد التي كانت مخصصة لعرض الأفلام الهندية وسميراميس وبابل وسينما أطلس.

ويمتد السعدون وصولاً إلى نصب الجندي المجهول (ساحة الفردوس حالياً) وذلك النصب له قصة فقد أقيم في العام التالي لثورة يوليو «تموز» من العام ١٩٥٨ ولكن بعد أقل من ربع قرن تمَّ هدمه؛ لأنه كان على شكل رقم (ثمانية بالعربية) وبطول ثمانية عشر متراً وهذا الشكل محاكاة لطاق كسرى في بابل جنوبي بغداد وهو ما يرمز لحضارة فارس. كما وكان في قعر النصب نار تُوقد طيلة اليوم وهو أيضا مًايرمز لمعتقدات «الفرس المجوس» الذين كانوا يعبدون النار، وقد جاء قرار هدم النصب متزامناً لأوقات عصيبة يخوضها الجيش العراقي على حدوده الشرقية مع إيران خلال حرب الثماني سنوات، ولكن المؤسف بدلاً من أن يُقام نصب يُخلد حضارات العرب أو عصور بغداد الزاهية في العصر العباسي مثلاً بُني مكانه تمثال برونزي ضخم للرئيس صدام حسين[(١)] وقد هُدم هو الآخر غداة سقوط بغداد في أبريل (على النحو الذي شاهده الملايين في شاشات التلفزيون صبيحة سقوط بغداد) ويمتد شارع السعدون إلى ساحة كهرمانة والذي يتوسطه مجموعة جرات أعتقد أنها تجسِّد الأربعين حرامياً يتوسطها تمثال كهرمانه «أخت علي بابا» وهي تصب الزيت (على الأربعين حرامياً)! حيث استوحى الفنان العراقي (غني حكمت) فكرته من قصص ألف ليلة وليلة[(٢)].

والفنان العظيم حكمت زرع بغداد تماثيل ونُصُباً رائعة.. شهريار وشهرزاد، والجنية والصياد، وكهرمانة، وحمورابي، والمتنبي، وأبوجعفر المنصور... وعشراتٍ غيرها، وكان يحلم بمدينة مملوءة بالنُّصُب، تروي قصة حضارة العراق عبر الزمن.. شارك في إنجاز نصب

(١) وحتى لا يتيه القارئ نشير هنا بأن تلك الساحة نفسها هي ساحة الفردوس الشهيرة التي شهدت الصورة النمطية الاستعراضية لسقوط بغداد.

(٢) والذي توفاه الله في شهر سبتمبر من العام ٢٠١١.

الحرية [(١)] مع الأستاذ الرائد المرحوم جواد سليم، وله عشرات المعارض حول العالم. . وأول عربي مسلم يصمم بوابات كنيسة في روما، و١٤ لوحة تحكي قصة درب الآلام في الديانة المسيحية، ومصمم هدية العراق إلى مقر منظمة التربية والثقافة والعلوم التابعة للأمم المتحدة (اليونسكو) في باريس، كما (اجتث) الحكام الجدد المتحكمون بالعراق بعضاً من أعماله الفنية الخالدة، إلا أن (عني حكمت) ظل يعمل بشغف وإخلاص آملاً بالعودة إلى بغداد ليكمل مشواراً بدأه قبل أكثرمن ستين عاماً كان يأمل بأن يعود إلى بغداد يوماً لإنجاز ثلاثة أعمال برونزية: الأول تمثال لسندباد البحري عائم وسط نهر دجلة، والثاني نافورة مصباح علاء الدين السحري في ساحة الخلاني، والثالث لحرامي بغداد، تلك الشخصية التي اشتهرت في العصر العباسي، عندما كان يتلثَّم بالليل ليسرق أغنياء بغداد ويوزع بعد ذلك المال على الفقراء!

وبالفعل فقد كان أكمل كل المخططات وأعدَّ المجسمات الصغيرة وكان يأمل أن تستتبَّ الأوضاع في بغداد حتى يتمكن من إنجاز هذه الأعمال، ولم يكن يدري أنه سيرحل بعيداً عن بغداد الحلم. .

وعندما تخفُّ حركة الحافلات (الباصات)الحكومية آخر الليل تنشط حركة الحافلات الصغيرة، وكانت سيارات الأجرة (تاكسي النفرات) [(٢)] في أكثر من مكان في الكرادة وغيرها وكنا نركب (الباصات) الصغيرة الخاصة إلى الأعظمية بدرهم فقط[(٣)].

إن ذكرى سنوات الدراسة والتحصيل في بغداد لن يمحوها الزمن ولازلت أعيش على

(١) هو سجل مصور بنحت برونزي صاغه الفنان جواد سليم ومبدعون عراقيون آخرون عن طريق الرموز أراد من خلالها سرد أحداث رافقت تاريخ العراق مزج خلالها بين القديم والحداثة حيث تخلل النصب الفنون والنقوش البابلية والآشورية والسومرية القديمة إضافة إلى رواية أحداث ثورة العراق وقد أنجز بعد نحو عام من ثورة ٥٨ ولعل أهم ما يجذب الشخص عندما يطالع النصب للوهلة الأولى هو الجندي الذي يكسر قضبان السجن الذي يتوسط النصب لما فيه من قوة وإصرار ونقطة تحول تنقل قصة النصب من مرحلة الاضطراب والغضب والمعاناة إلى السلام والازدهار.

(٢) نفرات جمع نفر وتستخدم في إيران لنفس الغرض رغم أنها بالطبع كلمة عربية خالصة.

(٣) كان الدرهم آنذاك خمسين فلساً بينما الدينار يساوي ألف فلس... وذلك قبل التضخم المذهل في سعر العملة العراقية حيث كان الدينار يساوي أكثر من ثلاثة دولارات أمريكية!

ذكرى تلك الأيام الحلوة فكل إنسان يحنُّ للماضي، فأنا وغيري من العراقيين وغيرهم نجمع بأن سنوات نهاية السبعينيات كانت أفضل بكثير مما هو عليه عراق اليوم، بل وليس هناك مجال للمقارنة بأي حال من الأحوال.

صحيح أني زرت قبل تلك الأيام وبعدها مدناً وبلداناً تعتبر أكثر جمالاً وشهرة فمهما نقَّلت فؤادي فحنيني دائماً يكون لأول منزلِ!

رغم مرور أكثر من ثلاثين عاماً على مغادرتي العراق إلا أنه لازال في عقلي ووجداني طيلة هذه السنين، فقد عدت لبلادي اليمن وعملت كدبلوماسي في أكثر من بلد عربي وأوربي وفي أمريكا، وطيلة هذه الفترة وأنا أتابع الشأن العراقي سواء عبر الصحف والمجلات والكتب والإنترنت من خلال شاشات التلفزيون التي تتناول قضية العراق، وكنت أتحدث لدبلوماسي عراقي في بروكْسل قبل سنوات عن العراق فيجيبني بقوله: إنك تعرف عن العراق أكثر مني! قلت له: إنني لا أكتفي بما يكتب ويُقرأ عن العراق بل أشاهد كل يوم إحدى قنوات العراق التي فرخت العشرات بدلاً من قناة أو قناتين في نهاية السبعينيات(١)، فقد تابعت بألم غزو صدام للكويت وكيفية انسحابه منها بعد حرب مريرة وقبلها تابعت سير الحرب العراقية الإيرانية لمدة ثماني سنوات عشت السنة الأولى للحرب وأنا في العراق وكتبت عن تلك الحرب في الصحف والمجلات العربية واليمنية، ولازلت أحتفظ بتلك الأعداد حتى اليوم.

الثقافة والفن والأدب في العراق في السبعينيات:

عُرفت بغداد في العصر الحديث على الأقل (ولاسيما في عصرها الزاهر الخمسينيات وحتى السبعينيات) بأنها سوق للكتب العربية فهناك مقولة: بأن الكتب تؤلف في مصر وتطبع في لبنان وتباع في العراق!

وفي سوق (الورّاقين) أو مايعرف الآن بشارع المتنبي يعيد الكتاب مجده وتراه أيام الجمع تحديداً يعجُّ بالرواد المتعطشين للمعرفة رغم إمكانياتهم المحدودة، وفي سوق (المتنبي) ترى المكتبات المتراصة لتصريف الراكد من الكتب التي عجزت دور النشر عن تسويقه، وهناك

(١) وهو بالفعل ما حدث في الميديا العراقية عشرات القنوات أغلبها طائفية (..وكل حزب بما لديهم فرحون) باختصار حرية أقرب للفوضى منها للتوعية والوطنية!

يستطيع صاحب الدخل المحدود والطالب والزائر أن يقتني كتاباً أو كتباً بأقل الأسعار بعضها مستعملة وبعضها تبدو جديدة ولكنها تباع بسعر القديم أو المستعمل، وهناك دكاكين تعرض عليك تجليد كتب بأقل الأسعار تماماً كما كان ولازال في سور الأزبكية في القاهرة، وقد خصَّصت هيئة عراقية أهلية تهتم بالشأن الثقافي مبالغ كبيرة لإعادة تأهيل شارع المتنبي بالعاصمة بغداد.

وأول مطبعة كانت في هذا الشارع وتعود إلى القرن التاسع عشر، كما يحتوي على عدد من المكتبات التي تضم كتباً ومخطوطات نادرة إلا أنها حرقت بعد الغزو الأمريكي إضافة إلى بعض المباني البغدادية القديمة، كما تدمَّر مقهى الشاهبندر الذي يعدُّ من معالم بغداد العريقة. إضافة إلى تدمير و احتراق العديد من المكتبات والمطابع والمباني البغدادية الأثرية في الشارع.

بالنظر للتنوع الجغرافي والإثني والطائفي فإن فسيفساء العراق عرفت بالتنوع لاسيما في الغناء الذي أثر في فنون المنطقة المجاورة.

يبدو من قراءة تأريخ العراق الحديث بأن مرحلة الأربعينيات والخمسينيات كانت فترة نهوض فني كذلك العقود التي تلتها الستينيات والسبعينيات والتي شهدت وجوهاً جديدة وإذا قُورنت بالوقت الحاضر صحيح أن الإمكانيات أفضل بكثير والتطور التكنولوجي ساعد في ذلك ولكن باعتقاد كثير من النقاد إن العقود الماضية هي أخصب من اللاحقة رغم الانتشار المتواضع حينها.

لازلت أتذكر مقاهي شارع الرشيد والحارات المتفرعة منه وفيها كان يُسمع صدى أغاني ناظم الغزالي تشدو ورغم مرور أكثر من أربعين عاماً على رحيله إلاّ أنه ترك بصماته في الفن العراقي، وقد تزوج من سليمة مراد التي كانت تكبره سناً وهي الأُخرى من أشهر مغنيات بغداد في الخمسينيات والستينيات وهي يهودية عراقية ملأت شُهرتها أنحاء العراق حينها وبعض البلدان العربية في المشرق العربي وأشهر أغاني ناظم الغزالي [1] لازالت بعض أغانيه في

(١) ولد ناظم الغزالي في بغداد في الحيدر خانة من العام١٩٢١ وتوفي في العام ١٩٦٣أي أنه لم يعش سوى ٤٢ عاماً فقط ولد يتيم الأب وعاش حياة الفاقة والعوز وتزوج بالفنانة الشهيرة سليمة مراد باشا من يهود بغداد وقد أثار ذلك الزواج جدلاً وقتها ولاسيما وأنها كانت تكبره بعشر سنوات.. ومؤخراً عرضت قناة الشرقية العراقية مسلسل (سليمة باشا) مجسداً حياة المغنية الراحلة..

ذاكرتي وأسمعها في أشرطة مسجلة من حين لآخر ومنها على سبيل المثال المفردات التالية وباللهجة العراقية الدارجة:

قلبي يا حلو منين الله جابك خزن جرح قلبي من عذابك
هم هذا نصيبي وانجبر بيه جرح القلب من فرقاك خزه
قلبك من صخر ما حن عليا بيدي جبت لنفسي حجاية
قولي يا حلو شجابك عليا جمدت الألم والهم بيا
وانا اللي اجرحت ايدي بيديا خليت الخَلق [١] تحتشي عليا

كما أن مفردات أغانٍ كثيرة من مغنيات بغداد في الخمسينيات والستينيات لازالت صداها إلى الآن لاسيما لدى متذوقي الغناء والمقامات في العراق في تلك الفترة الثرية بالعطاء. .أما أغاني سليمة مراد لعل أشهر مقطع من بعض أغانيها هو:

قلبك صخر جلمود ما حن عليه وانت بطرب وبكيف وألبيه بيه
لوما لهيب النار بضلوعي أضمك تمنى ورده تصير كل ساعة اشمك

كانت الخمسينيات زاهرة بالفن والطرب وكان في العراق نهضة أدبية عظيمة من رسم ونحت وشعر وتأليف وروايات، وفي نهاية السبعينيات ومرحلة الثمانينيات إلا أنه للأسف كله كان مكرساً لنهج وأيدلوجية واحدة لأن العراق كله كان يعيش تحت ماكان يسمى بالحزب الواحد وهو نظام كلي شمولي حجَّم ـ للأسف ـ سقف الحريات لدرجة كبيرة ورغم ذلك كان هناك حركة أدبية ناهضة وشعراء يشار إليهم بالبنان[٢].

إقامتي في العراق لسنوات جعلتني قريباً أيضاً من الثقافات الشرقية مثل اللغات الكردية

(١) الخلق باللهجة العراقية تعني الناس ورغم أنها في الأصل عربية إلا أنها جاءت من إيران الذين يسمون حركة مجاهدي الشعب بمجاهدي خلق والتي يرأسها مسعود رجوي ولهم معسكر في محافظة ديالى المحاذية لإيران ويجري التشاور من أجل إخراجهم من العراق.

(٢) وهذا لا يعني عدم وجود فن عراقي مبدع في السنوات الأخيرة فالعراق كاليمن يولد ملكات في مجالات عدة علماً وأدباً وفناً وهناك لاشك أصوت جميلة هذه الأيام منها كاظم الساهر وحاتم العراقي على سبيل المثال لا الحصر..!

والفارسية ومن الفن والغناء الإيراني وبدأت أتذوق عذوبة الأغاني الإيرانية ومن خلالها عرفت مفردات فارسية أو كلمات عربية في اللغة الفارسية والعكس أيضاً.. واكتشفت بأن اللهجة العراقية تحوي عدداً هائلاً من الكلمات الفارسية والتركية بل واليونانية على سبيل المثال (أكو) و (ماكو) بحثت عن أصل الكلمتين فوجدتهما يونانيتين! في حين كلمات مثل أغاتي وخوش وعشرات من المفردات هما من أصل فارسي وثمة كلمات من أصل تركي وكردي وحتى إنجليزي.

عرف العراق على مدى قرون بأنه منبع للفكر والأدب والفن فهذا البلد أخرج أشهر المفكرين والأدباء والفنانين في كافة المجالات، وهو إلى جانب ذلك مصدر للتراث والتأريخ الإسلامي بالمدارس والأفكار والاجتهادات على مر العصور.

كنت قبل بضعة أسابيع أطالع كتاباً بعنوان مغنيات بغداد عبر العصور ويتلخص الكتاب في أن في ذاكرة العراق الفنية العشرات من الفنانات على مر العصور لو ذكرنا فقط مغنيات القرن العشرين مثل عفيفة اسكندر(١) وصديقة الملاية وسلطانة يوسف وهي يهودية أيضاً مثل سليمة مراد وزهور حسين ومائدة نزهت... إلخ(٢).

ولمعت على مدى تأريخ العراق الحديث أعلام فكر وأدب ومن أشهر شعراء العصر الحديث البياتي والجواهري.. وبدر شاكر السَّيَّاب والرصافي ونازك الملائكة وعبدالرزاق عبدالواحد، وغيرهم كثيرون.

---

(١) مغنية عراقية شهيرة ولدت في سوريا عام ١٩٢١ ومن أب عراقي مسيحي وأم يونانية التي أخذت عنها الفن حيث كانت أمها عازفة ومطربة. غنت عفيفة اسكندر لأول مرة وهي في عمر خمس سنوات،وكان لـ عفيفة صالون فني وأدبي في منزلها الواقع في منطقة الكرادة ببغداد حرص أبرز رجالات السياسة والأدب والفن والثقافة في البلاد إبان الحكم الملكي على ارتياده ومنهم رئيس الوزراء آنذاك الذائع الصيت نوري السعيد. توفيت عفيفة اسكندر في أكتوبر من العام ٢٠١٢ وقد تركت الفنانة عفيفة اسكندر التي عاشت أواخر سنوات عمرها على إعانات وهبات المحسنين خلفها تراثاً غنائياً عراقياً ثرياً ضم مايزيد على ١٥٠٠ أغنية! وقد عرض مؤخراً في قناة الشرقية مسلسل رائع يجسد حياة هذه المغنية باسم (فاتنة بغداد).

(٢) فضلاً عن قائمة طويلة من فنانات الستينيات والسبعينيات أمثال: لميعة توفيق، أنوارعبد الوهاب، سيتاهوكيبان، وحيدة خليل،زهور حسين، نرجس شوقي، أحلام وهبي، أمل خضير.

فيما يتعلق بتنوع الفن والفلكلور فالعراق مثل اليمن متعدد الألوان فهناك الأغاني البغدادية (المقامات) والفن البصراوي والمصلاوي والكردي والبدوي وغيره،وكذلك الأمر بالنسبة للأزياء واللهجات ونحو ذلك، تماماً كما هو الحال في تنوع الغناء في اليمن بين صنعاني ولحجي وحضرمي وتهامي وخلافه، ومثله في الأزياء واللهجات أيضاً.

مقاهي بغداد:

مثل بقية مدن الشام وكثير من بلدان الشرق الأوسط تكتظُّ بغداد بالمقاهي الشعبية وربما زادت مؤخراً وبصورة أكثر رقياً وفي السبعينيات وما قبلها كان شارع الرشيد الذي أُنشئ قبل نحو مئة عام أي ١٩١٦ يعجُّ بالمارة والمقاهي المتراصة على جانبي الشارع وكذلك شارع أبو نواس والسعدون وغيرهما وفي الأحياء مثل الأعظمية والكاظمية ولعل أشهرها مقهى الزهاوي والشاهبندر ومقهى الآغا ومقهى البرازيلية وكان يجتمع فيها الأدباء والمثقفون والسياسيون.

وبعض المقاهي يتسلى روّادها بلعب الورق والنرد أو الشطرنج ويتناولون المرطبات والشاي العراقي اللذيذ في الكاسات الصغيرة التي تسمى (إستكانة)[(١)] والمقاهي في بغداد طبعاً مقصورة على الرجال لاسيما كبار السن والمتقاعدين وبعض المقاهي كان يرتادها ساسة وأدباء مشهورون يحتسون الشاي العراقي اللذيذ و يدخنون الشيشة؛ أي النارجيلة وتسمى في الشام أرجيله وفي إيران (غليون) وتعددت الأسماء والدخان واحد.!

شارع (أبو نواس)[(٢)] لم يعد كما كان حسب وصف من أتى هذه الأيام، فهذا الشارع الذي يقع على الضفة الشرقية جهة الرصافة من نهر دجلة ويسير معها يمتد بين جسر الجمهورية (جسر الملكة عالية سابقاً) في منطقة الباب الشرقي و الجسر المعلق في منطقة الكرَّادة الشرقية.

يضم هذا الشارع على مدى تاريخ بغداد الحديث أحد أهم مناطق السَّهر والسّمر حيث تمتد على طول الشارع المقاهي على شاطئ نهر دجلة، هذه المقاهي المتباينة بين البسيطة والراقية والتي يجمعها شيء واحد هو تقديمها وجبة العشاء التقليدية من السمك المشوي (المسكوف)

(١) ولعل الكلمة من أصل روسي ويتداولها الناس في كثير من أقطار الاتحاد السوفيتي السابق (أي بلدان آسيا الوسطى).

(٢) سمي هذا الشارع على اسم الشاعر (أبو نواس) الذي توفي في بغداد سنة ١٩٨هـ.

على الطريقة العراقية، مع وجبات أخرى تقليدية وشهية أخرى مثل التكه و الكباب والمعلاق والباجه مع الشاي العراقي (الثقيل الغامق) كل ذلك على أصوات الأغاني لسفير الأغنية العراقية ناظم الغزالي، و كوكب الشرق أم كلثوم. وفيه تمثال للشاعر العباسي الشهير أبي نواس وهو يحتسي شرابه! وقد كُتب في أسفل التمثال بيت شهيرٌ ينسب لأبي نواس:

ألا فاسقني خمراً وقل هي الخمر ولا تسقني سراً إن أمكن الجهر

ولا أدري إن كان بيت الشعر لازال موجوداً وكذلك التمثال نفسه بعد أن أصبحت المناطق المجاورة شبه عسكرية؟!

مرَّ هذا الشارع بفترة خمول أواخر أيام حكم صدام حسين وذلك لاستشراف الشارع على منطقة القصر الجمهوري وملحقاته الواقعة على الجانب الغربي من النهر، والتي تكون بمرأى من مرتادي المقاهي، فقد أُغلقت أغلب المقاهي وحددت حركة وحرية الرواد بطريقة أو بأخرى.

أحياء بغداد:

حي المنصور هو أحد مناطق مدينة بغداد العراقية على جانب الكرخ سمّي هذا الحيّ على اسم باني مدينة بغداد الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور، ومن أشهر الشوارع في هذه المنطقة شارع الأميرات الذي سكنته أميرات العائلة المالكة الهاشمية وعوائلهن. وهذا الشارع يمكن القول بأنه انتهى بريقه تماماً فقد ملأته الكتل الخرسانية واختفى روّاده.

أما الأعظمية فقد بدا تطورها في عهد العثمانيين الذين سكنوها كونهم يتبعون مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان، وكانت مدينة الأعظمية عند دفن الإمام أبي حنيفة منطقة بساتين كبيرة وبها أسواق عامرة. وكانت آنذاك تعتبر خارج المدينة المدورة التي بناها الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور، وبعد ذلك بدأ العمران والانتشار السكاني وبدأت القبائل العربية بالسكن فيها. حيث صار حول مرقد أبي حنيفة مقبرة تسمى مقبرة الخيزران ومدرسة وأسواق وبيوت، والأحياء الأربعة التي تعتبر من المناطق القديمة في الأعظمية، وما حولها يعتبر امتداداً لها كمنطقة (راس الحواش) وشارع عمر بن عبد العزيز وشارع الضباط والوزيرية والعواضية وراغبة خاتون وشارع

المغرب، وأغلبية سكان الأعظمية هم من السنة[١] وفي عهد الاحتلال الأمريكي للعراق كثرت في هذه المنطقة عمليات المقاومة المسلحة للاحتلال والتعرض للقوات الأمريكية مما جعلها من المناطق الساخنة في بغداد.

وأُحيطت في السنوات الماضية أجزاء واسعة ومحلات كثيرة من مدينة الأعظمية اليوم بسور معروف يسمى جدار الأعظمية لحماية أهلها من المليشيات الشيعية،وكان أهلها يتندَّرون بتسميته (سور الأعظمية العظيم)!، وتوجد محلات وأزقَّة قديمة وهذه المناطق تعتبر هي بالأساس منطقة الأعظمية القديمة والتي تمتد من ساحة عنتر إلى جامع الإمام الأعظم، ولا أعتقد بأن الجدار العازل الخرساني مازال قائماً فيبدو أنه قد أُزيل بعد خروج الأمريكين والله أعلم!

مدينة الصدر:

مدينة الثورة أو الصدر على العكس من حي المنصور الذي تسكنه الطبقة الأرستقراطية أما الأعظمية والكاظمية للطبقة الوسطى والراقية أيضاً..

من يتعرف على مدينة الثورة والتي سماها صدام حسين فيما بعد بمدينة صدام ثم أُطلق عليها اسم مدينة الصدر بعد سقوط النظام عام ٢٠٠٣، وذلك من خلال الإعلام المرئي فقط سوف يتصورها مدينة خارجة عن القانون ومدينة عصاة وقَتَلة ومعسكراً لجيش المهدي فقط، ويعود ذلك لأنها تضم في غالبيتها طبقات مسحوقة خلال العقود المنصرمة حيث ينقصها بعض الخدمات ويتكدَّس فيها السكان بصورة متزايدة فعدد سكانها يقارب المليونين أي ثلث سكان بغداد، التي تضم عشرات الأحياء!

وأول ما تكونت هذه المدينة في العهد الملكي عندما كان الإقطاعيون في الريف العراقي وخاصة ريف جنوب العراق يتصرفون بأرواح الفلاحين كما يتصرفون بالأرض التي يتعب الفلاح بزراعتها وحصاد منتوجها، ومن ثم لم يكن يحصل على ما يكفي لإطعام عائلته، من هنا بدأت العوائل الفلاحية بالهروب من الريف والزراعة باتجاه المدن الكبيرة كالبصرة وبغداد،

(١) وفيها مقبرة للأسرة المالكة الهاشمية الكريمة في هذا الحي وبالقرب منها مقبرة للشهداء العرب من غير العراقيين الذين دافعوا عن الأعظمية عند الغزو الأمريكي لها. وكان مسجد أبو حنيفة آخر مكان يظهر فيه صدام قبل أن يختفي!

وكانت حصة العاصمة هي الأكبر، وانخرط الفلاحون في أعمال البناء وغيرها من المهن التي لم تكن بحاجة إلى الإبداع أو الشهادة الدراسية.

وبدأت هذه العوائل بالتجمع في منطقة تقع شرق بغداد وكانت وقتذاك بعيدة جداً عن مركزها، كانوا يعيشون في أكواخ مبنية من الطين من غير أن تتوفر لهم أية خدمات حتى مجيء عبد الكريم قاسم إلى السلطة بعد انقلابه على الحكم الملكي وتشكيل أول حكم جمهوري، عُرف بحُبِه للفقراء وانتمائه لهم فاهتم بسكان مناطق شرق بغداد وملَّكهم الأراضي السكنية بمساحات صغيرة لكل عائلة ومدَّ الطرق إليهم وشيَّد لهم المدارس والمراكز الصحية وأطلق على المنطقة اسم مدينة الثورة تيمناً بثورة ١٤ يوليو ١٩٥٨ التي كان قد قادها قاسم بنفسه. وصارت المدينة تتسع عشوائياً ومن غير أي تخطيط مديني أو حضري وتمتد رقعتها في جميع الاتجاهات حتى قاربت أن تصِل إلى المركز لولا وجود حاجز طبيعي وهو قناة الجيش التي شقها الزعيم قاسم بنفسه.

وقد اتسعت المدينة واستقبلت على مدى نِصْف قرن عشرات الآلاف من العوائل الفقيرة ومن جميع الطوائف والقوميات والأديان وغدت للأسف مدينة بلا تخطيط، وفي الغالب أحياء عشوائية؛ فقد افتقدت للخدمات الأساسية مثل إيصال التّيار الكهربائي والماء والتصريف الصحي وتعبيد الشوارع. ورقعة الأرض التي ستملَّكها رب العائلة عندما كان لديه زوجة وثلاثة أبناء مثلاً، بنى عليها بيتاً صار ينمو باتجاه عمودي حيث صار يعيش في البيت الذي مساحته أقل من مئة متر مربع ثلاث عوائل من الأبناء وزوجاتهم وأبنائهم حتى تحوَّل كل شيء إلى سكن وإقامة وبيئة غير صالحة للسكن؛ لغياب الخدمات عنها لأسباب تخطيطية ولأسباب تتعلق بسياسة الحكومات الطائفية التي تلت حكومة عبد الكريم قاسم، لذلك صارت ميزة شباب المدينة التمرُّد على الحكومات المتلاحقة التي لم تهتم بسكان مدينة الثورة.

المتحف العراقي:

يتفق الكثير من المتخصصين في التاريخ وشؤون الآثار بأن المتحف العراقي من أهم متاحف المنطقة العربية لما يحويه من مخزون حضاري وتماثيل ذات قيمة تاريخية، ففيه كنوز حضارة أربعة آلاف عام ولكن للأسف سُرق الكثير من مقتنياته بعد الغزو ورغم استرداد الكثير

منها إلا أنه تأثر بفقدان نحو ثلث المسروقات التي لم تعد للمتحف إلى يومنا هذا، والمتحف منظم تنظيماً راقياً ففيه القاعة السومرية والقاعة الآكدية والآشورية والعصر الإسلامي سواء العباسي أو ما بعده[(١)].

وهناك مكتبة ملحقة بالمتحف ومختبر مركزي لصيانة الآثار والمخطوطات، وقد زرته في السنة الأولى لإقامتي في بغداد وكان يعتبر من أهم المتاحف في الشرق الأوسط الذي يختزن عدداً هائلاً من الآثار القيمة التي تجسد حضارة وادي الرافدين في العصور المختلفة سواء قبل الإسلام أو في عهود الحضارة العباسية وما بعدها.

زيارة البصرة ثغر العراق الباسم:

تسنَّى لي زيارة البصرة بعد وصولي بغداد بأسابيع قليلة[(٢)] ولم أبق فيها سوى ثلاثة أيام ولكن خلالها شاهدت أشياء كثيرة: ترجَّلت مع زملائي في قلب مدينة البصرة وشاهدنا تمثال الشاعر الشهير بدر شاكرالسياب وجامعة البصرة، وتقع المدينة على شط العرب؛ وشط العرب هو عبارة عن التقاء كل من نهري دجلة والفرات ليصبحا بعرض كبير منتصفه خط وهمي سمِّي خط (التالوك) الذي يفصل الحدود العراقية الإيرانية كان ذلك حسب الاتفاقيات المبرمة بين البلدين في ذلك الوقت [(٣)] ولكن بعد حرب ثماني سنوات رجع الأمر في أحسن الأحوال إلى نقطة الصفر[(٤)].

البصرة مدينة جميلة لو أُحسن تخطيطها، ففي أطرافها غابات النخيل وقيل: إن فيها أكثر من أربعة عشر مليون نخلة في محافظة البصرة وحدها ولها تاريخ عريق فهي بُنيت قبل بغداد ومن

---

(١) مجلة السياحة الإسلامية الصادرة من لندن العدد ١٢ يوليو وأغسطس ٢٠٠٤ ص٤٠.

(٢) كان ذلك في خريف العام ١٩٧٨ وكانت أولى المدن العراقية خارج بغداد زرتها وبعد ذلك زرت بضع مدن أخرى.

(٣) حسب اتفاقية الجزائر في منتصف السبعينيات بين شاه إيران ونائب الرئيس العراقي آنذاك صدام حسين.

(٤) وكانت إيران لم تعد أراضي عراقية حدودية (زين القوس وسيف سعد) التي يفترض أن تعود للسيادة العراقية بعد خمس سنوات من اتفاقية ومن سخرية الأقدار بأن نهاية تلك الفترة لرجوعها اندلعت الثورة الإسلامية في إيران التي لم تستعد لإرجاع تلك الأراضي المتنازع عليها بل وعدم الاعتراف بالاتفاقية المذكورة أصلاً! وكان ذلك من أسباب توتر الوضع بين الجانبين الذي أدى لحرب الثماني سنوات.

أقدم المدن في فجر الإسلام الكوفة والبصرة وفيها نُسجت القصص والأساطير لألف ليلة وعلاء الدين والسندبادي البحري. . . .إلخ

البصرة ثالث أكبر مدينة في العراق ومركز محافظة البصرة وتعتبر عاصمته الاقتصادية، لها حدود دولية مع السعودية والكويت جنوباً وإيران شرقاً، والحدود المحلية لمحافظة البصرة تشترك مع كل من محافظة ذي قار وميسان شمالاً، والمثنى غرباً.

تعتبر البصرة ميناء العراق الوحيد، ومنفذه البحري الرئيسي، كما تزخر المحافظة بحقول النفط الغنية، الرميلة والشعيبة وغرب القرنة وحقول مجنون. وبحكم موقعها في سهول وادي الرافدين الخصيبة، تعتبر من المراكز الرئيسية لزراعة بعض المحصولات.

إن أول ولاية في العصر الإسلامي خارج حدود الجزيرة هي ولاية البصرة، وقد أصدر عمر بن الخطاب أوامره لإعلانها «ولاية» وعيَّن عليها والياً وهو عتبة بن غزوان.

من أهم الأماكن والمعالم فيها جزيرة السندباد التي تقع في وسط شط العرب وكانت معلماً سياحياً، أما الآن فقد وضعت مجموعة شركات أمريكية التّصمِيم الأساسي لمنتجع جزيرة السندباد ضمن مواصفات عالمية راقية.

ومنها حدائق شجرة آدم التي تقع شمال المحافظة في مدينة القرنة عند ملتقى دجلة بالفرات والتي تضم شجرة آدم، والتي يقال: إنها من أقدم الأشجار في المنطقة، وقد حِيْكَتْ حولها الأساطير الشعبية بأنها ترجع لزمن آدم (عليه السلام) حتى أخذ الناس يتوافدون عليها للتبارك بها.

ومن ضمن المعالم والآثارالمستحدثة أطلال بيت السياب الشاعر المجدِّد ابن البصرة بدر شاكر السياب، التي تغنى بها في شعره، وشارع كورنيش البصرة شارع يمتد على شط العرب الأيسر ويمتد من ساحة أسد بابل وحتى بوابة القصور الأربعة وفيه تمثال بدر شاكر السياب شاعر البصرة[(١)].

ومن الأماكن المشهورة فيها مزارع غابات النخيل التي تحيط بأطراف المحافظة على وجه الخصوص مدينة أبي الخصيب التي تقع وسط شط العرب.

(١) والذي نحته الفنان والنحات نداء كاظم ويقع على كورنيش البصرة، والذي أزيح الستار عنه في سنة ١٩٧٢.

ومدينة ألعاب البصرة (البصرة لاند حالياً) وهى مدينة ترفيهية من أقدم المدن الترفيهية في جنوب البلاد وأكبرها، تضم عدداً كبيراً من الألعاب الترفيهية العملاقة دُمِّرت خلال الحرب، وأعيد بناؤها الآن.

ومن معالم البصرة سوق الهنود وهو من الأسواق القديمة فيها[1]، وسمي بهذا الاسم «الهنود» بسبب الباعة الهنود الذين كانوا يعملون فيه مطلع القرن الماضي، لكن موقعها الجميل كان سبب تعاستها فهي تقع على مرمى حجر من إيران وعلى حدود الكويت والسعودية لذا فإنها تضررت كثيراً أثناء الحرب العراقية الإيرانية وخلال غزو صدام للكويت وأثناء تحرير الكويت وفي الحرب الأخيرة التي انتهت باحتلال العراق كان نصيبها الدمار في كل تلك الحروب. !

وقد تأثرت البصرة بكل حروب العراق سواء أثناء أزمتَي الخليج الأولى والثانية التي انتهت بسقوط بغداد بعد حرب دامت عدة أسابيع أثبت العراق فيها بسالة ولاسيما عند بوابة العراق الجنوبية البصرة، وصموداً عجيباً أمام جحافل القوات الأمريكية والبريطانية.

وكنت كلما أقابل عراقياً أو غير عراقي قادماً من البصرة وأنا في الخارج في أوروبا أو أمريكا أو اليمن أسأله عن أحوال البصرة وهل بدأت تنتعش كمحافظات الشمال كردستان العراق؟ فقد كانت البصرة في سبعينيات القرن الماضي أكثر رُقِياً من السليمانية وأربيل واليوم صار العكس؛ لأن وسط وجنوب العراق عانى الأمرَّين من حروب صدام ومن الحرب غير المتكافئة بين العراق وقوات التحالف.

ولِحَظّ أهالي البصرة العاثر فقد كانوا يتندرون على بؤس مدينتهم بقولهم: إنه لو تحاربت فرنسا وإسبانيا مثلاً لكانت البصرة ساحة المعارك!

وبعد بضع سنوات من انقضاء آخر الحروب وبعد سقوط بغداد كانت أغلب مدن الجنوب شبه آمنة باستثناء البصرة التي كانت بين فكَّي رحى جيش المهدي وبين القوات الحكومية والبريطانية؛ لأن البصرة كانت من حِصَّة بريطانيا قبل أن تنسحب منها نهائياً والمشكلة أنه بعد ماسمِّي بـ«التحرير» لم تلق الاهتمام الكبير رغم أن ثلث نفط العراق يأتي من جنوب العراق،

(١) كان سكان البصرة في العهد الملكي يطلقون على عملتهم الدينار العراقي بالروبية مثل بلدان الخليج التي يسمون عملاتهم المحلية بالروبية إلى ما قبل سنوات قليلة.!

والبصرة جزء أساسي منه ولازالت الخدمات في الحد الأدنى مثل الكهرباء والمياه والصرف الصحي والحالة الأمنية ونحو ذلك ولعل كثرة المليشيات وعلى رأسها ميليشيات جيش المهدي، وهو بالمناسبة كان جزءاً منه هم من عناصر فدائيي صدام الذين كان يقودهم عدي نجل الرئيس الراحل صدام حسين وهؤلاء أكثرهم من مدينة الصدر التي كانت تسمى مدينة صدام وتشكل ربع مساحة بغداد ونحو ثلث سكان مدينة بغداد الكبرى إذ يصل سكانها إلى مايقارب المليوني نسمة.

رحلتي إلى سامراء:

لطالما تكرر اسم هذ المدينة العريقة في التأريخ الإسلامي[(١)] ولكثرة الحديث عن سامراء وقراءتي عنها عزمت النية وبتشجيع من بعض الزملاء اليمنيين في الكلية أن نزورها طالما أنها لاتبعد سوى ساعات قليلة شمال بغداد والتي تصنف بأن سكانها من السُّنة رغم وجود مزار شيعي هو ضريح الإمامين، العسكريين (علي الهادي والحسن العسكري) وقد تسنى لنا زيارة أهم معالمها بالإضافة للجامع المذكور الذي يضم الإمامين زرنا ملوية سامراء، ومدينة سامراء هي عاصمة العصر العباسي الثاني في عهد الخليفة العباسي المعتصم.

أما رحلة سامراء فكانت في إحدى العطل الربيعية أيام عيد النيروز [(٢)] الذي تعطل فيه المؤسسات الحكومية والتعليمية ويخرج الكثيرون للحدائق يتناولون وجباتهم على أنغام الغناء والرقص التي تشبه الدبكة الشامية.

سافرت مع بعض الزملاء اليمنيين من الكلية في الإجازة الأسبوعية وكانت في عيد النيروز، تقع سامراء في محافظة صلاح الدين وتبعد نحو ١٢٠ كيلومتراً عن بغداد، ورغم أن سامراء تعتبر من المناطق السنية إلا أنها تحتضن في قلبها مزاراً شيعياً هو ضريح الإمامين العسكريين (علي الهادي والحسن العسكري) ويعتبر من أهم معالمها، وقد ظل المزار في أمان واحترام ولم يعتد عليه أحد إلا بعد سقوط بغداد حيث تعرض للاعتداء رغم سيطرة الميليشيات الشيعية

(١) أصبحت عاصمة للدولة العباسية في عصرها الثاني.

(٢) النيروز عيد فارسي عيد الربيع ويحتفلون به في كل من العراق في المناطق العربية والكردية وهو على غرار عيد شم النسيم في مصر ويعتبر النيروز أول السنة الفارسية. ويصادف في أبريل.

المتطرفة عليه فكان سبباً في تأجج العنف الطائفي، فجرت فيها أعمال عنف انتقامية بين الشيعة والسنة اضطر بسببها عشرات بل مئات الآلاف من العراقيين إلى ترك منازلهم والهجرة لداخل وخارج العراق على النحو الذي ذكرناه سابقاً.

وملوية سامراء هي عبارة عن منارة من الطوب المحروق بنيت في عهد العصر العباسي الثاني عندما نقل المعتصم بالله عاصمة العباسيين من بغداد إلى سامراء، والعجيب فيها أنها ليست منارة عادية فعندما تصعد إليها من خارجها وليس من الداخل كما هو المعتاد؛ لهذا سميت بالملوية، وهناك في مصرجامع ابن طولون، مأذنته مشابهة لها (إلا أنها أصغر حجماً) فصعودها يتم من خارجها وقيل: إن كلا المئذنتين تم بناؤهما في عصر واحد.

وسامراء مثل أغلب مدن العراق التي تقع على ضفاف دجلة أو الفرات فالمدينة تقع في الضفة الشرقية لنهر دجلة، ولعل أهم مايميزها هو مشهد الإمامين علي الهادي والحسن العسكري وهما من أهم معالم مدينة سامراء[(١)]، مشهد صاحب الزمان[(٢)] (عج) وهي اختصار «عجل الله فرجه»! كما يقول الشيعة فهو إمام الزمان الذي سيعود ليملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً، ويسمى السرداب والقبة سِرْداب الغيبة، وهو سِرداب الدار التي كان يسكن فيها الأئمّة ـ رضوان الله عليهم ـ وليس له ميزة غير ذلك [(٣)].

(١) ومن المفارقات بأن مزار الإمامين العسكريين المقدسين لدى الشيعة يقعان في مدينة سنية ويتبعان الوقف السني وكما هو معلوم بأن أوقاف العراق لها ديوانان سني وشيعي. وتداعت صيحات طائفية من قبل الشيعة بأن يعود وقف الضريحين للشيعة مع أنه أكثر من ألف ومئتي سنة تحت رعاية وخدمة السنة!

(٢) والشيعة عدة فرق أشهرها والمعاصرة هم الشيعة الإمامية الجعفرية والمنتشر معظمها في العراق وإيران فضلاً عن بلدان عربية وإسلامية في آسيا وسمو بالإثنى عشرية لأنهم يؤمنون باثني عشر إماماً متتابعين يبدؤون بالإمام علي رضي الله عنه ويدعى (المرتضى) يليه الحسن (المجتبى)، الحسين (الشهيد)، علي زين العابدين (السجاد)، محمد بن علي (الباقر)، جعفر بن محمد (الصادق)، موسى (الكاظم) علي بن موسى (علي الرضاء)، محمد بن علي (محمد الجواد التقي)، علي الهادي (التقي) الحسن بن علي (الحسن العسكري الزكي)، محمد بن الحسن (المهدي القائم بالحجة) وهو الإمام الغائب المنتظر الذي ينتظره الشيعة ليملأ الأرض عدلاً بعد أن تمتلئ جوراً.

(٣) مجلة التراث الإماراتية العدد رقم ١٢٤ الصادر في شهر ديسمبر ٢٠٠٩

كركوك العراق المصغر:

كركوك من المدن العراقية المهمة والحيوية، ومن أهم العوامل التي لعبت دوراً في ذلك الثروات الباطنية كالبترول والغاز الطبيعي إضافة إلى خصوبة أراضيها الزراعية، فضلاً عن موقعها الجغرافي والتجاري المتميز والذي يجعل منها حلقة وصل بين جنوبي العراق وإقليمه الشمالي.

وفي كركوك كنيسة يرعاها رجال الدين من الموصل، و الكلدان، وهي مؤلفة من طوائف أخرى من الروم الكاثوليك وعلى ذلك فكركوك مؤلفة من مجموعة أجناس تركية (التركمان الشرقيين) واليهود و العرب والسريان والأرمن والكلدان والأكراد، وعلى ذلك تتمتع المدينة بحرية عظيمة بعيداً عن التعصب في الماضي، و تبعد كركوك ٢٤٠كم شمال العاصمة بغداد، ويحدها من الغرب سلسلة جبال حمرين. يقدر نفوس محافظة كركوك الحالي وحسب الإحصائيات الموجودة في دائرة الإحصاء حوالي مليون نسمة.

الّلافت للزائر هو النار التي تستقبل المتوجهين إلى مدينة كركوك، سواء كان ذلك خلال النهار أو الليل، تسمى بالنار الأزلية، ذلك لأنها تنبعث من أكبر وأقدم الحقول النفطية في العراق، التي تسمى»بابا كركر«، هذه النار التي تشتعل نتيجة خروج غازات من الأرض لوجود تكسرات في الطبقات الأرضية للحقل النفطي، تنبعث منذ أكثر من ستة آلاف عام، حيث أخذ السومريون والبابليون والآشوريون من هذا الحقل الإسفلت لتعبيد شوارعهم وبناء معابدهم وبيوتهم وطلاء زوارقهم. هذه النار التي أضاءت طرق حضارة العراقيين القدماء، هي أيضاً مصدر خير وبناء الدولة العراقية الجديدة منذ تأسيسها عام **١٩٢١** وحتى اليوم.

هذه النار قد تُشعل المنطقة عامة وكركوك خاصة بسبب النزاع القومي الدائر حولها من قبل الأكراد والعرب والتركمان، بينما ترى حكومة المركز (بغداد) أن إصرار الأكراد على ضم كركوك سببه اقتصادي بالدرجة الأولى، حيث يعتقد العرب أنّ الأكراد يريدون أن يأخذوا سلة العراق الاقتصادية من خلال سيطرتهم على نفط كركوك..

مدينة كركوك الحالية تقع على أطلال مدينة آشورية قديمة، ويُقدر عُمرها بنحو خمسة آلاف سنة!، وبسبب أهمية موقعها الجغرافي بين إمبراطوريات البابليين والآشوريين شهدت كركوك

معارك عديدة بين تلك الإمبراطوريات المتصارعة، التي بسطت سيطرتها على مدينة كركوك في فترات تاريخية متباينة، ودليل ذلك هو قلعتها التاريخية الشهيرة، التي تضم آثار قلعة كان قد بناها الإسكندر المقدوني في قمة قلعة كركوك.

الصراع حول هوية كركوك يأخذ صوراً متداخلة ومعقدة بسبب التركيبة السكانية والعلاقات الاجتماعية السائدة بين أربع قوميات تعايشت في هذه المحافظة، وتعتبر حملات التهجير والترحيل التي جرت في عهد النظام السابق من أجل تغيير الخريطة السكانية لكركوك وجعلها مدينة عربية قسرياً واحدة من أبرز أسباب تدمير حالة التعايش السلمي بين القوميات.

وكان صدام حسين قد قام في بداية الثمانينيات بحملة لتهجير الأكراد وبعض التركمان من مناطق سكناهم وإحلال عوائل عربية من وسط وجنوب العراق مقابل امتيازات مالية كبيرة لهذه العوائل مما دفع الكثير من العرب للانتقال إلى كركوك والحصول على أراض سكنية ومِنَحٍ مالية لبناء دورهم.

وهي مدينة مثل كل المدن في أرض الرافدين مليئة بالتنوع وزاخرة بأماكن سياحية فعلى سبيل المثال هناك قلعة كركوك وجامع النبي دانيال، ودانيال النبي هو من أنبياء بني إسرائيل في فترة السبي البابلي، وكان من أبناء هذه المدينة، وله سِفْر في العهد القديم، وهو مَنْ عاد ببني إسرائيل إلى مملكة إسرائيل في عهد قورش ملك الفرس. وقيصرية كركوك.

كانت زيارة كركوك في نفس الوقت الذي زرنا فيه مدينة سامراء بسبب قرب المدينتين وشاهدنا النار الأزلية وهي مدينة مثيرة للجدل والنار الأزلية هي عبارة عن منجم بترول مع مكونات الكبريت، الأمر الذي يجعلها تحترق منذ قرون والعجيب أنه كلما حاولوا إطفاءها تشتعل من جديد لذا سميت بالنار الأزلية ويأتي السياح لمشاهدتها بينما هناك طائفة أو أقلية من المجوس العراقيين ـ وهم قِلة لا تُذْكر ـ يعبدون تلك النار، وبالمناسبة فإن كركوك تحظى بمخزون هائل من البترول فنحو ٧٠٪ من نفط العراق يخرج منها لذا فالنزاع على أشُدِّه بين العرب والكرد والتركمان وقد شهدت كركوك محاولة تعريب بالقوة كما ذكر خلال العقود الماضية وبالذات منذ مجيء حزب البعث، كما أن العهد الملكي هو نفسه قد بدأ في تبنِّي سياسة التعريب أيام الحكم الملكي الهاشمي، أي منذ مطلع عشرينيات القرن الماضي عندما تأسست الدولة العراقية الحديثة بعد ثورة العشرين ضد الإنجليز.

قبل العشرينيات كان التوزيع الديمغرافي يختلف عما حصل في الثمانينيات ومما هو عليه اليوم؛ ففي ذلك الوقت أي قبل نحو تسعين عاماً كانت أغلبية السكان من التركمان والأقلية من العرب والأكراد!وفي الثمانينيات كانت أغلبية السكان من العرب، ولكن بعد حصار العراق ولاسيما بعد الغزو أصبح الأكراد هم الأكثرية، وكانوا يجلبون الأكراد من أبناء قوميتهم الذين يقطنون كردستان تركيا أو إيران وسوريا ويغرونهم بمزايا عظيمة حتى يصبحوا أكثرية لدرجة أنهم كانوا يسكنونهم مؤقتاً في ملاعب الكرة!

هناك مقولة يرددها قادة كردستان سواء البرزاني أو جلال طلباني فكلاهما يرددان عبارة كركوك (قُدس) كردستان، صحيح أن الغلبة الآن تبدو للأكراد إلا أن تركيا لها مطامع، فهي حريصة على الوقوف مع العرق التركماني كما أن العرب لازالوا يتمنَّعون عن الرحيل منها رغم المغريات، وتضم كركوك ثلاث قوميات وعدة مذاهب ففيها الشيعة والسنة والمجوس وقليل من الصابئة واليزيديين، إنها (كوكتيل) العراق المصغّر! قال لي شاب عراقي قبل أكثر من ثلاثين عاماً: إنّ القيامة إذا اندلعت ستبدأ من كركوك!!! فقلت له: القيامة ستبدأ في كل العالم وليس من منطقة واحدة فهي ليست بزلازل أو سيل جارف يبدأ من مكان وينتهي في مكان... فضحك وقال: إن ذلك مجرد كناية لتعقيد الأمور في كركوك التي تعتبر بطن العراق الرخوة.

إيوان كسرى:

وخلال أحد أيام إقامتي في بغداد نظم لنا اتحاد طلبة اليمن زيارة لمدينة بابل الشهيرة وتبعد عن بغداد أقل من مئة كيلو تقريباً ويمر بأطرافها نهر دجلة، وفيها معالم تاريخية مهمة لعل أبرزها إيوان كسرى أو مايسمى محلياً بطاق كسرى؛ وهو عبارة عن بوابة عملاقة مبنية من الطابوق القوي والذي يسمى في اليمن الأجور وهو طين محروق وقد بُني أيام الدولة الساسانية لفارس.

إيوان كسرى أو طاق كسرى كما يعرف محلياً، هو الأثر الباقي من أحد قصور كسرى آنوشروان، يقع جنوب مدينة بغداد في موقع مدينة قطسيفون بمنطقة المدائن في محافظة واسط بين مدينتي الكوت وبغداد وتُعرف محلياً ولدى العامة بـ (سلمان باك) على اسم الصحابي الشهير سلمان الفارسي المدفون هناك.

هذا الأثر يمثل أكبر قاعة لإيوان كسرى مسقوفة بالآجر على شكل عقد دون استخدام دعامات أو تسليح ما.

ويشاع بين بعض المسلمين بأنه عند ولادة الرسول محمد ﷺ انطفأت نار الفرس (المجوس) التي كانت موقدة دوماً في الإيوان منذ سنين وانشق حائطه.

تمَّ فتح فارس بقيادة القائد سعد بن أبي وقاص، وقتل قائد الفرس، وقد فتحت بلاد فارس في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه آثار الإيوان المغطى لا زال محتفظاً بأبهته وكذلك الحائط المشقوق، وتقوم دائرة الآثار في العراق بصيانة البناء والعناية به، وقد وصف البحتري إيوان كسرى في قصيدته المشهورة بقوله(١).

وكنا من فترة لأخرى نزور مناطق قريبة من بغداد كالحبانية وهي بحيرة جميلة وفيها منتجع سياحي، ومرّة زُرنا بعقوبة مركز محافظة ديالى، وأُخرى ضمن الضواحي القريبة في أطراف بغداد جنوباً، ومررنا بالمحمودية ثم عبرنا جِسر المسيب(٢) وتذكرت الأغنية الشهيرة:

على جِسْر المسيّب سيبوني   حباب قلبي من مشو ما ودعوني!

زيارة النجف وكربلاء:

وفي عطلة ربيع عام ١٩٧٩ قمت برحلة مع زميل لي في الكلية برحلة إلى كربلاء والنجف والكوفة حيث العتبات المقدسة لدى الشيعة وكنت أعتقد بأن الكوفة تبعد عن النجف مسافة طويلة ولكنها كانت بضعة كيلومترات وتكاد في المستقبل أن تكون مدينة واحدة إذا امتد العمران في المدينتين النجف والكوفة.

والنجف تحتضن رفات الإمام علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ حسب مايرجحه

(١) وإذا ما رأيت صورة أنطاكية   ارتعت بين رومٍ وفرس
والمنايا مواثلٌ وأنوشر   وانَ يزجي الجيوش تحت الدِرَفسِ
وعِراكُ الرجال بين يديه   في خفوتٍ منهم وإغماض جَرس
ليس يُدرى أصنع إنسٍ لجنٍّ   سكنوه أم صنع جنٍّ لإنس
فكأني أرى المراتب والقومَ   إذا ما بلغت آخر حِسي

(٢) يقع على نهر الفرات ويربط بغداد بكربلاء ويقع في مدينة المسيب بقضاء بابل وقد بني في عهد الملك غازي عام ١٩٣٧م.

الكثيرون رغم أنه ليس من المؤكد وقد استشهد في جامع بالكوفة وتمَّ دفنه في النجف الأشرف لذا فإنّ الكثير من الشيعة يزورون الضريح ويفضل الكثير من شيعة العراق وإيران أن يُدفنوا في مقبرة النجف التي تعتبر أكبر مقبرة في العالم![١].

النجف مدينة ثقافة وعلم وتأريخ تخرج فيها كبار علماء النجف وهي أم المرجعيات الشيعية منذ أن انتقل إليها الطوسي هارباً من بطش المغول في بغداد قبل ألف عام. قبل النجف كانت المرجعية في سامراء، ثم انتقلت إلى بغداد واستقرت في النجف حيث قبر الإمام علي بن أبي طالب.

وإلى جانب كونها أم المرجعيات فإن النجف جامعة علمية، وأم الحوزات الدينية. ويعتقد البعض بأنّ الحوزة العلمية في هذه المدينة هي جامعة شأنها شأن الأزهر في القاهرة مثلاً[٢]. ولم يحدث في تاريخ الشيعة أن اتفقوا على مسألة مثل اتفاقهم على المرجعية وأهميتها. والباحث والكاتب حسن بحر العلوم [٣]، وهو حفيد المرجع الديني محمد مهدي بحر العلوم المتوفى سنة ١٢١٢ هجرية، يعرّف المرجع قائلاً: «هو الفقيه المجتهد المسؤول عن بيان الحكم الشرعي الذي يحتاج المؤمنون معرفته في عباداتهم ومعاملاتهم. وقد أكد الفقه الإمامي هذه الحقيقة، حيث يبدأ أي كتاب فقهي بتلك العبارات: يجب على كل مكلف غير بالغ مرتبة الاجتهاد في غير الضروريات من عباداته ومعاملاته، ولو في المستحبات والمباحات أن يكون مقلداً أو محتاطاً، والتقليد هو العمل المستند إلى فتوى فقيه معين»، مشيراً إلى أنّ المرجع الذي يتم تقليده، يجب أن يكون عالماً مجتهداً عادلاً ورعاً، زاهداً في الدنيا جاهاً ومالاً. وهذا يعني أن على أيّ شيعي إمامي، أن يتبع الأئمة الاثنى عشر وأن يُقلد مرجعاً، وهذا واجب وليس جائزاً.

(١) وفيها دفن أعداد هائلة من أتباع المذهب الشيعي ليس في العراق وحده ولكن من خارج العراق ولاسيما إيران! حيث يوصي أغنياء تلك البقاع بالدفن في ثرى النجف الأشرف.

(٢) أيام في العراق صحيفة الشرق الأوسط.. العدد رقم ١٠٥٣٦ صادر في ٣ أكتوبر ٢٠٠٧.

(٣) اشتهرت النجف بأسر علم وفقه منها أسرة الحكيم والصدر وكاشف الغطاء وبحر العلوم والخوئي وغيرهم من بيوتات العلم التي ملأت شهرتهم الآفاق.

المرجعية الدينية عند الشيعة الإمامية، كيان فقهي كبير يحتل في الحياة السياسية والدينية مساحة واسعة جداً يرتبط بها الشيعة بأوثق العلاقات وأمتنها، وتكتسب تعليمات المرجعية بالنسبة للفرد الشيعي صفة الأمر والحكم الشرعي الملزم دينياً، الذي لا يجوز التخلف عنه أو مخالفته.

ويمكننا أن نسمي أهم ثلاثة مراجع عراقية في القرن العشرين: محسن الحكيم وأبو القاسم الخوئي وعلي السيستاني[(١)]، ويشير علماء الشيعة إلى أن أبرز هذه الأسماء على الإطلاق هو أبو القاسم الخوئي«الذي توفرت له من أمور قيادة المرجعية ما لم تتوفر لمن سبقه ولن تتوفر لمن سيأتي من بعده».

وقد حرمت كل من كربلاء والنجف وغيرهما من المدن العراقية التي تضم عتبات مقدسة عند الشيعة من زوارها ومن الدخل السياحي خلال العقود الماضية بسبب توتر العلاقات مع إيران؛ لأن أغلب الزوار في السنوات الأخيرة هم من إيران لدرجة أن السلطات العراقية أنشأت مطاراً دولياً في مدينة النجف لاستقبال الزوار من إيران وغيرها، رغم مايسمع من حوادث تفجيرات مؤسفة تستهدف الزوار الشيعة من وقت لآخر.

أيام في نينوى:

ومن المدن التي زرتها في العراق الموصل ثاني أكبر مدينة عراقية وتقع شمال غرب العراق أي قرب الحدود السورية والتركية، أغلب سكانها من العرب وفيها أقليات كردية وتركمانية لاسيما في ضواحيها من القرى والمدن مثل (تِل عَفر) التي تضم عرباً وأكراداً وتركمان، وسنة وشيعة تماماً مثل مدينة كركوك، لهذا فهي من المدن التي تعرضت للعنف بعد سقوط بغداد نظراً لحساسية تركيبة السكان.

كانت زيارتي للموصل مع زميل يمني في نفس الكلية خلال أيام عيد الأضحى وكنا قد خططنا مع زميل عراقي يستقبلنا هناك في الموصل وهو من أصول كردية فأخذنا في جولة في مدينة الموصل والتي تسمى (الحدباء)، ومن ضمن الأماكن التي زرناها جامع (النبي يونس) ومركز المدينة وبعض المعالم، والموصل هي مركز محافظة نينوى تقع شمال العراق على

(١) والسيستاني رغم بقائه الطويل في العراق إلا أنه لازال يحمل الجنسية الإيرانية!

ضفاف نهر دجلة، وهي ثاني مدينة في البلاد من حيث عدد السكان بعد بغداد حيث يبلغ عدد سكانها نحو ثلاثة ملايين نسمة، وتعتبر بوابة العراق مع (سوريا وتركيا). ويتحدث سكان الموصل اللهجة الموصلية (أو المصلاوية) التي تشبه اللهجات في الشمال الشرقي لسوريا، ولهذه اللهجة الموصلية الدور الأكبر في الحفاظ على هوية المدينة، وأغلبية سكان الموصل عرب سُنّة ينحدرون من خمس قبائل رئيسية وهي شمر والجبور والدليم وطيء والبقارة، ويوجد أيضاً مسيحيون آشوريون ينتمون إلى عدة طوائف كالكلدان والسريان الأرثوذكس والكاثوليك. ويتواجد أيضاً في المدينة الأكراد والتركمان.

يشكل العرب السنّة معظم سكان المدينة وينتشرون بكثافة في الجانب الغربي من المدينة. كما ينتشر فيها الأكراد الذين ينتمون للمذهب السني في الغالب وينتشرون بكثرة في الجانب الشرقي من المدينة أو مايسمى بالساحل الأيسر بالإضافة إلى تواجد ملحوظ للتركمان والعرب الشيعة داخل المدينة وفي ضواحيها.

اشتهرت الموصل منذ العصر الإسلامي كأحد أهم مراكز الموسيقى في الدولة الأموية والعباسية، فيها نشأ إسحاق الموصلي وزرياب، ويعتقد أن فيها نظمت الموشحات العربية أول مرة متأثرة بموسيقى الكنسية السريانية. كما عرفت المدينة بالعديد من المقرئين الذين برعوا في المقامات مثل الملّا عثمان الموصلي وأحمد عبد القادر الموصلي وحنًّا بطرس.

وقد بقينا في الموصل يومين بالقرب من شارع النجفي وهو من الشوارع القديمة في الموصل واشتهر ببيع الكتب والقرطاسية وفيه نشأت أولى المكتبات ودور النشر في المدينة، وقد عرف عن أهل الموصل ـ كما هو حال أهل العراق ـ حبهم وشغفهم بالقراءة والتعلم فكانت المكتبات عامرة بالكتب من كل الأصناف منها كتب الفقه الإسلامي بمختلف مذاهبه وكتب التفسير وكتب التاريخ والروايات والقصص العربية والعالمية المترجمة.

في اليوم التالي سافرنا إلى منطقة (الشيخان) وهي مدينة زميلنا الكردي وتناولنا طعام الغداء في بيته ولم نستغرب بأن أهله لا يتكلمون العربية بل يعرفون فقط بضع كلمات منها: السلام عليكم، بينما زميلنا قد أجاد العربية، لأنه سكن بغداد ودرس في جامعتها وقبل ذلك كان قد درس في الموصل.

في اليوم الأخير زرنا منطقة (الحضر) التاريخية وهي قريبة من الشيخان واندهشت لكثرة الآثار فيها وهي عبارة عن أطلال غير مسكونة والتقطنا صوراً هناك للذكرى ومن ثم عدنا إلى الموصل ومنها إلى بغداد.

والحضر [١] مدينة عربية تاريخية تقع على بعد ٨٠ كم جنوب الموصل، يعتقد أن المدينة أُسست في بداية القرن الثاني قبل الميلاد. عرفت مملكة الحضر بهندستها المعمارية وفنونها وأسلحتها وصناعاتها، الحضر كانت بمستوى روما من حيث التقدم حيث وجد فيها حمامات ذات نظام تسخين متطور، وأبراج مراقبة ومحكمة ونقوش منحوتة وفسيفساء وعملات معدنية وتماثيل.

شعار المدينة الصقْر وهو منحوت في إحدى البوابات المتبقية، وهو يمثل قوة وهيبة المدينة في عز مجدها، اشتهرت الحضر في زمن جذيمة الوضّاح الأبرش والذي اغتالته الزَّباء ملكة تدمر، كان سكان الحضر وثنيين يعبدون آلهة منها اللّات وشمش «الشمس» ثم تنصَّروا وغدت دولتهم دولة دينية كانت تتمتع بحكم ديمقراطي حيث يحق للكل إبداء رأيه. وقد حكمت الحضر عدة ملكات وجدت تماثيلهنَّ وهذا يدل على المساواة بين الرجل والمرأة في مجتمعهم. وكان للحضر ميزة تجارية حيث إنّ موقعها يعتبر ملتقى القوافل بين الجزيرة العربية والخليج العربي إلى الشام والبحر الأحمر.

مصايف شمال العراق:

اشتهرت مناطق الشمال العراقي (كردستان العراق) بكثرة المصايف التي يلجأ إليها المصطافون من وسط وجنوب العراق ومن الأجانب القاطنين مدن العراق حينها في شهور الصيف في العراق هرباً من قيظ الصيف، ولعل أهم تلك المصايف هي (صلاح الدين) وشلالات بيخال ومصيف حاج عمران وغيرها.

كما أن مدن الشمال الرئيسية مثل أربيل [٢] والسليمانية ودهوك وغيرها تجذب السياح والزائرين لها من داخل العراق وخارجه لمن يريد أن يتعرف على الحياة اليومية للمجتمع

(١) تقع أطلال مدينة الحضر التاريخية على بعد ٢ كم شمال غرب الحضر الحالية.

(٢) تعتبر أربيل عاصمة إقليم كردستان العراق ذات الحكم الذاتي حسب الدستور العراقي الجديد علماً بأنها كانت تتمتع بالحكم الذاتي حتى في عهد الرئيس الراحل صدام حسين.

الكردي عن قرب، وقد شهدت تلك المدن نمواً سريعاً خلال العقدين الماضيين بحيث صارت أرقي من بغداد ومن بقية مدن العراق الأخرى.

يتميز العراق مثله مثل إيران وتركيا وكثير من بلدان الشرق الأوسط أنه يضم عدة قوميات ومذاهب، وهذا التنوع الفسيفسائي هو سرُّ جماله وحيويته.

فسيفساء العراق الأثينية:

☆ **الأكراد:** وهم قومية موزعة على خمس دول هي العراق وتركيا وإيران وسوريا ويوجد جزء منهم في إحدى جمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق لعلها أرمينيا، لغتهم رغم حروفها العربية إلا أنها صعبة بالنسبة للعرب وليس فيها مفردات عربية كثيرة مثل الفارسية، فمثلاً مدينة كابل الأفغانية التي تبعد آلاف الكيلومترات عن الحدود العربية يتكلمون الفارسية وثلث اللغة الفارسية معروف بأنها عربية بينما كردستان والتي تبعد من محافظة صلاح الدين عشرات الكيلومترات تشعر وكأنك في بلد آخر لغته تكاد تخلو من الألفاظ العربية.

والأكراد قوم شجعان وكرماء وهم أحفاد القائد صلاح الدين الأيوبي وقد حكموا بلاد الشام والعراق ومصر حتى وصل نفوذهم لليمن حيث أرسل صلاح الدين أخاه (طغتكين بن أيوب) والياً على اليمن فأسس الدولة الرسولية التي كانت عاصمتها مدينة تعز، وقيل: إنه هو الذي أمر ببناء سور مدينة صنعاء القديمة والذي لازالت آثاره إلى يومنا هذا.

عرفت الأكراد عن قرب في جامعة بغداد التي درست فيها وفي كليتي القانون والسياسة كان لنا زملاء أكراد عرفوا بالطيبة والتدين فهم شعب ودود ورقيق وفي نفس الوقت يتحلون بالشجاعة والكرم.

عندما كنت في العراق قبل ثلاثة عقود اعتقدت كغيري بأن أكراد العراق جميعهم من السنّة ولكن بعد أن قرأت الكثير عن حياة المجتمع العراقي عرفت بأن بين الأكراد أنفسهم شيعة وفرقاً أخرى، ويسمون الأكراد الفيليين وهؤلاء في فترة الحرب العراقية الإيرانية كانوا يتعاطفون مع إيران مما جعل القيادة العراقية برئاسة صدام حسين أن تُرَحِّلَ بعضهم إجبارياً لإيران مثلما تمَّ ترحيل عشرات الآلاف من شيعة جنوب ووسط العراق الوسط ممن اتهموا بأن لهم أقارب أو حتى جذوراً إيرانية وكان ذلك قبل الحرب العراقية الإيرانية بأسابيع فقط، ويعتبر البعض ذلك

دليلاً بأن العراق كان يُبيِّت النية لدخوله حرباً مع الثورة الوليدة في إيران ولكنه لم يفلح في الانتصار النهائي إذ استمرت الحرب كما هو معلوم ثماني سنوات انتهت بنصر شكلي وسرعان ماعادت الأوضاع على الأرض إلى طبيعتها بعد أن تورط صدام في قضية غزو الكويت.

٭ **التركمان:** وهم من القبائل التركية التي وفدت من وسط آسيا، وتحديداً من منغوليا موطنهم الأصلي، ويعتقد علماء الاجتماع واللسانيات بأن الفرق بين التركمان والأتراك هو كالفرق بين العدناني والقحطاني أصل العرب. أما الاختلاف اللغوي بينهما هو كاختلاف اللهجة العربية العراقية و اللهجة العربية السورية (مازالت اللهجة التركمانية تحتفظ بنسبة ٤٠٪ من المفردات العربية بخلاف اللهجة التركية التي أدخلت إليها ـ بعد تأسيس الجمهورية التركية ـ عدداً من المفردات غير العربية.

استقدم الخليفة العباسي المعتصم بالله، خمسين ألف محارب من (أخواله) التركمان واستخدمهم في الجيش وبنى لهم مدينة سُرَّ من رأى (سامراء الحالية) في شمال عاصمة الخلافة بغداد، توسع وامتد نفوذ التركمان والأتراك في الدولة العباسية، شملت جميع مرافق السلطة إلى أن وصل بهم الأمر، في القرن الأخير من حكم الدولة العباسية، إلى خلع وتنصيب الخلفاء أنفسهم. واستمر الحضور التركماني مع بروز دور مؤسس الدولة العثمانية آل طغرل بن سليمان شاه التركماني، رافق المحاربون التركمان جحافل التتار (من الأصول التركية) الذين اجتاحوا بغداد و دمَّروها واحتلوها عام ١٢٥٨ ميلادية، واستوطنوا العراق منذ ذلك الحين[(١)].

موطن التركمان في العراق يمتد من قضاء تلعفر شمال محافظة الموصل وينحدر إلى جنوب شرقها باتجاه بغداد محافظة أربيل التي يتكون مايقارب من نصفها من التركمان، باتجاه محافظة كركوك، ثم جنوباً باتجاه وكذلك في محافظة ديالى بقضاء خانقين ولهم تواجد في بغداد أيضاً بعدد يزيد عن الخمسين ألفاً، وهم من الناحية المذهبية كالأكراد الأكثرية سنة وتحديداً فإن نحو ٦٠٪ من أهل السنة و٤٠٪ شيعة. وعموماً يشكل التركمان نحو ٧٪ من سكان العراق أي مايقارب مليوناً ونصف مليون نسمة.

استوطن أجداد التركمان الأوائل في العراق منذ ثلاثة عشر قرناً ونيف. شاركوا إخوانهم العراقيين السراء والضراء وقدموا التضحيات والشهداء في حروب العراق ومعاركه وثوراته،

(١) الموسوعة العربية.

وعانوا من ظلم ومآسي حكامه أسوة ببقية إخوانهم العراقيين، ورفدوا وطنهم العزيز بشخصيات بارزة ساهموا في بنائه.

وقد برز الكثير من أعلام الحضارة العباسية من أصول تركمانية، مثل الفارابي والبخاري والخوارزمي والبيروني ، ومن المشاهير في العراق من التركمان الشاعر العراقي الكبير عبدالوهاب البياتي كما أن المطرب المعروف ناظم الغزالي رغم أنه من مواليد الحيدرخانه في بغداد إلا أنه يقال بأنه من أصول تركمانية من مدينة كركوك، وكذلك الفنانة العراقية التشكيلية والموسيقية الشهيرة وداد الأورفلي، ومن الأسر التركمانية المعروفة في العراق هي الأورفلي والقبنجي والشيخلي والحيدري والسِلحدار والبياتي.

بعد احتلال العراق، غضّ الأمريكان والبريطانيون النظر عن محاولات إلحاق محافظة كركوك بإقليم الكردستان واعتبروها جزءاً منه وفق تصريحات متكررة صادرة عن المسؤولين الأمريكان والبريطانيين، وبهذا أضافت أمريكا خطأ استراتيجياً آخر لجملة أخطائها التي لا تُعدّ ولا تُحصى في العراق.

وهناك أقليات أقل عدداً مثل الآشوريين والكلدانيين والأرمن [(١)] وغيرهم.

☆الآشوريون السريان والكلدان: هي مجموعة عرقية تسكن في شمال العراق مابين النهرين وكذلك في سوريا وتركيا، وجزء منهم في إيران. وتعتبر المسيحية في العراق ثاني ديانة بعد الإسلام حيث يعترف الدستور بوجود أربع عشرة طائفة مسيحية في العراق، ويتوزعون في عدة محافظات والكثير منهم في بغداد ويصل عددهم في العراق إلى مايقارب المليونين حسب إحصاء الثمانينيات، ولكن هاجرت أعداد منهم منذ ذلك الوقت ولاسيما بعد الغزو الأمريكي، يتحدث الكثير منهم اللغات القديمة إلى جانب العربية أو الكوردية مثل اللغة الأرمنية والسريانية وبلهجات متعددة، وتأريخ المسيحيين في العراق قديم ولهم حضورهم في تأريخه منذ الحضارة العباسية فكان لهم دور مهم في الترجمة والعلوم.

(١) من الشخصيات الآشورية الشهيرة في العراق المدرب الرياضي الشهير أبو الكرة العراقية عموبابا والذي توفي عام ٢٠١٠ أما أهم الشخصيات الشهيرة من الأرمن السيد طارق عزيز وزير خارجية العراق الأسبق والذي يقبع حالياً مريضاً في السجن في بغداد.

اليزيديون:

وهم أصحاب ديانة قديمة في العراق وعرف أتباعها بأنهم يقدسون الشيطان ولهم طقوسهم الخاصة ورجالها بلحى وعمائم كالمسلمين وينتشرون في شمال العراق (كردستان العراق) وفي جنوب تركيا كما أن لهم وجوداً بسيطاً في سوريا أيضاً.

ويعتبر الكثيرون اليزيدية فرقة منحرفة نشأت سنة ١٣٢هـ إثر انهيار الدولة الأموية. كانت في بدايتها حركة سياسية تسعى لإعادة مجد بني أمية ولكن الظروف البيئية والجهل انحرفت بها فأوصلتها إلى تقديس يزيد بن معاوية وإبليس الذي يطلقون عليه اسم (طاووس ملك) [(١)].

وقف اليزيديون أمام مشكلة لعن إبليس في القرآن فاستنكروا ذلك أيضاً وعكفوا على كتاب الله يطمسون بالشمع كل كلمة فيها لعن أو لعنة أو شيطان أو استعاذة بحجة أن ذلك لم يكن موجوداً في أصل القرآن وأن ذلك زيادة من صنع المسلمين!

ثم أخذوا يقدِّسون إبليس الملعون في القرآن، وترجع فلسفة هذا التقديس لديهم إلى أمور هي:

أنه لم يسجد لآدم لذلك يعتبر في نظرهم يعتبر الموحد الأول الذي لم ينسَ وصية الرب بعدم السجود لغيره في حين نسيها الملائكة فسجدوا، إن أمر السجود لآدم كان مجرد اختبار، وقد نجح إبليس في هذا الاختبار فهو بذلك أول الموحدين، وقد كافأه الله على ذلك بأن جعله طاووس الملائكة، ورئيسهم!!.

يقدسونه خوفاً منه؛ لأنه قوي إلى درجة أنه تصدى للإله وتجرأ على رفض أوامره!

ويبلغ عددهم حوالي ١٢٠ ألف نسمة، منهم سبعون ألفًا في العراق والباقي في الأقطار الأخرى، وهم مرتبطون جميعاً برئاسة البيت الأموي. هم من الأكراد، إلا أن بعضهم من أصل عربي.

لغتهم هي اللغة الكردية وبها كتُبهم وأدعيتهم وتواشيحهم الدينية. ولهم مكتب رسمي مصرح به وهو المكتب الأموي للدعوة العربية في شارع الرشيد ببغداد.

(١) مجلة تراث الإماراتية.. مرجع سابق، العدد رقم ١٢٥ يناير ٢٠١٠.

☆ **الصوم**: يصومون ثلاثة أيام من كل سنة في شهر ديسمبر وهي تصادف عيد ميلاد يزيد بن معاوية.

☆ **الزكاة**: تجمع بواسطة الطاووس ويقوم بذلك القوالون وتجبى إلى رئاسة الطائفة.

☆ **الصلاة**: يصلون في ليلة منتصف شعبان، يزعمون أنها تعوضهم عن صلاة سنة كاملة.

☆ **يحرمون التزاوج بين الطبقات**، ويجوز لليزيدي أن يعدد في الزواج إلى ست زوجات.

☆ **يحرمون اللون الأزرق**؛ لأنه من أبرز ألوان الطاووس.

☆ **يحرمون حلق الشارب**، بل يرسلونه طويلاً وبشكل ملحوظ.

☆ **يحرمون القراءة والكتابة تحريماً دينياً** فأدى ذلك إلى انتشار الجهل والأمية بينهم مما زاد في انحرافهم ومغالاتهم بيزيد وعدي وإبليس.

☆ **لهم أعياد خاصة** كعيد رأس السنة الميلادية وعيد المربعانية وعيد القربان وعيد الجماعة وعيد يزيد وعيد خضر إلياس، ولهم ليلة تسمى الليلة السوداء (شفرشك) حيث يطفئون الأنوار ويستحلون فيها المحارم والخمور[1].

وفي البرلمان العراقي الجديد بعد السقوط ضم عضو أو ربما أعضاء من الطائِفة اليزيدية ولا أدري إن كانوا ممثلين في عهد صدام.. وقد قرأت قبل فترة مداخلة بين عضو من هذه الطائِفة وآخر عراقي مسلم لا أدري من أي مذهب عندما بدأ مداخلته بقوله: أعوذ بِالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم، وهنا قاطعه العضو اليزيدي بإشارة إعتراض بيديه، ولمّا سأل رئيس المجلس عن سبب اعتراضه... فأجاب اليزيدي: لأنه قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم وبهذا فإنه يجرح مشاعر شريحة كبيرة من الشعب العراقي ممن يدينون بهذه الديانة وأطالبه الآن بِالاعتذار..! وهنا نصَحَ رئيس المجلس بأن لا تتكرر هذه الواقعة بل يجب أن تقال في السِّر داخل المجلس وليس في العلن حفاظاً على مشاعر الآخرين.!

---

(١) عبد الرحيم مارديني «الأديان الحية في العالم».. دار آية بيروت ١٥٢.

الصابئة:

☆ ذُكرت هذه الطائفة من الناس في ثلاثة مواضع من القرآن ، فأولها في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢] والصابئة يعتقدون بنبوة يحيى عليه السلام ، ومن الصابئة فرقة بدلت وغيرت، وهي مشركة في أصولها، تعظِّم الكواكب، وهم موجودون الآن في جنوب العراق، وفي إيران. ومنهم من يعبد الملائكة، ويتجهون للنجوم والكواكب، ويعظِّمون جهة القطب الشمالي.

☆ وفي الموسوعة الميسرة: أن طائفة الصابئة الوحيدة الباقية إلى اليوم، والتي تعتبر يحيى نبياً لها هي طائفة المندائية، ويقدِّسون الكواكب والنجوم، ومن معالم دينهم الاتجاه نحو القطب الشمالي، وكذلك التعميد في المياه الجارية.

☆ وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: إن الصابئة نوعان: صابئة حنفاء، وصابئة مشركون، فالحنفاء بمنزلة من كان متبعاً لشريعة التوراة والإنجيل قبل النسخ والتحريف والتبديل، وهؤلاء حمدهم الله تعالى وأثنى عليهم.

☆ وأما الصابئة المشركون: فهم قوم يعبدون الملائكة، ويقرؤون الزبور، ويوصفون بالمندائية أو الصابئة المندائية وهي من أقدم الديانات الموحدة التي كانت منتشرة في بلاد الرافدين و فلسطين ما قبل المسيحية..

☆ تدعو المندائية للإيمان بالله و وحدانيته و يسمى بالحي العظيم أو الحي الأزلي، حيث جاء في كتاب المندائيين المقدس أن الحي العظيم انبعث من ذاته و بأمره و كلمته تكوَّنت جميع المخلوقات و الملائكة التي تمجِّده وتسبِّحه في عالمها النوراني كذلك بأمره تمَّ خلق آدم وحواء من الصلصال عارفين بتعاليم الدين المندائي و قد أمر الله آدم بتعليم هذا الدين لذريته لينشروه من بعده.

☆ والصابئة المندائيون جزء من سكان العراق الأوائل عبر تأريخه الحضاري في بلاد مابين النهرين، سكنوا بطائح جنوب العراق وفي منطقة الطيب في ميسان قريباً من الأنهار الجارية التي كانت تشكل أهمية كبيرة في حياتهم الاجتماعية وإقامة الطقوس الدينية وامتدت ديانتهم أيضاً

إلى فلسطين والشام. إن تأريخ الصابئة المندائيين يلفُّه شيء من الغموض، وذلك لانزوائهم وانغلاقهم الديني بسبب الاضطهاد الذي تعرضوا له خلال فترات متعاقبة من تاريخهم. فأثروا هذا الأنزواء كوسيلة للحفاظ على دينهم وتراثهم.

يعيش الصابئة في جنوب العراق وفي العقود الماضية دُرِسَتْ أحوالهم عن قرب [(١)]، وتُرجمت العديد من الكتب والمخطوطات المندائية إلى اللغة الإنكليزية وأهمها كتاب الصابئة المندائيين، الذي ترجمت إلى العربية واللغة المندائية هي اللغة التي وردت بها المخطوطات الصَّابئية فكل الكتب الدينية وماتحتويه من تعاليم وصلوات وتراتيل مكتوبة بهذه اللغة، وأول من قرأ الأبجدية المندائية هو آدم ﷺ، وبقية المختارين الأصفياء، ومنهم يحيى بن زكريا ﷺ، وهي مقدمة عند جميع الصابئة واللغة المندائية هي لهجة من الآرامية التي تنتسب إلى المجموعة السامية كالبابليين والآشورية والكلدانية.

☆ **الأرمن**: يعتبر الأرمن في العراق طائفة قديمة هاجرت إليها عبر إيران وتلتها هجرة أحدث قبل بضعة قرون في عهد العثمانيين وكانت أول كنسية في بغداد في منطقة الميدان عام ١٦٣٨ هي كنسية مريم العذراء، ولكن أكبر هجرة لهم كانت في بدايات القرن العشرين بعد مذابح ارتكتبت ضد الأرمن في أرمينيا وتركيا وقد هربوا بعد مذبحة الأرمن عام ١٩١٥ وما بعدها إلى الدول المجاورة ومنها العراق وسوريا ثم لبنان، وعاشوا فيها منذ ذلك الحين في سلام. وهم أيضاً ينقسمون إلى طوائف معظمهم من الأرثوذكس وفيهم الكاثوليك وغير ذلك[(٢)].

ويبلغ تعدادهم الحالي نحو عشرين ألفاً نصفهم تقريباً يقطنون بغداد، وتوجد كنائس أخرى لهم في بغداد مثل كنسية القلب المقدس وكنيسة في كامب سارة.

تعرض الأرمن وحالهم كحال العديد من فئات الشعب العراقي الأخرى إلى هجمات مسلحة حيث تعرضت عدد من كنائس الأرمن للتفجير بسيارات مفخخة في بغداد والموصل وقد هاجر أكثر من ثلاثة آلاف منهم بعد التطورات في العراق في عام ٢٠٠٣ بينما خرج البعض منهم لكل من سوريا والأردن وأرمينيا.

---

(١) عبد الرحيم مارديني «الأديان الحية في العالم»، مرجع سابق ص ٦٢.

(٢) من الموسوعة العالمية (أمم وأديان ومذاهب).

من الشخصيات الأرمنية المعروفة في تأريخ العراق الحديث المطربة الشهيرة (سيتاها كوبيا) و (سارة أسكندريا) وهي من الشخصيات النسائية الأرمينية العامة التي عرفت من قبل أهل بغداد باسم (سارة خاتون) وسمي حي كمب سارة خاتون باسمها . !

الشبك:

الشبك أقلية عراقية هم من أصول تركية تتواجد في شمال غرب العراق بالقرب من مدينة الموصل يتوزعون في أقضية الموصل والحمدانية والشيخان وزهرة خاتون وغيرها كما يتواجد عدد كبير من الشبك في مدن عراقية أخرى كأربيل وبغداد بالإضافة إلى ذلك فقد هاجر عدد آخر إلى دول عربية وأوروبية، وهم مسلمون بينهم سُنّة وشيعة لايتعدى تعدادهم عن مئة ألف أمّا عن لغتهم يقول الكاتب رشيد الخيون: إن الشبك يتكلمون لهجة كردية تحتفظ بالكثير من الألفاظ القديمة، إضافة إلى تأثير المحيط الدولي المتمثل بوجود ألفاظ فارسية أو تركية أو عربية.

فمنذ تواجدهم في المنطقة بعد سقوط دولهم كان الولاة والحكومات المتعاقبة في العراق تمارس ضدهم أبشع أنواع الظلم والاضطهاد لانتمائهم المذهبي والقومي، واستمر ذلك الظلم طيلة الفترات اللاحقة، خاصة في عهد نظام حزب البعث الذي زاد من تهميش هذه الطائفة، بل ولم يعترف بها كما أنّ كثيراً من العراقيين لايعرفون عنهم شيئاً وفعلاً لم أسمع بهم أنا شخصياً إلا بعد سقوط بغداد.

في العقد الأخير تنفس الشبك الصعداء حين سقط النظام السابق، الذي أذاقهم مرَّ العذاب، وشرد الكثير منهم بعد أن هدم بيوتهم، واستولى على أراضيهم وثرواتهم الحيوانية خصوصاً وهم المعروفون بتربية الحيوانات إلى جانب الزراعة، لقد اعترفت الحكومة العراقية أخيراً بالشبك كمكوِّن من مكونات الشعب العراقي، وشملهم قانون الأقليات، وعانى الشبك الظلم والتهميش منذ أمد بعيد، والذي رفض الاعتراف بهم، وإجبارهم بطريقة أو أخرى على تغيير قوميتهم لأحد القوميتين العربية أو الكردية في التعداد السكاني للسنوات ١٩٧٧م وسنة١٩٨٧م، فمن اختار منهم القومية الكردية كان نصيبه هدم مسكنه والترحيل إلى مناطق كردستان، ومن اختار منهم العربية كان نصيبه العيش في مناطق التهميش والإهمال مع الاتهام أحياناً بالأصول الأعجمية . !

الغجر في العراق:

الغجر أو ما يعرف محلياً باسم (الكاولية) مجموعة سكانية من غجر العراق والذين ينتمون للشعوب الغجرية التي تعود جذورها إلى شبه الجزيرة الهندية وإسبانيا. يشكل الغجر العراقيون أقلية عرقية في العراق حيث يتراوح عددهم ما بين ٥٠ ألف نسمة إلى ٢٠٠ ألف ويسكنون في قرى وتجمعات بشرية عادة ما تكون منعزلة على أطراف المدن والبلدات [(١)]، حيث توجد للغجر تجمعات سكانية في محافظة بغداد والبصرة ومحافظة نينوى وديالى إضافة إلى بعض القرى في سهول الجنوب في المثنى والديوانية وغيرها، والغجر كانوا قوماً رُحَّلاً حتى أواخر السبعينيات، حيث منحتهم الدولة العراقية الجنسية أوائل الثمانينيات، وقد شاركوا بصورة اعتيادية في المجتمع العراقي وكانوا يمثلون حلقة مهمة في حياة العراقي العاشق للطرب والكيف، وإذا دخلت مجتمعاً صغيراً مثل مجتمع الغجر فهذا يعني أنك تخترق عالماً آخر من العادات والتقاليد التي تختلف كثيراً عن عادات وتقاليد العراقيين في بقية أنحاء البلد، تعرض الغجر في العراق لعمليات انتقامية مسلحة في مناطق متفرقة من العراق بسبب امتهان الغجر لمهن الرقص والغناء والبغاء والدعارة والمجون، حيث تمَّ تدمير قرية الغجر جنوب شرق بغداد وكذلك تدمير عدة قرى للغجر في جنوب العراق ومنها قرية الغجر (الفوار) في محافظة الديوانية مما أدى إلى هجرة غالبية الغجر إلى المحافظات الأخرى أو الهجرة إلى خارج العراق.

يواجه الغجر في العراق عموماً وفي مدينة الديوانية خصوصاً عزلة اجتماعية وانعداماً للخدمات، ورغم المعاناة وانعدام الخدمات والبطالة والفقر والظروف القاسية التي مرَّ بها الغجر إلا أنهم في حقيقة الأمر لم يمارسوا هؤلاء الأعمال الإرهابية أو تلك المخلَّة بالأمن والاستقرار في العراق.

---

(١) دراسة للباحث عباس السعيدي مجلة الجامعة الأردنية عمان ٢٠١٠.

رحلة تركيا

في صيف عام ١٩٧٩ رافقني زميل وصديق يمني في جامعة بغداد برحلة خارج العراق إلى إسطنبول ومنها أيضاً إلى ثلاثة بلدان في أوروبا الشرقية هي: بلغاريا ويوغسلافيا والمجر ومن ثم عدنا إلى إسطنبول ومنها إلى العراق عبر حلب ودمشق في سوريا، وقد استمرت تلك الرحلة ستة أسابيع تقريباً [١].

وهكذا... وما إن انتهى الفصل الدراسي الثاني في نهاية شهر يونيو حتى بدأت أتجهّز لرِحلة طويلة وكانت بالنسبة لي تجربة جديدة حيث إنها أول مرة أسافر فيها لبلدان أجنبية فجهزت التأشيرات وبدأنا رحلة بالحافلة السياحية إلى الموصل ومنها مباشرة إلى إسطنبول عبر أنقرة فكان خط الرحلة قبل أكثر من ثلاثة عقود يمر من أنقرة ولا أدري إذا كان الأمر هكذا في هذه الأيام، كانت أول رحلة لي في حياتي بالقطار من إسطنبول حتى المجر وكنت شاباً يافعاً في نحو العشرين من عمري، وصلنا أنقرة ومكثنا فيها نحو يوم فقط ثم واصلنا الرحلة إلى إسطنبول أجمل وأكبر مدن تركيا.

والمسافة من أنقرة إلى إسطنبول استغرقت نحو ثمان ساعات كما أذكر جبالاً ووديانا وسهولاً ومن قراءتي للتأريخ فإن هذا الطريق هو نفسه الذي عبرته جيوش الخليفة العباسي المعتصم حين استجاب لنداء امرأة مسلمة بقولها: (يامعتصماه) مستنجدة ومستجيرة بالخليفة العباسي[٢] وحينها ضرب مثلاً في النخوة الإسلامية والرجولة فحشد جيش جرار واجتاحت

(١) ولأن سعة وحجم هذا الكتاب لا يستوعب وصف رحلتي لكل الدول المشار إليها فضلاً عن دول عربية أخرى وأوروبية شرقية وغربية وأمريكا وكندا فقد اقتصر هذا الكتاب على بعض البلدان كالعراق وإيران وتركيا وإسبانيا والهند وماليزيا وسنغفورة وفرنسا وبلجيكا فقط، ويبقى نحو أربعة وعشرين بلداً ربما أتناول تفاصيل رحلتي إليها في جزء آخر أو كتاب آخر إن شاء الله.

(٢) تقول إحدى الروايات أن رجلاً قدم للمعتصم ناقلاً له حادثة شاهدها قائلاً: يا أمير المؤمنين، كنت بعمورية فرأيت امرأة عربية في السوق مهيبة جليلة تسحل إلى السجن فصاحت في لهفة: وامعتصماه فأرسل المعتصم رسالة إلى أمير عمورية قائلاً له من أمير المؤمنين إلى كلب الروم أخرج المرأه من السجن وإلا =

جيوشه الروم وأسقطت (أنقرة) ثم اجتاح عمورية مسقط رأس القيصر فهدمها حتى تكون عبرة لمن تسول له نفسه أن ينتهك حرمات المسلمين وحينذاك مدحه الشاعر أبو تمام بقصيدة شهيرة ومعروفة[1].

وصلنا إسطنبول نهاية اليوم وقبل الزوال وكان الجو جميلاً في فترة المساء أما في الظهيرة فهو حار جدًّا ولم أكن أتوقع الحرارة التي عانينا منها ونزلنا في فندق في منطقة (تقسيم ميداني) وهي منطقة شهيرة تتفرع منها عدة شوارع وأحياء وهناك اتصلنا تلفونياً بزميل يمني كان يدرس في إسطنبول وعندما علم بوصولنا فرح فتواصلنا معه تلفونياً وجاء في صباح اليوم التالي وكان الفضل بعد الله لهذا الصديق الوفي الذي سهل لنا أموراً كثيرة كي نتمتع بمشاهدة أكثر وأهم مناطق إسطنبول.

إسطنبول هي المدينة الوحيدة في العالم التي تقع بين قارتين لهذا فهي التقاء ثقافتين وحضارتين تجسد روح الشرق وحيوية الغرب فهي مدينة قديمة حديثة، جنة التأريخ وتنوع الجغرافيا فيها التقى إبداع الإنسان بهبة الطبيعة.. فكانت إسطنبول!

تنوعت مشاهداتي لأهم المعالم السياحية بين التجوال في أهم أحياء إسطنبول وميادينها كتقسيم ميداني الذي سكنت بالقرب منه أو زيارة مساجدها الرائعة ومتاحفها وكذلك جزيرة جميلة ضمن أرخبيل من الجزر في مضيق البوسفور.

كانت أولى تلك الزيارات لمنطقة السلطان أحمد والقريب من مسجد آياصوفيا.. هذا الصرح الفني الرائع وكان (آياصوفيا) قبل الفتح الإسلامي لإسطنبول كاتدرائية ثم أصبح مسجداً لقرون، وبعد انهيار الخلافة العثمانية وقيام دولة تركيا الحديثة على يد مصطفى كمال أتاتورك

= أتيتك بجيش بدايته عندك ونهايته عندي فلم يستجب الأمير الرومي وانطلق المعتصم بجيشه ليستعد لمحاصرة عمورية فمضى إليها فلما استعصت عليه قال: اجعلوا النار في المجانيق وارموا الحصون رمياً متتابعاً ففعلوا فاستسلمت ودخل المعتصم عمورية فبحث عن المرأة فلما حضرت قال لها: هل أجابك المعتصم؟ قالت: نعم. فلما استقدم الرجل قالت له: هذا هو المعتصم قد جاء لنجدتك.

(١) السيف أصدق إنباء من الكتب ... في حده الحد بين الجد واللعب

بيض الصفائح لا سود الصحائف ... في متونهن جلاء الشك والريب

صدر قرار في ذلك التأريخ بتحويل هذا الجامع إلى متحف، وأصبح مزاراً للسياح من شتى أنحاء العالم، وفقد الجامع طابعه الديني الذي استمر عليه لمدة تزيد على أربعة قرون، ورغم ذلك تحركت جهود حثيثة في عهد حكومة نجم الدين أربكان سنة ١٩٩٧ بإعادة الصلاة في هذا المسجد ولكن عدم الاستقرار السياسي والنهج العلماني المتجذِّر حال دون ذلك.

في ميدان السلطان أحمد يقع الجامع الأزرق أو جامع (سلطان أحمد) وهو فعلاً مَعْلَم مذهل في عمارته، وأنواره المضيئة ليلاً تزيده جمالاً وهيبة! ويعد أحد أهم وأضخم المساجد في تركيا والعالم الإسلامي ويقع مقابل متحف وجامع آيا صوفيا، بُني المسجد بين عامي ١٠١٨ ـ ١٠٢٠ هـ / ١٦٠٩ ـ ١٦١٦ م حسب أحد النقوش على أحد أبوابه، مهندسه محمد آغا أشهر المعماريين الأتراك بعد سنان باشا، يقع المسجد جنوبي آيا صوفيا وشرق ميدان السباق البيزنطي القديم، وله سور مرتفع يحيط به من ثلاث جهات، وهذا الجامع الأزرق الواقع في وسط إسطنبول، يتحول إلى مزار أيضاً خارج أوقات الصلاة، دون أن يشعر الأتراك بأنهم يمسون حرمة المكان [(١)]. واشتهر المعماري التركي الشهير سنان باشا بترك بصماته وهو أستاذ محمد آغا الذي أشرف على بناء جامع السلطان أحمد، سنان باشا يوازي شهرته في الإمبراطورية العثمانية شهرت (ميكل أنجلو) في الإمبراطورية الرومانية في روما.!

وكأي سائح كان من ضمن مشاهداتنا في مدينة إسطنبول سوقها القديم المسقوف ذائع الصيت، والمعروف ببازار إسطنبول [(٢)].

(١) ولعل هنا يكون مناسباً أيضاً أن نتحدث في هذا السياق عن عبقري العمارة الإسلامية التركية «سنان» الذي عاش في الفترة ١٤٩٠ ـ ١٥٣٩ ويعتبر منافساً لمايكل أنجلو في المكانة بالنسبة لأعمال أنجلو في روما وقد تدرج من موقع مهندس في الحرس السلطاني ليتبوأ موقع المعماري الأول للإمبراطورية العثمانية في عهد السلطان سليم الأول بينما كان عمره ٤٩ عاماً في ذروة ازدهار الدولة العثمانية وهو «عاشق المساجد» وأول من أدخل القباب في عماراتها وقد خلف ٣٢٠ صرحاً معمارياً تعتبر جميعها آية في الفن المعماري على مر العصور بينها ثمانون مسجداً سلطانياً وخمسون مسجداً عادياً ومدارس ومستشفيات وقصور وجسور وحمامات وخزانات مياه وغيرها.

(٢) بازار كلمة فارسية وتركية وتعني سوق وغالباً ما يكون سوقاً شرقياً مسقوفاً وفي اللاتينية تطلق الكلمة على السوق الشرقية أيضاً.

بازار إسطنبول:

اكتسب هذا السوق الشهير أهميته منذ منتصف القرن الخامس عشر الميلادي ويجتذب Grand Bazaar مابين ثلاثمئة إلى مايقارب النصف مليون زائر يومياً!

ويشتهر هذا السوق الضخم بمتاجر المجوهرات والجلود و السيراميك المرسوم يدوياً والسجاد الرائع والمنسوجات اليدوية والبهارات و متاجر التحف. تمَّ تقسيم Grand Bazaar إلى أقسام كلٌّ منها يضم فئة معينة من المتاجر، اكتسب السوق أهميته منذ عام ١٤٦١م كمركز مهمٍّ للتجارة، عندما بُني بأمر من السلطان محمد الفاتح ما بين ١٤٥٥م و١٤٦١م. وقد تمَّ توسيعه بشكل كبير خلال القرن السادس عشر وتحديداً في عهد السلطان سليمان القانوني، ثم أُعيد ترميمه مرة أخرى عام ١٨٩٤م بعد زلزال أصابه.

إن قضاء يوم بأكمله في استكشاف السوق على مهل، والجلوس في أحد المقاهي ومشاهدة الحشود تمُرّ وتتفاوض على الأسعار سيعيد المرء للأجواء الرومانسية لإسطنبول القديمة، وللسوق عدة أبواب وقد يصل عدد زواره نِصف مليون زائر يومياً وكثير منهم من السياح من كل بقاع العالم، كان هذا السوق في العهد العثماني ليس فقط محلاًّ للبيع والشراء بل ومركزاً للبورصة، وكذلك كان يضم بنوكاً وفي قلب السوق صالة واسعة مقبَّبة تسمى السوق القديم، ما زال التسوق فيها على ما كان عليه منذ قرون. خلف مسجد YENI هناك سوق البهارات MISIR CARSISI، حيث يحمل الهواء نكهة القرفة والزعفران، والنعناع، والزعتر، وكل نوع يمكن تخيله من الأعشاب والبهارات، السوق في كثير من بضائعه وسقفه شبيه ببازار طهران أو سوق الحميدية في دمشق وغيرها ولكنه يبدو أكبر الأسواق الشرقية، وينفرد بازار طهران وإسطنبول بطولهما وتفرعاتهما ولطبيعة إسطنبول وانفتاحها على السياحة العالمية فإن البازار فيها يتميز بحيوية وازدحام المتسوقين والزوار من كل أنحاء تركيا، ومن مختلف بلدان العالم.

السوق المصري:

تعتبر الأسواق الواجهة الرئيسية التي تعكس حضارة تلك البلاد من خِلال البضائع والمنتوجات والسلع المصْنوعة يدوياً والملابس التراثية لكل منطقة نجدها في هذا السوق ومن هذه الأسواق (السوق المصري)، وهو من أقدم الأسواق العالمية المسقوفة ويقع في قلب

إسطنبول ويدعى بالسوق المصري والمتميز بالبناء المعماري العثماني، يعود تاريخ تشييده إلى عام ١٤١٦ ميلادي ويقع السوق المصري قرب الجامع الجديد (يني جامع)، وأطلق عليه السوق المصري؛ لأن التجار الأتراك قديماً كانوا يجلبون بضاعتهم من مصر وفي وقتنا الراهن يمثل هذا السوق مقصداً سياحياً للسائحين وخاصة العرب، حيث يأتون لشراء ما يحلو لهم من أفضل أنواع المكسرات والتوابل والقهوة التركية الشهيرة والملابس التراثية والهدايا التذكارية، ويوجد في السوق المصري حوالي ١٤٠ محلاً وله ستة مداخل، ويلحق به من الناحية الجنوبية سوق للأزهار وآخر للحوم والفواكه والخضراوات وسوق صغير للحيوانات والطيور وللسوق ثمانية عشر باباً ويحتوي على المنتجات التركية التقليدية مثل السجاد والنحاسيات والأعمال الزجاجية ذات الزخرفات الإسلامية والمصنوعات الجلدية والمصوغات الذهبية والفضية والخزفية والتحف الشرقية والأثرية والمشغولات اليدوية والحلي التقليدية.

يلاحظ أن السياح الأوروبيين لا يغادرون إسطنبول دون زيارة السور البيزنطي الذي لا تزال أجزاء مهمة وضخمة منه قائمة إلى اليوم، وكذلك زيارة «بازيليكا سيسترن» وهي خزَّانات المياه التي أقامها البيزنطيون تحت الأرض، لتزويد المدينة بما يلزمها من الماء، حيث يشاهد الزائر غابات من الأعمدة الرخامية الضخمة، بعضها حفرت عليه رسومات ارتبطت بأساطير غربية قديمة، وكلها تعوم على سطح بحيرة من المياه تسبح فيها الأسماك هذه الأيام. آثار المرحلة البيزنطية ليست بالضرورة من أولويات مكاتب السياحة التي تعنى بالعرب والمسلمين، فهذه تركز بشكل أكبر على المرحلة العثمانية بقصورها ومساجدها وأسواقها ومدارسها.

يريد الأتراك أن يخبروا الزائر بأن كل حجر هنا يستحق الزيارة والاستماع إلى قصته التي لا ينقصها التشويق، فما بالك بالصروح الكبرى التي لا تحتاج لترويج، كي تشعر بالانجذاب نحوها فقصر «توب كابي» أو «الباب العالي» بكل ما يحويه من كنوز ومجوهرات وهدايا، امتلكها السلاطين، أو جاءتهم من أنحاء الدولة الإسلامية كلّها، هو جزء من تاريخنا كعرب نودُّ أن نراه. جناح المقدسات مشغول بعناية، شعر للرسول الكريم (ﷺ) محفوظ هنا، بطريقة تزيد من مهابته، سيوف للصحابة من أبي بكر إلى عمر وعلي وعثمان، إضافة إلى أثر لقدم النبي (ﷺ)، وعمامة يوسف، وعصا موسى، وثوب لفاطمة ابنة النبي (ﷺ)، إضافة إلى مصحف عثمان الملطَّخ بالدماء الذي قُتل وهو يتلو آياته، وتراه ملطَّخاً بالدماء. لا يعرض الأتراك هذه المقتنيات

ذات البعد الروحي الكبير، دون أن يحيطوها بما يلزمها من أجواء قدسية، وفي إحدى الغرف يجلس شيخ معمّمٌ يتلو آيات من الذِّكر الحكيم بصوت رائع يتردد صداه في المكان، لا مكان للتسجيل أو الاسطوانات في مثل هذه المناخات، فالمطلوب التأثير على الزائر، ووضعه في حالة من الخشوع الكامل في هذا الجناح بالذات حتى لو كان مسيحياً أو يهودياً(١).

لا فرق بين السياحة الدينية والسياحة الثقافية، عندما يختلط الديني بالحضاري والتاريخي، وفي كنيسة آيا صوفيا التي تحولت إلى مسجد مع بداية العصر الإسلامي في إسطنبول، وتبعد أمتاراً عن«توب كابي»، يجد المسيحيون الغربيون ما يبحثون عنه، وكذلك المسلمون الذين يرون آثار تحويل الكنيسة إلى جامع واضحة من الآيات القرآنية التي عُلِّقت في كل مكان من الكنيسة، قبل أن يأمر أتاتورك بتحييد هذا المعلم وجعله متحفاً للزوار.

صناعة السياحة في تركيا تجعل من يُنهي زيارته لها يتطبَّع بصور عديدة لتفاصيل حياتها ولو لبضعة أيام أو أسابيع، وهم على دراية بما يأكل شعبها وما يشرب، وكيف يتنزه، وما هي حلوياته المفضلة، وصناعاته الأثيرة. والتعرف على الأسواق الشعبية والاحتكاك بالتجار. وهذا مرسوم ومنظَّم تحترمه المكاتب السياحية وتعمل وفقه.

وأكثر من ذلك فإن هذه المكاتب تنصح السيَّاح بالتعرف على السهرات على الطريقة التركية التي يستمعون خلالها لموسيقى البلاد ويرون رقصها، والأهم من ذلك يتعرفون على دراويشها.

الدرويش(٢) في تركيا بات رمزاً وطنياً، وتجد صورته في مجسمات، تعتبر واحدة من أهم الرموز التذكارية التي يمكن أن تحملها إلى بلدك، مصنوعاً من الفخار أو النحاس، يدور على قاعدة ثابتة، تجده مرسوماً على فناجين القهوة، أو صحون الزينة، محفوراً على الأساور والقلائد، منتصباً في الصالونات والساحات. المسألة ليست تديناً أو التزاماً بفكر ديني بعينه،

---

(١) صحيفة الشرق الأوسط الأحد ٢ أكتوبر ٢٠١١ العدد ١١٩٩٦.

(٢) يقول الزبيدي في «تاج العروس»: (درش) أو (الدرشة) بالضّم اللجاجة نقله الصاغاتي ومنه اشْتِقَاقُ الدَّرْوِيش، فَعْلِيل، منهُ إنْ كان عَرَبِيّاً، بِمَعْنَى الفَقِيرِ الشَّحّاذِ السائِلِ، وقَدْ تلاعبت باستعماله العرب أخيراً، وغالب الظن أنها كلمة فارسية المعجم الذهبي فارسي ـ عربي، طبعة مزيدة ومنقحة ١٩٩٣م تأليف محمد التونجي، دار الروضة، بيروت، لبنان.

لكن الاستفادة مما هو موجود، وإضفاء قيمة على ما تنضح به مشاعر الناس من فيض روحي أو دنيوي هو تماماً ما ينتهجه الأتراك للتعريف بأنفسهم.

ولا بد من الإشارة هنا بأن صناعة التذكارات السياحية المستفيدة من الرموز الثقافية تدُرّ على تركيا مدخولاً هائلاً. ومن الضروري القول: إنها تذكارات على كثرتها مصنوعة كلها في تركيا، ولن تجد أبداً مثل هذه القطع التي يفترض أن تأتي بها إلى بيتك بعد زيارة العاصمة العثمانية، لتجد أنها صنعت في الصين أو أي بلد آسيوي!

تحظى تركيا ومدينة إسطنبول تحديداً بخصوصية الجمع بين إطلالتين، شرقية وغربية، في الوقت نفسه نظراً لموقعها المتفرد على مضيق البوسفور، حيث جمعت بين حضارات متأصلة من العراقة والحداثة في آن واحد. وتجمع مدينة إسطنبول بين كل ما هو قديم وحديث في كل ما يجذب السياح من العالم العربي أو الغربي باقتدار.

وفي الأيام الأولى لوصولنا إسطنبول حرصنا على زيارة متحف (توب كابي) وقد استخدم هذا المبنى في عزِّ الدولة العثمانية كرئاسة للسلطنة ولكنه في عهد أتاتورك تحول إلى متحف وإلى يومنا هذا. ويقع هذا القصر بين بحر مرمرة وبين مضيق البوسفور...

والمتحف الإسلامي يحتوي على العديد من الآثار والتحف النادرة ومن بينها سيف الرسول ﷺ وكذلك شعرة من لحيته على حدِّ قولهم.

جزيرة بيوكودا:

لم نكن نعرف عن هذه الجزيرة شيئاً لولا حديثنا مع مستضيفنا المقيم في إسطنبول وقبل يوم من مغادرتنا إلى بعض عواصم شرق أوروبا رافقنا في رحلة إلى إحدى الجزر القريبة من إسطنبول وهي جزيرة بيوكودا وتعني: الجزيرة الكبرى وتبعد عن إسطنبول حوالي ساعتين بواسطة السفينة وقد أطلق عليها هذا الاسم؛ لأنها كانت مصّيف للأميرات البيزنطيات، ذهبنا إليها بعد أن دفعنا رسوم السفينة والتي كانت بضعة دولارات فقط كانت وجهتنا إلى جزيرة (بيوك اضه) وقد وصلنا بعد ساعتين عبر بحر مرمرة، وللمعرفة فإن السفينة تمر على أكثر من جزيرة في طريقها حيث يصعد وينزل ركاب إلى السفينة وجزيرة (بيوك اضه) جنة على الأرض.

أول ما يلفت انتباه الزائر هناك هو صفاء الجو؛ لأن الجزيرة خالية من السيارات عدا

سيارات الشرطة والإطفاء والبلدية فقط ووسيلة المواصلات الوحيدة هي العربات التي تجرها الخيول وتسمى (الحنطور) وإذا نزلت من السفينة ستجد العربات في انتظارك حيث تأخذك لتطوف بك في أنحاء الجزيرة وتتوقف العربات لفترة راحة مدة نصف ساعة لالتقاط الصور التذكارية ويوجد في نفس المكان مقهى كبير تتناثر طاولاته بين الأشجار.

وهناك بقية جزر تشكل أرخبيلاً ولم نزر إلاّ تلك الجزيرة وعرفت من الكتيب السياحي الذي اشتريته قبل صعودنا المركب البحري بأن هناك الكثير من هذه الجزر مايعرف بجزر الأميرات وتشتهر هذه الجزر بشواطئها وبأشجار الصنوبر. فيها أكبر الجزر وأكثرها متعة وجمالاًوهي BUYUKADA، حيث يمكن الاستمتاع بركوب العربات التي تجرها الخيول بين أشجارها الوارفة الظلال، وشواطئها الذهبية وطبيعتها الخلابة قضينا يوماً كاملاً، ويمكن للزائر الانتقال بين هذه الجزر على المعديات التي تقوم برحلات منتظمة، هذا بالإضافة إلى خدمة (الباص) البحري التي تتوفر في فصل الصيف.

دراما المسلسلات التركية عامل جذب سياحي!

أدى التعلق الشديد بالمسلسَلات التلفزيونية التركية إلى هجرة كاملة نحو تركيا، جسدياً وروحياً، وأصبح كل ما يرمز إلى تركيا يثير فضول الناس، بعد أن اجتاحت حمى المسلسلات التركية أرجاء الوطن العربي في سابقة لم يتوقع لها أن تثير كل هذه الضجة[(١)]. واستغل الأتراك تعلُّق العرب بشخصية مهند وأصبح البيت الذي تمَّ فيه تمثيل المسلسل مزاراً، بل الأسخف من ذلك أن سعر تذكرة الدخول أغلى من تذكرة دخول أشهر متحف في تركيا والذي يحوي تراث الحضارة العثمانية على مدى عقود!

وهذا يعكس نوعية وتوجهات بعض السياح العرب للأسف الذين ينفقون بسخاء على رحلاتهم وربما من القلة مَنْ يتمتع برحلته لتركيا على الوجه الأمثل والطبيعي.

(١) إلا أن الفترة الأخيرة بدأت بعض المسلسلات التركية والتي تجسد أمجاد التأريخ العثماني مثل القرن العظيم أو (حريم السلطان) والذي غدا مثار جدل بين الأتراك أنفسهم ومنهم رئيس الحكومة التركية (أردوغان) الذي رأى بأنه يعكس فقط الجانب السلبي في حياة أشهر السلاطين العثمانيين سليمان القانوني!

صناعة السياحة في تركيا:

باتت (صناعة السياحة) في تركيا ظاهرة تستحق الرصد، ليس لأنها تجتذب ما يزيد على ٣٥ مليون سائح كل سنة [(١)]، في حين لا تستقطب مصر مثلاً في أحسن الأحوال أكثر من عشرة ملايين شخص[(٢)]؛ لأن هذه الصناعة تقوم بشكل أساسي على تسويق الجانب الثقافي التراثي للبلاد. صحيح أن الموقع الجغرافي لتركيا على قارتي أوروبا وآسيا وعلى بحار عدة، وفي نقطة تتوسط العالم، هو أمر يتمُّ استثماره بذكاء، لكن التاريخ يكاد يوازي الجغرافيا ويتفوق عليها في السياحة التركية، لا سيما في إسطنبول التي يزورها واحد على الأقل من بين كل أربعة سيَّاح.

النقطة الأساسية التي يروِّج لها الأتراك لجعل إسطنبول مشتهى للزيارة، هي أنها كانت عاصمة الدولة البيزنطية لمدة ٤٠٠ سنة، ومن ثم عاصمة للعالم الإسلامي لمدة ٥٠٠ سنة. الآثار الإمبراطورية من الفترتين محفوظة بشكل ممتاز، وتُصان برموش العين، ويؤرَّخ لها، وتُشرح للسيَّاح دلالاتها بفضل مرشدين سياحيين يتكلمون مختلف اللغات.

تشكل السياحة أحد أهم أعمدة الاقتصاد التركي وخاصة في العقود الأخيرة، وفي هذا السياق ذكرت وكالة الأنباء التركية في تقرير لها أن عدد السائحين الوافدين إلى تركيا بلغ أكثر من ثلاثين مليون سائح في ٢٠٠٨أدَرُّوا إلى البلاد دخلاً بقيمة ٢٢ مليار دولار أمريكي وخارج إسطنبول ـ لمن يحبون الطبيعةـ يشتهر الساحل الجنوبي بجمال طبيعته وشواطئه الطويلة لدرجة أنه يعرف باسم الريفيرا التركية تشبيهاً له بالريفيرا الفرنسية، بالإضافة إلى العديد من المناطق السياحية الأخرى[(٣)].

الرحلة في مضيق البوسفور رحلة ثقافية وترفيهية بامتياز، أو هكذا يريدها العثمانيون الجدد، فكل ما على الضفة الغربية الأوروبية من المضيق وأنت تعبره يبدو لك وكأنه طالع من مجد شامخ، كل دليل سياحي يعرف عن ظهر قلب تاريخ إنشاء كل معلم من هذه المعالم العريقة، واسم مهندسه، والدور المهم الذي لعبه.

(١) صحيفة الشرق الأوسط ٢ أكتوبر ٢٠١١ العدد ١١٩٩٦.

(٢) وبعد تداعيات ما عرف بثورات الربيع العربي في مصر وغيرها فقد تدنت عائدات السياحة في أكثر من بلد عربي ومنها مصر التي تقلصت فيها أعداد السياح ولو بنسبة بسيطة.

(٣) «السياحة في تركيا»، دار الثقافة بيروت الطبعة الأولى ٢٠١١ ص٦٥.

مصلحة تركيا هي التوجه جنوباً وشرقاً:

تميزت العلاقات التركية العربية بالتوتر منذ أيام حكم الإمبراطورية العثمانية لمعظم البلاد العربية متزامنة بتقسيم ملكية الدول العربية بين الدول الاستعمارية ومرحلة تراجع الإمبراطورية العثمانية، ولقد حاولت تركيا منذ نشأة الجمهورية التركية في بداية القرن الماضي التركيز على علاقاتها مع الغرب وخاصة أوروبا والولايات المتحدة. كما أن اتِّباع السياسة الخارجية التركية السياسة الغربية و خاصة الأمريكية، أدى إلى تحسن العلاقات التركية الإسرائيلية، التي يرى فيها العرب تهديداً لمصالحهم وأمنهم، على مدى العقود السابقة تحالفت تركيا بشكل غير رسمي مع إسرائيل و عقدت العديد من الاتفاقيات التجارية و العسكرية مع الدولة العبرية، رأت دولٌ عربية ولاسيما سوريا حينها تهديداً مستمراً لها، كما ساهمت سياسات تركيا المائية والزراعية وبناء العديد من السدود في مشروع جنوب شرق الأناضول على نهري دجلة والفرات، اللذين هما عصب الحياة في العراق وسوريا، والتدخل العسكري التركي في شمال العراق، إلى المزيد من التوتر السياسي وخاصة مع العراق، وكادت أن تؤدي مسألة إقليم الإسكندرونة المتنازع عليه مع سوريا و اتهام تركيا لسوريا بدعم حزب العمال الكردستاني المحظور إلى نشوب نزاع عسكري بين البلدين، بعد وصول الأحزاب الإسلامية المعتدلة إلى سدة الحكم في السنوات الأخيرة، حاولت تركيا تحسين علاقاتها بجيرانها و خاصة العرب منهم. احتجت تركيا مراراً على سياسة إسرائيل الاستيطانية والعمليات العسكرية القاسية ضد المدنيين الفلسطينيين. وقامت تركيا بلعب دور الوسيط بين سوريا وإسرائيل عبر المفاوضات غير المباشرة و التي قامت على أراضيها ، ومؤخراً تدخلت تركيا في مجريات الثورة التي اندلعت في سوريا منذ ربيع ٢٠١١.

حاولت تركيا الانضمام لعضوية الاتحاد الأوروبي منذ تأسيس الاتحاد في عام ١٩٩٣ وكان هناك توجه من هذا القبيل عندما كان يسمى بالسوق الأوروبية المشتركة، وحصلت تركيا رسمياً على صفة دولة مرشحة للانضمام عام ١٩٩٩ وبدأت مفاوضات العضوية عام ٢٠٠٤. ومسألة إنضمام تركيا للاتحاد قسمت الأعضاء الحاليين في الاتحاد إلى معارض ومؤيد. ويقول المعارضون بأن تركيا ليست دولة أوروبية وإنما هي جزء من الشرق الأوسط و آسيا وإنها سياسياً

واقتصادياً و ثقافياً لا تلبي الشروط الدنيا للعضوية (حسب معايير قمة كوبنهاجن) [(١)] وستكون عبئاً على الاتحاد. بينما يقول المؤيدون بأن العضوية ستمنع انتشار الفكر المتشدد في منطقة الشرق الأوسط، والذي قد يوقع تركيا في يوم من الأيام تحت سيطرة المتشددين، وبأن لدى تركيا أراض زراعية شاسعة وأيدي عاملة كبيرة ستفيد الاقتصاد الأوروبي. ومن الناحية الإيجابية التي نتجت عن نية تركيا الانضمام للاتحاد وفرض الاتحاد شروط لبدء مفاوضات العضوية من ضمنها تقليص سيطرة الجيش على مجريات الحياة السياسية في البلاد، ونمو الحريات وحقوق الإنسان وخاصة فيما يتعلق بحقوق الأقليات وأهمها الكردية كما حاولت تركيا جاهدة في الفترة الأخيرة حلَّ مشكلة قبرص، التي قامت باحتلال الجزء الشمالي منها عام ١٩٧٤ تحت ذريعة حماية حقوق الأقلية التركية هناك.

تُعد إسطنبول أيضًا «مدينةً كبرى»، في تركيا ومن كبريات المدن العالمية، من حيث عدد السكان، فيها نحو ١٢ مليون نسمة، ويُنظر إليها على أنها مركز تركيا الثقافي والاقتصادي والمالي، تغطي مساحة المدينة ٣٩ مقاطعة تُشكل محافظة إسطنبول، تطل إسطنبول على مضيق البوسفور وتطوّق المرفأ الطبيعي المعروف باسم «القرن الذهبي» الواقع في شمال غرب البلاد. تمتد المدينة على طول الجانب الأوروبي من مضيق البوسفور، المعروف باسم «تراقيا»، والجانب الآسيوي أو «الأناضول»، وبالتالي فإنها المدينة الوحيدة في العالم التي تقع في قارتين. وفي عام ١٤٥٣م انهارت الإمبراطورية البيزنطية وفتح العثمانيون المسلمون المدينة بقيادة السلطان محمد الثاني الفاتح، الذي جعلها عاصمةً للدولة وغيّر اسمها إلى «إسلامبول»، أي «مدينة الإسلام» ومن الأسماء التي عُرفت بها المدينة خلال العهد العثماني: «دار السعادة» (بالتركية العثمانية: در سعادت)، «الباب العالي» (بالتركية العثمانية: باب عالي)، وكذا «الأستانة».

إسطنبول ليست مدينة تاريخية فحسب، بل مدينة عظيمة وفاتنة تنبض بالحيوية، فإلى جانب

(١) تناولت موضوع محاولات تركيا دخول الاتحاد الأوربي بالتفصيل في كتابي المعنون «الاتحاد الأوروبي والعلاقات اليمنية الأوروبية» في نسخته الأولى الصادر في ٢٠٠٩ إصدار مركز عبادي للنشر والتوزيع صنعاء.

المشهد الذي لم يتغير لقببها ومآذنها تتمتع إسطنبول بتنوع غير محدود، ففيها المتاحف، والكنائس القديمة، والقصور، والمساجد الكبيرة، والأسواق، وموقعها المطلّ على المضيق، و بهذا التنوع تجعل إقامة السائح فيها قصيرة كانت أم طويلة متعة لا تُنسى، لقد أصبحت الرحلات البحرية في مضيق إسطنبول شائعة جداً، ويندر أن يزور سائح إسطنبول دون الاشتراك في واحدة منها. وهذه الرحلات ليست كل شيء في مضيق إسطنبول، فهناك المطاعم والنوادي الليلية التي تتيح للسائح فرصة الاستمتاع بالطعام والعروض في جوٍّ مميز وجميل.

حوالي أربعة أخماس الشعب في تركيا من الأتراك، أما الأكراد الذين يشكلون الغالبية في المحافظات الجنوبية الشرقية المتاخمة لسوريا وإيران والعراق، ويشكلون أكبر أقلية قومية من السكان ويتكون الباقي من مجموعة متنوعة على شكل أعداد صغيرة، بما في ذلك اليونانيين والأرمن واليهود السفارديم.

لقد تطورت اللغة التركية على مدى قرون عديدة، و قد شهدت إصلاح وتعديلات رئيسية خلال القرن المنصرم، فبينما كانت حروفها عربية خلال الفترة العثمانية، إلا أنه ومنذ العام ١٩٢٨ استبدلت بحروف لاتينية. !

معظم أبناء كردستان تركيا يتحدثون الكردية، وقد منعت لسنوات عديدة، ويتحدث بها حوالي ٢٠٪ إلا أن الحكومات الأخيرة قد بدأت للسماح للأكراد للتواصل بلغتهم مع الغير ومنها إنشاء قناة كردية لأول مرة.

كما أن ٢٪ من الأتراك يتحدثون اللغة العربية وهم ذوو الأصول العربية أو من المناطق المتاخمة لسوريا باعتبارها ضمن إقليم الاسكندرونة، إضافة للغة الإنجليزية المستخدمة في الأماكن والمعالم السياحية، كما أن الألمانية واسعة الانتشار لاعتبارات تاريخية ولوجود جالية تركية كبيرة في كلٍّ من ألمانيا والنمسا. أما اللغات الأخرى فهي لغات الأقليات المتواجدة في البلاد مثل الآرامية، والأرمينية والألبانية، والجورجية، واليونانية، والشركسية. هناك عدة لهجات للغة التركية، تختلف بحسب المنطقة المتداولة بها، واللغة الإنجليزية هي الثانية كما أن الألمانية واسعة الانتشار لاعتبارات تأريخية بين البلدين ولوجود جالية تركية كبيرة في كلٍّ من ألمانيا والنمسَا.

يمكن للسائح والزائر لتركيا أن يستخدم اللغة الإنجليزية التي بدأت تنتشر في الأماكن

السياحية ولكن بالطبع فإن اللغة الرسمية هي اللغة التركية، التي يتحدث بها حوالي ٧٧٪ من سكان البلاد، اللغة الكردية تستعمل بين أبناء الأقلية الكردية (حوالي ٢٠٪)، وحوالي ٢٪ ما زالوا يتكلمون اللغة العربية بين الأتراك ذوي الأصول العربية.

وبالطبع يعتنق غالبية سكان تركيا بالديانة الإسلامية، حسب الإحصاءات الرسمية فإن ذلك يشكِّل نحو ٩٤٪ من سكان البلاد، حوالي ٨٥٪ منهم يتبعون الطائفة السنية، بينما يتبع زهاء ١٥٪ الشيعة العلوية. كما يدين حوالي ٠.٨٪ بالمسيحية و خاصة الأرثوذكسية، و٠،٠٤٪ باليهودية. أما الأقليات الأخرى فهم من اليزيديين والمانويين وصابئة منهم من المندائية وغيرهم.

على الرغم من أنّ أغلب سكان تركيا من المسلمين وغالبيتهم من المسلمين السنّة، وبالرغم من وجود الأقليات الشيعية في البلاد هي دولة علمانية، وعلى عكس مايبدو في التفكير السطحي للمراقب العربي بأن الشعب التركي أقل تديناً من الإيراني والحقيقة هي العكس تماماً فإسطنبول هي مدينة الألف مأذنة وفيها أكثر من ٣٥٠٠ مسجد بينما في تركيا كلها نحو ثمانين ألف مسجد وقد يستغرب القارئ بأن هذا العدد يكاد يقارب عدد مساجد البلدان العربية كلها!

وفي إيران رغم أن ثلث السكان سنّة لايوجد في طهران إلا بضعة مساجد فقط للسنة!(١).

ومن المناطق التي تستحق الزيارة أيضاً في تركيا مدينة بورصه والتي تشتهر بصناعة السجاد وبالمياه الحارة وبزراعة الكرز والخوخ والفراولة والتوت والمنطقة رائعة جداً جداً حيث الخضرة في كل مكان.

وتبعد هذه المدينة عن إسطنبول مدة نصف ساعة بالسفينة أيضاً ولكن الوصول إلى الميناء يستغرق قرابة الساعة ونصف الساعة من وسط المدينة؛ لأن إسطنبول مترامية الأطراف ومكونة من قسمين إسطنبول الأوروبية وإسطنبول الآسيوية ويربط بينهما جسر معلق بطول ١٥٠٠ متر وقد شيد قبل عقود، وإلى قبل سنوات كان يعتبر ثاني أطول جسر بالعالم بعد جسر نيويورك.

منطقة تقسيم والتي تحتضن المتاجر الفخمة والماركات العالمية والتي تمتد على شارع بطول كيلو متر واحد حيث تشاهد المحلات الراقية و دور السينما و المطاعم الكبيرة.

(١) بل ويقال بأنه لا يوجد حتى مسجد واحد يمارس عباداته بحرية مطلقة وإن وجدت فهي تحت المراقبة!

وعلى ساحل البوسفور سيخطفك بريق قصر«دولما باهتشه»، أحد أجمل قصور إسطنبول التي تزين ساحل البوسفور في الجزء الأوروبي. . ينقضي نهارك بأكمله في نزهة داخل القصر الذي لا تستطيع أن تنسى تفاصيله وحدائقه الساحرة ومنظر البوسفور والزوارق والمراكب تعبر من أمامه، وكذلك بهوه الرئيسي الذي تعلق فيه أكبر ثريا من الكريستال في العالم.

و«دولمه باهتشه»، أول قصر يُبنى في تركيا على الطراز الأوروبي بدلاً من قصر توب كابه (الباب العالي)، الذي لم يكن يتمتع بوسائل الحياة الحديثة، ويروى أن المنطقة التي شُيِّد عليها القصر هي نفس المكان الذي أنزل عليه السلطان محمد الفاتح سفنه على اليابسة للوصول إلى«القرن الذهبي» أثناء فتح إسطنبول في القرن الخامس عشر.

ولا يعتبر السائح أنه زار إسطنبول إلا إذا عرَّج على حي«باي أوغلو»، حيث يوجد به شارع استقلال، أشهر شوارع إسطنبول، ولا يمكن للمرء أن يكفَّ عن الكلام عن تجربته داخل شارع استقلال، فأياً كانت غايتك فستجد ضالَّتك في شارع استقلال. رغم أنه من المتعارف عليه أن الشارع ملجأ عشاق التسوق لكثرة محلات الملابس الشهيرة ذات الماركات العالمية، فإن متعة التسوق تعتبر واحدة من متع كثيرة يمكن أن يستمتع المرء بها داخل شارع استقلال، فإلى جانب المقاهي والمطاعم الشرقية والغربية توجد المكتبات ودور السينما والمسارح والملاهي الليلية، ومترو شارع استقلال الأحمر الشهير والكنيسة الأرمينية.

وبعد عدة جولات في المناطق السياحية بإسطنبول داخل حي أيوب التاريخي بالجزء الأوروبي من إسطنبول ينتهي الزائر العربي إحساسه بالغربة، ويتبدد الشعور بأنه سائح وحيث ينسجم مع عادات الأتراك وطباعهم التي لا تختلف كثيراً عن العرب، ويستمتع بأجواء الحي الشرقي، ويتكيَّف مع الناس على الرغم من عدم معرفة أغلبهم بأي لغة أجنبية. وفي الشوارع الداخلية من الساحة تجد بعض المطاعم السياحية التي تقدم الكباب التركي الشهير و (الشاورمة) إلى جانب المقبلات التركية المعروفة، ولكن تشتهر مطاعم المنطقة بمقبلات جبن الماعز وأطباق الجبن الساخن وسلطة الطماطم بالفلفل الحارة مع الخبز التركي الشعبي الذي يفضِّل الأتراك في الوقت الحالي تناوله طوال شهر رمضان.

وفي المقاهي المنتشرة بساحة الحي يمكنك الاستمتاع بتناول الحلويات التركية الشهيرة،

من الكنافة بالجبن والبقلاوة والمهلبية والأرز باللبن وغيرها . ويعتزُّ الأتراك بهذا الحي لما له من قيمة تاريخية ودينية، حيث يوجد عدد من الجوامع الأثرية المهمة، منها جامع أيوب، وجامع السلطان أحمد، وجامع محمد الفاتح، وجامع السليمانية، وهو أول جامع يشيده الأتراك بعد فتح القسطنطينية في عام ١٤٥٨ بالقرب من القرن الذهبي، وتسمع هنا من الأتراك أن الجامع شُيِّد بالقرب من قبر الصحابي أبي أيوب الأنصاري الذي توفي بالقرب من أسوار القسطنطينية في عام ٦٧٠ ميلادياً عند محاولة المسلمين فتح القسطنطينية[(١)] .

ومما لاشك فيه بأنه قد استجدَّت أشياء كثيرة ومجالات وخيارات أكثر للسيَّاح منذ زيارتي لها قبل ثلاثة وثلاثين عاماً من الآن ففيما يتعلق بالسياحة وجذب السياح هو ماقرأت عنه وسمعت من زوار بوجود (حديقة تركيا المصغرة) على غرار حدائق مشابهة زرتها في بروكسل (أوروبا المصغرة) وفي هولندا .

تعتبر حديقة (تركيا المصغرة) من أهم المشاريع المتميزة التي قامت بلدية إسطنبول بإنجازها مؤخراً نظراً لموقعها المتميز ومكوناتها وعناصرها الفريدة وهي مشروع حضاري متميز نوعاً وحداثة .

ويؤكد كل من زارها بأنها «الحديقة» الأولى وربما الوحيدة من نوعها في البلاد حيث تقدِّم للسائح لوحة فنية رائعة للأماكن التاريخية في جميع أنحاء تركيا في وقت قصير للغاية .

ومما سمعت وقرأت بوجود أكثر من مئة مجسمٍ في الحديقة تحكي تاريخ عصر بكامله عن الإنجازات الكبيرة التي قام بها العثمانيون الأوائل . وأن ما تتضمنه حديقة (تركيا المصغرة) من مفردات جديدة لا توجد في غيرها من حدائق تركيا يجعلها ذات نمط خاص وطابع فريد .

ويرى الزائر بمجرد زيارة حديقة تركيا المصغرة في مدينة إسطنبول معالم تاريخية اختلطت بالثقافات والآثار العربية والإسلامية فجثمت قربها وتجانست معها منها منارة (ييفلي) بأنطاليا ودار الرهبان في (طرابزون) وجبل (نمرود) في الأناضول وجامع (السليمانية) الشهير في إسطنبول .

---

(١) صحيفة الشرق الأوسط العدد رقم ١٢٠٣٤ الصادر في الأربعاء ٩ نوفمبر ٢٠١١.

ومن مميزات الحديقة أن السائح يجول في معالم تركيا من جنوبها إلى شمالها ومن شرقها إلى غربها ويطّلع عن كثب على حضارات تاريخية حكمت تركيا وتركت بصماتها فيها من روما وبيزنطة في العصر القديم مروراً بالعصر السلجوقي وصولاً إلى العثمانيين.

وتجسد حديقة (تركيا المصغرة) الحضارات في مجسمات أثرية مصغرة متحركة وثابتة تقوم على مساحة واسعة يرشدك دليل صوتي بمختلف اللغات للحصول على المعلومات المطلوبة للمجسمات وقد لاقت الحديقة إقبالاً كبيراً من الزوار من كل دول العالم.

وجذبت الروائع الأثرية في الحديقة التي أظهرها فريق عمل محترف الكبارَ قبل الصغار لروعتها وتشكيلها وتصاميمها الهندسية الدقيقة لقصور وآثار تركيا التي جمعت بين القديم والحديث. وتعتبر حديقة (تركيا المصغرة) تكويناً يعبِّر عن روح الماضي ويضفي لمسات تاريخية ويجمع بين القلاع والحصون وقبب المساجد والبوابات العتيقة والأبراج التي انطبعت في قلب البلاد.

وكان من جملة الانطباعات التي لازلت أتذكرها أثناء تلك الزيارة هو أننا حرصنا على أن نجرب حمامات تركيا الشهيرة والنظيفة، فالحمام التركي مشهور عالمياً (Turkish path) والتي يزورها الكثير من السيَّاح الأجانب من كل الجنسيات، وعند دخولك إلى هناك يجب عليك نزع جميع ملابسك ووضع ملابس خاصة وعند دخولك إلى الحمام ستلاحظ حرارة الجوِّ في الداخل و البخار الكثيف.

وقد قَلَّتْ تلك الحمّامات رغم زيادة سكان إسطنبول والسبب بتحول المجتمع التركي لحياة أكثر عصرية وتوفر حمامات السونا والبخار في المنازل والنوادي الفارهة، وتعقيد الحياة في هذه المدينة من وقت لآخر!

وإجمالاً فقد تأثر العرب بكثير من عادات الأتراك بحكم رضوخ أغلب مناطق الوطن العربي وشرق أوروبا لسلطة الدولة العثمانية، من ضمن ذلك تفاصيل عديدة في الحياة اليومية من مأكل وعادات وحتى مفردات لغة، وبالمناسبة فقد أخذت اللغة التركية الكثير من الكلمات العربية ولو أن الكثير منها بدأ يتلاشى خلال القرن المنصرم بعد سياسة التتريك وتغيير الحروف العربية.

وفي المقابل فقد تأثَّرت أقاليم عربية كثيرة بتلك العادات والثقافة ومنها بعض مفردات تركية في اللهجات العربية سواء في مصر أو العراق والشام واليمن، وعلى سبيل المثال في مايتعلق بالمأكولات: (شاورما، كباب، كفتة، شوربا، كنافة، بقلاوة، قطايف... إلخ) كلها كلمات تركية.

وفي مجال الجيش: (شاويش، عسكري، جنرال، أودة (غرفة)، شوال (جوال يحمل فيه الحبوب و الأرز) (يوز باشي).

وفي مجال الحرف: (ساعاتجي، قهوجي، حكيم (دكتور)، ترزي).

وبالنسبة لليمن فقد ترك الاحتلال التركي لليمن كثيراً من عاداته وتقاليده ولاسيما في مناطق شمال اليمن التي خضعت دون سواها للعثمانيين بينما كان جنوبه تحت السيطرة البريطانية كما هو معلوم لذا فالمتأمل لبعض المفردات في اللهجة الصنْعانية تحديداً يتكشف عشرات الكلمات من أصل تركي[1] وبعظمها تشترك في المعنى في لهجات بلدان عربية أيضاً وعلى سبيل المثال الكلمات التالية ومعناها بالعربية:

١ ـ أدب سيس: (قليل أدب)

٢ ـ اسبنك: (سبانخ)

٣ ـ أفندي وأفندم: (سيد)

٤ ـ أيوت افندم: (وتعني نعم ياسيدي)

٥ ـ باروت خانة: (محل صناعة البارود يقع في ميدان السبعين حالياً).

٦ ـ بردق: (فنجان)

٧ ـ بشمق: (حذا)

٨ ـ بخشيش: (وقيل بأنها من أصل فارسي أي أعطى)

٩ ـ بطلجان: (باذنجان)

(١) لقد تكرم أخي الدكتور عبد الغني العمراني بتجميع نحو مئة مفردة صنعانية من أصل تركي وقد سردت الكثير منها في الطبعة الأولى لهذا الكتاب، وفي هذه الطبعة فضلت اختصارها لنحو ستين مفردة فقط.

١٠ ـ بردات: (مفردها برده وأصلها بردى. ومعناها: ستارة النافذة)

١١ ـ بقلاوة: (نوع من الحلويات الصنعانية)

١٢ ـ بيبار: (فلفل حلو الفلفل الأخضر الكبير والمدور)

١٣ ـ بوتي: (حذا طويل وهي من أصل فرنسي)

١٤ ـ بورزان: (البوق المصنوع من النحاس)

١٥ ـ بليزق السوار: (معصم اليد)

١٦ ـ تبسي: طبق كبير من النحاس الألمنيوم تقدم فيه أطباق الطعام

١٧ ـ تتن: (وهو التبغ ومعناها الدخان)

١٨ ـ تِخْته : (الخشب ويطلق أيضاً على سبورة المدرسة)

١٩ ـ بيكار: (فِرجار)

٢٠ ـ تنكه : (الصفيحة من الزنك المطروق)

٢١ ـ جسكي: (مسطرة)

٢٢ ـ جزوة: (إبريق صغير ليس له غطاء لصنع البن، مستخدمة)

٢٣ ـ جندرمة : (وحدة من الجيش مجموعة وعند الأكراد يقولون: بشمرجه)!

٢٤ ـ خاشوكه: (شوكة الأكل)

٢٥ ـ خافقية : (قصعة من الحديد الرقيق)

٢٦ ـ خوجة : (معلم الصبيان)

٢٧ ـ دشمان: (عدو)

٢٨ ـ رواني: (نوع من الحلويات الصنعانية)

٢٩ ـ سرسري: (رجل من السوقة، صعلوك)

٣٠ ـ سفرطاس: (طقم طناجر خاص بالسفر)

٣١ ـ سكربيل : (حذاء نسائي)

٣٢ ـ شرشف: (ستار المرأة حجاب)

٣٣ ـ شفت: (مجموعة أربع كدم) والكدم نوع من الخبز المدور شبه المكور من عدة حبوب وكان يعطى في البداية للجيش).

٣٤ ـ طيرمانة: (مكان الطير والمقصود غرفة صغيرة أعلى البيت)

٣٥ ـ طلمة : (المحشو من الخضراوات)

٣٦ ـ طبشي طوبجي : (وهو الرامي بالمدفع)

٣٧ ـ عرضي: (أردي) ثكنة الجيش.

٣٨ ـ فندم : (سيدي)

٣٩ ـ فنطسية: (أفراح)

٤٠ ـ قروانة: (صحن كبير من النحاس)

٤١ ـ قشلة: (قلعة)

٤٢ ـ كمليك : (أي ثوب الفتاة بدون أكمام)

٤٣ ـ كدم: (خبز تصرف لأفراد الجيش)

٤٤ ـ كرك: (معطف يصنع من جلد الضأن)

٤٥ ـ كريولة: (سرير)

٤٦ ـ كلم: (بساط)

٤٧ ـ كمر: (حزام)

٤٨ ـ كنطرة: (قنطرة حذاء)

٤٩ ـ لستيك: (مطاط ربل)

٥٠ ـ نانة : (كسرة من الخبز)

٥١ ـ نزلة : (زكمة إصابة بالزكام)

٥٢ ـ وب: (توقف)

٥٣ ـ ياور: (سكرتير)

٥٤ ـ يتك: (فرش)

٥٥ ـ يرقان: (غطاء للنوم لحاف)

٥٦ ـ يلق: (سترة جاكت ولكن بدون كم وتلبس تحت السترة أو المعطف)

٥٧ ـ يس يم شمال: (يمين تستخدم في التدريب للعسكر)

٥٨ ـ يسك: (ممنوع الدخول)

٥٩ ـ يورت يغورت: (لبن زبادي)

٦٠ ـ طابور: (فوج، وهو قطعة من الجيش وكل طابور مؤلف من أربعة بلوكات).

رحلتي لإيران

كانت مناسبة زيارتي لطهران نوعاً من اصطياد الفرص فقد صارت من الدول التي يتعرض زائرها في أغلب بلداننا العربية لموضع تساؤل، فإيران صنِّفتْ للأسف في نظر النظام الإقليمي العربي دولة مارقة على غرار مايراه العالم الغربي . . حيث كانت العلاقات اليمنية الإيرانية منذ انبلاج الثورة الإيرانية فيها نهاية السبعينيات ولا زالت إلى يومنا هذا في حالة من الركود (١) والفتور بل والتوتر لاعتبارات سياسية معروفة كان يفترض احتواؤها وكان الجانب اليمني هو الذي يتحفَّظ على تقوية تلك العلاقات لاعتبارات إقليمية ضيقة الأفق غير آبهٍ بأن ضرورة مقتضيات السياسة الخارجية، في إبداء نوع من المرونة والتوازن والانفتاح في سياسة الدولة الخارجية، لهذا فإن إيران وطيلة فترة الثورة منذ أكثر من ثلث قرن هي التي تطلب ودّ الدول العربية سواء كان ذلك يفسِّر بحسن نية أو عكس ذلك إلا أن عدم ثقة بعض أنظمة البلدان العربية غير واثقة من تبعات تطوير تلك العلاقات!

وكان من ضمن التعاون الإيراني مع بلدان المشرق العربي ـ ومنها اليمن ـ توقيع برتوكولات تعاون في كثير من المجالات وكان بعضها يهمل من الجانب العربي خوفاً من تطوير العلاقات!، من ضمن أوجه ذلك التعاون تقديم منح ثقافية ودراسية في الطب والهندسة والمجالات الإنسانية ونحو ذلك، وأيضاً في المجال الدبلوماسي حاولت طهران تقديم منح

(١) ومنذ الثورة الإيرانية نهاية السبعينيات ناصبت الكثير من الدول العربية في المشرق العربي خصوصاً النظام الجديد في إيران عداء مستمراً وكانت اليمن إحدى تلك البلدان التي تمشي في فلك الدول الموالية للغرب والمعادية لإيران وكان لليمن مثل بعض دول المشرق خصوصية فحركة التمرد الحوثي التي تحظى بدعم إيراني وملموس زاد من حدة التوتر بين صنعاء وطهران لسنوات لدرجة اتهام صنعاء لطهران أكثر من مرة بتدخلها السافر في الشأن اليمني وليس فقط للحوثيين بالنظر للتقارب المذهبي وإنما لبعض فصائل الحراك الجنوبي.! كما أن السلطات اليمنية قد اتهمت إيران بدعمها لبعض فصائل الحراك الجنوبي ورغم عدم نفي بعض تلك الفصائل إلا أن هذا الاتهام لازال محل جدل.

سنوية سخية لبعض البلدان العربية والإسلامية (من دول آسيا الوسطى الناطقة بالفارسية) [(١)]، وكذا اليمن، وكانت على شكل دورات تدريبية.

كنت وقتها في منتصف عمري الوظيفي بدرجة مستشار في الخارجية اليمنية عندما قدمت منحة لعشرة دبلوماسيين تمَّ اختيارهم بمسابقة وفقاً لمعايير معينة؛ وهي عبارة عن مقابلة وامتِحان شفهي في المعلومات العامة السياسية ومن أهمها طرح أسئلة في السياسة الخارجية باللغة الإنجليزية، وبحمد الله نجح من المتقدمين العشرة المختارون وتمَّ ترشيحي رئيساً لتلك المجموعة ذات الدرجات المتفاوتة.

تمَّ ترتيب إجراءات السفر وكان ذلك في الأيام الأولى من صيف عام ٢٠٠٢، كانت فرحتي لاتوصف؛ لأني سأزور بلداً محاصراً شبه محْظور من سلطات بلادي في تلك الأيام ومحارباً إعلامياً وسياسياً من دول المنطقة خصوصاً من الشيطان الأكبر (أمريكا) وحلفائها!

في خلال أسبوع استعددت بتجميع معلومات من شقّين حول السياسة الخارجية اليمنية من ناحية وما كنت أتوقَّع طرحه في حال قيام نقاش أو ندوة، ومن جهة ثانية معلومات عن إيران سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وبالأخص العلاقات الثنائية مع اليمن والبلدان العربية، وكنت محظوظاً لكوني ملمَّاً بمعرفة متواضعة عن إيران وتخصصت نحو سنتين في مكتب وزير الخارجية عن الشأن الإيراني كما أن دراستي في العراق في السنوات السابقة جعلتني قريباً من هذا البلد اجتماعياً وثقافياً.

عشية سفرنا لطهران دعانا السفير الإيراني في اليمن لعشاء تعارف في مطعم (المنقل) في صنعاء واستقبلنا وأعضاء سفارته بترحاب بالغ وكذلك ودَّعنا بنفس المشاعر الودية، وعند انصرافنا فكَّرنا نحن المبعوثين حول مايجب أن نشتريه من هدايا تذكارية وعلى (حسابنا طبعاً) وهي هدايا متواضعة ورمزية عبارة عن مجسمات لفن البناء المعماري وبعض من البن اليمني . .إلخ وذلك لإهدائها لمن سيلقون علينا المحاضرات أومن قد يقدموا لنا بعض الخدمات، ورغم بساطة تلك الهدايا كان لها وقع مؤثِّر في نفوس المهداة لهم.

(١) مثل طاجكستان وأفغانستان وغيرهما.

ومن دبي انتقلنا من الطائرة اليمنية إلى (إيران هوائي) وهو الاسم الرسمي للخطوط الإيرانية وكان أول مالفت انتباهنا هو تلك الاستمارة التي سلِّمت لنا كي ندوِّن فيها البيانات الخاصة من جوازاتنا ونحو ذلك.. وقد كانت إلى جانب الإنجليزية بالفارسية إلا أن حروفها العربية وكلماتها المشابهة للعربية كان الانطباع الأول ومن ثم توالت الانطباعات تباعاً من تلك اللحظة ولازالت في الذاكرة، أما الانطباع التالي كان حول مضيفات الطائرة المحجبات اللائي يظهرن جمالاً فارسياً معروفاً و حيويتهن وبشاشتهن وطلاقتهن اللغوية المتنوعة، ويبدو هذا شيئاً طبيعياً في بلد يعتبِر نفْسهُ مُلتَزِماً بالتقاليد الإسلامية، إنما الذي لفتَ نظري هوالحوار الذي جرى بين المضيفة وإحدى الراكبات الأوربيّات ربما كانت من الجنسية الفرنسية بالنظر لإنجليزيتها المكسَّرة وذلك عندما طلبت منها المضيفة بأن تستعد لارتداء حجاب على الرأس وقد دار جدل قصير بينهما (وأنا أقف موقف المتفرج اللبيب)! انتهى الحوار بإقناع الأوربية بلبس الحجاب حسب القوانين السائدة والمطبقة على الأجانب والمواطنين على حدٍّ سواء، وهنا أدركت مدى جدية الجهات المسؤولة في إيران لتعميم الحجاب على النحو الذي شاهدته وما إن هبطت (إيران هوائي) في مطار مهراباد الدولي في طهران لاحظنا أن نحو ثلث الموظفين والمستخدمين والعناصر الأمنية في مطار «مهرأباد» من النساء وما أن خرجنا من بوابة المطار حتى أحاط بنا سائقو التاكسي علَّهم يحظون بصيد ثمين، وقبل أن نهمَّ بالتفاوض معهم فإذا بمبعوث وزارة الخارجية الإيرانية ـ وهو مسؤول الدورة ـ كان في استقبالنا فضلاً عن الشخص الثاني بسفارتنا في طهران في سيارة فأقلَّتنا السيارتان بالنظر لعددنا وحقائبنا إلى السكن المعدِّ لنا.

حللنا ضيوفاً على العاصمة الإيرانية طهران، صباحاً، حيث بدأت الحركة تدبُّ في مطار الخميني الدولي (مهرأباد) وسمعت الكلمة التي يحيي بها الإيرانيون بالفارسية «خوش امديد» وتعني «أهلاً وسهلاً» بالعربية، تحركنا بسيارة السفارة مع حافلة صغيرة تابعة أيضاً للسفارة بالنظر لعددنا الذي زاد بسبب وجود المستقبلين من السفارة اليمنية والخارجية الإيرانية وتوجهنا فوراً لقلب المدينة والتي تبعد نحو أربعين كيلومتراً!

كان الصباح مشرقاً مكللاً بلوحة خضراء جميلة من الأشجار التي تزين جانبي الطريق والممتدة مثل سجادة متداخلة الألوان إلى مالا نهاية..! لا توجد مطبَّات في شوارعها تعرقل سرعة السير، ولا مظاهر عسكرية توحي لك ببلد مستهدَف من أغلب بلدان العالم، ولا حتى

عسكر مرور، فقط هناك كاميرات أتوماتيكية هي من تتولى هذه المهمة، ويصعب أن تفلت منها سيارة تجاوزت السرعة القانونية التي يقع معها السائق في دائرة المخالفة، ولا مفرَّ من دفع الغرامة الموجعة! وعند تغلغلنا في السير إلى مدخل المدينة «طهران» لفتت انتباهنا بوابة من عدة مداخل للطرق السريعة وتحتوي على ١٢كبينة توزع على ستة خطوط ذهاب وستة خطوط سير إياب يتم من خلالها تحصيل مبلغ رمزي من كل سائق سيارة بدون استثناء تدخل أو تخرج من طهران، وحسب قول المرافق فإن هذا المبلغ بسيط جداً ولكنه يتجمع إلى مبالغ طائلة تُسخَّر للمشاريع الخدمية ولنظافة وجمال العاصمة طهران.

ولعل أول ما يطالع الواصلين لطهران من جهة مطار (مهر أباد) هو ميدان (آزادي) أي الحرية وهو من أروع المعالم الرئيسة في طهران يتوسطه برج آزادي الذي أصبح رمزاً للجمهورية الإيرانية (رغم أنه بُني في عهد الشاه)، و يقع على مدخل العاصمة الإيرانية والبرج مغطى بشكل كامل بالرخام، ويوجد في أعلاه متحف، وعند افتتاحه سُمّي شهياد آريامهر، وبعد الثورة الإسلامية في إيران ١٩٧٩ غُيّر الاسم إلى برج آزادي؛ أي برج الحرية.

وفي طريقنا من المطار كنا نختلس النظرات من نافذة الحافلة لنشاهد مدى سَعَة هذا الميدان الذي طالما يظهر على شاشة التلفاز كلما ورد خبر عن إيران، تقام في ميدان آزادي من وقت لآخر استعراضات وحفلات وطنية وكذا التظاهرات ويحيط بهذا المعلم حدائق غنَّاء ونوا فير، وأول مايلفت نظر الزائر لطهران هو كثرة المساحات الخضراء وقصورها وشوارعها المتناسقة وهي من أهم معالمها التي تستحق المشاهدة في أول أيام الزيارة.

وواصلت السيارة برفقة الحافلة الصغيرة اللاتي أقلَّتنا طريقها بسرعة جنونية ومعروف عن السائقين في طهران سرعتهم؛ لأن المدينة يتوسطها الطرقات السريعة حتى وصلنا منطقة شمال طهران (جمران) وهي من الأحياء الراقية في طهران وتقع الخارجية وكثير من الوزارات والبعثات الدبلوماسية وجامعة طهران والشوارع الرئيسية والراقية مثل (ولي عصر) في مناطق جمران ويوران شمالي العاصمة، بينما جنوبها يضم أغلب الأحياء الشعبية والشوارع القديمة والحسينيات.

وبعد تناول الغداء كان لنا اجتماع قصير مع منظِّمي الدورة ليوضحوا لنا مواعيدها ومواضيعها وبعض التعليمات العامة.

وقد استمرت الدورة التدريبية نحو شهر تخللها جملة مواضيع في العلاقات الدولية والدبلوماسية والقانون الدولي والمفاوضات كذلك محاضرات عن التأريخ السياسي لإيران وعن أمن الخليج من مفهوم إيراني والعلاقات العربية الإيرانية والنفط والاقتصاد الإيراني.

وفي مستهل الدورة ألقيتُ كلمة افتتاح ردّاً على الكلمة الافتتاحية للجانب الإيراني شكرتهم فيها على الاهتمام الخاص بأعضاء الدورة منوّهاً بعمق العلاقات التاريخية والدينية بين اليمن وإيران.

وكانت لغة التخاطب في الدورة هي الإنجليزية رغم تباين مستوياتنا في إتقان الإنجليزية إلا أننا قد استفدنا لاشك من المحاضرات لأسلوبهم الواضح والراقي في الإلقاء والأداء.

والزائر لطهران للمرة الأولى تفاجئه المتناقضات لسببين: أولاً لأنها فعلاً مليئة بالتناقضات، وثانياً لقِلةّ مانعرفه عن إيران المعاصرة، لذلك من السهل أن يُدْهش الزائر لما يراه فالصّور النمطية عن طهران تتبخر بمجرد وصول الزائر إليها فهي مدينة نظيفة وعصرية فيها المترو والجسور والأنفاق والحدائق الغناء والأسواق الراقية وآخر صيحات الموضة وفي منتزهاتها وضواحيها البحيرات ومدن الألعاب (والتلفريك) وكل ما يرفّه عن ساكنيها. وخارج شمال طهران وعلى جانب جبال «بوروز» يقع عدد من القرى السياحية على غرار القرى السويسرية.

وبسبب التعتيم الإعلامي الذي فرضه الإعلام العربي والغربي على السواء تلاشت تلك الصورة النمطية عن إيران التي تتمحور فقط في العقدية والمذهب وتظهرها مجرد بلد الملالى[(١)] يجول فيها الآيات بعمائمهم السود والنساء بالشادور الذي يلف رأس المرأة إلى أخمص قدميها وبأنهم مجرد فرس مجوس وشيعة رافضة.. إلخ، هذه بصراحة الصورة السلبية التي يوحي بها الإعلام العربي في غالبيته عن جارتهم إيران، وكانت طهران بالعين المجردة شيئاً آخر يمكن وصفها بعيداً عن النووي والعداء الغربي بصورة مغايرة، فهم شعب مثقف ودود مقارنة بالأتراك

(١) الملالى جمع مُلّا والملا أدنى درجة في سلسلة درجات ألقاب المستويات العلمية التي تنتهي بدرجة آية الله العظمى والتي يقرر الدرجات العليا هي الحوزة العلمية في قم والنجف وحالياً وسابقاً جرى صراع بين شرعية الحوزتين قم والنجف الأشرف.

والعراقيين رغم وجود أقلية عنصرية تستحقر العرب[(١)] . . وبلدهم جميل ومستقبله زاهر، طهران العاصمة مدينة نظيفة منفتحة ويمكن أن تجد فيها أيَّ شيء، وكل شيء يخطر في بالك. وعلى الرغم من أن معمار طهران المعاصرة ليس فخماً إلا أنها مدينة راقية بحدائقها ومؤسساتها ومبانيها ومتاحفها ومنتزهاتها وأسواقها وكل ما يبحث عنه السائح.

وبعد نحو ثلاثة أيام من وصولنا جاءت أول جمعة لنا في إيران فرغبنا أن نصلي الجمعة في طهران ومن المعلوم أنه حسب مفاهيم الفكر الشيعي وحتى عشية انْدلاع الثورة كان المعتقد أنه لاتجب صلاة الجمعة حتى يظهر الإمام وفق مفاهيمهم وبما أن إيران تعيش عصر الثورة بقيادة نائب الإمام وهو آية الله الخميني ومن ثم خلفه آية الله خامنئي فإنّ الصلاة في هذه الحالة باتت واجبة ولكنه لاتصح إلا في مكان واحد وعليه فإن مدينة كطهران فيها أكثر من أربعة عشر مليوناً فإن التقاءهم في جامع واحد مهما كان كبيراً أمر مستحيل. ولهذا فإن باحة جامعة طهران الواسعة اعتبرت المكان الأنسب ، وهي وفق الفقه الشيعي المعاصر صلاة دينية سياسية ففي كل جمعة تطالعنا وكالات الأنباء بتصريحات جديدة للقيادة الإيرانية إزاء جملة من القضايا السياسة في المنطقة، لذا فإن الشوارع الخلفية والأمامية لجامعة طهران تستعدُّ بسيارات وحاملات أطباق هوائية، ومعدات البث المباشر لصلاة الجمعة وذلك قبل ساعات من إقامة الصلاة[(٢)]. لذا فقد صرفنا النظر عن الذهاب للصلاة قبل ساعات طويلة تجنباً للزحام وربما الضياع!.

وتعتبر طهران اليوم من أكبر مدن إيران قاطبة بل ومن كبريات مدن الشرق الأوسط في نفس

(١) يلاحظ للراصد والمتابع للشأن الإيراني سياسياً أو اجتماعياً بأن هناك تياراً عنصرياً معادياً للعرب منذ عقود في عهد الشاه بينما حالياً سواء بإضافة العنصرية الطائفية في ظل حكم الملالي ومضايقة أبناء السنة الذين يشكلون ثلث السكان!

(٢) نصحنا أحد الزملاء بالسفارة بأن حضورنا للصلاة يقتضي وصول السائق في ساعات مبكرة صباحاً أي قبل نحو أربع ساعات من الصلاة فاستغربنا فقلنا ألا يكفي ساعة قال كانت هذه المشكلة تجربة الدفعة التي سبقتكم في الدورة قبل نحو عام عندما طلبوا من سائق الخارجية الإيرانية بأن يمكنهم من الوصول لمكان صلاة الجمعة فقال إن شاء الله ولكني سأصل في الساعة الثامنة صباحاً... فقالوا له ولكن الصلاة بعد الثانية عشرة... فأجاب المسؤول الإيراني بأن زحمة طهران وحجمها وكثرة المصلين الذين يكادون يكونون أشبه بحج مصغر يقتضي الاستعداد قبل ساعات وليس دقائق وهو ما دعانا فعلاً لصرف النظر عن ذلك!

الوقت ويقطنها مايقارب الخمسة عشر مليوناً من البشر، وقد اختيرت عاصمة في عهد الملوك القاجاريين الذين ورثوا الصفويين.

ولكي نفهم تفاعلات العلاقات الاجتماعية والاقتصادية للشعوب الإيرانية علينا أن نقف قليلاً أمام الحالة الاقتصادية والاجتماعية فإيران ـ كما هو معلوم ـ دولة نفطية[(١)] إلى جانب كونها زراعية وصناعية إلى حدٍّ ما لاسيما الصناعات الخفيفة والمتوسطة والصناعات التقليدية كصناعة السجاد الفارسي الشهير.

بالطبع تطورت إيران في صناعة السيارات والبتروكيماويات والأسلحة ونحو ذلك ورغم قصر مدة إقامتنا في طهران فقد أُتيحت لنا زيارة مصانع السيارات من نوع (بيجوت) والتي هي في الأساس فرنسية، كما زرنا أيضاً مصنع كيماويات منها صناعات الصابون المتطورة في إحدى ضواحي العاصمة طهران وبحكم سياسة إيران المعروفة تجاه الغرب فإنها تعاني من حصار اقتصادي منذ أكثر من ثلاثة عقود، ورغم ذلك ظلّت صامدة واتجهت نحو الاعتماد الذاتي وساعدها في ذلك أن المجتمع الإيراني متماسك معتز بصناعاته الوطنية، والطبقة الوسطى من المجتمع تشكل مايقارب من ٧٠٪ ويعتبر ذلك مقياساً متقدماً لدى كل علماء الاجتماع والاقتصاد على أنه مجتمع متماسك إلى حدٍّ ما، ويعيش سواد الشعب في مستوًى متجانس وليس هناك غنى فاحش أو فقر مدقع (في تلك الفترة على الأقل).

وحتى يتم توفير السلع لأصحاب الدخل المحدود فهناك جمعيات تعاونية لشراء السلع المدعومة من الدولة مقننة بضوابط معينة يشبه نظام الحصة التموينية في العراق التي سنّها نظام الرئيس العراقي السابق صدام حسين. وفي الجملة فإن تجربة إيران الاقتصادية فريدة وفي انفتاحهم التدريجي على العالم اقتصادياً واجتماعياً أشبه ماتكون بالتجربة الصينية المدروسة ـ ولهم مفهوم خاص للتكافل الاجتماعي والتأمين الصحي لا مثيل له في دول المنطقة.

منذ سنوات الدراسة في بغداد والتي تزامنت بتصاعد الاحتجاجات في إيران ماقبل الثورة «قبل ثلث قرن» وأنا أتابع الإعلام العربي والغربي وهو يسلط الضوء على مايحدث في إيران حقداً وظلماً لوأد الثورة الإيرانية من خلال حربه مع العراق، وقد ساهم الإعلام الغربي

(١) وهي من أوائل الدول النفطية في المنطقة فقد اكتشف النفط فيها عام ١٩٠٨.

والعربي على السواء خلال العقود الماضية ـ ولاسيما العقد الأخير ـ بتشويه صورة المجتمع الإيراني وثورته مما أدى إلى خلق انطباع سلبي في الخارج عن هذا البلد الذي ركزت على كل شيء سلبي في إيران كالنووي واليورانيوم المخصب التي نسمعها يومياً في وسائل الإعلام(١).

ويبدو أننا نعيش مجدداً أجوء مطلع الثمانينيات، عندما كرَّس الإعلام العربي حملة إعلامية كبيرة ومستمرة وإعداداً نفسياً لإذكاء الروح العدائية وهاهي تتكرر بعد نحو ثلث قرن من انبلاج الثورة الإيرانية عادت أجواء التوتر السياسي والأمني بتكرار أخطاء التصعيد لتلك الفترة فتناغم الإعلام العربي مع الغربي لتمهيد عدوان إسرائيلي أمريكي على إيران بعد سلسلة من العقوبات(٢) الاقتصادية التي تخنق إيران التي هددت بإغلاق مضيق هِرمز.

وبعيداً عن السياسة فإنني هنا أحاول نقل انطباعي عن زيارتي لإيران بعيداً عن التنميط الغربي وحتى العربي لإيران والنظر إليها فقط من منظور سياسي ومذهبي بل أحاول رصد الحياة اليومية للمجتمع الإيراني مستلهماً الكثير من المعطيات من تنوع المجتمع الإيراني الفسيفسائي وعلى خلفية تاريخ وحضارة بلاد فارس.

فإيران لاشك قطعت شوطاً تنموياً لايستهان به منذ الثورة ولولا الحرب مع العراق لثماني سنوات لكانت في وضع أفضل، فمنذ أن وضعت الحرب أوزارها صعدت إيران كالصاروخ وتطورت صناعياً واقتصادياً رغم الحصار الذي يتزايد بشكل يوحي باحتمال شن عدوان عسكري أو مايسمى (بعملية جراحية) لبعض المناطق في العمق الإيراني.

كما يلاحظ الزائر ارتفاع مستوى الوعي والثقافة وأعداد المكتبات ودور النشر والمطبوعات ، وصناعة السينما متطورة هي الأخرى،كما أن دور المرأة في إيران أصبح أفضل بكثير من البلدان العربية رغم الحجاب المفروض عليها، وكل هذه المعطيات تبدو لدى الكثير من زوار إيران مغيبة في ظل التعتيم الإعلامي العربي والعالمي السلبي المسلط على إيران منذ أكثر من ثلاثة عقود.

---

(١) تناولت موقف الولايات المتحدة والغرب خصوصاً من الملف النووي الإيراني في كتابي الاتحاد الأوروبي والعلاقات اليمنية الأوروبية.

(٢) انعكست نتيجة العقوبات على مضاعفة معاناة الشعب الإيراني وتدهورت العملة الإيرانية بشكل ملحوظ.

ولا عجب بأن تكون طهران متعددة الأوجه فكل جزء منها له طابعه وخصوصياته فشمال طهران غير جنوبها ووسطها غير غربها ومنطقة وسط طهران ليست كقلبها التجاري والمالي فمركزها التجاري تاريخياً كان جنوب المدينة وحالياً بات شمالها منافساً قوياً للجنوب في السيطرة على الأعمال التجارية ففيه الوزارات والسفارات والفنادق والمتاحف منها متحف الفن المعاصر ومتحف السجاد. .وفيها الأسواق و (المولات) الحديثة على النمط الغربي والمتنزهات و (جاليري) آخر صيحات الموضة والنوادي والمقاهي وأفخر المطاعم في طهران.

عدد من شوارع طهران على الطراز الغربي وفيها ثاني أطول شارع في العالم بعد شارع في المكسيك وهو شارع ولي عصر[١] والذي يعرف بـ«فلي عصر خيابان» الذي يمتد من شمال المدينة في يوران إلى جنوبها قرب قلب المدينة وبازارها الشهير (ناصرخسرو) وكان يسمى قبل الثورة الإيرانية بشارع «رضاء شاه بهلوي» والد الشاه المخلوع محمد رضا شاه[٢]، ثم سمي عقب الثورة باسم محمد مصدق الذي قام بثورة أيام الشاه وفشلت. ثم عدل الاسم ليصبح في آخر المطاف (ولي عصر).

ويظل جنوب العاصمة محل جذب للسياح ففيه أكبر بازار في إيران ويضم أيضاً أبرز المتاحف الإيرانية كالمتحف القومي ومتحف المجوهرات «قصر جلستان».

كما تم ترتيب للمجموعة لزيارة أهم متاحف إيران ولم أعد أتذكر اسمه وربما هو قصر جلستان متحف المجوهرات، ولكنه كان تحت بنك إيراني كبير وفي مدخله تقف سيارة عسكرية مصفحة أشبه بدبابة ومجموعة من الجنود مدججين بأسلحتهم في حالة تأهب وكأننا سندخل معركة لامتحفاً وبعد دخولنا بطل العجب فهو يستحق ذلك الاهتمام والتحفز الأمني؛ لأنه بالفعل من أعجب متاحف العالم بمقتنياته الثمينة فأغلبه مجوهرات وتحف عتيقة وسيوف وممتلكات ملوك العصر القاجاري والصفوي وغيرها، رأينا جوهرة ثمينة قيل لنا بأن ملك إيران

(١) خيابان تعني بالفارسية شارع وفلي تعني ولي وعصر تعني الكلمة شارع ولي العصر أو ولي الزمان الإمام المهدي المنتظر ولي الزمان الذي ينتظره الشيعة ليملأ الدنيا عدلاً بعد أن ملئت ظلماً وجوراً.

(٢) تغيرت أسماء عدد من الشوارع في طهران وغيرها بعد الثورة الإسلامية أشهرها شارع «انقلاب إسلامي» وشارع «جمهوري إسلامي» وميدان «خميني» وشارع «علي شريعتي» والشهيد «بوهنر» وغيرها من الأسماء الثورية.

في العهود الماضية دخل في حرب من أجلها مع أباطرة المغول في الهند! وشاهدنا قلادة مزينة بالفيروز والزمرد وحلي مزينة بالعقيق اليماني وهناك عدد كبير من الملابس الملكية نسائية ورجالية مطرزة بالحرير الصيني الشهير. وعدد من التيجان المرصعة بالماس واللؤلؤ. وكانت الأشياء الثمينة داخل أقفاص من الزجاج ومكتوب عليها ممنوع اللمس وفي حالة اللمس بالخطأ يدق جرس إنذار وقد تم تنبيهنا لذلك مسبقاً!

من ضمن غرائب المتحف الذي يعكس مظاهر الترف والبذخ لدى ملوك إيران في العهود الغابرة ربما الأسرة القاجارية أو الصفويين. ولاحظنا سريراً بأكمله من الذهب الخالص ويعود لأحد الملوك في العصر الصفوي أو القاجاري.

كما رأيت جمبية يمنية[1] مهداه من أحد ملوك اليمن ربما في عهد الدولة القاسمية إلى شاه إيران في ذلك الزمن.

طهران في السنوات الأخيرة غدت مدينة مزدحمة، وفي ضواحيها ثلث مصانع إيران، وهي شبه مغلقة ومحاطة بجبال من أكثر من جهة أما الجهة الغير محاطة بجبال تضم تلك المصانع التي تنفث بدخانها في سماء طهران فضلاً عن مخلفات وأدخنة أكثر من مليوني سيارة تجوب وسط العاصمة فشراء سيارة في إيران أمر سهل فشركة «خوردو» تصنع السيارات منذ عقود وسيارة جديدة لا تكلف سوى ١١ مليون أو ١٢ مليون تومان أي ما يعادل ١١ ألف دولار أمريكي فضلًا عن أن سعر وقود السيارات رخيص جداً باعتبار أن إيران من كبريات الدول المنتجة للنفط في العالم.

كما يوجد في طهران مترو منذ التسعينيات وشبكة من الطرق السريعة والجسور والأنفاق في عاصمة الخمسة عشر مليون نسمة وفيها نحو ثلاثة ملايين سيارة معظمها إيراني الصنع، وعن سبب كثرة التلوث في طهران أذكر أن السفير الإيراني في صنعاء وقتها شرح لنا بقوله: إنّ مشكلة طهران تكمن بأنها محاطة بسلسلة من الجبال من ثلاث جهات أما الجهة الرابعة ففيها ثلث

(١) الجمبية اليمنية هي الخنجر المعقوف مع الغماد والحزام المذهب ورأس الخنجر الجمبية مصنوع من قرن وحيد القرن في إفريقيا وهو غالي الثمن والآن يمنع اصطياده وتصديره ويصل أغلى سعر للجمبية في اليمن وجنوب السعودية وعمان إلى نحو خمسون ألف دولار أمريكي. وبعضها لا يتجاوز أسعارها إلى متي دولار!

مصانع إيران فمن صوامع تلك المصانع تزيد معدلات التلوث إلى الحد القياسي على مستوى العالم ولكننا في منطقة جمران في شمال طهران لم نكن نلاحظ ذلك التلوث والسبب أن منطقة جمران ويوران كثيرة الحدائق وقليلة السكان مقارنة بالازدحام الشديد في جنوب ووسط العاصمة.

ويلاحظ بأن خط الثورة قد تراخى بعض الشيء ففي عهد الخميني حيث كان التقشف هو طابع الحكم[(١)] وبعد رحيل الخميني بدأت ملامح الرخاء والبذخ تتسلل إلى بعض المسؤولين الإيرانيين الذين يحتلون قصور مسؤولين سابقين في عهد الشاه وبإيجار رمزي. ولكن وللأمانة فالرئيس الحالي أحمدي نجاد غدا قدوة في التواضع فهو ينام على الأرض ورفض تسلم سيارة مرسيدس آخر موديل بعد تنصيبه رئيساً لإيران بقوله: إن سيارته البيجوت ذات الموديل القديم لازالت صالحة للاستعمال! وسمعنا قصصاً عنه في تواضعه الجمِّ منها أن زوجته تجهز له فطور «سندوتش» رغم وجود أمهر الطباخين الإيرانيين في قصر الرئاسة!

والزائر لإيران تبهره جملة من المشاهد سواء في مساجدها أو أسواقها العامرة بالسجاد الإيراني الشهير فضلاً عمّا تزخر به الأسواق الإيرانية من نفائس كالمصنوعات الجلدية والتحف والحلويات والمأكولات اللذيذة. .والأكل في إيران مميز مثله مثل تركيا وبلاد الشام، فهم مشهورون بالمشويّات بأنواعها والكباب والخبز الإيراني (خبز تنوري) الشهي والمكسرات والحلويات حتى أن أحد الزملاء قال لي: إنّ إيران بالنسبة للسائح الذي يتمتع بشهية كبيرة للأكل سيرى في مطاعم إيران جنّة.

إيران بلد التنوع بلون الفسيفساء بلد القوميات واللغات والتنوع الجغرافي وهو ما أعطاها جمالاً وحيوية لكل زائر طوال العام.

وهكذا وكأن إيران بألوانها الساحرة سِجادة كبيرة متداخلة الألوان[(٢)]فتاريخ فارس في كافة

---

(١) وبالمناسبة فقد زرنا منزل آية الله الخميني في أطراف مدينة طهران بمنطقة يوران (جمران) بشمال طهران وكان بسيطاً ومتواضعاً واطلعنا على غرفة استقبال ضيوفه التي كان يستقبلهم في جلسة عربية على الأرض مثل سائر علماء إيران الذين يمتازون بالتواضع.

(٢) إيران كبعض دول المنطقة (العراق تركيا باكستان الهند) تضم قوميات ومِللاً ونِحلاً ولغات وبالتالي التنوع الثقافي.

فتراته مثل كل الحضارات القديمة دائم التداخل والتقاطع تأريخ مركب كل حدث فيه له أبعاده المزدوجة زماناً ومكاناً وبحكم العلاقات الروحية بينهم وجيرانهم العرب فإن الثقافة الفارسية هي في جوهرها عربيه وهي جزء أساسي من هذا النسيج المتداخل.. خضع لها اللسان الأعجمي حيناً ووضع عليها القيود حيناً آخر ولكنها في العموم ساكنة في ضمير الثقافة الفارسية طوال قرون.

أثناء إقامتنا في إيران كان أغلب لقاءاتنا مع شخصيات إيرانية أكاديمية ورسمية ولذا فقد كان الحديث والتطرق لقضايا عربية وإيرانية بتحفظ من كلا الجانبين فنحن بالطبع ضيوف «ويا غريب كن أديب» فضلاً عن أننا نعتبر في موقع التلاميذ أمام أكاديميين إيرانيين كبار ومسؤولين سابقين محنكين ومعروفين على المستوى العالمي. كانت الأحاديث في الجملة رسمية وبتحفُّظ شديد لدرجة أننا لم نكن نَصِفُ الخليج بالخليج العربي، نقول فقط: كلمة خليج، وهو بالفعل أمر فيه جدل [(١)].

تحدثنا مع إيرانيين عاديين ولم نكن نظهر شخصيتنا بأننا دبلوماسيين ولكن رغم ذلك كان السائق وصاحب المكتبة والمحل يتكلم أيضاً بشيء من التحفظ ربما كان يخشى مايعرف في إيران بـ «اطلاعات» أي المخابرات أو الحرس الثوري (الباسيج) فصحيح أن هناك هامشاً كبيراً من الحرية تحسد عليها الكثير من البلدان العربية ولكن في إطار ثوابت الثورة الإسلامية تماماً مثلما كان في أوروبا الشرقية «ديمقراطية داخل الحزب القائد» ولكنها على أية حال نوع من الديمقراطية التي تعتبر أفضل مما هو موجود في كثير من بلدان المنطقة!

ولم أعرف حقيقة الرأي العام الإيراني على سجيته إلا خارج إيران، وهذا طبيعي فهي في كل الأحوال عالم ثالث وتعيش حالة ثورة.. فقد تعرفت على إيرانيين في أمريكا وبلجيكا وغيرها من البلدان وتحدثت معهم أثناء الرحلات بالمصادفة في مقصورات القطار أو أروقة المطارات، وتحدثنا بحرية مطلقة ورأيتهم منقسمين شأنهم شأن أي بلد آخر ولكن في الجملة

(١) الخليج العربي عالمياً اسمه الخليج الفارسي في الخرائط القديمة والحديثة وكلمة خليج عربي فقط منذ الستينيات في عهد عبد الناصر والمد القومي حينها لذا فرسمياً وعالمياً وفي الموسوعات اسمه الخليج الفارسي بالرغم من أن عرباً يعيشون على ضفتيه أي في الجانبين العربي والإيراني!.

هناك طبقة الشباب المتذمِّر من الوضع الاقتصادي، وهامش الحرية الذي تقلَّص في السنوات الأخيرة في عهد الرئيس أحمدي نجاد فقد قلّ دخل الفرد وزادت البطالة وانتشرت المخدرات والدعارة سواء المعروفة عالمياً أو تحت المظلة الدينية فيما يُعرف بزواج المتعة[١].

قبل نحو عشر سنوات أو يزيد من زيارتي لطهران كان الوضع المعاشي إلى حدٍّ ما مقبولاً وكان هناك تقارب في الحد الأدنى في الأجور بين تركيا وإيران على سبيل المثال ولكن خلال بضع سنوات انقلبت الأمور، فإيران ونتيجة لاستمرار سياسة العزلة والعداء مع الغرب والحصار الدولي وحتى من ذوي القربى تكابد شظف العيش ويعاني شبابها جملة من المشاكل في حين تضاعف الحد الأدنى من الأجور في جارتها تركيا التي لا تملك نفطاً أو غازاً كما هو الحال في إيران.

ولهذا من الطبيعي أن نسمع بين حين وآخر من بعض الإيرانيين وعبر الأجهزة الإعلامية عن تذمُّر واضح رغم اعتزازهم باستقلالية بلدهم ويلاحظ في هذا السياق بأن بعض الإيرانيين يشكّون من أن دعم حزب الله وحماس ووقوفها إلى جانب النظام السوري ضد الثورة الشعبية خلال ثورته لنحو عامين بأنه بات مكلفاً سياسياً واقتصادياً لإيران، والبعض الآخر يقول: إن لإيران مصالح حيوية في المنطقة، وإنه لن يمكن تحقيق هذه المصالح بعصاً سحرية، ولابد من سياسات واضحة المعالم تحقق لإيران مصالحها في المنطقة، حتى لو كان ثمن هذا عشرات الملايين من الدولارات.

وفي نقاش لي مع بعض المواطنين الإيرانيين عرفت أن بعضهم بدأوا يفكرون مرتين، وبطريقة مستقلة عن سياسات بلدهم، ويتساءلون عن ما هي المنافع التي ستعود على إيران من

(١) حرمة الخليفة عمر بن الخطاب ويكثر حوله الجدل في العالم الإسلامي إلا أن الإيرانيين يرون فيه حلاً لمشاكل الشباب ولم يكن الأمر بهذه الصورة في عهد شاه إيران الذي كان ينهج الأسلوب العلماني الغربي في قوانين الأحوال الشخصية. ويبرر الإيرانيون ويعززون نظريتهم بأن الإسلام كان قد حلَّل المتعة بسبب الحروب في فجر الإسلام وهاهي إيران بعد الحرب مع العراق قد خلفت أكثر من مليون قتيل وجريح ومفقود وعشرات الآلاف من الأرامل، وزواج المتعة في إيران يتطور بشكل كبير تحت مظلة القانون مكاتب كتَّاب العدل أو مكاتب التوثيق القانوني التي تقوم عادة بتسجيل العقود والأحوال الشخصية، والبحث عن نساء للراغبين في زواج المتعة كنشاط قانوني جديد لها.!

هذا الدعم سواء بالنسبة لدعم جهات لبنانية أو سوريا قبل الثورة السورية وخلالها؟ هذا فضلاً عن تدخل إيران المعروف في العراق منذ عشر سنوات وتدخلها في بلدان أخرى مثل البحرين واليمن، وهنا أضاف محدثي الإيراني بقوله: «كمسلم إيراني أقول: إنه لا يجب الانحياز لطرف شيعي على حساب الآخر السني في أي صراع بالمنطقة، الإيرانيون قد يعرِّضون مصالح أميركا في المنطقة للخطر، لكنهم سيعرّضون للخطر كذلك الوحدة الإسلامية.»

طهران في عزِّ الصيف لاتشعرك بذلك الحر الصحراوي بل إنها فعلاً تعيش ربيعاً مستمراً، فالهواء منعش والمياه العذبه تنساب على جنبات الشوارع من غيول وهي قنوات مائية تعّتمد على ذوبان الثلوج التي تغطي جبال (البروز) وتسقي أشجار الشوارع الوارفة الظلال ، أسواق طهران تنبض بالحياة محلات الخضار والفواكه يسيل لها اللعاب، محلات تعرض عليك عصير الفاكهة الطازجة منها الرمان والذي يسمى بالفارسية (جلنار)، والعجيب أن رمانة واحدة تكفي لتملأ كوباً يروي السائح المتعطش لكل شيء!

ربيع طهران وصيفها سيَّان لايتوقفان عند مشهد معين.. ربيع المرأة المتحررة والمنفتحة على العصر، وربيع الجيل الجديد من الشباب الطامح المتوثِّب نحو المعاصرة بانطلاقة الصاروخ.. ربيع السينما الإيرانية النشطة جداً والتي تحصد الجوائز العالمية وتحتل أهم شاشات العرض في إيران، وصور نجمات السينما بالخمار الشفاف تظهر في واجهة المكتبات، وهناك السمات المميزة للفنون الإسلامية في إيران هي ذاتها التي تميز الصفات الأدبية للقرآن الكريم، وأفضل ما أبدعته الأيدي والعقول المرهفة تشكل على هدي من البناء الأدبي للقرآن ومن الأفكار الواردة فيه بتكيُّف خاص يعطي حساسية شعورية تجاه الكون والحياة، والواقع بمعناه الكبير حيث الفطرة السليمة تميل إلى الجمال.. وقول الرسول ﷺ: «إنّ الله جميل يحب الجمال»، وربيع طهران يظهر جلياً في المكتبات التي يزدحم بها شارع «انقلاب» فالكتب المتراصة تناقش وتنشر كل الاتجاهات الفكرية، حيث رجال الدين يحاسبون على الأفعال لا على الافكار.. ويكفي لكي نعرف مدى ازدهار حركة النشر في إيران التي تنشر نحو ٤٠ ألف عنوان خلال عام، وعلى الرغم من أن هذا العدد يوازي ثلث ماينشر في بريطانيا فإنه يزيد خمسة أضعاف عما ينشر في العالم العربي الذي يشهد تراجعاً في حركة النشر والترجمة [(١)].!

(١) مجلة العربي الكويتية ٣٨ عدد رقم ٥٠٣ لشهر أكتوبر من العام ٢٠٠٠.

العاصمة الإيرانية مدينة كبيرة ونظيفة مترامية الأطراف تحيط بها الجبال من مختلف الجوانب وكثيراً ما كنا نجد تضاريسها الجغرافية شديدة الشبه بعواصم عربية، فهي تشبه بيروت في الحركة الثقافية ورقَّة نسائها وعذوبة مائها وطيب هوائها وتشبه دمشق في مبانيها وأسواقها وتشبه القاهرة في وداعة شعبها. . الأشجار في بعض شوارعها وأحيائها أكثر من عدد المباني والعمارات في شمال طهران وهو ما يضفي عليها منظراً بديعاً يسر عيون الناظرين إلى أحيائها وشوارعها، كما تمتاز مدينة طهران بقنوات تخترق شوارعها الطويلة تجري بداخلها مياه باردة ونظيفة تروي الأشجار ثم تواصل جريانها في بعض الشوارع. . سألنا من أين تأتي هذه المياه فقيل لنا: إن جبالاً حول طهران تتجمع فيها الثلوج على مدار العام وقد حفرت لها هذه القنوات لاستقبال ما يذوب والاستفادة منها لسقي الأشجار وإضفاء منظر جمالي على العاصمة.

الشعب الإيراني يعشق الزهور والورود لدرجة لا يتصورها عقل ويحب اقتناء وتربية الطيور فرأيت أكثر من محل لبيع العصافير والحمام وفي كل سوق وشارع محل لبيع الزهور، وهناك أماكن تعرض اللوحات الجميلة التي فيها الخطوط الفارسية الجميلة كزينة وهناك معاهد تدرِّس الخط الفارسي الجميل كما أن هناك معارض ومتاحف للسجاد الإيراني الشهير، الشعب الإيراني يحتفل بالربيع مثل شعوب المنطقة وكردستان العراق وحتى أنحاء العراق، فقد شاهدت سكان بغداد يخرجون يوم عيد النيروز في إجازة يستمتعون بالاستجمام في الحدائق ويقضون يومهم في رقصة الدبكة والغناء و(الهوسة)[(١)] العراقية المعروفة.

ما يميز المواطن الإيراني أنه يستقبلك بابتسامة عريضة، وطيلة تواجدي في طهران لم أشاهد إيرانياً واحداً عابساً، ولا أدري ربما لأننا ضيوف، ولذلك فقد سألت أحد المسؤولين في السفارة اليمنية بطهران عن هذه الصفة الجميلة التي يتحلَّى بها المواطن الإيراني فقال لي: إنه شعب يشتهر بالبرود ولا ينفعل وعندما تتحدث إلى أحدهم يحب أن يستمع إليك ولا يقاطعك حتى تكمل كلامك. . وعندما يناقشك يحب أن يسمع منك معلومات يستفيد منها. . ولاحظنا أن المواطن الإيراني يغلب عليه الجانب الروحي وعندما يستمع إلى آيات قرآنية تُتلى

(١) الهوسة في العراق يطلق على من يعبر عن فرحة في المناسبات بأهازيج معينة.

أو أحاديث دينية يكاد يجهش بالبكاء. . كما لاحظنا أثناء الاحتفالات أنهم لا يكثرون من التصفيق وإنما يقاطعون الخطيب أو المتحدث بالصلاة على النبي ﷺ[(١)].

حرص المشرفون على سير الدورة الدبلوماسية بأن يتخلل المحاضرات اليومية فعاليات ترفيهية وهي عبارة عن زيارات إما لمنشآت إيرانية كمصانع أومتاحف أو جولة عامة، وحرصوا أيضاً على إطلاعنا على مآثر الإمام وهي زيارة قبر الإمام الخميني ولكن قبلها تمت زيارة منزل الزعيم الراحل الخميني قائد الثورة الإيرانية آخر سنوات حياته وهو يقع في حي «جماران» الذي لا يبعد كثيراً عن قصر الشاه. يقع المنزل في نهاية زُقاق ضيق لا تدخلها السيارة وكان الخميني قد انتقل إليه من مدينة قُم بعدما أوصاه الأطباء بالبقاء في طهران ليكون أقرب للمستشفى نظراً لحالته الصحية المتدهورة.

دخلنا بيت الخميني وكان صغيراً وبسيطاً [(٢)]، قسمت الغرفة الكبيرة فيه إلى نصفين يفصلهما ستار، و فرش الغرفة عبارة عن سجاد عادي وفيها (كنبة) قديمة وطاولة صغيرة عليها بعض الكتب ونظارة طبية للزعيم الراحل. وكان كل شيء في الغرفة يوحي بالبساطة والتواضع الشديد ولم يكن فيها شيء يدل على الفخامة المادية مع أن الخميني كان يستقبل في هذه الغرفة الزعماء والرؤساء والوزراء!!. رفض الخميني الإقامة في قصور الشاه أو في بيت فاخر آخر واختار العيش في هذا البيت المتواضع و كان يقود منه إيران في فترة تعدُّ من أصعب مراحل تاريخها المعاصر. وبعد تلك الزيارة فوجئنا بتوجهنا إلى حسينية ملاصقة لمنزل الإمام ولايفصل الغرفة وقبلة الحسينية إلاّ جسر صغير يصل بين منزله ومقدمة الجامع وتحت الحسينية المذكورة يوجد طابق تحت الأرض فيه متحف يجسد حياة الإمام الخميني منذ صباه وحتى وفاته وفيها بعض ملابسه وكتبه وعشرات الصور التي تحكي قصة حياته ونضالاته.

بعد ذلك توجهنا في اليوم الثاني في زيارة لقصر شاه إيران وقد وصَّونا على ذلك وحجزوا لنا رغم أن الدخول بتذاكر ربما يرمون من ذلك وضعنا في الصورة عن قيادات ماقبل الثورة

(١) صحيفة ٢٦ سبتمبر اليمنية عدد: ١٣٦٥ التاريخ: الخميس ٢٧ ديسمبر ـ كانون الأول ٢٠٠٧.

(٢) وبعد زيارة منزل الإمام الخميني تم ترتيب زيارة في اليوم التالي القصر الشاه والذي أصبح متحفاً.. وكان هدف الجهة المنظمة هو المقارنة بين حياة الرفاهية وبين التواضع!

ومابعدها فلها مغازٍ كثيرة فحياة الإمبراطور على طرفَي النقيض من حياة الفقية الزاهد..!

كان قصراً فاخراً يحمل كل معاني البذخ والرفاهية لآخر إمبراطور شاه إيران محمد رضاء بهلوي[(١)]، بالإضافة إلى فخامة البناء وتناسقه يلاحظ الزائر بأن القصر غني بمحتوياته من أثاث وسجاد وهدايا معروضة، تجولنا في أروقة القصر ذات السقوف العالية والأبواب الفخمة والسلالم المُبهِرة والإضاءة المتناسقة... والجميل أيضاً حديقة القصر التي لازال الاهتمام بها قائماً حتى اليوم، وهناك ملحقات بالقصر للحاشية والخدم ونحو ذلك مما هو معمول به في قصور آل عثمان في إسطنبول وغيرهم.

وكنا بعد عناء التجوال في قلب طهران القديمة ولاسيما بازارها الرئيسي والشهير المسقوف (ناصرخسرو) نتوجه لقضاء وقت جميل واسترخاء في بعض حدائق طهران وسط المدينة ومنها حديقة (لالِه) وحديقة (مِلّت) القريبة من شارع ولي عصر الشهير والمعروف بـ (فلي عصرخيابان) وإحدى المرات استبدلنا تنزهنا في الحديقة بجولة في هذا الشارع الحيوي في الاستراحة بمقهى بنفس الشارع وأتذكر اسمة مقهى (تأريخي) وهناك احتسينا الشاي الإيراني وتذكرت مقاهي شارع الرشيد وأبي نواس نفس الشاي و (الاستِكانِة) مع الصحن والمذاق ولكن الإيرانيين يحضرون مع الشاي في معظم المقاهي مكسرات من فستق وزبيب ونحو ذلك والبعض يحلو له أن يدخِّن النارجيلة (الغاليون) بالفارسية..!

شوارع طهران ومسمياتها:

من أهمها شارع (ولي عصر) فكان يسمى «شارع بهلوى» قبل الثورة وتغير اسمه بعد الثورة ليدعى لفترة قصيرة»شارع محمد مصدق»، ثم تغيير اسمه إلى «ولي عصر»[(٢)]، أي ولي الزمان أو الإمام الغائب. وفي طهران، التي تحمل غالبية شوارعها أسماء شهداء، مثل: شارع «الشهيد همت» (أحد أبرز قادة الحرب مع العراق)، وشارع «الشهيد مطهري» (أحد تلاميذ الخميني

(١) أطيح به في ثورة إيران عام ١٩٩٧ وكان قد هرب من إيران لأسابيع وعين شهبوبختيار رئيساً للوزراء على أمل العودة كما حدث في الخمسينيات عندما هرب الشاه بعد ثورة مصدق وأعيد بمساعدة غربية.

(٢) ويقال بأنه ثاني أطول شارع في العالم بعد شارع المكسيك وقد تمشينا فيه نحو ثلاثة أيام حتى أكملناه وهو شارع حي يعج بالمشاة وأشجار وارفة الظلال على جانبيه.

وأحد منظِّري الثورة)، وشارع طالقاني (أحد أبرز منظرِّي الثورة الإيرانية) وشارع الملا الصدر (موسى الصدر). وشارع (شهيد بُهنار) وهذا الشارع يقع فيه السكن الجميل التابع لوزارة الخارجية الذي سكنت فيه مع زملائي خلال الدورة المشار إليها).

وهناك شارع الشهيد علي شريعتي [١] يقع في حي جمران تقريباً وعلى كل حال ليس هناك شارع «محمد مصدق» [٢]. . كما قيل لنا رغم أنه أبرز شخصية ناضلت ضد حكم الشاه وربما ضحى أكثر من أي من تلك الأسماء التي لها قيمتها في نظر الإيرانيين! ولأن «الثورة تأكل أبناءها» فطهران أكلت أسماء ثوار كانوا مع الثورة!

غادرنا «جماران» إلى ميدان «تجريش» و تغدينا في أحد المطاعم التي تقدم الوجبات الإيرانية بالطريقة التقليدية، ومنها أقلّتنا سيارة لزيارة منطقة (دربند)

مصايف طهران في نظر كُتّاب عرب:

جذبت هذه المصايف الكثير من الأدباء في إيران وخارجها، وأتذكر بعض أبيات للشاعر العراقي ذائع الصيت محمد مهدي الجواهري [٣] الذي أعجب بإيران وقد زارها مرتين في عام ١٩٢٤وعام ١٩٢٦ وقال في مصيف دربند الذي زرناه الأبيات التالية:

نزلنا فـفرقنا همومـاً تجمعت ... أبى صفوة شمرانات أن تتجمعا
رعى الله أم الحسن دربند إننا ... وجدنا بها روضاً من الصفو ممرعاً
لقد سرنا منها صفاها وطيبها ... ولكن بكيناه جمالاً مضيعاً

(١) علي شريعتي مفكر إيراني ولكنه وسطي لا يعتبر من آيات الله لأنه رغم كونه مفكر إسلامي ولكنه خارج المؤسسة الدينية الحوزة وليس معمماً ونفي إلى لندن واغتيل هناك قيل إنه مات مسموماً من قبل عملاء السافاك هناك.

(٢) مصدّق رئيس وزراء إيران الأسبق والذي أممت حكومته شركة النفط البريطانية وذلك في عام ١٩٥١ وألغي قرار التأميم بعد إسقاط حكومته في عام ١٩٥٢ بانقلاب الجنرال زاهدي وهو الانقلاب الذي خططت له وأشرفت على تنفيذه وكالة المخابرات المركزية الأمريكية.

(٣) الجواهري شاعر عراقي شهير ولد نهاية القرن التاسع عشر أي ١٨٩٩ توفي نهاية القرن العشرين أي ١٩٩٧ لاجئاً في مدينة دمشق كما أنه اغترب فترة في براغ عاصمة التشيك. ويعتبر من أكبر شعراء العرب في القرن العشرين. والشعر المذكور أحد قصائده المعروفة أثناء زيارتين له لإيران.

مريعاً من الحسن الطبيعي لو سعت	بـنـوه إلـى إنـعـاشـه كـان أمـرعـا
قرى نـظـمـت نـظـم الـجـمـان قلائداً	أو الـدر مزداناً، أو الـماس مـرصـعاً
صفوف من الأشـجـار قابلـن مثلـها	كما مصرع في الـشعـر قابل مصرعاً
نـظـمـنـا فـأهـدينـا الـقـوافـي بـديـعـة	وكـان جـمـال الله فـيـهـن أبـدعـا

وتقع محافظة طهران في النصف الشمالي من إيران وعلى سفوح جبال (ألبرز) ومركز المحافظة هو العاصمة طهران وهي واحدة من أكبر المدن في العالم.

ويتميز مناخ طهران خاصة في المناطق الجبلية بالاعتدال ويكون في الأجزاء الجنوبية منه شبه صحراوي وعلى ضوء تنوُّع المناخ الذي هو مزيج من مناخ البحر الأبيض المتوسط والمناخ الصحراوي فإن المحافظة تتمتع بمناظر متنوعة ونشاطات متباينة بسبب هذا المناخ المتغير، ففي فصل الشتاء وفي الأجزاء الشمالية من المحافظة تزدهر رياضة التزحلق على الجليد.

لاحظت بأن طهران ليس بها مساجد كثيرة، على الأقل في الأحياء الراقية شمال طهران والتي أقمنا فيها خلال مدة الدورة، قيل لنا بأن أكثر المساجد هي في جنوب طهران وضواحيها وربما أن التقاليد التي أرساها شاه إيران السابق بعد توسع طهران في شمالها بأحيائها الراقية لم يكن يهتم ببناء المساجد بسبب توجه الدولة العلماني آنذاك على غرار توجهات ونهج أتاتورك، كما أن طبيعة العمل لدى الإيرانيين هو من الساعة الثامنة صباحاً وحتى الرابعة عصراً في أغلب مؤسسات وهيئات الدولة لذا فإن وقت صلاتي الظهر والعصر خلال ذلك الوقت، وعليه فقد صارت حياتهم كالغربيين رغم أنها دولة تندرج تحت مايعرف بنظرية (ولاية الفقيه) ويندر وجود مساجد للسنّة في طهران وقيل لنا: إنها لاتتجاوز عدد أصابع اليد في المدينة التي يقطنها مايقارب الخمسة عشر مليوناً ويشكل السُّنة نحو ثلث السكان في إيران!!!

دخلنا حسينية بالقرب من منزل آية الله الخميني وكذا مسجداً آخر أكبر حجماً في أصفهان وفي طهران وأدَّينا الصلاة ذات مرة في حديقة كبيرة لعلها حديقة جامعة طهران التي تقام فيها صلاة الجمعة وتتسع كما قيل لنا لنحو مليون مصلٍّ، عندما دخلنا للصلاة كان عندي فكرة أكثر من زملائي عن الحجر الذي يوضع تحت جبهة الساجد فقد عشت تلك العادة في العراق لأربع سنوات في نهاية السبعينيات وبداية الثمانينيات أيام الدراسة الجامعية، اندهش زملائي من تلك

العادة وشرحت لهم بأن تلك الأحجار الطينية هي من تربة كربلاء في العراق وهي تربة مقدسة امتزجت بدم الإمام الحسين ﷺ، وأضفت لهم بأن هناك مصنعاً في كربلاء يصنع الملايين من تلك المربعات المصنوعة من الطين وتصدر لكل أنحاء العراق وإيران وباكستان والهند بل إلى الجاليات الشيعية في أمريكا وكندا وعواصم الغرب عموماً، وشاهدت محلات في مدينة ديترويت في ولاية متشجن الأمريكية إلى جانب بيع الكتب والقرآن الكريم والمسابح وسجاد الصلاة وتلك (المربعات والدوائر الطينية) المقدسة لدى الشيعة في كل بقاع الأرض!

أذكر أنني لأول مرة دخلت مسجداً في بغداد في مدينة الكاظمية وكنت متخوفاً من أن ينهرني أحدهم؛ لأنني أضم في الصلاة ولا أسبل ولا أضع تحت جبهتي حجراً صغيراً للسجود عليه كما يفعلون، فلم أجد أحداً يستنكر عليَّ الصلاة ، حدث هذا لي شخصياً، سواء في كربلاء أو في قُم أو أصفهان.

طهران إحدى المدن الكبيرة في العالم من حيث المساحة وعدد السكان، وبالرغم من أن أجزاء من المدينة مثل المناطق الجنوبية والوسط تبدو قديمة إلا أن الأسواق مزدحمة ونشيطة، وكثرة السيارات تجعل شوارع المدينة مزدحمة خاصة في أوقات الذروة، الحافلات وسيارات الأجرة هي وسائل النقل الأكثر استخداماً داخل المدينة. سيارات الأجرة تحمل خمسة ركاب و قد تجلس فيها النساء إلى جانب الرجال!!في محاولة ناجحة لتخفيف الزحمة والاختناق المروري تمَّ شقُّ أنفاق تحت الأرض في طهران تربط بين مناطق مختلفة من المدينة بواسطة (مترو طهران).

نظام المترو في طهران جديد بالمقارنة مع معظم الأشياء الأخرى في المدينة، حيث بدأ تشغيل الخط الأول في عام ١٩٩٩ واستحدث في عام٢٠٠٧.

تجمتع فيه كل حسنات وسائل النقل العصرية من نظافة وسرعة وراحة، وقد جربنا التنقل بواسطة مترو الأنفاق، ومن محاسِن القطارات في مترو الأنفاق تخصيص عربات مستقلة للسيدات تسهيلاً لهن و منعاً للاختلاط. الأنفاق تحت الأرض مكونة من طابقين ، طابق للذهاب وآخر للإياب وفيها السلالم الكهربائية المتحركة للنزول والصعود، و هناك نظام جيد لشراء التذاكر يمنع الزحام وضياع الوقت. و أما حركة القطارات فهي متواصلة و لا تنقطع بين

المحطة والأخرى حوالي خمس دقائق، في الحقيقة مترو الأنفاق مدينة أخرى تحت مدينة طهران و أسهم كثيراً في مرونة حركة النقل وسلاستها داخل طهران.

الكثير من مناطق وأحياء مدينة طهران يعرف بأسماء تقاطعات مشهورة مثل «ميدان ناصرخسرو» و«ميدان شوش» و«ميدان رازي» و«ميدان انقلاب» و«ميدان آزادي» و«ميدان فردوسي» و«ميدان إمام حسين».

سُكّان طهران يتحدثون الفارسية بلهجتهم الخاصة وتعرف باللهجة الطهرانية التي شهدت رواجاً كثيرا بفضل الإذاعة والتلفاز. الزائر لإيران في البداية لا يستطيع التمييز بين اللهجات الفارسية المختلفة ولكن مع مرور الوقت يمكنه بسهولة أن يميز بين اللهجات الطهرانية والشيرازية، والمشهدية، والأصفهانية، والشمالية.

رغم قِصر مدة زيارتنا ورغم جهلنا باللغة الفارسية إلا أن شهراً من العيش بين سكان طهران جعلنا نميز لهجتهم عن لهجات الوافدين إليها ولهجات أهل طهران أنفسهم فلهجة نساء طهران غير رجالها على الأقل في نبرات ومخارج الصوت... قال لنا المترجم بأن أهل إيران يصفون لهجة بناتها بأنها مثل هديل الحمام وهو كناية عن عذوبة مخارج الصوت الممزوج بالغنج والدلال والجمال الذي لايقاوم!!

توجهنا من «ميدان تجريش» إلى جامعة طهران وهي أكبر الجامعات الإيرانية وأقدمها وتلعب دوراً مهماً في الحياة العلمية والسياسية والاجتماعية والثقافية في إيران. المنطقة التي تقع فيها جامعة طهران محاطة بالمكتبات خاصة شارع «انقلاب» وتعني باللغة العربية (الثورة) الذي يكثر فيه المكتبات. هذه المنطقة التي يحق لها أن تسمى مدينة الكتاب فهي أروع ما رأينا خلال رحلتنا لإيران ولم نرَ مثلها في أي دولة أخرى زرناها. توجد على امتداد شارع «خيابان انقلاب» حتى شارع فلسطين والشوارع الداخلية القريبة من جامعة طهران مئات المكتبات ودور النشر، فمن تقاطع انقلاب إلى تقاطع فلسطين تنتشر مكتبات إضافة إلى الباعة المتجولين الذين يبيعون الكتب على الأرصفة.

أصفهان (نصف الدنيا)!

شددنا الرحال بحافلة صغيرة استوعبت أعضاء الدورة العشرة مع السائق العراقي وكنت أعتقد بأن المسافة بينها وطهران متقاربة إلا أنها تبعد نحو ٣٤٠ كيلومتراً جنوب طهران.

في طريقنا لهذه المدينة الجميلة مررنا بمدينة كاشان المشهورة بصناعة أجود أنواع السجاد[1] وكذا قُم المقدسة ولم نزرها إلا في طريق عودتنا في اليوم التالي.

وأصفهان هي إحدى أجمل وأعرق المدن الإيرانية وأشهرها إذ تحتوي على أكثر من ألف مَعْلَم سياحي، وقد صُنفت من قبل منظمة اليونسكو بأنها إحدى أهم المدن التراثية التي تستحق الاهتمام والرعاية، وتقع على نهر (زاينده) والذي يسمى في إيران (زاينده رود) و (رود) كلمة فارسية تعني نهر. ويسكنها أكثر من ثلاثة ملايين نسمة حسب إحصائيات التسعينيات وربما عدد سكانها اليوم الأربعة ملايين. .يقال لها من قبل مواطني إيران: أصفهان نصف جهان. وتعني: أصفهان نصف العالم نظراً لاحتوائها على الكمِّ الهائل من التراث والأسواق التراثية الكبرى المنظمة التي لم يصل إليها العابثون والمستعمرون.

ومنذ الفتح الإسلامي[2] لإيران شهدت المدينة العديد من المعارك وشهدت أيضاً فترات

(١) وكاشان إحدى المدن المشهورة بصناعة السجاد الفارسي الشهير إلى جانب مدن أخرى مثل أصفهان وتبريز وقم وارديبل وغيرها.

(٢) فتح المسلمون فارس في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ وفي عهد أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ انتهت الدولة الساسانية التي كانت تحكم فارس... وقد انتشر الإسلام في أرجاء هذا البلد كغيره من البلاد التي فتحها المسلمون. وقد لا يحتاج القارئ لسرد تاريخ إيران الحافل ولكنه في الجملة امتزاج حضارة عربية وفارسية لتكون حضارة إسلامية مزدهرة شابها حقب سوداء أحياناً وتوافق أحياناً أخرى منذ العصر الأموي ثم العباسي ظلت أرض فارس وما وراء النهر «سيحون وجيحون» وخراسان تمد الحضارة الإسلامية بأعلام ومفكرين ملأت شهرتهم الآفاق مثل الفارابي وابن سينا وسيبويه وفي بلدان آسيا الوسطى بلاد الازبك طشقند وسمرقند أنجبت البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم فكان للحضارة الإسلامية مساهمة شاملة من تخوم الصين وحتى الأندلس. وعودة لتأريخ إيران السياسي لنذكر بأن أهم تحول هو في عهد الصفويين عندما تشيَّع الشاه الصفوي إسماعيل ليحول بلاد فارس رسمياً إلى دولة شيعية ومن وقتها لم يحصل تجانس وانسجام مع أكبر جيرانها الدولة العثمانية وإلا لكانت توحدت بلاد الإسلام وامتدت لآفاق أوسع.

زاهرة. وقد أعقب ضعف الخلافة في نهاية القرن العاشر الميلادي نشوء سلالات حاكمة محلية داخل إيران من خلال التجمعات الأسرية. فكان غرب إيران يسيطر عليه البويهيون فقد اهتم حكَّام أصفهان من البويهيين ومن ثم الصفويين بالعمارة وفنونها مما كان لها بالغ الأثر في تطور المدينة.

ولعل ما أكده مستشرقون ورحَّالة غربيون عن أصفهان لدليل على سحر هذه المدينة فالكاتب الفرنسي (اندريه مارلو) الذي توفي ١٩٧٦ قال عن أصفهان: «مَنْ يستطيع أن يدَّعي أنه شاهد أجمل مدن العالم دون أن ينظر إلى أصفهان»؟!

ميدان (نقش جهان):

أهم معالم أصفهان التي تستحق المشاهدة في أول أيام الزيارة هو ذلك الميدان المشهور والذي طالما تكرر عرضه على شاشات التلفزيون وهو ميدان نقش جهان والذي لانظير له ويعتبر عنوان السياحة فيها والبعض يسميه (ميدان إمام)و يعتبر من أجمل وأوسع الساحات على المستوى العالمي ويقال بأنها ثاني أكبر ميدان بالعالم بعد ميدان (تيان مين) الشهير في العاصمة الصينية، إلا أنها تتميز بكونها ساحة أثرية ومحتفظة برونقها وجمالها وقيل لنا: إن طولها٥١٢ متراً وعرضها نحو ١٦٠ متراً وهذا الميدان الواسع تتوسطه بركة كبيرة كأنها بحيرة ويحيطها حديقة غنَّاء خضراء وزهور وورود تأسر الألباب، ويطوق الميدان سوق من طابقين يعرف بسوق (قيصرية) وفي صدر الميدان يقع جامع رائع تحفة في الفن المعماري بمأذنته الباسقة المزينة بالقيشاني وقبته المكسوة أيضاً بالزخارف الفارسية من العهود السابقة.

ولاتساع الميدان كانت تقام فيه الحفلات والمباريات في السابق ويقف الشاه من شرفة قصره للمشاهدة، والآن تقام فيه أيضاً صلاة جمعة أصفهان.

ومما يزيد المكان رومانسية العربات التي تدور في الميدان وهذه العربات تجرها خيول مزينَّة بالأجراس التي تضفي على المكان سحراً مضاعفاً. وتزيد راكبي العربات بهجة لاتوصف. وقد امتطينا تلك العربات وأخذنا صورة تذكارية ورأينا الكثير من السيَّاح حولنا مذهولين بسحر هذا الميدان والذي يطل عليه جامع كبير هو جامع (لطف الله).

ويأتي السيأَّح إلى أصفهان من كل حدب وصوب سواء من داخل إيران أو من خارجها

فمنهم الأوروبي والآسيوي والعربي وكذلك الإيراني ويلاحظ كثرة السيَّاح من طلبة الجامعات، وقد شاهدنا طلبة وطالبات جامعة أصفهان وهم يتوددون للسياح الأجانب رغبة منهم في ممارسة ماتعلموه من لغات سواء الإنجليزية أو الفرنسية أو العربية وقد تكلمنا مع بعضهم باللغتين العربية والإنجليزية وكانوا متفاعلين ومنسجمين، ويحاولون أن يشرحوا لنا طبيعة الحياة في أصفهان في دقائق معدودة. وقد علَّق أحد أعضاء الدورة فعلاً هنا فقال: هنا تصدق مقولة: (الماء والخضرة والوجه الحسن)!

وبعد أن تجوَّلنا حول الميدان بالعربات جرَّتنا أقدامنا إلى الأسواق المحيطة (البازار) والغنية بما تحتويه من كنوز إيران، وتعتبر جنة للمتسوقين ومن يهوون التحف العتيقة[(١)] وما يستهوي السياح من سجاد وتحف وأوانٍ نحاسية ومصنوعات جلدية فضلاً عن الحلويات الإيرانية المعروفة والتي تشتهر بها مدينتا أصفهان وقُم وتسمى حلويات (شلوزاد) وتصنع من الفستق والزعفران اللذين اشتهرت بهما إيران وكذا ماء الورد وأسعارها معقولة، كما اشترينا تلك الحلويات والتي تسمى «مخصوص» والأسعار هنا قابلة للتفاوض الذي يعتمد على أسلوبك ولباقتك من أجل إقناع البائع بأنك تعرف قليلاً من الفارسية وبأنك مقيم وليس بسائح.. ! فقلت بعبارة إيرانية: (دوه مخصوص قيمت؟) بمعنى كم قيمة اثنين من الحلويات «المخصوص»؟.. فأجابني: جهار هزار اقاي ويعني بالفارسية أربعة آلاف ياسيد... وهنا همس زميلي بالبدء بمفاوضتهِ على السعر فقلتُ له بعبارة إيرانية أيضاً: (تخْفيف ضَرورتْ) يعني ضروري تنزيل السعر فلم يوافق وبعد جدل قصير وافق بقوله: (اقاي مُخلُصْ كلام سليم جهار) أي ياسيدي آخر كلام هو ثلاثة آلاف، فوافقت بقولي: (مُتشكرِم خيلي ممنون خودا هافز)[(٢)]، أي شكراً جزيلا في أمان الله.

(١) والمعروفة بالإنجليزية واللاتينية بإنتيكاantique.

(٢) خودى أو هودى أي الله وكلمة هافز تعني حافظ يعني يرعاك والجملة كاملة معناها في أمان الله. بينما يقولون في الهند بالأوردو عبارة الله حافظ، باعتبار خودا هي كلمة فارسية (مجوسية!) قديمة وتعني الله بينما في الأوردو يفضلون تسمية الله كما هي بالعربية.

وقد استغرب زملائي فصاحتي المفاجئة في الفارسية فأفهمتهم أني رغم فهمي لبعض مفرداتها مسبقاً إلا أنها في كل الأحوال لغة سهلة للغاية لنا نحن العرب ذلك لأن أكثر من ثلث كلمات اللغة الفارسية هي عربية وما عليك إلا فهم مسبق لبعض الكلمات المتماثلة مع العربية إضافة لمفردات فارسية وبعض كلمات الربط من حروف جَرّ وعَطف ونحو ذلك.

ويجرُّنا ذلك إلى الكلام عن اللغة والأدب والإعلام والنشر في إيران وهو ماسنفصِّله في الصفحات التالية.

وتشتهر أصفهان أيضاً بالقصور العديدة التي يعود معظمها إلى العصر الصفوي وهي تتباين في تصميماتها وروعتها.

ومن ضمن المعالم الهامة والقصور التي تستحق الزيارة ويحرص السياح على مشاهدتها هو مَعْلَم شهير غرب نقش جهان هو (قصر علي قابو) وقيل بأنه كان الهدف من بنائه هو لاستقبال السفراء والرسل ويعود هذا المعلم المعماري إلى العصر الصفوي [1]. ويتكون القصر من ستة طوابق تحوي العديد من الشُّرَف، وتعدُّ الزخارف الجبصية واللوحات الموجودة في هذا القصر من الأشياء التي تبعث في النفس الإعجاب والزهو.

ومن معالم المدينة الجسوُر فقد انتشرت في أصفهان العديد من الجسور والقناطر ومن أقدمهاجسر شهرستان تم بناؤه في القرن الرابع عشر من الميلاد في شرق مدينة أصفهان. وعُرفت بأنها مدينة الجسور التاريخية حتى اعتبر جسر (خاجو) من أجمل عشرة جسور في العالم..

(١) بعد الصفويين جاءت دولة القاجاريين ثم جاء آل بهلوي وحكم رضا شاه بهلوي إيران عام ١٩٢٥ ـ ١٩٤١ وفي عام ١٩٤١ خلفه ابنه محمد. وفي السنوات الأولى من القرن العشرين منح اكتشاف النفط في جنوب غربي إيران البلد مصدراً هائلاً للثروة، وقد اشتغل كلا الرجلين في استغلال هذه الثروات بتحديث البلد وتعزيز التطور الاقتصادي، لكن اضطرابات عنيفة في الداخل أدت إلى غضب شعبي عام ١٩٧٩م أطاح بحكمه، وكان في الزعامة السياسية الدينية الشيعية دور حاسم في قيادة الثورة التي أسقطت حكم «الشاه» وفي تغيير النظام السياسي في إيران من ملكية دستورية إلى جمهورية إسلامية.

ومما يميز أصفهان ويعطيها جمالاً أخَّاذاً كثرة حدائقها التي يفوح منها عبيق ورود أصفهان من أشهر حدائقها تلك التي شيَّدها الشاه عباس الثاني في قاعة استقبال قصر «الأربعين عموداً». وقد ضمت هذه القاعة حديقة كبيرة. ولا يزال المبنى قائماً حتى الآن تحيطه الأشجار المعمرة على مساحة كبيرة من مساحة الحديقة الأصلية، وتطلُّ الشُّرفة الكبيرة من القصر على بركة عظيمة تعكس على صفحة مياهها جمال القصر.

كذلك زرنا سوق (قيسارية الكبير) أعاد الشاه عباس بناء أصفهان، وكان اهتمامه منصبًّا على التجارة والأمن معاً، وكان الشاه يريد أن تكون الحياة التجارية للمدينة على مقربة من مقر الحكومة فقام بتوسعة السوق القديم ببناء منطقة تجارية أكثر اتساعاً إلى الشمال من الميدان الرئيسي الخاص به، ويطلق على مدخل السوق الذي تَّم بناؤه في عام ١٠٢٨هـ / ١٦١٩ م. اسم «قيسارية».

شهدت أصفهان أوج ازدهارها في عهد الشاه عباس الكبير وفي تلك الحقبة أنشئت أهم معالمها السياحية من قصور وقلاع وجسور وغيرها.

وهذه الأسواق المحيطة بالمكان والتي تسمى البازار تشتهر ببيع الصناعات الإيرانية اليدوية على وجه الخصوص كالسجاد الإيراني والتحف الخشبية والنحاسية والمنتجات الجلدية زهيدة الثمن، كذلك الصور والبطاقات والمجسَّمات السياحية التي تستهوي السائح الأجنبي والمحلِّي على حدٍّ سواء.

ولعل أهم غرائب مدينة أصفهان المنارتان العجيبتان[١] فعندما تتحرك إحداهما تتحرك الأخرى والعكس صحيح، وسمعت بأن هناك حالة مشابهة في مدينة (حيدر أباد) في الهند.

ولهذا البناء قيمة عالية من حيث الفن المعماري، فمن ميزاته أنه إذا هزَّت إحدى المنارتين[٢]

(١) يوجد مئذنتان مشابهتان تتحركان أيضاً وذلك في مدينة «حيدر أباد» في الهند وقد قرأت عنهما في أكثر من مصدر وتسمى «منار جانبان» أي المنارتان المهتزتان، وهي من الأماكن المشهورة في إيران وتقع على بعد نحو خمسة كيلومترات غربي أصفهان ويشتمل البناء على منارتين وإيوان.

(٢) ويعود تأريخ بناء الإيوان المجاور والمقبرة إلى فترة حكم السلالة المغولية. ولهذا البناء قيمة عالية من حيث الفن المعماري. فمن ميزاته أنه إذا هزت إحدى المنارتين يحدث اهتزاز بسيط في المنارة الأخرى.

يحدث اهتزاز وحركة محسوسة ومساوية في المنارة الثانية!وقد أخذنا صوراً بجانب تلك المأذنتين الغريبتين لنجسد تلك الذكريات. !

وقد قرأت عن تلك المنارتين وسمعت من والدي الذي زار إيران مطلع السبعينيات. والعجيب أيضاً أن أعضاء السفارة اليمنية لم يسمعوا بها بل حتى الموظفين القدامى والمقيمين الذين قضوا وقتاً طويلاً ومنهم عبد الحسين العراقي سائق السفارة والذي شجعناه على أن يرافقنا لزيارة أصفهان (وهو من المهاجرين العراقيين الذين أُجبروا على مغادرة العراق قبيل اندلاع الحرب العراقية الإيرانية بحجة جذورهم الإيرانية)[١] وأخبرناه بأننا سنتولى تكاليف إقامته ولوازم الرحلة من وقود وإكرامية ونحو ذلك، وتحركنا نحن العشرة إلى أصفهان في صباح يوم جميل وكلنا نشاط وحيوية على أمل مشاهدة معالم جديدة مما خفي عنا من مدينة الألف مَعْلَم سياحي عاصمة الصفويين، وفي طريقنا شاهدنا مدينة (قُم) والتي سنأتي على ذكرها لاحقاً لأننا مررنا فيها مرور الكرام ولكننا حرصنا في طريق العودة أن نزورها لنصف يوم على الأقل.

وأول ما يلفت نظر الزائر لأصفهان هو كثرة المساحات الخضراء وقصورها وشوارعها المتناسقة.

زيارة مدينة (قُم):

وصلنا قُم وهي في الطريق بينهما في اتجاه جنوب غرب وعلى بعد نحو (مئة وسبعين كيلومتراً) من العاصمة، وأشهر معالم قُم مسجد معصومة وفيه قبر فاطمة أخت الإمام الثامن لدى الشيعة (علي موسى الرضا) والمدفون في مشهد والتي كانت تعرف بخراسان، والمعروف بأن إيران وعبر تاريخها الطويل قد شهدت عدة عواصم فمرة كانت شيراز وأخرى أصفهان في عهد الصفويين وآخرها طهران عندما أتت الأسرة القاجارية.

وقد فضَّل رجال الدين عقب سقوط الشاه أن تبقى طهران عاصمة وأن تبقى قُم رمزاً للنقاء

(١) كنا نشفق لحالة السائق العراقي المهاجر قسراً وكان ذلك قبل سقوط بغداد، واليوم وبعد أكثر من عشر سنوات على سقوطها أعتقد بأن ذلك السائق الذي كان يبدو تعيساً ولاجئاً غدا الآن مسؤولاً في (العراق الجديد) ولم لا فكثير من ساسة العراق اليوم يحملون الجوازات الإيرانية. وهم مقسمون الولاءات بين مجموعة مقتدي الصدر وآل الحكيم وقادة آخرين.. وكلهم رغم اختلافاتهم تحت العباءة الإيرانية.

والمرجعية (وكان ذلك طبعاً قبل سقوط بغداد إثر الغزو الأمريكي لها) وعودة مرجعية النجف كقوة منافسة لمدينة قُم و غدت قُم حوزة علمية بسبب وجود السيدة معصومة ويتوافد على هذه المدينة طالبو علوم الدين وفق المذهب الشيعي من كل أنحاء إيران ومن العالم الإسلامي وتمتع باستقلالية مادية، وفي هذا السياق يقول محمد حسنين هيكل في كتابه الشهير (مدافع آية الله) عن الثورة الإيرانية «إن المواطن الإيراني على استعداد لخداع موظفي الضرائب ولكنه ليس على استعداد لخداع إمامه أو نائب الإمام. . »! أي أنه ملتزم بدفع زكاة الخمس[1].

ومن معالم قُم مقام السيدة المعصومة[2] كما تسمى في إيران، والتي توفيت ودفنت في قُم خلال توجهها لزيارة أخيها الإمام الرضا، بُني على قبرها مسجد وتكونت مدينة. وقبل ذلك كانت قُم قرية بسيطة، لكن بدفن السيدة فاطمة في ذلك المكان، بدأ الناس يسكنون بجانب القبر، فتوسعت المدينة تدريجياً وامتدت مساحتها. وبجانب قبْر السيدة فاطمة بُنيت مقابر أخرى لرجال دين بارزين في تاريخ المدينة، حتى بات ضريح المعصومة يضم عملياً تحت قبته الذهبية الكثير من القبور. وأينما تتلفت في قُم تجد إشارات وأدعية دينية مثل «يا فاطمة»، و«أبو الفضل العباس»، و«يا حسين»، وهي لافتات تجدها على محلات بيع الملابس، وعلى وسائل المواصلات العامة والخاصة في المدينة، وعلى المطاعم، وطبعاً على المساجد، والمدارس الدينية. وإن كان الضريح لم ينجح في أن يحول قُم إلى مدينة تجارية واقتصادية، إلا أنه حولها إلى مركز ديني وتعليمي، إذ أن رجال الدين كانوا يجلسون في حلقات مع طلابهم ويعطونهم دروساً دينية، ثم تطور الأمر مع الزمن حتى ظهرت الحوزة الدينية المعروفة اليوم. وقد أدى تدهور مركز حوزة النجف، التي تم إنشاؤها في القرن الحادي عشر، خلال المئة عام الأخيرة بسبب الأحداث السياسية في العراق، إلى تعزيز مكانة الحوزة العلمية في قُم التي بدأت تكتسب

(١) هي إحدى المسائل التي تثير جدلاً بين السنة والشيعة فبينما يرى الشيعة بأن إخراجها واجب على الكفار وكل مال يغنمه المسلم زائد عن مؤونته السنوية تذهب نصفها إلى الإمام القائم مقام الرسول أو ما يسمى الولي الفقيه بينما يروي أهل السنة أن إخراجها واجب على الكفار فقط في الركاز وغنائم الحرب.

(٢) أبرز معالم قم بالإضافة إلى الحوزة العلمية ومدارسها، مسجد السيدة فاطمة ابنة الإمام موسى الكاظم بن جعفر الصادق، الإمام السابع لدى الشيعة، ولد بالمدينة المنورة وفاطمة هي أخت الإمام علي موسى الرضا الإمام الثامن لدى الشيعة، المعروف باسم الإمام الرضا.

سمعة خارج إيران خلال حكم الصفويين عندما تحوَّلَتْ إيران رسمياً إلى المذهب الشيعي[(١)].

لم تنجُ قُم من الغزو الصيني كمثيلتها طهران، ففي بازارها البسيط وسط المدينة تجد السلع الصينية في كل مكان، بأسعار رخيصة، وهذا يتناسب مع الإمكانيات المادية للغالبية العظمى من طلبة الحوزة العلمية، فهم يعيشون بمرتبات بسيطة، يأخذونها من أساتذتهم. على مدخل السوق كان هناك شاب يفترش الأرض ويبيع ألعاباً صينية الصنع للأطفال، بعد ذلك عدة محلات تبيع مفروشات وأجهزة للمطبخ، وملابس، وكان الكثير من المحلات مغلقاً، فالعادة في بازار قُم أن يغلق التجار محلاتهم وقت الغداء، يذهبون إلى منازلهم للأكل ثم يعودون ثانية للعمل حتى الخامسة أو السادسة. وبالرغم من ضعف حركة البيع والشراء وقلة المرتادين، لا تسمع أحداً في السوق ينادي على بضاعته في محاولة لجذب الزبائن ، وهذه المدينة هي التي عاش فيها الخميني قبل أن ينفيه الشاه إلى خارج إيران فاختار العراق لفترة طويلة ثم فرنسا التي عاش فيها آخر سنة له في المنفى.

وعلى عكس طهران، تلبس كل نساء قُم الشادور الأسود الطويل، وعلى كل النساء من غير أهل المدينة الالتزام بهذا، فالزائرات من طهران أو من خارجها لا بد أن يدخلن المدينة بالشادور أو المعطف الأسود الطويل، وإلا كنّ مثار تحديق واستنكار في الشوارع. الشادور غالباً ما يكون أسود اللون، وليس هناك غطاء للوجه، فالنقاب نادر جداً في كل إيران، لدرجة أن مرور امرأة تضع النقاب على وجهها في أحد شوارع قُم كان مثار تعليق من بعض المارة. لكن قُم شأنها شأن طهران فهي أيضاً مدينة المتناقضات فمنها خرج الخميني والثورة الإيرانية والإسلام السياسي.

وتستغرق سنوات الدراسة في الحوزة العلمية في (قُمّ) العمر كلّه تقريباً لمن يريد أن يبلغ أعلى مرتبة وهي آية الله. أما من كان يرغب فقط في تحصيله للأساسيات في الفقة فيكفيه من ثلاث إلى خمس سنوات للحصول على إجازة «مبلِّغ»! ويبدأ طلاب الحوزة العلمية دراستهم بالفقه وعلم الكلام والحديث والتفسير والفلسفة والأدب العربي. بعد ذلك يبدأون المرحلة

(١) صار المذهب الشيعي هو المذهب الرسمي لإيران في عهد الصفويين عندما أعلن الشاه إسماعيل الصفوي بأن المذهب الشيعي هو مذهب الدولة.

الثانية المتوسطة وهكذا وأعلى مرتبتين في الحوزة هما «آية الله» و«مرجع»، وبعد القرآن يعد «المرجع» المصدر الثاني في الفقه الشيعي المخول إصدار الأحكام الشرعية، وحدث أن ساد الحوزة صراعات سواء المحلية أو بين حوزتي النجف وقُم [(١)]، ومن آيات الله الذين تم وضعهم قيد الحبس المنزلي آية الله محمد الشيرازي قيد الإقامة الجبرية في منزله بقُم بعد فتوى تحّرم على الإيرانيين مقاومة الجيش العراقي خلال الحرب مع العراق، والمستندة إلى تحريم إراقة دماء المسلمين [(٢)]. إلا أن المرشد الأعلى لإيران وقتها آية الله الخميني قال: إن فتوى الشيرازي تهديد لأمن إيران، وأمر بوضعه قيد الحبس المنزلي، كذلك تَّم وضع مرجع آخر وهو آية الله حسن الطباطبائي في الاعتقال المنزلي لمعارضته للحرب العراقية الإيرانية. وتشمل قائمة آيات الله الذين وضعوا قيد الاعتقال المنزلي آية الله كاظم شريعتمداري لدوره المفترض في محاولة الانقلاب على الحكومة الإيرانية عام ١٩٨٢، وآية الله محمد طاهر خاقاني لدوره المزعوم في مساعدة العراق ١٩٨٠، وآية الله منتظري لانتقاداته المرشد الأعلى لإيران علي خامنئي وهكذا! وللنساء نصيب في الحوزة، فلهنَّ مدرسة خاصة بهن، حيث يدرسن كل علوم الدين التي يدرسها الرجال، ويدرسن بنفس النظام ويمكن أن يحصلن على مرتبة «مبلِّغة»، أو «مجتهدة»، ومن حقهنَّ الفتوى. وللغالبية العظمى من آيات الله مواقع إنترنت بثلاث لغات على الأقل هي الفارسية والعربية والإنجليزية. وفي المواقع المختلفة يمكن أن تجد أسئلة وفتاوى تتعلق بكل شيء، بدءاً من المسائل الفقهية التقليدية على الإنترنت، والحكم على الزواج وعلاقات الصداقة عبر الإنترنت بمعنى أنّ الآيات تعاملوا مع تكنولوجيا الاتصالات الحديثة.

وأثناء إقامتي في العراق كنت أسمع عن كلمة (مُلا وملالي) تتردد ويطلقون على النظام السياسي في إيران بنظام الملالي ولما بحثت عليها في القاموس العربي الفارسي وجدت ضالتي؛ فأما كلمة مُلّا جمعها ملالي، وهي أدنى درجة في الحوزة الشيعية ولعل أعلى سُلَّم تلك الدرجات (آية الله العظمى)التي تعني بالعربية وفقاً للقاموس الفارسي كلمة (المجتهد العظيم)!

(١) وهناك خلافات داخل البيت الشيعي في العراق بعد التحولات التي أعقبت الغزو سواء لدى المرجعيات الشيعية في العراق أو مع مرجعيات قُم أو بين المرجعيات النجفية والساسة في بغداد وغير ذلك من التخبط والخلط بين السياسي والديني!

(٢) محمد حسنين هيكل «مدافع آية الله» ص ١٢٢.

ومن المعروف بأنه لدى سواد العالم الإسلامي ثلاث مدن مقدسة منذ فجر الإسلام وهي مكة والمدينة والقدس الشريف[(١)] ولكن عند الشيعة زادت أربعاً أُخرى أو أكثر أهمها النجف الأشرف وكربلاء ومشهد «الإمام موسى الرضا» وكذلك الكاظمية في بغداد وسامراء التي تضم مرقد الإمامين العسكريين«هذا بالنسبة للأمكنة، وللشيعة سواء في إيران أو سواها (العراق ومناطق أخرى) أيام مقدسة طيلة العام أهمها يوم عاشورا وأربعينية الحسين وذكرى وفاة الإمام علي ويوم الغدير وغيرها، وفي أدبيات الشيعة يعتقد بعضهم بمقولتهم الشهيرة بأن كل الأيام عاشورا وكل الأمكنة كربلاء!

وكثير من سكان تلك المدن محافظون وأغلبهم ملتزمون لايتدخلون بما لايعنيهم، ولو أنك تشعر أن الشباب فيهم المتمرد وفيهم المتذمر، وهذه طبيعة الشباب، وكثير منهم متشوق لتعلم اللغة العربية، والشباب يعملون في كل مكان وكذلك النساء فالمرأة لها حقوقها، وهي تشارك الرجل في جميع مجالات الحياة.

وتجد المرأة تلبس تلك العباءة فوق الرأس (شادور)، ولكن عقلها متفتح فهي مذيعة وسياسية، ورياضية، ومحاورة جيدة، وكنت أتابع البرامج في التلفاز وتعجبني طريقة المذيعات ولباقتهن في الحوار، وفي نفس الوقت يظهرن بمظهر محتشم لا يخفي جمالهن الظاهر للعيان!

الجمال الفارسي تغنى به الشعراء وافتتن به الكثيرون، فتبارك الله فعلاً ينجذب الإنسان نحو الجمال الطبيعي، والنساء هناك يتَّسمن بالجمال المفرط سواء في أصفهان أو طهران..

الثقافة في إيران:

اللغة العربية هي اللغة الثانية في إيران رسمياً بعد الفارسية، ولكن لا يتحدث بها إلا قلة، أغلبهم من رجال الدين الذين يتعلمونها لفترة أطول من خلال دراستهم للقرآن والفقه، ولهذا لا يمكنهم التحدث إلّا باللغة الفصحى وفي إطار الموضوعات الدينية، أما غالبية الإيرانيين فيدرسون العربية خلال المرحلة الثانوية فقط، (وكما قالت محاضرة إيرانية ضمن برنامج الدورة التي تلقيناها) فإن التدريس يركز على قواعد النحو والصرف وطريقة الكتابة، وليس المحادثة.

(١) وذلك استناداً للحديث الشريف: «لا تشد الرحال إلا لثلاثة مساجد المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدي هذا..».

ولقلة عدد السائحين العرب في إيران وقلة الشركات العربية والتواصل الثقافي لا يجد غالبية الإيرانيين حاجة فعلية إلى مواصلة حفظ ما تعلموه في المدرسة من اللغة العربية، وبالتالي عملياً تُعد الإنجليزية هي اللغة الثانية، فالمتحدثون بها في تكاثر لأنها لغة العصر والتكنولوجيا، ومستوى إجادتها أفضل، خاصة بين طلبة الجامعات الإيرانية. ويقتصر فهم الكثير من الشباب الإيراني للغة العربية على عدد محدود من الكلمات، مما يجعلهم لا يستطيعون متابعة مايبث على شاشات التلفزيونات العربية التي باتت تصل لبيوت[١] الإيرانيين رغم المنع وقتها، ولا أدري هل لازال ذلك الحظر سارياً أم لا؟

نظرياً وحسب الدستور الإيراني فإن اللغة العربية تدخل ضمن المواد الإجبارية في المدارس الثانوية ورغم أن عشرات الملايين من طلبة إيران على مدى عقود يفترض أنهم قد أجادوها إلا أنهم يدرسونها نظرياً دون تطبيق وفي أجواء عنصرية تنادي بالعودة للحضارة والتأريخ الفارسيين أو تيار علماني مستغرب يفضل اللغات الأوروبية لاسيما الإنجليزية التي غدت بفضل العولمة لغة الكمبيوتر والعلوم والتكنولوجيا.

رجال الدين في إيران في غالبيتهم يعرفون العربية ولكنهم فخورون بلغتهم الفارسية لدرجة التعصب فآية الله خميني كان يتكلم العربية ولكنه نادراً ما يستخدمها وخلفه آية الله خامنئي يتكلم العربية بطلاقة ولكنه يفضل الفارسية إلا إذا كان متحدثاً لمجاميع أكثرها عربية أو في المحافل الدولية التي يحضرها عرب يحبِّذ في خطبه أن يستشهد ليس بآيات قرآنية فحسب فهذا طبيعي ولكن بأبيات لشعراء عرب يفتخر بهم من ينطق بالعربية كأبي فراس الحمداني وأبي تمام وغيرهما.

علماء و وأعلام إيران:

من ضمن أهم المدن التي تستوجب زيارتها لأي سائح يهتم بتراث وحضارة فارس العريقة ومدينة شيراز يقول عنها الإيرانيون بأنها بوابة العشق فقد اكْتسبت هذه المدينة سِحْرها من بلاغة الكلمات التي قيلت عنها تحت سمائها من قِبل شعراء وأدباء مشهورين، فهي موطن الشاعر

(١) في تلك الفترة عند زيارتنا رغم المنع الرسمي لأجهزة الاستقبال والأطباق اللاقطة إلا أن كثيراً من الإيرانيين يقتنونها ويضعونها على الأسطح بطرق لا تظهر للعيان بسهولة جراء الحظر آنذاك!

سعدي الشيرازي والشاعر الذي ظهر بعده بنحو مئة عام حافظ شيرازي والمدفون فيها أيضاً وقد كتب فيها آلاف الأبيات من الشعر العذب الذي يتغنى به الإيرانيون إلي يومنا هذا[١].

أنجبت إيران أعلام فكر وأدب على مر القرون بدءاً من سيبويه والفارابي وابن سينا وغيرهم ومروراً بأدباء عمالقة كالخيّام وحافظ شيرازي[٢]. .

ويزخر الأدب الفارسي بأعلام في الأدب والشعر تأثروا بالعربية أمثال حافظ شيرازي وفردوسي وعمر الخيام وسعدي وغيرهم، حتى الشاعر الفارسي الكبير فردوسي صاحب ملحمة الشاهنامه الشهيرة ، أي «كتاب الملوك» تلك الملحمة الخالدة التي تحكي تأريخ إيران وأمجاد شعبها منذ أقدم العصور وحتى الفتح العربي لها، وقد تضمنت نحو ستين ألف بيت ضمت الكثير من المفردات العربية رغم أن فردوسي حرص على أن يبتعد قدر الإمكان عن التأثير العربي في ديوانه الشهير ورغم ذلك كما ذكرنا يرى الكتّاب والأدباء المهتمون بالأدب الفارسي بأنها احتوت على مئة من المفردات العربية!

في العصر الحديث هناك مفكرون آخرون مغمورون بالنسبة لنا نحن العرب ولكنهم معروفون في إيران وفي العالم فلهم باع طويل كلٌّ في اختصاصه.

قبل الثورة عرف العالم شخصية هامة مثل محمد مصدق وشخصيات أخرى مثل عبدالكريم شروس وعلي شريعتي[٣] ، وعلى خُطا ونهج شريعتي سار مهدي بازركان أول رئيس وزراء إيراني بعد الثورة، فقد أراد بازركان أن تسمى إيران «جمهورية إيران الديمقراطية الإسلامية»، بدلاً من «جمهورية إيران الإسلامية»، وكان مؤيداً للمسودة الأولى من الدستور الإيراني التي لا

(١) مجلة العربي الكويتية عدد رقم ٤٠٣ الصادر في يونيو ١٩٩٢.

(٢) ولشيرازي ضريح كبير في مسقط رأسه وقد سمي بحافظ لحفظه القرآن في عمر مبكر.

(٣) ولد قرب مدينة مشهد عام ١٩٣٣، ليُرشح لبعثة لفرنسا عام ١٩٥٩ لدراسة علم الأديان وعلم الاجتماع ليحصل على شهادتي دكتوراه في تاريخ الإسلام وعلم الاجتماع. انضوى في شبابه في حركة مصدّق وعمل بالتدريس واعتقل مرتين أثناء دراسته بالكلية، ثم بعد عودته من فرنسا.
يعتبر الدكتور علي شريعتي نموذجاً فريد من مفكري إيران. حيث إنه بالرغم من أنه فارسي العرق، لم يكن يتوقف عن نقد النزعة الشعوبية لدى رجال التشيع الصفوي، بطريقة أكثر جذرية من غالب من تصدّى لهذا الموضوع من الأدباء العرب.

تذكر منصب الولي الفقيه، ومعارضاً لمجلس الخبراء وغيره من المؤسسات التي وضعت لتعزيز سيطرة رجال الدين، مما خلق توتراً بينه وبين الكثير من رجال الدين المتنفذين بعد الثورة منهم المرشد الأعلى الخميني.

النقاش الداخلي في إيران اليوم يدور حول «تأسيس ديمقراطية في بلد إسلامي»، وهو جدل معقد ومركب؛ لأن الغالبية الساحقة من الإيرانيين ـ ومن ضمنهم النخبة ـ ترى إيران بلداً إسلامياً، غير أنها تعارض في الوقت نفسه بعض المؤسسات التي تعمل باسم الإسلام وتقيد الحريات مثل مجلس الخبراء ومجلس صيانة الدستور ومجلس الأوصياء. يعتبر بعض المفكرين ومنهم عبدالكريم سروش[(١)] مَنْ وضعوا بذرة هذا الجدل وأصبحوا مستقلين بأفكارهم وآرائهم.

تأثير متبادل بين العربية والفارسية:

وبحكم التداخل الحضاري للعرب والفرس في ظل الحضارة الإسلامية منذ عصور الإسلام الأولى وحتى القرون المتأخرة فقد تأثرت اللغة الفارسية بالعربية كما تأثرت العربية هي الأخرى بمفردات فارسية حتى قبل الإسلام بدليل ورود كلمات فارسية في القرآن الكريم: (فردوس، جهنم، فسطاط، سلسبيل، أباريق.. وسندس.إلخ) ومفردات أخرى مثل: (نيروز، برنامج، دستور، مهرجان، فهرس، ديوان ، دفتر، حراج...إلخ).

الغريب أن هناك كلمات فارسية تستخدم في العربية بينما لاتستخدم في إيران نفسها، بل يستخدم المرادف لها فمثلاً قانون الدولة يسمى في البلاد العربية (دستور) وهي كلمة فارسية صرفة بينما لاتستخدم هذه الكلمة في إيران نفسها فيقال للدستور: (قانون أساسي)! والعكس صحيح حيث يوجد كلمات عربية لايستخدمها العرب ويستخدمها الايرانيون.

كما أن القاموس العربي يتضمن عدداً كبيراً من الكلمات الفارسية والتي لم تذكر في القرآن وبالمقابل يزخر القاموس الفارسي بعدد هائل من المفردات العربية التي تعد بالآلاف..

(١) ولد عبد الكريم سروش سنة ١٩٤٥، مفكر إيراني، فيلسوف، شاعر ومترجم. كان يدرّس الإسلام والفكر السياسي في جامعة جورج تاون بالولايات المتحدة. أسس قسم فلسفة العلم في إيران لأول مرة ويسمّي نظرياته الكلام الجديد ويعد نفسه معتزلياً. عدته مجلة الفورين بوليسى ضمن المفكرين الكبار العشرة في سنة ٢٠٠٩.

وهناك مقولة يعتقد أنها لشاه إيران «حول مدى استياء بعض الإيرانيين بسبب عنصريتهم تجاه أي أثر للغة العربية في قاموسهم» حيث قيل بأنه أصدر تعميماً للشعب الإيراني جاء فيه: «مِلَتّ عزيز إيران استفادة از كلِمات عربي اكيداً ممنوع». !ومعناها: يا أمة إيران أو.. أيها الشعب الإيراني العزيز، من الآن وصاعداً يمنع التحدث بالعربية. والطريف في هذا بأن هذه الإرشادات جاءت في المعنى بما يُشبه العربية!

وعندما تعيش في إيران ولو لأسابيع سوف تسمع الكثير من المفردات العربية التي دخلت الفارسية فعلى سبيل المثال كلمة (بين الملل[١]) ويقصدون بها دولي أو عالمي وكذلك كلمات أخرى مثل: (أصلاً) (تقريباً) (مثلاً) (حتماً) (يقيناً) (أما) (بلى) (أكبر وأصغر..) إلخ.

وفي اللغة الفارسية والتركية يلاحظ بأن كثيراً من حالات جمع المفرد تبدو كالمثنى في العربية رغم أنها بصيغة الجمع فعلى سبيل المثال: عاشق جمعها «عاشقان» وواعظ جمعها «واعظان» و«مسلمان» جمع كلمة مسلم وهذه الطريقة أعتقد بوجودها في اللغة الأوردية[٢] والتركية أيضاً حيث كنا نسمع ونقرأ في تاريخ العلاقات العربية التركية كلمة مجلس «المبعوثان» في الأستانة (إسطنبول) أي مجلس المبعوثين..

وكلمة (نفرات)[٣] بالفارسية وهي جمع لكلمة نفر بالعربية وأغرب كلمة بالفارسية هي (ذو حياتين)[٤] وتعني السلحفاة وكل ما يعيش في الماء وخارج الماء من الكائنات!!

تجدر الإشارة بأن الحرفين (ظ ض) يستعاض عنهما بحرف (ز) سواء في الفارسية أو في التركية والأوردية وغيرها من اللغات هذا يؤكد على أن العربية هي لغة الضاد... فمثلاً تنطق في باكستان اسم «بناظيربوتو» ليصبح «بنازير» كما أن الحرف (و) يستعاض عنه أيضاً بحرف (ف) فيقال: الله فأكبر بدلاً عن الله أكبر وهكذا!

(١) ملل جمع ملة وفي إيران تعني أمة وجمعها ملل وبين الملل تعني الأمم بمعنى أوضح: دولي أو عالمي!

(٢) وفي الأوردية في باكستان وأفغانستان تعرف حركة طالبان بأنها حركة الطلبة!

(٣) وتستخدم أيضاً في العراق سواء الكلمة مفردة نفر أو بجمعها نفرات وكذلك يستخدم العراقيون والشوام كلمة (بلى) أما كلمة (مخلص كلام) يتداولها العراقيون بعبارة (مخلص حشي) باللهجة العراقية وتعني خلاصة الكلام.

(٤) الدكتور حسين نجيب المصري في كتاب «أثر المعجم العربي في لغات الشعوب الإسلامية والأوردية والتركية والفارسية» مكتبة مدبولي عام ١٩٩٢ ص ٣٦.

وصناعة الكتاب في إيران مزدهرة وأشهر مايجسد ذلك هو شارع (انقلاب) القريب من جامعة طهران، ويلاحظ الزائر عشرات المكتبات في شارع واحد تنشر كتب بعدة لغات أغلبها بالفارسية ومن ضمن لغات النشر العربية رغم قلتها تعبر عن كل الاتجاهات فرجال الدين يحاسبون على الأفعال وليس على الأفكار والاتجاهات. . .

ولكي نعرف مدى ازدهار حركة النشر في إيران قد يفاجأ القارئ بأن إيران تنشر خمسة أضعاف عما ينشر في العالم العربي. وهي معلومات مستقاة من مصادر موثوقة[١]، ويتساءل الكثيرون عن موقع اللغة العربية بعد الثورة خصوصاً بالنظر للاتجاه الإسلامي في إيران منذ أكثر من ثلاثة عقود.

والجواب أنه من الناحية النظرية يوجد هناك اتجاه واضح لتعليم اللغة العربية ولكنه في الواقع لايرقى إلى مستوى الطموح المطلوب، فالدستور الإيراني مثلاً قد أقرَّ بأن اللغة العربية هي اللغة الثانية في إيران وتدرَّس في مراحل التعليم الأساسية.. وفي هذا السياق يوضح الكاتب الإسلامي المصري فهمي هويدي[٢] تعذر انتشار العربية في إيران بقوله: «لقد واجهت اللغة العربية في إيران مشكلتين رئيسيتين الأولى بدأت عندما أقرَّت إيران تدريس العربية في دستورها فقد احتاجت لتنفيذ هذا الأمر إلى الكثير من المدرسين العرب لتدريس العربية بطريقة صحيحة. وقد طلبت من مصر في ذلك الوقت إرسال أعداد من هؤلاء المدرسين ، ولكن نظراً للظروف السياسية بين البلدين في ذلك الوقت فقد اعتذرت مصر. وهو في اعتقادي كان اعتذاراً خاطئاً؛ لأنه خلط بين العوامل السياسية المؤقتة وعلاقات حضارية طويلة الأمد.

والمشكلة الثانية (يضيف الكاتب هويدي) أنه في ظل الحرب العراقية الإيرانية وفي مثل تلك الظروف كان من الصعب أن تفرق بين اللغة والمدفع وهما قادمان من مصدر واحد، وكان من الصعب أن تسكت الأصوات ذات النزعة القومية في إيران والتي أرادت الابتعاد بإيران عن كل ماهو عربي، فوقعت العربية ضحية لهذين العاملين.

ويشكو الكثير من الناطقين بالعربية من الشاب الإيراني عدم توفر فرصة التطبيق والاحتكاك

(١) مجلة العربي الكويتية العدد مرجع سابق ص٤٠.

(٢) كتاب: «إيران من الداخل» للكاتب فهمي هويدي.

بمواطنين عرب لظروف سياسية معروفة بين ضفتي الخليج، فالتواصل محدود والسياحة تكاد تكون معدومة بين الجانبين العربي والإيراني ولاسيما في فترة الثمانينيات (خلال الحرب العراقية الإيرانية).

كما يؤكد الإيرانيون عموماً قلةَ ما يعرفونه عن العرب، فما يعرفه العرب والإيرانيون عن بعضهم البعض قليل جداً، والحقيقة أن العربي أو الإيراني يعرف عن الثقافة الغربية أكثر مما يعرفه عن ثقافة الطرف الآخر.

أما بالنسبة للعرب، فإن ما يعرفونه عن إيران والثقافة الفارسية الحديثة فبدوره قليل جداً، وأغلبه يتم عبر القنوات الرسمية، ويركز على الجوانب السياسية. وربما يكون الإيرانيون العرب هم الأكثر بين الإيرانيين اطلاعاً على الثقافة العربية، فليس من النادر أن تسمع أغاني ناظم الغزالي في منزل أو مقهى إيراني ولاسيما في منطقة عربستان حيث يتكلم هناك الإيرانيون العرب العربية بلهجة خليجية وكأنك في البصرة أو في الكويت!

والإيرانيون شعب قارئ فقد لاحظتهم في أكثر من مكان عام كالحدائق ووسائل المواصلات وأكشاك الصحف وغير ذلك، وعلى الرغم من ظهور الإنترنت والكمبيوتر يظل سوق الكتاب في إيران متمتعاً بقوته، ويظهر ذلك من خلال كثرة روَّاد المكتبات و إقامة معارض الكتاب ومن أهمها معرض طهران الدولي للكتاب والذي يقام بصورة سنوية وتشترك فيه دور النشر الداخلية والخارجية ونسبة المبيعات فيها عالية.

ومما لاشك فيه أن الشعب الإيراني مثقف ومحبٌّ للمعرفة والكتاب، وخير دليل على هذا كثرة دور النشر والصحف والجرائد في إيران، وقد ساعدت فترة الرئيس محمد خاتمي على شيء من الانفتاح الثقافي والإعلامي حيث تبنَّت الدولة سياسة أكثر مرونة في التعامل مع قضايا الثقافة والإعلام مقارنة بالحكومات السابقة.

ومما يلاحظ في المكتبات في إيران حضور ملموس للنساء وإقبالهنَّ على شراء الكتب مما يدل على عناية المرأة الإيرانية بالثقافة، كما أن عدداً لا بأس به من الباعة في المكتبات من النساء.

ولعل أكثر الكتب رواجاً في إيران هي الكتب الدينية[١] والأدبية هذا ما يظهر من خلال عناوين الكتب المعروضة في المكتبات سواء في طهران أو غيرها من المدن التي زرناها .

ونشر الكتب واحدة من السلع الثقافية الرائجة في إيران، وهناك ٤٠ ألف عنوان كتاب يطبع في إيران كلَّ عام، أغلبها كتب أدبية وشعر، والكثير منها ترجمات لكبار الكتاب والشعراء الغربيين، وعندما تتجول في «ميدان انقلاب»، شارع المكتبات في طهران، ستجد أرفف المكتبات تضم أسماء كُتَّاب مثل كارل ماركس، وفلاديمير لينين وتروتسكي وتشي غيفارا، ووليام شكسبير وسيجموند فرويد. وكما قال لي صديق إيراني عندما كنت أعمل في واشنطن وكان هذا الشاب الإيراني قد عاش في كلفورنيا فترة، ثم عاد إلى طهران مؤخراً: «إيران مجتمع مفتوح ومتعدد لكن هذا لم يظهر في الإعلام لاسيما بالنسبة للمراقب العربي».

وتعتبر قُم مدينة الثقافة العربية في إيران ومركز الحوزات[٢]، فاللغة العربية ليست فقط القاسم المشترك ولكنها مدينة التجمع العربي ودور النشر والمكتبات العربية.

وإجمالاً فإنّ الفارسية لغة إسلامية جميلة ذات أدب وفير وتعدُّ ثاني لغة إسلامية بعد العربية ويسميها علماء اللغات (اللِسانيات) «فرنسية الشرق» ذلك لأنها منتشرة في الشرق انتشار الفرنسية في الغرب وأن لها من الأهمية بعد العربية ما للفرنسية من حيث الأدب والثقافة ويتكلم بها أكثر من ستين مليوناً من البشر أغلبهم في إيران وكذلك في أفغانستان وطاجاكستان في آسيا الوسطى.

وللفارسية تأثير كبير على بعض اللغات الشرقية الآسيوية مثل التركية والأوردية المنتشرة في باكستان والهند، فقد أخذت هاتان اللغتان الكثير من مفردات العربية والفارسية وقلَّد عدد من أدباء تركيا والقارة الهندية كثيراً من الإنتاج الأدبي الفارسي والعربي.

---

(١) وما يعرض من كتب دينية كلها في إطار نشر الفكر الشيعي دون سواه، وللإنصاف فبلدان الجهة الأخرى للخليج غالبيتها تسير في هذا السياق ولكن بما يرمي عكس ذلك!

(٢) الحوزة هي المكان الذي تجتمع فيه العديد من المدارس وعددها في قم أكثر من تسعين مدرسة تدرس كل علوم الدين والعربية والطالب لا يدرس في الحوزة من اجل الحصول على شهادة زمنية مثل باقي الجامعات ولكنه يواصل الدراسة مرحلة بعد أخرى حتى يصل إلى مرحلة الاجتهاد أي بعد ذلك يبدأ في تعليم مدارسة ليبلغ درجة حجة الإسلام وعندما يقدم المزيد من الدراسات والبحوث والإفتاء يصبح آية الله ومعناها بالعربية الحجة المجتهد.

وفي الماضي بل وحتى عصرنا الحاضر يتفاخر المثقفون من الأسر الأرستقراطية في القارة الهندية بتعلم الفارسية مثلما يتفاخر بعض أبناء المشرق العربي بتعلم اللغة الفرنسية مثلاً!

ومن خلال قراءتي المتواضِعة عن جذور اللغة الفارسية فقد مرَّت الفارسية بثلاث مراحل: الأولى قبل الإسلام والثانية في القرون القليلة التي تلت الانتشار الإسلامي في آسيا وأخيراً الفارسية الحديثة التي مضى عليها فقط بضعة قرون والتي تأثرت كثيراً بالأدب العربي والمفردات العربية التي لا تحصى.

ويمكن القول: إن «تأثير اللغة العربية على اللغة الفارسية مثل تأثير اللغة الرومانية على اللغة اللاتينية»(١)، فأعلام فارسية مثل الرومي، والخيام، وسعدي، وحافظ شيرازي وناصرخسرو، والعطار، وجامي كلهم تأثروا بالقرآن و الشعر الجاهلي والأموي و العباسي، سعدي انتحل قصائد المتنبي، وفردوسي رغم عنصريته لم يستطع أن يستغني عن المفردات العربية في «شاهنامته» هذا ماقاله لنا المحاضر (في الدورة التي حضرناها لمدة شهر في إيران) عندما كان يتطرق لمواضيع الأدب وكاد المحاضر من خلال اقتباسات لأشعار ومأثورات عربية يبدو أديباً وشاعراً قبل أن يكون محاضراً سياسياً!.

اللغة العربية بلسان إيراني:

في عهد الشاه لم يكن للغة العربية أي وجود (رسمي على الأقل) وكان تعليمها ممنوعاً تقريباً. . وكان آية الله تسخيري وهو من فصحاء اللغة العربية في إيران (٢)، يقال بأنه أول من قدَّم مشروع قانون للبرلمان باعتماد المصطلحات باللغتين الفارسية والعربية فقط حفظاً لنقائهما بعيداً عن تيارات الغزو الفكري. . وبعد الثورة أقرَّ الدستور اللغة العربية كلغة ثانية في إيران وتنص المادة السادسة من دستور جمهورية إيران الإسلامية على مايلي: «بما أن لغة القرآن والمعارف الإسلامية هي العربية، وأن الأدب الفارسي ممتزج معها بشكل كامل، لذلك يجب تدريس هذه اللغة بعد المرحلة الابتدائية حتى نهاية المرحلة المتوسطة في جميع الصفوف والحقول الدراسية».

---

(١) د. محمد نور الدين عبد المنعم اللغة الفارسية إصدار دار المعارف بالقاهرة مصر عام ١٩٧٧ ص١٣.

(٢) صحيفة ٢٦ سبتمبر اليمنية عدد ١٦٠٢.

إنها علاقة مع القرآن الكريم ومع الدين الإسلامي، إن كل جامعة إيرانية تحوي قسماً للغة العربية لتخريج أعداد من الطلبة [(١)]، إضافة إلى أعداد كبيرة من خريجي الحوزات الدينية الذين يُعدون بالآلاف. . وجامعات أخرى، والطريف ـ حسب ما عرفت منهم ـ بأن الطلبة الإيرانيين يتعلمون المحادثة بلهجات متعددة، فترى شاباً يتحدث باللهجة العراقية، وشابة باللهجة الشامية وآخر بالمصرية حسب اختلاطهم مع الطلبة من البلدان العربية، كما أن العربية موجودة في أجهزة الإعلام، فصحيفة «كيهان» أي العالم، تُصدر كل يوم نسخة عربية من صحيفتها، وتصدر وكالة الأنباء الرسمية صحيفة بعنوان «الوفاق» وتخصص الإذاعة من خلال «الراديو العربي» مساحة واسعة على مدار الساعة تقدم فيها برامج ثقافية وسياسية بالعربية وكذلك التلفزيون. . وهناك مجلة عربية للمرأة هي «الطاهرة» ومجلة الطفل «الهدى». حضور اللغة العربية في ثقافة الشعب الإيراني، ومواقع في الإنترنت وقنوات تلفزيونية حيث بدأت إيران تهتم بانتشارها الثقافي ليس فقط الموجَّه للعالم العربي بل وفي آسيا الوسطى وهو صورة لامتداد التفاعل الحضاري بين اللغة الساسانية القديمة، لغة ملوك فارس الذين سيطروا على نصف العالم القديم، واللغة العربية التي حملها أهل الدعوة الجديدة. . والملفت للنظر الانتشار السريع للإسلام في كل أنحاء فارس وتعامل المسلمين مع الزرادشتيين (ديانة فارس القديمة) تعاملهم مع أهل الكتاب، فإن المدهش حقاً أن أهل إيران لم يدخلوا الإسلام فقط، ولكنهم تحولوا إلى أكبر دعاة للإسلام ولم يمضِ حينذاك إلا عشرون عاماً فقط حتى امتدت رقعة الإيمان من ضفاف الفرات إلى نهر جيحون في أواسط آسيا، ومن السند إلى بحر قزوين، ولم ينقطع أصل الفارسية منذ أمد بعيد، وظلت على وجودها الحي والفعَّال بجانب العربية، ويمكن القول: إن الأدب

(١) وقد لاحظت عندما التقيت بإيرانيين في أوروبا وأمريكا ما لم أكن أتصوره، فمعظم الشباب الفتيان والفتيات يتحدثون اللغة العربية.. صحيح أنهم يجيدون هذه اللغة كتابة أكثر مما يجيدونها محادثة، لكنهم يتعاملون معها بحب وشغف.. كثيرون منهم كانوا يستمعون إلى حديثي ويفهمونني بطريقة مباشرة، ولكنهم يتحدثون إلي من خلال مترجم.. وقد واجهت هذه الحالة أكثر من مرة، يفهمونك جيداً ولكنهم لا يردون عليك إلا بابتسامة رقيقة فيها اعتذار شديد.. ويقول أحدهم: «اللغة العربية صعبة، أنتم كعرب لكم مشكلة كبيرة مع النحو، ونحن لدينا مشاكل أكبر في الصرف» ويقولون: إن السبب حرمانهم من الاحتكاك المباشر بالعالم العربي، ويؤكد أحدهم: «علاقتنا باللغة العربية أعمق من علاقاتنا السياسية مع العرب».

الفارسي الذي ازدهر وتطوّر عبر عصور الإسلام المختلفة كان أدباً إسلامياً خالِصاً. . وقد حافظت «الشاهنامة» تلك الملحمة التي نظمها الفردوسي [(١)] عام ٣٤٢هجرية على جانب كبير من التراث الشفهي الفارسي ولكن هذا حدث ضمن إطار ورؤية إسلامية وتعتبر من أهم آثار الأدب الإسلامي الذي كُتب بالفارسية. . كما اتسعت مساهمة إيران في علوم الإسلام الأساسية كعلوم الفقه الحديث والكلام والفلسفة. . إلخ. . إنها علاقة قدرية تحكم العربية والفارسية فرضتها الجغرافيا والدين الواحد والثقافة المشتركة.

وعلى ذلك فقد كان ولازال للّغة العربية وجود حي في إيران ومما يزيد على بقائها حية وجود حوالي أربعة ملايين عربي، وعندما اعتبر الدستور الإيراني اللغة العربية هي اللغة الثانية في البلاد، أيَّده كل رجال الدين. . ومن ثمار ذلك أصبح عدد الصحف والمجلات التي تصدر باللغة العربية في إيران بين يومية وأسبوعية بالعشرات، وهناك مؤسسات تطبع الكتاب العربي، ونحو مئة دار نشر عربية لها مئات المطبوعات هذا غير ماتنشره المدارس والحوزات العلمية والوزارات المتخصصة كالتربية والتعليم العالي والثقافة. . إلخ وكذلك منظمة الإعلام الإسلامي ومركز بحوث الحج والعمرة وهناك أكثر من معجم باللغتين العربية والفارسية وكتب معتمدة حول أنجع الطرق لتعلم اللغة العربية، وعدد من الدراسات حول قواعد اللغة العربية صرفاً ونحواً [(٢)]، وعدد لايحصى من المنشورات العربية التي تنشر في إيران. .

هذه المقومات والروافد هي في اعتقادي أسهمتْ في تأهيل الشباب للتعامل مع اللغة العربية، حيث وجدتهم يتحدثونها بدرجة لم أكن أتوقعها، اندهشت من شغف الشباب بهذه اللغة. . ويبدو أن حبهم للغة العربية هو نتيجة مشاعر عاطفية نحو أمتهم العربية والإسلامية.

ذات يوم وأثناء زيارتي لإيران دخلت مع بعض من زملائي مكتبة في طهران ولفت نظري ديوان للشاعر عمر الخيام نصفه بالفارسية ونصفه بالعربية؛ أي صفحة فارسية ويقابلها الترجمة لها بالعربية. ولا أدري سبب عدم اقتنائي له وظلت الحسْرة في داخلي لسنوات حتى جاء زميل

(١) الشاعر الفردوسي هو شاعر فارس العظيم واسمه الكامل: أبو قاسم الفردوسي (٩٣٥ ـ ١٠٢٠ ميلادية). ولد في خراسان في قرية قرب مدينة طوس (في إيران اليوم). عاش في حكم السامانيين في حكم القزنويين. اشتهر بتأليف كتاب «الشاهنامة».

(٢) مجلة العربي الكويتية عدد رقم ٥٠٣ لشهر أكتوبر من العام ٢٠٠٠.

عزيز كان يعمل بالسفارة في إيران وسمعني أبثُّ إليه تلك الحسْرة، وبعد فترة فوجئت بأنه وبعد عودته من إيران يأتيني بالكتاب كهدية وكرم منه، والجميل أنه أفضل من الكتاب ذي اللغتين الذي رأيته وتحسَّرت عليه فهو مترجم لست لغات منها الإنجليزية والفرنسية وبالطبع إلى جانب اللغات الأهم الفارسية والعربية.

عند زيارتنا لوزارة الخارجية بعد التنسيق لهذه الزيارة من قبل إدارة المعهد الدبلوماسي وبتنسيق من سفارة اليمن بطهران رأينا عدداً من المباني والتجهيزات سواء بأجهزة الكمبيوتر الحديثة والأقمار الصناعية وكافة وسائل الاتصال الحديث والمكتبات والمراكز المتخصصة التي تهتم بدراسة قضايا منطقة الخليج وآسيا الوسطى والعالم الثالث كما قيل لنا بأن موظفي الخارجية يتجاوزون الألف موظف(١) من الكوادر الدبلوماسية ولكنَّهم فعلاً مؤهلون ويجيدون اللغات الحية فضلاً عن لغات آسيا الوسطى باعتبار تلك الدول الست التي ولدت من رحم الاتحاد السوفيتي السابق غدت عمقاً استراتيجياً لإيران، وتلك الدول باتت محل تجاذب إقليمي محوره تركيا السنية العلمانية وإيران الشيعية الثيوقراطية، فضلاً عن تجاذب دولي غربي وعربي، ويلاحظ بأن الدور العربي المعاصر جاء متأخراً في آسيا الوسطى ويبدو الأضعف تأثيراً!

صناعة السينما في إيران:

خلال إقامتنا في طهران أتيحت لنا فرصة التعرف إلى أبجديات السينما في إيران والتي لها حضور متنامٍ فهناك دور عرض في عدة أماكن متفرقة من طهران ودور سينما ضخمة وأنيقة تماماً مثل دور السينما في العالم المتقدم، وإعلانات السينما وصور الممثلين في الشوارع توحي وتعكس نشاطاً ملحوظاً لهذا القطاع.

وفي التسعينيات كان الرئيس السابق محمد خاتمي وزيراً للثقافة وبحماسة وخلفيته الثقافية أعطى دفعة للسينما الإيرانية حيث وصلت السينما الإيرانية وقتها للعالمية وحصدت إيران عدة جوائز في مهرجان (كان) السينمائي، وفي عهده أيضاً شهدت إيران زيادة في المطبوعات ودور النشر ومعارض الكتاب السنوية المشهورة كما زادت القنوات الفضائية الإيرانية.

---

(١) ويعتبر عدد قليل بالنظر لعدد سفارات إيران التي تتجاوز المائة والعشرين ودور إيران الإقليمي والدولي المستند لعدد سكان يفوق السبعين مليوناً وحضارة موغلة في القدم.

تاريخ السينما في إيران عريق وربما الأقدم بين دول المنطقة [(١)] وشُيِّدت دور للسينما قبل مايقارب المئة سنة أي قبل عشرينيات القرن الماضي!

ظلت السينما الإيرانية حتى منتصف السبعينيات تنتج أفلاماً ذات مستوى فني عالٍ، ووصلت ذروتها قبيل الثورة الايرانية التي حجَّمتها في البداية ومن ثم سخَّرتها لمبادئ الثورة الإسلامية[(٢)].

وفي العقدين الأخيرين رغم حالة العداء بين إيران والغرب وكواليس الفن السابع كثر الحديث عن السينما الإيرانية كظاهرة، كونها استطاعت إثبات وجودها وبقوة على الساحة السينمائية العالمية منذ التسعينيات، بل إن بعض النقاد يرى تأثيرها على السينما العالمية يشابه امتداداً للموجة الجديدة الفرنسية والأوربية. وفي الوقت الحالي، لا يكاد أي مهرجان دولي يخلو من حضور إيراني، والأعمال الإيرانية التي تشارك في هذه المهرجانات هي منافس قوي على الجوائز.

والإنتاج السينمائي في إيران قديم نسبياً مقارنة بدول المنطقة فأقدم فلم أنتج في إيران في مطلع الثلاثينيات ولكنها انتعشت في الخمسينيات وهو متزامن تقريباً لنهضة هذا الفن في تركيا ومصر[(٣)].

وفي فترة حكم الشاه كان مضمون الإنتاج السينمائي محاكاة للاتجاه الليبرالي السائد آنذاك وعلى الرغم من وجود إنتاج جيد إلا أن الكثير منه كان يعكس حالة الاغتراب الفكري وحالة الاستغراب لدى النُّخب المثقفة في السبعينيات في جانبه السلبي شأنه شأن كثير من دول المنطقة

(١) ويرجع جذورها إلى عام ١٩٠٠، يوم كان الشاه الإيراني مظفر الدين شاه، في زيارة لإحدى الدول الأوروبية وأحضر معه أول آلة تصوير في البلاد. وفي عام ١٩٠٤، افتتحت أول صالة عرض للسينما بإيران. وبهذا نرى أن بدايات مشاهدة السينما كانت مبكرة، لكن أول فيلم إيراني أخرج مطلع الثلاثينيات.

(٢) فقد كانت النظرة العامة للسينما هي أنها رمز من رموز نظام الشاه والتأثير الغربي، ونتيجة لذلك تم إحراق أكثر من ١٨٠ دار سينما، كما أن ٤٠٠ شخص قد ماتوا في حادث إحراق إحدى دور السينما في عبادان عمداً. وقد أدت هذه الظروف، إضافة إلى الرقابة الصارمة التي تفرضها الدولة على الأفلام التي لم تكن ذات حدود واضحة، إلى اختفاء النساء من المشهد السينمائي تماماً.

(٣) بل وحتى العراق التي أنتجت أفلاماً في وقت مبكر!

حيث كانت تسود نوعية من الأفلام تخدش الحياء ولكن ومنذ انبلاج الثورة الإيرانية نهاية السبعينيات والذي تزامن مع بداية اندلاع الحرب المؤسفة مع العراق والتي استمرت ثماني سنوات، بدأت السينما الإيرانية تأخذ منحىً آخر يجسد النهج الفكري الجديد وظهور فن في إطار ثوابت الثورة والتحديات التي تواجهها فبرزت مصطلحات أدب الحرب، وسينما الحرب وذلك في الحياة الثقافية في كل من العراق[١] وإيران.

تحولات في المجتمع الإيراني:

تعكس التحولات التي حدثت وتحدث في إيران حالياً كتحريم ربطات العنق على سبيل المثال منذ الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩، على أساس أنها رمز غربي وإشارة إلى طبقة التكنوقراط «المستغربة»، فهي لا تُلبس أبداً اليوم في الشوارع الإيرانية أو في الأماكن العامة، ولا تظهر ربطات العنق في المسلسلات التلفزيونية أو الأفلام، إلا للإشارة إلى شخصية شريرة، تنتمي غالباً إلى عهد الشاه. لكن في الحياة العادية اليوم يرتدي بعض الإيرانيين من الذين ينتمون للشريحة العليا من الطبقة الوسطى ربطات العنق في حفلات الزواج، أو الحفلات الخاصة عموماً، كما أن الشباب الإيراني الذي يسافر للخارج يرتدي ربطات العنق[٢]. ومن المثير للانتباه أنه عند دخول طائرة الخطوط الجوية الإيرانية والمعروفة (بإيران هوائي)الأجواء الإيرانية، قامت الكثير من الشابات بوضع غطاء للشعر فوق رؤوسهن، بينما قام الشباب ممن يرتدون ربطة عنق بإخفائها تحت المعطف الشتوي أو خلعها ووضعها في حقيبة اليد. وحاول الرئيس الإيراني السابق محمد خاتمي[٣] أن يوسِّع حيِّز الحريات الاجتماعية قليلاً، وسمح خلال ولايته بإذاعة بعض الحفلات الموسيقية، وإظهار الآلات الموسيقية التقليدية مثل السيتار والدف في التليفزيون، وكانت هذه ثورة ثقافية كبيرة وهادئة، مع ملاحظة أنها كانت المرة

(١) أنتج في العراق مطلع الثمانينيات فلم القادسية وكذا الحدود الملتهبة وكلها تصب في إذكاء العداء بين القومية العربية والفارسية أثناء المعارك التي كانت تدور رحاها بين البلدين الجارين المسلمين!

(٢) صحيفة الشرق الأوسط عدد رقم ١٠٣٥٢ الصادر في ٢ أبريل ٢٠٠٧.

(٣) من المعلوم بأن الرئيس السابق محمد خاتمي كان قد تولى وزارة الثقافة في عهد الرئيس هاشمي رفسنجاني ولخاتمي اهتمامات ثقافية ولاسيما في مواضيع حوار الحضارات و التسامح الديني ونحو ذلك.

الأولى التي يسمح فيها بإذاعة حفلات موسيقية على الهواء، وعرض الآلات الموسيقية في التلفزيون منذ الثورة الإيرانية. إلا أن الخطوات التي اتخذت خلال ولاية خاتمي بدأت في التراجع، فوزراء الإرشاد والثقافة الإيرانيين اللاحقين والحالي لهم رأى سلبي في الموسيقى، فعندما تولوا مهامهم كان من أوائل القضايا التي أعطوها الأهمية محاربة الموسيقى بحجة أنها ضد قيم الجمهورية الإيرانية، ومنها الجاز والروك والراب. و دعا المسؤلون الموسيقيين الإيرانيين بالمقابل إلى إنتاج موسيقى هادفة، ذات معنى، فقام بعضهم بإنتاج «سيمفونية نووية»[(١)] تأييداً لحق إيران في تطوير برنامج نووي للاستخدام السلمي. ومع أن هناك دار أوبرا في إيران، إلا أنها ليست نشطة، وهي تقتصر على استضافة فرق أجنبية لعزف موسيقى كلاسيكية لكن هذا يتم على فترات زمنية متباعدة. «شرائط الموسيقى الموجودة في المحلات العلنية لبيع الموسيقى لا تشكِّل القطاع الأكبر من حجم تجارة الموسيقى في إيران. التجارة الحقيقية هي تجارة الموسيقى السرية التي تُصنع تحت الأرض، فحجم المتداول من هذا النوع من الموسيقى أكثر من حجم المتداول من الأشرطة القانونية». فبسبب عدم تقديم التلفزيون حفلات موسيقية أو أغانٍ، ومنع الفيديو كليب وضعف الأوبرا، باتت الموسيقى التي تُنتج تحت الأرض وبشكل سري، هي وسيلة الاستمتاع التي لا تخضع كغيرها للمراقبة، وقد عانينا هذا الشيء بصورة شخصية، فذات مرة كنا نترجَّل في أحد اسواق طهران (قرب ولي عصر) وخطر ببالنا شراء أشرطة كاسيت لمغنيات إيرانيات من عهد الشاه مثل كوكوش[(٢)] وحميرا وازيتا. . . إلخ فكلمنا السائق فذهب لمحل أشرطة وهمس في أذن صاحب المحل الذي بدوره لبى طلبنا من مكان خفي وكأننا نشتري مخدرات!!

ومن يؤلفون ويكتبون هذه الموسيقى فنانون موهوبون جداً، يريدون أن يقولوا أشياء ويعبروا عن قضاياهم وأفكارهم بموسيقى غير مسموح بها، ما الذي يفعلونه؟ يجلسون معاً ويؤلفون، ثم يقومون بطبع الشريط الموسيقي من دون وضع أسماء عليه، أو يضعون أسماء مزيفة، ثم يتم تداوله في السوق بطريقة غير شرعية. اليوم في إيران هناك الكثير من الفرق الموسيقية الشبابية،

(١) نفس المصدر السابق من صحيفة الشرق الأوسط العدد رقم١٠٣٥٢ الصادر في ٢ أبريل ٢٠٠٧

(٢) تسمى كوكوش في إيران والبلاد العربية بأنها أم كلثوم إيران.

من بينها فرق أخذت قصائد الشاعر الإيراني حافظ الشيرازي وحولتها لأغانٍ شبابية مع موسيقى الروك، فباتت الموسيقى الإيرانية الحديثة مزيجاً من الطابع الغربي، مع نكهة محلية بسبب استخدام الآلات الإيرانية مثل الدف والسيتار. أما الموضوعات فتنوعت من الحب إلى الفقر أو الإحباط أو الشعور بالعزلة(١).

وإلى جانب أشرطة الموسيقى التي يتمُّ نشرها عبر الإنترنت، أو أشرطة الموسيقى التي يتمُّ طبعها بشكل غير قانوني وبيعها، هناك إنتاج «تحت الأرض» للفيديو كليب، وهو بدوره بات يوزع بشكل متزايد. ولا يحتاج الأمر إلى تكلفة كبيرة من أجل إنتاج فيديو كليب سري، فالكثير منها يُنتج في منزل أحد المغنين، ربما في القبو أو غرفة صغيرة، حيث يتم وضع ديكور بسيط، وتقف الفرقة أو المغني يرقص ويتمايل مع نغمات الموسيقى، وهو شيء لا يمكن فعله في الحفلات الموسيقية الرسمية التي تسمح بها السلطات؛ لأنه غير مسموح للمغنين وللحضور بالرقص أو بالتمايل مع الموسيقى. وقد أدى الإنترنت إلى ثورة في صناعة الموسيقى الإيرانية، فاليوم وبرغم وجود العشرات من مواقع الإنترنت التي تشفِّرها السلطات الإيرانية، أو التي تنتمي إلى بعض المعارضين في الخارج، إلا أن إيران بها نحو ١٥ مليون مستخدم نهاية ٢٠١١، بعدما كان هناك نحو مليون مستخدم فقط عام ١٩٩٣. وفي صيف ٢٠١٢ شرعت إيران على استحداث ما سمي بالإنترنت (الحلال).

الكثير من هؤلاء المستخدمين يعرفون كيف يفكُّون شفرات المواقع الممنوعة، لكن المثير للانتباه أن ما يهمهم ليس المواقع السياسية بالأساس، بل مواقع الموسيقى والأفلام والكتب. وكما تخضع الموسيقى الإيرانية الرسمية لمراقبة وزارة الإرشاد، كذلك تخضع الأفلام للمراقبة، فالأفلام الإيرانية كلها، وهي ما زالت فكرة أو سيناريو، يجب أن تمرَّ أولاً على وزارة الإرشاد لأخذ تصريح بإنتاجها.

أما الأفلام الأجنبية التي تُعرض في إيران، سواء في السينما أو التلفزيون، فهي عادة أفلام اجتماعية أو أفلام حركة «اكشن» مستوردة من الصين واليابان وماليزيا، وكلها يتم دبلجتها باللغة الفارسية. ويجب أن تعرض أولاً على وزارة الإرشاد، للتأكد من توافقها مع المعايير الإسلامية

(١) صحيفة الشرق الأوسط عدد رقم١٠٣٥٢ الصادر في ٢ أبريل ٢٠٠٧.

في إيران (النساء فيها يظهرن من دون غطاء شعر الرأس وهذا ليس محظوراً في إيران طالما أن النساء أجنبيات). !

ومما قرأته في صحيفة عربية بأنه في الآونة الأخيرة عرض التلفزيون الإيراني الرسمي أفلاماً أميركية اجتماعية، لكن لا يقال: إنها أميركية [(١)] بحسب إحدى الناشطات الإيرانيات التي أضافت في حديثها لإحدى الصحف: «أحياناً يتمُّ تغيير القصة، فإذا كانت قصة الفيلم تدور حول شخصين يعيشان معاً من غير زواج، يتمُّ تزويجهما في الترجمة الفارسية»!. ومع أن في إيران الكثير من دور السينما إلا أن الأفلام لا تمرّر إلّا بعد خضوعها لمقصِّ الرقابة؛ لأن الحذف يطال كل شيء بحيث لا يمكن فهم القصة. !

كوكوش قيثارة ايران الموسيقية:

من أشهر من غنَّى في إيران وذاعت شهرته خارجها هي الفنانة الكبيرة «كوكوش»[(٢)]، التي بدأت منذ ستينيات القرن الماضي وغنت بأكثر من لغة وفي أكثر من بلد عربي ومنها اليمن كما عرفت، وفي عهد الشاه أحيت كوكوش حفلات ملكية حضرها كثير من ملوك ورؤساء العالم، مُنعت من الغناء بعد مجيء حكم رجال الدين واستمر الحال كذلك إلى أن سُمح لها بالسفر إلى خارج إيران لإحياء الحفلات الفنية في عهد الرئيس الإصلاحي محمد خاتمي، فاستقبلتها الحشود المليونية في كل مدينة زارتها خارج إيران ومن بينها الحفلة الكبيرة التي أقامتها في دبي، واستمرت إلى يومنا هذا في إقامة الحفلات من مقرِّ إقامتها في الولايات المتحدة أو ما يعرف إيرانياً بـ«الشيطان الأكبر». ! يسميها البعض أم كلثوم إيران؛ ذلك أن شهرتها تعدت إيران إلى العالمية حيث تركت بصمات فنية أصيلة[(٣)].

---

(١) (لأنها بلد الشيطان الأكبر).

(٢) كوكوش أيقونة إيران الغنائية غنت لأكثر من نصف قرن وأكثر مغنية إيرانية غنت خارج إيران غنت للملوك وللشعب وبأكثر من لغة بالإضافة للفارسية باللغة الإسبانية والإيطالية والفرنسية والعربية ويبلغ عدد أغانيها التي غنتها بلغات أجنبية ٥٥ أغنية. غنت أول مرة وعمرها ثلاث سنوات في مسرح بطهران مع أبيها الذي ينتمي لأسرة فنية أذربيجانية.

(٣) وعلى الرغم من بلوغها اليوم أكثر من سبعين عاماً إلا أنها لا تزال محتفظة بجمالها وجمال صوتها الذي خطف القلوب قبل الأبصار في شرق الأرض وغربها، ولقد كانت أغلب المحطات التلفزيونية العربية =

الصحافة:

على هامش المحاضرات التي أُلْقيَتْ علينا كنا نطرح جملة من الأسئلة من باب حب الاستطلاع وليس الفضول ومنها أن الكثير من الزملاء يريدون أن يكونوا في الصورة عن الإعلام الإيراني والصحافة خصوصاً في ظل الثورة في ذلك الوقت، وقد أجابنا الدكتور المحاضر وعرفنا فيما بعد بأنه صحفي مشهور في صحيفة إيران الرسمية (انقلاب) مشيراً إلى أن عدد الصحف التي تصدر في إيران أكثر من ٢٥٠٠ مطبوعة منها حوالي ١٢٠ صحيفة يومية غير تلك التي مُنحت لها تراخيص للصدور مستقبلاً . . ما لفت نظرنا في الصحافة الإيرانية أن هناك تخصصاً فمثلاً هناك صحف متخصصة في السياسة وأخرى في الاقتصاد والرياضة وكل مجالات الحياة، بل قد لا يصدق البعض أن هناك صحفاً متخصصة في الزهور والورود والإعلانات وكل نوع من هذه الصحف له قرّاؤه ويحظى بإقبال كبير عليها من الجمهور الإيراني.

المرأة:

كان من ضمن المحاضرين سيدة إيرانية[(١)] خصصت محاضرتها للحديث عن دور المرأة في مسيرة الثورة ودورها في التطور السياسي والاجتماعي على وجه الخصوص في ظل حكم الجمهورية الإسلامية الإيرانية، ومن ضمن ماتمَّ تأكيده هو أن المرأة وقتها في عهد خاتمي (أثناء زيارتنا لإيران) عُيِّنت في عدة مناصب في حكومته وذكرت على سبيل المثال الدكتورة معصومة ابتكار، والسيدة زهراء شجاعي، والسيدة فايزة رفسنجاني المسؤولة عن الرياضة النسائية وهي ابنة الشيخ حجة الإسلام (هاشمي رفسنجاني) وهنا أضافت المحاضِرة قائلة:

= وغيرها تبث مجموعة من أغانيها يومياً في سبعينيات القرن الماضي، فتظهر بجمالها الأخاذ وصوتها الرقيق الدافئ وحركاتها الراقصة التي قلدتها فيها عشرات من المطربات في وقت لاحق إلا أنها أثبتت بصورة حصرية مقولة «المرأة الجميلة مثل سجاد كاشان كلما مرّ بها الزمن تزداد جمالاً»!

(١) هي الدكتورة نسرين مصطفى وهي حاصلة على إجازة في الحقوق والعلوم السياسية ورئيسة المركز للدراسات الدولية والذي يسمى بالفارسية (مركز مطالعات عالي بين المللِ)! وتعني كلمة الملل الأمم وبين المللِ بالكسرة تعني أممي أو دولي!

«لم يكن للمرأة في إيران، قبل اندلاع الثورة الإسلامية عام ١٩٧٩، دور بارز في الحياة العامة، ولم تكن مشاركتها في مجالات الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية واضحة، وذلك بسبب الأفكار التقليدية التي كانت سائدة في إيران قبل الثورة والتي لازال لها تأثير إلى حدٍّ ما بعد الثورة رغم محاولة هذه الأخيرة تجاوز مثل هذه التقاليد والعادات التي تمنع المرأة من المشاركة في الحياة العامة، ولكن منذ عام ١٩٧٩ اختلف الأمر بشكل ملموس فالمرأة في إيران شاركت مشاركة نشطة وفاعلة في كل مجالات الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتعليمية، وساهمت في دفع عملية التقدم، وحركة التنمية الشاملة، حيث انتخبت في أول مجلس للشورى عام ١٩٨٠ بمعدل ٤ نائبات، وهناك أكثر من ٥٠٠ امرأة أعضاء في المجالس البلدية، وللمرأة الإيرانية دور مؤثِّر في صنع القرار وفي تنفيذه من خلال مشاركتها، ومن خلال فاعليتها في الشأن العام»(١).

ولأن حضور المرأة في حياة أيّ مجتمع هو معيار تقدمه وانفتاحه فإن ما يسترعي الانتباه في إيران وضع المرأة التي استطاعت أن تخلع جلباب جدَّتها وأن تتعلم وتحصل على حقوقها التي تضاهي ما يتمتع به الرجل، ويزيد على كل ذلك أن القوانين في إيران تمنح المرأة حقوقاً كبيرة في علاقتها بالرجل وتضاهي في ذلك أرقى القوانين في دول المنطقة حتى زواج المتعة والذي يستند لمعتقدات شيعية يجيِّرونه لصالح المرأة!(٢).

وعلى العموم خلال الفترة القصيرة في إيران والتي لاتتعدى الشهر عرفنا الكثير عن هذا

(١) مقتبس من دراسة موجزة أعددتها بعد عودتي من طهران بصفتي رئيس المجموعة وكان بمثابة تقرير مطلوب من قيادة وزارة الخارجية في الجمهورية اليمنية.

(٢) زواج المتعة من أهم نقاط الخلاف بين الشيعة وأهل السنة حرمه الخليفة عمر بن الخطاب ويكثر حول زواج المتعة الجدل في العالم الإسلامي إلا أن الإيرانيين يرون فيه حلاً لمشاكل الشباب ولم يكن الأمر بهذه الصورة في عهد شاه إيران الذي كان ينهج الأسلوب العلماني الغربي في قوانين الأحوال الشخصية. ويبرر الإيرانيون ويعززون نظريتهم بأن الإسلام كان قد حلل المتعة بسبب الحروب في فجر الإسلام وهاهي إيران بعد الحرب مع العراق قد خلفت أكثر من مليون قتيل وجريح ومفقود وعشرات الآلاف من الأرامل، وزواج المتعة في إيران يتطور بشكل كبير تحت مظلة القانون مكاتب كتاب العدل أو مكاتب التوثيق القانوني التي تقوم عادة بتسجيل العقود والأحوال الشخصية، والبحث عن نساء للراغبين في زواج المتعة كنشاط قانوني جديد لها.!

البلد وعن دور المرأة بصفة خاصة والتي كان لها دور في تنسيق تلك الدورة المفيدة والممتعة، وتجدر الإشارة هنا بأنه في نهاية فترة إقامتنا في طهران أُقيم لنا حفل حضره مسؤولون من الخارجية اليمنية والإيرانية وقد أُلْقِيَت الكلمات المعبرة عن تلك المناسبة وفي ختام حديث محمد خرازي وكيل وزارة الخارجية وهو شقيق وزير الخارجية الأسبق قال لنا في نهاية الحفل التكريمي: «. . . أتمنى ذلك اليوم الذي تصبح فيه إيران واليمن في شراكة متكاملة ليس فقط في المجال الثقافي والتدريبي بل شراكة اقتصادية متكاملة وتجارية مفتوحة وإن لم تكن لنا علاقات على مايرام مع بعض دول المنطقة. . . ويكفينا حُبّ اليمن. . »![(١)].

وفي كلمَتِي المقْتَضَبة لِبضع دقائق التي ألقَيْتُهَا أمام مجموعة من المحاضرين وهم سفراء سابقون أساتذة (دكاترة متخصصون في الشؤون السياسية والدولية) في ذلك الحفل باللغة الإنجليزية مع أنني لم أتعود بإلقاء خطابات حتى بلغتي الأُم العربية! وقد حضر ذلك الحفل الذين تكرموا بإلقاء محاضراتهم المفيدة خلال شهر كامل وكذلك أبرز موظفي وزارة الخارجية الإيرانية ووكيل الخارجية اليمني ورئيس دائرة التخطيط في الخارجية اليمنية وجمع من الحضور من الإداريين والفنيين وطاقم التلفزيون والإعلام، وقد أكدت في كلمتي على رغبتنا في تقوية العلاقات الثقافية وعلى الجذور الثابتة التي تميز العلاقات العربية الإيرانية بصورة عامة. . .

(١) كان ذلك قبل توتر العلاقات بصورة أكثر حدة بعشر سنوات، ومعلوماً بأن العلاقات شابها اتهامات يمنية بالاستيلاء على قوارب وسفن إيرانية ترسو في المياه الإقليمية اليمنية والأعجب بأن إيران لا تدعم فقط ما عرف بجماعة الحوثي بناء على علاقات مذهبية ولكنها تساند انفصال بعض فصائل الحراك الجنوبي من اليمن وهذا يدل على أن نوايا إيران إن صح يهدف لزعزعة استقرار اليمن وليس حتى حباً لطائفة معينة..!

رحلتي إلى الهند

على مدى قرون عدة كان الكثير يتخيلون الهند بأنها مجرد بلدٍ يتواجد فيه سَحَرة الثعابين والقرود التي تجول في الشوارع وعبَدة الأبقار الحُفاة العُراة . . .إلخ وبأنها بلد الحُكام الأسطوريين الذين عرفوا باسم المهراجا، ومصدّري للشاي والبهارات ونحو ذلك. . إلا أن هذه النظرة تغيرت منذ عقود قليلة، فبعد استقلال الهند انفتح العالم بصورة أكبر، وعُرفت بأنها كنز سياحي من الدرجة الأولى جذبت السائحين من بلدان العالم لزيارة هذا البلد الأسطوري الجميل المتعدد الألوان الغني بالتقاليد والعجائب.

وبرغم من أن الهند غدت دولة صناعية كبرى وامتلكت القنبلة النووية واكتفت ذاتياً في مجالات كثيرة، إلا أن الإنسان الهندي لم يتغير فقد غلبته طبيعته الخيالية الروحانية ولازال يؤمن بالخرافات والأساطير ويعبد الحجر ويتقرب إليه!

كانت سفرتي الأولى للهند في ربيع عام ١٩٨٥ لحضور مؤتمر وزراء خارجية دول عدم الانحياز عندما كان لحركة عدم الانحياز دور محوري في السياسة الدولية إبان الحرب الباردة بين المعسكر الغربي بقيادة الولايات المتحدة والمعسكر الشرقي بقيادة الاتحاد السوفيتي (سابقاً) بينما كانت الرحلة الثانية بعد نحو خمس سنوات من ذلك التأريخ، وفي كلتا الرحلتين تسنى لي مشاهدة أشياء كثيرة وعرفت الهند عن قرب. . .

ففي الرحلة الأولى والتي كانت بعد دخولي السلك الدبلوماسي ببضعة أشهر في منتصف الثمانينيات من القرن الماضي عندما غادرت صنعاء ضمن وفد مكوَّن من وزير الخارجية وشخصين كنت أحدهما بحكم تخصصي في الدائرة الدولية آنذاك وكنت مختصاً بدول جنوب شرق آسيا. كان سفرنا عن طريق جدَّة بالخطوط السعودية وبحسب مواعيد الرحلات اضطررنا للمبيت يوماً واحداً في جدَّة في فندق ماريوت على حساب الخطوط السعودية وانتهزنا فرصة بقائنا نحو يوم حيث ذهبنا للعمرة، وكانت بالنسبة لي أول معرفة بالديار المقدسة.

قضينا نحو ست ساعات أو أكثر بقليل في رحلتنا من جدة إلى العاصمة الهندية وعند وصولنا مطار (أنديرا غاندي) الدولي في نيودلهي كان وزير الخارجية الهندي في استقبال الوفود

في المطار [١] الدولي حيث كانت تصل في أوقات متقاربة وتتقاطر من كل قارات العالم من نحو مئة دولة، وفي اليوم التالي انطلقت أعمال مؤتمر عدم الانحياز حيث وصل رئيس الوزراء راجيف غاندي للقاعة وهي مليئة بالوفود والصحفيين فحيَّانا راجيف غاندي بترحيب شديد بطريقتهم الهندية الخاصة وهي ضم كفَّتي يديه أمام صدْره. استمرَّت فعاليات المؤتمر يومين فقط وفي اليومين الثالث والرابع رتَّبوا لنا زيارة إلى أهم الأماكن السياحية في دلهي وكان سفيرنا في الهند المرحوم يحيى زيد الرضي قد تعين للتوِّ في سفارة اليمن هناك قبل الوحدة اليمنية فاقترح بأن أبقى نحو أسبوعين أو ثلاثة أسابيع كإجازة فوافق الوزير فبقيتُ في بيته نظراً لعدم وجود أسرته وقتها فهو لم يكد ينهي شهره الأول في ذلك المنصب فسنحت لي الفرصة لزيارة الهند سواء في دلهي أو خارجها، مثل مدينة (اغرا) المشهورة بوجود مَعْلَم ورمز الهند تاج محل الذي يعدُّ أحد عجائب الدنيا السبع.

الهند بلد مترامية الأطراف وأشبه بقارة متفاوتة في تضاريسها وأجوائها وتقاليدها ويقطنها أكثر من مليار نسمة، وهي فسيفساء من المِلل والنِّحَل واللغات واللهجات، ولكن المعترف بها رسمياً بضع لغات منها السنسكريتية والإنجليزية والأوردو يكفي أن العملة الهندية الرُّوبية مكتوب عليها بعدة لغات!.

إنها الهند وطن الشاعر الشهير طاغور والزعيم السياسي والروحي المهاتما غاندي، الهند بلد الجمال والسحر...تاج محل وحدائق المغول وأكواخ الفقراء ومعبد الشمس...الأفيال والبقر التي تجول في الشوارع بلاد المهراجا والطواويس والأبقار الهاجعة في وسط الشوارع والقردة الطليقة، وقصائد العشق المغنَّاة وطيب أطباق التندوري.

والهند مهد حضارة وادي السند وتعاقبت فيها حضارات وإمبراطوريات، وكانت شبه القارة الهندية معروفة بثرواتها التجارية والثقافية لفترة طويلة من تاريخها. وعرفها العرب من خلال التجارة التاريخية وبدأ التلاقح الحضاري منذ قرون.

نشأت فيها أربعة أديان رئيسية هي الهندوسية والبوذية والجاينية والسيخية، في حين أن الزرادشتية، واليهودية، والمسيحية والإسلامية وصلت إليها في الألفية الأولى الميلادية

(١) وكان ذلك بعد اغتيال أنديرا غاندي ببضع شهور فقط.

وشكلت التنوع الثقافي للمنطقة. تدريجياً انضمت الهند إلى شركة الهند الشرقية البريطانية في وقت مبكر من القرن الثامن عشر، ثم استعمرت من قبل المملكة المتحدة في الفترة من منتصف القرن التاسع عشر، وأصبحت الهند دولة مستقلة في عام ١٩٤٧ بعد الكفاح من أجل الاستقلال الذي تميز على نطاق واسع بالمقاومة غير العنيفة.

لذا فزيارة الهند والإلمام بأهم معالمها يحتاج لأسابيع وليس لأيام ورغم أنني زرتها مرتين استغرقت الأولى نحو شهر كامل، والأخرى نصف شهر إلا أنني لم أكتف بما شاهدته بل كنت أشبه بمن يريد أن يجمع كل ماء البحر في إناء صغير!

فإلى جانب العوامل الجغرافية لعبت العوامل التاريخية دورها في تنويع ثقافات الهند فمنذ فجر التأريخ احتلَّتها أمم من الشرق والغرب وحكمها المغول وتأثرت بالأقوام الآريَّة الآتية من خارج القارة الهندية، كما تأثرت بحضارات إسلامية وصينية وهندية محلية كالتاميلية والبنجابية والبنغالية وغيرها ، كل ذلك أثَّر في الشخصية الهندية.

إننا في الهند أمام حضارة عريقة وتأريخ قديم وأحوال جغرافية متباينة وأناس شغوفين بالروحانيات، تتعدد آلهتهم ومذاهبهم وأفكارهم وإن صحَّ التعبير نحن أمام ثقافة وحضارة وتاريخ وجغرافيا متنوعة وتناقضات اجتماعية جديرة بالكتابة أو القراءة عنها!.

تتميز دلهي[١] الحديثة بشوارعها الجميلة النظيفة وتشبه مدينة لندن؛ لأنها خططت في عهد الاستعمار الإنجليزي. ومما لفت نظري في دلهي القديمة كثرة القرود الطليقة وكذلك منظر الأبقار التي تجول في الشوارع وتربض وسط الطرقات دون أن يحاول إبعادها عن قارعة الطريق، دون أن (يجرح مشاعرها).!

ودلهِي إقليم ضمن الاتحاد الهندي، يتألّف من ثلاث مناطق سكانية وهي: دلهي القديمة ودلهي الجديدة (نيودلهي)، مع القرى العديدة ضمن الضواحي، وعدد سكان دلهي الكبرى نحو اثني عشر مليون نسمة، وتقع نيودلهي على مسافة خمسة كيلو مترات جنوب المدينة القديمة. تقع دلهي بقسميها القديم والحديث على مثلث من الأرض محاطة بتلال من جهتين ونهر جمنا من الجهة الثالثة، وتتألف دلهي القديمة من متاهة من الشوارع الضيقة الملتوية، تتخللها بعض الشوارع العريضة، ويسود المدينة زحام شديد وظروف معيشية صعبة.

(١) وكان اسم دلهي القديم دهلي لذا نرى شخصيات وأعلاماً في الهند باسم الدهلوي أي نسبة لدهلي!

بُنيت نيودلهي في أوائل القرن العشرين بموجب التصاميم التي أعدّها المعماري البريطاني السير إدون لوتينز بمعاونة المعماري السير هربرت بيكر على أرض ترتفع قليلاً عن الأرض المجاورة لها، وتتميز بشوارعها الجميلة المشجَّرة الفسيحة الأرجاء، ذات الحدائق الواسعة وبتخطيط منسَّق دقيق [١].

أهم معالم دلهي:

بدأ برنامج زيارة معالم المدينة بجولة حرّة قبل انتهاء فعاليات المؤتمر وقبل أن أتفرَّغ في إجازة لثلاثة أسابيع للإلمام بمعالم دلهي وبعض الأماكن الأخرى.

في أيامنا الأولى زرنا الأحياء القديمة ودخلنا المسجد الجامع في قلب دلهي القديمة والذي تمَّ بناؤه في عصر السلطان أكبر واستكمل البناء في عهد حفيده شاه جهان ، باني (تاج محل) والذي حاكى في بنائه المسجد الحرام في مكة المكرمة، وكان إلى فترة قريبة يعتبر ثاني أكبر مسجد في آسيا إذ يتسع لأكثر من ٢٥ ألفاً من المصلين[٢]، ويعتبر (مسجد جامع) كما يطلق عليه وهو واحد من أكبر وأفضل المساجد المعروفةِ في الهند، وهو أيضاً يقع في منطقة مزدحمة وشعبية في مركز مدينة دلهي القديمة.

كما يحتوي على فناء فسيح تقع وسطه بركة ماء للوضوء ويتضمن تصميمه ثلاث قباب على الطراز المغولي الإسلامي، وله منارتان يشمل المسجدُ أيضًا عِدّة آثار قريبة من البوابة الشمالية، وتتضمن نسخة القرآنِ مكتوبة على جلد الغزال وتقام في المسجد الجامع الصلوات الخمس بالإضافة إلى الجمعة، كما تقام فيه الدروس بين الحين والآخر، ويُعدُّ المسجد مكاناً للعبادة والتأمل والخلوة والصلاة التطوعية وقراءة القرآن.

في معظم الشوارع التي مررنا بها كانت معابد هندوسية، ترى الشموع تحترق فيها دون توقف والزهور تغمر جنباتها، وينعطف إليها الناس العائدون من أعمالهم ليقدِّموا نذوراً من زهور وحبوب وطوال رحلتنا لم تنقطع مشاهدة تلك المناظر التي تؤكد بأن الهندي متدين بطبعه.

(١) إبراهيم حلمي دار الشرق العربي بيروت ص ٧٢.

(٢) ولأن هناك مساجد أكبر غير الحرم المكي منها المسجد الكبير في جاكرتا أندنوسيا.

بوابة الهند:

من ضمن مشاهداتنا في الأيام الأولى هي بوابة الهند في دلهي وقد بُنيت هذه البوابة إحياء لذكرى ٩٠ ألفاً من الجنود الهنود الذين قتلوا في الولايات الشمالية الغربية أثناء الحرب العالمية الأولى والغزو الأفغاني عام ١٩١٩م، تمَّ بناء البوابة من الحجر الرملي ويبلغ ارتفاعها ١٦٠ قدماً، وتعتبر هذه هي البوابة الأولى التي تُبنى في نيودلهي ، كتب على حيطانها أسماء الجنود، ووضع حجر الأساس لها في عام ١٩٧١م ولابد أن يقوم أغلب زوار مدينة نيودلهي بزيارة هذه البوابة وحديقتها . .

توجهنا إلى قطب منار؛ أي منارة قطب وهي عبارة عن أطلال لحصون قديمة في دلهي أمر بتشييدها الملك (قطب الدين) والمنارة بشكل حلزوي ومايميزها بأنها مبنية من الحجر الخالص ومنقوش بنحت آيات قرآنية وقد أُنشئت تخليداً لانتصاراته ويمكن للزائر أن يصعد إلى قمتها عن طريق درج حلزوني ويشاهد منظر مدينة دلهي على ارتفاع عالٍ[١] .

بُني هذا البرج أو المئذنة في نهاية القرن الثاني عشر الميلادي وهو نسبة للسلطان قطب الدين أيبك الذي وضع هنا أساس مدينة دلهي إعلاناً لوصول السلاطين المسلمين وفي فناء هذا البرج عدد من قبور السلاطين وغيرهم ويتكون من ٥ طوابق وقد بُني من الحجر الرملي الأحمر والأصفر ونقشت عليه آيات من القرآن الكريم . . ويبلغ ارتفاعه ٧٢متراً [٢] .

وبالإضافة إلى قطب منار التي استخدمت لمئات السنين للأذان للصلاة، يوجد مَعْلَمٌ آخر جدير بالإعجاب وهو عمود حديدي في نفس فناء المسجد، وضع هناك سنة ٤٠٠م ويزن ستة أطنان، وارتفاعه ٧م ولم يصدأ أبدًا رغم مرور زمن طويل . أما القلعة الحمراء التي بناها شاه

(١) وقد بناها قطب الدين أيبك فاتح دلهي في أواخر القرن السادس للهجرة، وهذه المنارة الشاهقة رائعة بزخارفها المنقوشة بالحجر ويعتبرها الكثيرون من عجائب العالم وهي بالفعل جديرة بالرؤية لمن زار دلهي ولا تقل أهميتها عن شهرة تاج محل وقد وصفها بعض الرحالة بأنها جبل صناعي من الحجر المزخرف والمنقوش وبنيت بطراز هندي مطعم بالفن العربي وليس فيها ملامح مغولية لأنها قبل حكم المغول لشبه القارة الهندية، وقطب منار هي الباقية من مسجد عظيم هو مجد قوة الإسلام.

(٢) إبراهيم حلمي دار الشرق العربي مصدر سابق.

جهان في القرن السابع عشر الميلادي فإن جدرانها التي بُنيت من الحجر الرملي الأحمر تضم قاعات وأجنحة كان أباطرة المغول يقيمون فيها الحفلات التي يحضرها أهل البلاد وسفراء الدول.

وأكثر من نصف سكان المدينة، من المهاجرين، وأربعة أخماسهم من الهندوس، ويشكِّل المسلمون أكبر أقلية، يأتي بعدهم اليانيون والنصارى والبوذيون.

القلعة الحمراء:

وهي شاهد على عظمة أباطرة المغول أُنشئت عام (١٦٣٩ ـ ١٦٤٨م) تتميز بجدرانها الحمراء الرخامية المزخرفة بالذهب والمجوهرات من الداخل.. في هذا المكان رُفع العلم الهندي لأول مرة عندما حصلت الهند على استقلالها في ١٥/ ٨/ ١٩٤٧م.. تضم بداخلها متحفاً عسكرياً ومسجد القلعة الحمراء ويرجع تاريخ إنشائه إلى الإمبراطور المغولي (أورانجزيب) في أواخر القرن ١٧م، وفي الخارج بعض الدكاكين لبيع التذكارات.

وهي من الآثار الإسلامية الرائعة التي خلَّفها الإمبراطور شاه جهان[(١)] هي قلعة شاه جهان التي نجدها اليوم في الجزء القديم من دلهي والتي أمر ببنائها لتكون مسكناً له ولحاشيته ومقراً لجنده الخاص وقد اختار تخطيطها على فروع من نهر جمنا في دلهي القديمة، وللقلعة في الداخل بوابتان الأولى باتجاه دلهي والأخرى باتجاه لاهور.

توجد في دلهي ثلاث جامعات أساسية ولعل أهمها جامعة دلهي وجامعة نهرو والجامعة الملِّية الإسلامية وهي جامعات اتحادية. وفيها عدد من الأكاديميات الخاصة بالفنون واللغات والفنون التطبيقية ومتاحف كثيرة خُصص بعض منها لعدد من زعماء الهند.

بلغ عدد اللغات واللهجات في الهند نحو ٢٥٠ لغة ولهجة إلا أن أكثرها شيوعاً اللغة الهندية وهي فرع من اللغة الآريَّة الهندية ويتكلم بها حوالي ١٥٠ مليوناً من الهنود، يتكلم معظم الناس في دلهي وضواحيها اللغة الهندية، وهي اللغة الأكثر شيوعًا في الهند، كما تستخدم اللغة الإنجليزية بكثرة، ومن اللغات الأخرى المستخدمة البنجابية والأوردية والبنغالية.

(١) شاه جهان باني تاج محل وهو حفيد الإمبرطور الشهير محمد جلال الدين كبر والذي سنتناول شخصيته في الصفحات التالية.

وأذكر بأنني كنت أتجوّل مع أحد أعضاء الوفد اليمني في سيارة للجهة المضيفة في أحد الأماكن السياحية فقال لنا السائق الهندي وهو يهز رأسه عبارة فهمتها على الفور: (يِكّ مِنِتّ انتِظَار) فقلت له: (أوكي) لامانع، فقال مرافقي: ماذا قال؟ وكيف فهمته بهذه السرعة؟ فأجبته بأن السائق ربما يريد استخدام المراحيض، فقال: (يِكّ) بمعنى واحد بالأوردو، و (مِنِتّ) وتعني دقيقة بالإنجليزية، و (انتظار) أمرها معروف بالعربية! فضحك قائلاً: ماشاء الله عندك سرعة بديهة وتقبُّل للغات الشرقية![1].

وفي دلهي أكبر جهة تستخدم العاملين بالدوائر الحكومة وتأتي بعدها المؤسسات الصناعية والتجارية. وتستقطب الخدمات المدنية والإدارة المحلية في دلهي جانبًا كبيرًا من الأيدي العاملة. ومن الحِرَف التي اشتهرت بها المدينة الحَفْر على العاج، والرسم، والزخرفة وكلها تتصف بالدقّة والمهارة الفائقة، كما أن الجرف اليدوية القديمة كصناعة المجوهرات وصياغة الذهب لازالت مزدهرة. ومن المشاكل التي تعاني منها المدينة وتعوق نمو اقتصادها النقصُ الموجود في المساكن والذي أدّى إلى لجوء ثلث سكان المدينة إلى الأحياء القذرة والأكواخ، بالإضافة إلى انقطاع التيار الكهربائي الذي يتسبب في توقف بعض المعامل عن العمل. وكذلك الحال مع كثير من الخدمات الأخرى مثل المياه والمجاري وغيرهما.

تعتبر دلهي محورًا لنظام النقل في الهند كلها، إذ يوجد فيها خمس طرق خارجية، والعديد من خطوط السكك الحديدية ومطار أنديرا غاندي الدولي ومطار آخر للرحلات الداخلية.

في زيارتي الثانية للهند[2] حرصت أن أزور أماكن أخرى غير دلهي وأغرا فقد زرت بومبي وانتقلت إليها بالطائرة، ولأول مرة أركب طائرة طابقين ايرباص وهي إحدى أسطول الخطوط الجوية الهندية.

---

(١) من المعلوم بأن جنوب اليمن ومن ثم شماله تأثر ببضع كلمات هندية منها على سبيل المثال (روتي) وتعني خبز، و (رصدة) أي طريق مسفلت ومعبّد، و (رنج) أي لون أو طلاء وهذه الأخيرة هي من أصل فارسي حيث يتداولها الناس في إيران. وكذا مفردات أخرى مثل (راشان) وتعني مصروف البيت و (سامان) أي الأثاث وكلمة (بانيس) أي ماء وغيرها..

(٢) وبعد زيارتي الأولى بنحو خمس سنوات أي عام ١٩٩٠.

ولو عدنا لتأريخ الهند لعرفنا بأن المغول الذين حكموا الهند بنوا تلك المعالم الكبيرة من مساجد وقلاع وحصون ومن ضمنها أعجوبة الهند والعالم تاج محل هم أنفسهم المغول الذين عاثوا في الأرض فساداً وتدميراً قبل أن يدخلوا الإسلام وهم الذين أسقطوا مدينة بغداد. !

ولكن بعد تأسيس دولة المغول الإسلامية على يد الحاكم المغولي المسلم ظهير الدين محمد بابر حفيد تيمورلنك وجنكزخان! بدأت في توسيع رقعتها واتجهت جنوباً للقارة الهندية فاحتلت الهند والسند، وقد تولى بابر الحكم في عام ١٤٩٤، أما ثالث سلاطين سلالة المغول فكان السلطان جلال الدين محمد أكبر الذي يعتبر من أعظم سلاطين المغول الذين حكموا الهند فهو أول من أفصح وأعلن عن التسامح الديني [(١)] فنادى بأن الهند للهنود سواء كانوا مسلمين أو هندوس أو غير ذلك ، وقد تزوج هندوسية من منطلق توحيد الشعب الهندي.

زيارة تاج محل:

بعد انتهاء مؤتمر عدم الانحياز وموافقة وزير الخارجية على إجازة لنحو عشرين يوماً فقد انتهزتها فرصة لمزيد من التجوال في أهم معالم العاصمة نيودلهي ودلهي القديمة والأهم من ذلك زيارة مدينة (أغرا) التي تحتضن تاج محل وتبعد نحو مئتي كيلومتراً، وقد بقيت يوما كَاملاً في تاج محل وغادرنا مساء عائدين إلى دلهي.

«هذا ليس قبراً... هذا أغنية من المرمر»!هكذا عبَّر عنه نهرو.. ولقد صدق في قوله.. إنه ليس قبراً أو ضريحاً أو قصراً.. إنه رمز.. رمزٌ للحب والوفاء.. ولكن ما قصة هذا الصرح العملاق الذي يعتبر من أشهر معالم الهند ومن عجائب الدنيا السبع تتفق الروايات التاريخية بأن إمبراطور الهند في القرن السادس عشر (محمد شهاب الدين) الملقب بشاه جهان أي (ملك

(١) جلال الدين محمد أكبر هو أحد السلاطين المغول الكبار الذين حكموا الهند عاش بين عامي ١٥٥٦ و ١٦٠٥، وسّع رقعة بلاده فسيطر على شمال الهند وباكستان ووصل البنغال، عرف بسياسته المميزة في الحكم، حيث عامل الهنود كمواطني دولة بدل أن يعاملهم كسكان أراضٍ مفتوحة. ودخل هو وعائلته في علاقة مصاهرة مع المجموعات الدينية والإثنية المختلفة في الهند مما وطّد حكمه. كما منع إجبار أحد على الإسلام، خلفه بعد وفاته عام ١٦٠٥ ابنه جهانگير. حفيد تيمورلنك من الدرجة السادسة، وثالث السلاطين التيموريين في الهند.

الدنيا) باللغة الفارسية والأوردية وشاه جهان من سلالة المغول والذي اتخذ من مدينة أغرا عاصمة له بدلاً من العاصمة السابقة دلهي وقد شدَّت انتِباهه فتاة تُدعى (أرجمند بانو) ابنة أحد وجهاء الفرس الذين هاجروا من بلاد فارس (إيران) ونال في الهند مكانة كبيرة لدى الوجهاء والمسؤولين، وقد كان الناس يتناقلون الأخبار عن جمال وأناقة أرجمند بانو والتي كانت متزوجة الأمر الذي جعل شاه جهان يشعر بالأسى والخيبة إلا أن القدر فتح له فرصة وآمالاً عندما توفي زوجها وبعد انتهاء عدتها استدعاها إلى قصره ففُتن من جمالها وأُعجب بذوقها وسموِّ أخلاقها فتزوجها عام ١٦١١م[١].

وأعطاها لقب ممتاز محل، ثم رغب في أن يكون اسمها قريباً من اسمه (شاه جهان) لتكون (نور جهان) أي: نور الدنيا!.

وأخذ حبه لها يزداد رغم أنه متزوج من امرأتين أخريين الأولى فارسية والثانية تركية، حسب بعض الروايات، فكل يوم يمر يلاحظ ويلمس إخلاصها وحبها له فزاد هياماً بها.

ولشدة حبه لها كانت لاتفارقه في سفراته وحروبه وكانت تقيم في الجناح الملكي في القلعة الحمراء.

وفي عام ١٦٣٠م قاد شاه جهان حملة إلى هضبة الدكن في أواسط الهند للقضاء على الفئات المنشقة عليه، وكانت زوجته ترافقه كعادتها وفي طريق عودته إلى أغرا مرضت زوجته، فأحضر لها أمهر الأطباء، ولكنها توفيت أثناء ولادة الطفل الرابع عشر فأمر بنقلها إلى مدينة زين أباد مؤقتاً لحين بناء ضريح لها.

كانت آخر كلمات محبوبته وهي تودع الدنيا: لا تتزوج من بعدي، لن تحب امرأة مثلي، لا تنسى أن تزور قبري.. وكان يزور قبرها وهو حرٌّ طليق إلا أن ابنه انقلب عليه وجعله تحت الإقامة الجبرية[٢] في قصره وظل يزور قبرها فقط عبر المرآة وهو سجين حتى أغمض الموت عينيه.!

(١) رحاب كمال.. «عجائب وغرائب العالم» دار الطلائع ص ٤٠.

(٢) وعندما اعتقل لمدة ثماني سنوات توفي في آخرها في القلعة الحمراء الكبيرة التي تقع أمام تاج محل كان ينظر يومياً إلى هذا الصرح الخالد لا يبكي على زوال عرشه وخلعه من الحكم بقدر بكائه على وفاة زوجته الغالية التي لم تستطع امرأة سواها أن تمنحه الحب الذي منحته إياه.

بعد وفاة ممتاز حبس شاه جيهان نفسه ثمانية أيام في قصره ليخرج للناس بعدها رجلاً آخر يختلف عن الذي كان عليه قبل أربع سنوات حينما اعتلى العرش، وبقي لعامين وهو يعيش الحداد عليها. حين إحضار رفات ممتاز محل من حيث فارقت الحياة إلى أغرا عاصمة الإمبراطورية المغولية، وضع في حجرة دفن مؤقتة تحت الأرض على ضفة نهر جومنا. أما ضريحها الدائم فقد وضعت أساساته عام ١٦٣١ لينتهي بناؤه عام ١٦٥٣ ، وبدأت فكرة بناء تاج محل تتسلل إلى ذهنه فاستقدم أمهر المهندسين والمعماريين برئاسة المعمار التركي (عيسى أفندي) ومعه عشرون ألف عامل كان من بينهم خبراء في القباب من القسطنطنية (إسطنبول) ومختصون في بناء الأبراج من مدينة سمرقند والبارعون في تشييد الأبنية من قندهار والمشهورون بالزخرفة والنقوش من بخارى، كما استخدم أمهر الخطاطين من بغداد وأمرهم بأن يتعاونوا جميعاً في بناء ضريح لزوجته لايمكن أن يماثله أي ضريح في العالم ولما انتهى العمل فيه أعجب شاه جهان به كل الإعجاب ودعاه تاج محل حيث نقل إليه رفات زوجته.

ويعتبر تاج محل صرحاً حضارياً رائعاً فقد جاء بناؤه غاية في الإتقان وجاءت زخارفه أيضاً آية في الروعة والجمال كما أن الألوان التي استعملت كانت بديعة التناسق رفيعة الذوق.

لقد استغرق بناء تاج محل مدة **٢٢** عاماً بلا توقف وقد اختير له مكان رائع على ضفاف نهر جمنا أحد روافد نهر الجانج على بعد نحو ثلاثة كيلومترات من مدينة أغرا.

وقد بني هذا الصرح من الحجر الأحمر والرخام والمرمر الأبيض وعلى يسار ويمين المدخل كتبت آية من سورة الفجر: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ۝٢٨ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ۝٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢٧ ـ ٣٠] أما في البوابة الرئيسية للقبة كتبت سورة يس بخط الثلث المتداخل وقد عمد الخطاط إلى جعل الكلمات والحروف تكبر تدريجياً بحيث تُرى بالعين المجردة بنفس الحجم رغم المسافات التي تزيد عن عشرات الأمتار حتى آخر آية من سورة يس!

وأمام مدخل البناء تقوم بحيرة صناعية (بركه كبيرة) يحيط بها ممران عريضان وحولهما مساحات خضراء وعلى سطح تلك البحيرة تنعكس صورة الصرح ببهائه وجماله.

وجاء تاج محل عمارة بيضاء صافية من الرخام والجرانيت وبلغ الفن المعماري فيه قمة الإبداع حتى قال المهندسون: «إن نقاء الخطوط في العمارة من نقاء الأمواج».

وقد اقترح شاه جيهان إقامة التاج من الرخام الأبيض حتى ينعكس الضوء عليه عند الفجر والصباح والظهيرة والضحى والمساء.. إلى ضوء القمر. وعقب إنجازه أحسّ شاه جيهان بدنوٍّ أجله بعد أن تحقق له ما أراد من الحياة.

وأُقيم حول ثلاث جهات من الصرح أربعة أبنية شُيدت من الحجر الرملي الأحمر المزخرف والمطعّم بالأحجار الكريمة الثمينة أولها على يسار الصرح (مسجداً للصلاة) وثانيها على يمين الصرح (بيت للضيافة) أما البناءان الآخران ففيهما قاعتان متشابهتان لعزف الموسيقى، وقد أقيم تاج محل على قاعدتين مرتفعتين تغطيهما الحجارة المصقولة ويتم الوصول إلى القاعدة الأولى عن طريق بابين جانبيين توجد أمام كل منهما درجتان توصلان إلى القاعدة الثانية العليا، أصبح تاج محل من معجزات أو عجائب الدنيا السبع، وهو يُعدُّ كذلك فعلاً، كما يعتبر من أجمل المباني الإسلامية في القارة الهندية روعةً وزخرفةً وتصميماً.. وهو مبنى عملاق يشرف على مدينة أكرا بالهند، والتي كانت عاصمة المغول في ذلك الحين قبل أن تنقل العاصمة من أكرا إلى مدينة دلهي والتي هي عاصمة الهند إلى يومنا هذا.

يتغير تاج محل بتغير فصول السنة وأوقات اليوم، فالزهور تظهر بعد الفجر بلون وردي وخلال فترة الظهيرة بلون أبيض ناصع ثم تتحول إلى اللون الرمادي قبل الغروب.!

وهناك أربع منارات، ثلاث منها قريبة بُنيت مائلة عكس الاتجاه؛ لئلا تقع على البناء في حالة حدوث زلزال، أما المنارة الرابعة فبُنيت بزاوية قائمة بعيدة قليلاً، ولا ترمز المنارات الأربع لشيء معين بل تعدُّ ديكوراً جميلاً للبناء.

ونجد في الداخل أيضاً بوابة أخرى جميلة مزخرفة غاية في الإبداع الفني مزينة بسورة (يس) من القرآن الكريم بالخط الفارسي وبحروف عربية مزخرفة برسوم إسلامية بألوان جميلة محفورة على الرخام، وجُلبت الأحجار الطبيعية الملونة من أفغانستان ومصر وتركيا وإيران.

وجدير بالذكر أن كلمة تاج محل تعني (قصر التاج) بينما لا يعرف حتى الآن أصل تسمية القصر بتاج محل، وذلك لأن المؤرخين في عهد الشاه كانوا يطلقون عليه (روزا) ممتاز محل، أي ضريح ممتاز محل، وبعدها شاع اسم تاج محل ويترجم على أنه قصر التاج أو تاج القصر.

لكن آثار التلوث والأضرار التي لحقت بتاج محل الذي يسميه الهنود قصيدة المرمر جعلت العالم يحذر اعتباراً من ١٩٩٦ من أن الموقع مهدد فعلاً بل من أكثر المواقع عرضة للخطر كما أكد الصندوق العالمي للمواقع الأثرية.

يعدُّ ضريح تاج محل أروع شاهد على جمال العمارة في العهد المغولي والتي تجمع الفنون المعمارية الفارسية والعثمانية والهندية والإسلامية. في عام ١٩٨٣، أدرجت منظمة اليونسكو هذا المَعْلَم ضمن قائمة التراث الثقافي العالمي واعتبرته درة الفن الإسلامي في الهند وأحد الروائع المعمارية في التراث العالمي، حاز على إعجاب الجميع في شتى أنحاء الأرض، وعلى الرغم من أن الضريح نفسه ذا القبة الرخامية البيضاء يعد أهم ما يميز هذا الأثر، إلاّ أنّ تاج محل في الحقيقة عبارة عن مجموعة متكاملة من المباني، وأشرف على بنائه الإمبراطور نفسه مع آلاف من الحرفيين والمهندسين المعماريين المهرة.

قلعة أغرا:

بمحاذاة حدائق تاج محل تقع قلعة أغرا الحمراء وهي نُصب بالغ الأهمية يعود للعصر المغولي نفسه. وهي قلعة قوية شيّدت من الحجر الرَّملي الأحمر تضمّ في حرمها (البالغة مساحته نحو ثلاثة كيلومترات) المدينة الملكية المكونة من القصور الخيالية كقصر (جهانكير) أو خاص محل الذي بناه شاه جهان وبصالات اجتماعاتها كالديوان الخاص، والمسجدين الرائعين.

قلعة أغرا واحدة من هذه الأماكن التي تجتذب الكثير من الزوار، شيَّد هذه القلعة الحاكم المغولي أكبر من الحجر الرملي الأحمر بعد أن عزز سلطته بعد مجيئه للحكم وكانت القلعة تعتبر نقطة عسكرية استراتيجية ومقر إقامة للحاكم. شُيِّدت القلعة على شكل هلال، وهي مسطحة في الجانب الشرقي وبها جدران طويلة ومستقيمة مواجهة للنهر. وتتميز مباني هذا المجمع بتنوعها من ناحية الطراز المعماري، حيث إنّ قصر (جاهانجير)، الذي شيد بواسطة الحاكم أكبر، عبارة عن تمازج الطراز المعماري الإسلامي (الفارسي) بفنون المعمار المحلي الهندوسي.

التوجه إلى بومباي:

في زيارتي الثانية للهند في مايو من العام ١٩٩٠ وبعد انتهاء المهمة التي سافرت من أجلها حرصت بأن أزور أماكن ومدناً أخرى إضافية فمن ضمن ذلك كان زيارة مدينة بومباي و تسمى حالياً مومباي على اسمها القديم وهي عاصمة ولاية ماهاراشترا (Maharashtra) في الهند، وتعتبر إلى جانب مدينة كلكتا من أكبر مدن الهند وواحدة من كبريات مدن العالم وعدد سكانها يتجاوز الستة عشر مليون نسمة. هي المدينة الأولى في الهند والمركز الاقتصادي والثقافي والتجاري للهند ومومباي تقع على الساحل الغربي للهند وميناؤها الرئيسي.

غادرت دلهي بتوديع الزملاء بالسفارة اليمنية وصعدتُ إحدى طائرات الخطوط الجوية الهندية وهناك شركتان ربما إحداهما محلية والأخرى دولية فالأولى شعارها الشمس والثانية الغزال، واللطيف أن من يدخل باب الطائرة تستقبله مضيفتان بلباسهما الهندي التقليدي عبارة عن ساري وكلتا الفتاتين تضمان كفتي أيديهما إلى صدرهما تعبيراً عن الترحيب وتكرر الحركة لكل من يدخل على أصوات الموسيقى الهندية وعبق البخور الذي يلاحظ بوضوح لكل من يدخل الطائرة.. إنه ترحيب لطيف على الطريقة الهندية!

وتاريخياً كانت الجزر السبع التي شكَّلت مومباي مكاناً لتجمعات الصيد وتسيطر عليها الإمبراطوريات والممالك المتعاقبة، وفي منتصف القرن الثامن عشر ظهرت بومباي كمدينة تجارية هامة وخلال القرن التاسع عشر تميزت المدينة بالتنمية الاقتصادية والتعليمية وأصبح وجود قاعدة قوية لحركة استقلال الهند في أوائل القرن العشرين وعندما نالت الهند استقلالها في عام ١٩٤٧، وفي عام ١٩٩٦تم تغيير اسمها من بومباي إلى مومباي.

تعتبر مومباي العاصمة التجارية للهند وهي أكثر المدن الهندية حركة ونشاطاً، هذا فضلاً على أنها تعدُّ واحدة من أكبر المدن الصناعية في الهند، ويقطن مدينة مومباي ـ بومباي سابقاً ـ العديد من أبناء الهند على اختلاف سحناتهم وأعراقهم ومعتقداتهم الدينية والثقافية ويقدر عدد سكانها بأكثر من سبعة عشر مليون نسمة.

وهي أيضاً مركز لمؤسسات مالية هامة مثل بنك الاحتياط في الهند، وبورصة مومباي، واللجنة الوطنية للأوراق المالية في الهند ومقارِّ الشركات الهندية والعديد من الشركات المتعددة

الجنسيات. والمدينة تشتهر في صناعة السينما والتلفزيون، والمعروفة باسم بوليوود. وومباي توفر مستوى دخل ومعيشة أعلى وجذب لكثير من الهنود الذين يهجرون قراهم إلى بومباي طلباً لكسب العيش.

في فندق تاج محل في بومبي تناولت العشاء في ضيافة أحد الزملاء المسؤولين في القنصلية اليمنية وفي مطعم راقٍ، والفندق يطلُّ على شاطئ المحيط في منطقة تسمى (كلابا) أو عقد الملكة، والمطعم أنيق فاخر صُمّم على الطراز الهندي الكلاسيكي، فيه فرقة موسيقية عازفوها من الموسيقيين ذوي الخبرة في الموسيقى الهندية المتميزة، وكان شعوري مثل الحضور في حالة اندهاش وانبهار، وزاد إعجابي بسماع الموسيقى الهندية منذ تلك اللحظة.

بومبي مدينة مفتوحة على العالم هي بوابة الهند وقلبها التجاري النابض من (غيت اوف انديا) أي: بوابة الهند[١]، في مواجهة لفندق تاج محل الشهير من هناك أتيح لنا فرصة ركوب البحر من ذلك المكان وكان قبل الغروب بعد دقائق شاهدنا صورة بانورامية لبومبي والأنوار تتلألأ فهي بوليود الشرق فعلاً بحيويتها وصخبها.

وفي مدينة بومباي وفي شاطئها الجميل (كلابا) حيث تقع بوابة الهند يتجمع الكثير من السُّياح والهنود الذين يستمتعون برؤية ساحر أو شخص يداعب قروداً أو حاوٍ يراقص ثعابين من نوع (الكبرا) ذات الرؤوس الكبيرة والتي ربما قد خلعت أنيابها السامة وخروجها من آنية مصنوعة خصيصاً من الفخار أو على شكل سِلال من الخيزران ثم ترقص على أنغام المزمار وتتمايل بينما السُّياح يتفرجون وبعد لحظات ينتهي العرض وترجع لمكانها ويمرُّ الحاوي على المتفرجين ليجودوا بما تيسر من قطع نقود (الروبيات الهندية).

شارع محمد علي [٢] من الشوارع الرئيسية في مدينة مومباي وهو شارع تجاري وأتذكَّر

(١) وهي شبيهة ببوابة دلهي وقد زرنا تلك البوابة في العاصمة الهندية والمنقوش على كل حجر اسم شهيد.

(٢) وبالمناسبة فإن اسم صاحب الشارع «محمد علي» هو مصلح اجتماعي مسلم معروف في الهند والعالم الإسلامي آنذاك، عاش في أوائل القرن العشرين أي قبل الاستقلال وهو أخ للعلامة شوكت علي عالم وشخصية هندية مسلمة في مطلع القرن العشرين وقد سافر لبلدان عربية منها القدس في المؤتمر الإسلامي وحينها استأذن من السلطات اليمنية المتوكلية أيام حكم آل حميد الدين المتوكل على الله الإمام يحيى بن حميد الدين بأن يسمح له بزيارة اليمن فتمكن من الزيارة فأتى بحراً إلى مدينة الحديدة غربي اليمن على البحر الأحمر ومنها إلى صنعاء العاصمة اليمنية وقابل الإمام يحيى..

محلاً يؤمُّه العرب هو (محل الحياة) أو (مركز الحياة) ومكتوب اسمه على لوحة باللغة العربية وهو دكان كبير يتكلم صاحبه العربية بطلاقة ويبدو أنه من طائفة الإسماعيلية «الذين يسمون في الهند البهرة» اشتهر ببيع الهدايا والعطور وعود البخور الكمبودي غالي الثمن وغيرها.

في اليوم التالي ترجَّلت مع مرافقي في عدة شوارع كلها تنبض بالحياة منها شارع يدعى (كولا با كوزري) هناك وقفنا لبعض الوقت نشرب الشاي ونتفرج على خليط من البشر لغات ووجوه شتى كلهم يلتقون في تلك الأماكن حركة مستمرة ووجوه تتغير باستمرار، من ذلك الشارع انتقلنا إلى مناطق أكثر شعبية: أسواق وأحياء ومعابد ومساجد يجوبون الشارع بخفة وآخرون يتسكعون والبعض يشحتون.. إنها الهند مِلَل ونِحَل.. ديانات واعتقادات،بؤس وغنى، حاضر وتأريخ.!

من الأمور الملفتة للنظر سواء في بومباي أو غيرها من المدن الهندية منظر الأبقار تجول في الشوارع تأكل ما تقع عليه من خضراوات وفواكه الباعة دون أن يردعها أحد!

أغرب المآذن في العالم:

في مدينة أحمد أباد غرب الهند مئذنتان تتحركان بمجرد تحريك إحداهما تماماً مثل المئذنتين اللتين شاهدتهما في مدينة أصفهان واللتين ذكرتهما في تناول رحلتي إلى مدينة أصفهان في إيران ضمن هذا الكتاب، وفكرة المئذنتين سواء في أصفهان أو هذه التي نحن بصدد الحديث عنها واحدة بحيث إذا تحركت إحدى المئذنتين تتحرك الأخرى ولابدَّ من جهد ثلاثة أو أربعة أشخاص أقوياء حتى يستطيعوا تحريك مئذنة، وقد جربنا ذلك في أصفهان وتحركت فعلاً المئذنة الأخرى ولابد بأن هناك سراً هندسياً في البناء بحيث تتحرك على النحو المشار إليه في رحلة إيران، صحيح أنني لم أشاهد تلك التي في حيدر أباد ولكن نفس الفكرة، وتعتبر من عجائب الهند وأنصح من يزور الهند ولاسيما (حيدرأباد) ألاّ يتجاهل هذه الأعجوبة المعمارية.

المهاتما غاندي ضمير الهند:

على الصعيد الوطني وفي مطلع القرن الماضي بدأ الكفاح من أجل الاستقلال والذي أطلقه مؤتمر الهند الوطني وغيره من المنظمات السياسية، قاد الزعيم الهندي المهاتما غاندي[١] الملايين من الناس في حملات وطنية للقيام بالعصيان المدني غير العنيف، وفي ١٥ أغسطس ١٩٤٧ حصلت الهند على استقلالها من الحكم البريطاني، ولكن في الوقت نفسه تمَّ تقسيم مناطق الأغلبية المسلمة لتكون ولاية منفصلة أُطلق عليها باكستان.

وفي ذلك التاريخ كانت الإمبراطورية البريطانية الهندية التي حلَّت المشكلة الطائفية في المناطق ذات الغالبية المسلمة والدعوة إلى تشكيل دولة مستقلة في باكستان. التقسيم أدى إلى هجرة أكثر من عشرة ملايين شخص بين الهند وباكستان ووفاة حوالي مليون شخص، وفي ٢٦ يناير ١٩٥٠ أصبحت الهند جمهورية ووضع لها دستور جديد دخل حيِّز التنفيذ وأُنشئت بموجبه الهند باعتبارها دولة علمانية وديمقراطية.

نظام الطبقات في الهند:

من الآثار الأخرى التي نتجت عن الغزو الآري للهند فرض هؤلاء الغزاة نظام الطبقات الذي يخدم أغراضهم ويجعل منهم سادة البلاد، وهو أشبه ما يكون بالنظام العنصري في مجتمعاتنا المعاصرة. وقد أقرَّ قانون مانو Manu وهو أحد حكام الهند (عام ٣٣٠ ق.م) لأن هذا القانون الذي يضم كثيراً من التعاليم والتوجيهات ويعتبر من كتابات الهند المقدسة.

هو أكثر الأنظمة الطبقية ظهوراً في العالم فمن يَزُر الهند يرَ طبقة دنيا هم طائفة من الناس يسمون المنبوذين فلهم محلاتهم ومساكنهم الخاصة وقبل انتشار الإسلام في الهند كانوا أكثر عدداً وقد دخل الكثير منهم الإسلام و عانوا كثيراً في الماضي والحاضر فبمجرد أن يلمس المنبوذ شخصاً فعلى الشخص أن يغتسل من النجاسة التي أصابته!

(١) المهاتما غاندي زعيم الهند الروحي وتعني مهاتما (الروح السامية) وقد اغتيل عام ١٩٤٨ على يد متعصب من الهندوس.

ومن أبرز نتائج هذه الطبقية الصارمة وراثة الجمود الاجتماعي، إذ لا يمكن الانتقال من طبقة إلى أخرى، والخضوع التام لما تفرضه العادات والتقاليد والعرف والدين على أفراد كل طبقة من وظائف اجتماعية، ويتفاوت على أساس هذا التقسيم أفراد المجتمع في المركز الاجتماعي والحرية الشخصية والسياسية.

وهذا لا يعني أن هذه الطبقات لم تخضع للتطور تبعاً لظروف الحياة الاجتماعية واختلاف الديانات والعقيدة، إلا أن سرَّ هذا التقسيم الطبقي لا يزال غامضاً مع أن البعض يفسره بالغزوات المتتالية من العرق الآري القادم من الشمال والذي أراد أن يميز نفسه عن البقية فحرم الزواج منهم والاختلاط بهم.

وهكذا ينقسم المجتمع في الهند إلى طبقات، وهو تقسيم حادٌّ فيوجد من يرتفع مستواه المادي كأغنى الأثرياء في العالم، ومن لا يجد قوت يومه، ويعتقد الهندوسي أن آلهته قسمت المجتمع إلى طبقات، فالأولى العليا هي «البراهما» خلقها الإله «براهما» من رأسه، وهي تضم المعلمين والكهان، والحكام، والطبقة الثانية «الكشاشري» خلقها من صدره وهي تضم المحاربين، ورجال الأعمال الكبار، والثالثة «فيثيا» خلقها من بطنه تضم المزارعين، وأصحاب المهن الحرة، و الطبقة الأخيرة الدنيا «شودر» وخلقها الإله من باطن قدمه، وهي طبقة منبوذة خارجة عن رحمة الإله يعذبها الإله لارتكابها المعاصي في جيل سابق، ولا أمل لها في الارتفاع إلى طبقة أخرى إلا من خلال رحلة التقمُّص الممتدة عبر الأجيال.

وأفراد طبقة (شودر) يسكنون محطات القطارات التي لا تصل في مواعيدها، فمنهم المتسولون المنبوذون العراة الذين يطاردون الناس المارَّة يستعطفون بوجوههم المتعبة الذابلة التي حفر الفقر فيها أخاديد وتجاعيد وتشوهات، وكذلك المجذمون، ولا يوجد من يهتم بتوعيتهم لواقعهم لإزالة الفكرة الراسخة عندهم بأن الآلهة لا تقبل أن تتغير حياتهم.

أما السيخ فهم يتميزون بالمستوى المادي المرتفع ومزاولة الأعمال التي تجلب الأموال، ومساعدة من لا يجد فرصة عمل.

حول التعصب الديني وتأريخ الإسلام في الهند:

بدأ التفكير في فتح الهند في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ حين فكَّر واليه على البحرين[١] وعُمان وهو «عثمان بن أبي العاص الثقفي» سنة ١٥هـ في تسيير جيشه إلى الهند.

ولكن لم يتم ذلك إلاّ في عام ٧١١م أي أواخر القرن الأول للهجرة، وهو في العام الذي تمَّ فيه فتح الأندلس حيث باءت الجهود الدبلوماسية «من أجل تحرير رهائن مسلمين تمَّ أسرهم وسلب سفينتهم» بالفشل في إقليم تابع لملك السند (راجا)، فأرسل الحجاج بن يوسف الحاكم الأموي شاباً يافعاً لم يتجاوز السابعة عشرة من عمره هو محمد بن القاسم الثقفي على رأس جيش لتحرير الرهائن وإعادة السفينة حيث استطاع محمد بن القاسم الانتصار على جنود الملك (راجا) في منطقة حيدر أباد حالياً وخاض عدة معارك ضد ملوك هنود مناصرين للملك (داهر).

وبحلول عام ٧١٣م استطاع محمد بن قاسم الثقفي أن يُحكم سيطرته على السند وأجزاء من البنجاب حتى حدود كشمير. وقد وقع جزء كبير من الأراضي الهندية الواقعة اليوم في باكستان تحت سيطرة المسلمين في عام ٧١٣م وبقيت كذلك على مدى قرون وحتى بعد سقوط إمبراطورية المغول عام ١٨٥٧ ببضع سنوات[٢].

وكانت معاملة محمد بن قاسم للهنود عادلة للغاية لدرجة أنه لمّا طلب الحاكم من محمد بن قاسم العودة إلى مركز الخلافة حزن المسلمون حزناً شديداً وودِّع من قبل الهنود بالدموع!

وصل الإسلام إلى الهند عبر محور بحري انتقل وذلك عن طريق التجار العرب الذين تعاملوا مع موانئ سواحل الهند وحمل التجار العرب دينهم الجديد في بدايته إلى الهند، وأصبح في كل ميناء أو مدينة اتصل بها العرب جماعة مسلمة، ومما لا شك فيه أن الرحلات التي كانت تسهل مهمتها الرياح الموسمية أسهمت في نشر الإسلام على طول سواحل الهند، وظل الإسلام في الجنوب يتسم بطابع الدعوة السلمية، وأقبلت الطبقات المنبوذة والمستضعفة على اعتناق

(١) كان في العصور الإسلامية الأولى يطلق على بلدان الخليج ومنها المنطقة الشرقية للسعودية ماعدا عمان بالبحرين.

(٢) «سندباد عصري يعود للهند»، حسني فوزي دار المعارف القاهرة.

الإسلام [١]، حيث خلّصها من القيود الطبقية، ولا زال الإسلام يكتسب أنصارًا جداً في مناطق الساحل الغربي والشرقي من الطبقات المستضعفة، ولقد نشط هذا المحور وانتقل الإسلام من الساحل نحو الداخل في هضبة (الدكن)، واستقرت جماعات عديدة من العرب في الدكن. ولقد عبر الإسلام من ساحل مابار إلى جزر المالديف، ومعظم أهل الجزر الآن من المسلمين، ويدين سكان هذه المناطق في دخولهم الإسلام إلى التجار العرب والفرس، وهكذا انتشر الإسلام في جنوب الهند.

وعلى الصعيد العالمي، فإن الهند تضم أكبر مجتمع إسلامي بعد إندونسيا وباكستان.

الهند كأسبانيا، تحتفظ بتراث إسلامي لغوي وسياسي وسياحي يمثل جزءاً من هويتها الثقافية على المستوى العالمي. لم يأتِ المسلمون إلى الهند ليعيشوا على أطراف البلاد أو ليعبروا مع العابرين، ففي القرن العاشر الميلادي تمكَّن محمود غزنوي من الانطلاق من أفغانستان ليضمَّ إقليم البنجاب لدولته الكبرى، وكانت فتوحاته المهيبة في غرب الهند تمهيداً لسيطرة الحكم الإسلامي في القرن الثاني عشر الميلادي.

نحو ستة قرون تلت ذلك التاريخ خضعت فيها الهند لحكم إسلامي في معظم فترات تلك الحقبة (من نهاية القرن الحادي عشر حتى منتصف القرن التاسع عشر) وتشكلت صورة الهند عالمياً عبر حكَّامها المسلمين من الغوريين والخلجيين وآل تغلق والمغول، الذين لم يتركوا الساحة للاحتلال البريطاني إلا في منتصف القرن التاسع عشر.

في كتابه «اكتشاف الهند» يعكس جواهر لال نهرو موقف الهند المعتدل من الحكَّام المسلمين حين يقول: «في التاريخ الهندي أبطال سعوا إلى توحيد الهند وحمايتها، وفي مقدمتهم أشوكا، وجورو ناناك، والأمير خسرو، وجلال الدين أكبر، وغاندي»، جلال الدين أكبر مثله مثل غاندي لدى نهرو، فكلاهما بطل قومي أحدهما مسلم والآخر هندوسي.

بين ضفَّتي نهر جمنا يتوزع حب الهندوس وكراهيتهم للحكَّام المسلمين، أما ضريح جلال الدين أكبر، وتاج شاه جهان يحظيان بتقدير الهندوس كرمزين للتسامح والتقارب بين المسلمين

(١) يعتبر الإسلام الدين الثاني في الهند فهم يشكلون أكثر من ١٥٪ ويشكل المسيحيون نحو ٣٪ أي أكثر من ٢٥ مليوناً.

والهندوس، التركة التاريخية التي خلّفها المسلمون في الهند تعرضت لمحنة بالغة حين بدأ تقسيم الهند في عام ١٩٤٧، في ذلك العام شبّ صراع دموي على «الجغرافية المقدسة» للبلاد، وذلك بعد أن أفضى الاستقلال إلى تكوين دولة إسلامية في فضاء جغرافي يسميه القوميون في الهند بـ «التراب الهندوسي المقدس»، حيث قامت باكستان (الغربية آنذاك) في ذات الأرض التي جاءت منها واستقرت فيها(١).

شهدت الفترة التي تلتْ الاستقلال حالات تعصب وجَرَت عدة حروب بين الهند وباكستان. بل ويرى بعض الهنود المتعصبين بأن المسلمين لم يكتفوا باقتطاع جزء غالٍ من جسد الهند فحسب، بل سَعَوا ليلَ نَهَار لتأليب المسلمين الذي بقوا في الهند، بعد التقسيم، ضد دولتهم؛ وتعمل على استغلالهم كطابور خامس لتفكيك وحدة الأراضي الهندية.

برز في فترة ما قبل الاستقلال شخصيات وطنية دينية إسلامية منها مولانا أبو الكلام ازاد الذي تولى وزارة المعارف في جمهورية الهند حتى وفاته في العام١٩٥٨ وقد رأى المسلمون في الهند في كتابات ازاد حافزاً على تقوية فكرة «الجامعة الإسلامية» والاعتماد عليها في تهيئة وتكوين الفكر السياسي ثم تحول ازاد عن فكرة الجامعة الإسلامية بعد أن انضمَّ لحزب المؤتمر كهندي وطني وكان من أقوى أنصار المهاتما غاندي. بينما كان المفكر الإسلامي الشهير محمد إقبال والذي كان ممن تأثروا بتعاليم وفكر مولانا أبو الكلام ازاد الأولى، و العجيب في هذين العلمين من أعلام المسلمين أن ازاد ربيب التعليم الديني القويم هو الذي آزر القومية الهندية والفكر العلماني، بينما انحاز إقبال خريج الحضارة الغربية إلى فكرة الجامعة الإسلامية وطالب بالعودة إلى تعاليم الدين الحنيف، ومحمد إقبال في رأي من كتبوا عن الإسلام في شبه القارة الهندية الفيلسوف الإسلامي الأوحد في العصر الحديث. وهو رأي لا يقرّه المسلمون العرب مع تقديرهم لمقامه مفكراً وكاتباً وشاعراً مرموقاً في اللغتين الأوردية والفارسية!(٢).

هكذا تحولت الهند من فضاء شهد ميلاد ثقافة (اللاعنف) إلى ساحة حرب طائفية بين الهندوس والمسلمين، وتمت المبالغة في الوزن الديموغرافي والجغرافي للمسلمين حتى بَدَوا

---

(١) المسلمون في الهند قوة لتعزيز علاقات التعاون مع العالم العربي والإسلامي، صحيفة الاقتصادية ص٢٢.

(٢) حسين فوزي «سندباد عصري يعود للهند»، دار المعارف القاهرة إصدار عام ١٩٧٨ ص ١٢٠.

وكأنهم يهددون ثاني أكبر دول العالم سكاناً. ووجد المسلمون أنفسهم تحت رحمة التيارين السياسيين الرئيسيين في البلاد: العلماني والقومي.

يقدر عدد سكان الهند من المسلمين بأكثر من ١٥٠ مليون نسمة، أي ما يساوي ١٤٪ من إجمالي تعداد السكان.

أما المجموعات العرقية:

* **الهنود الآريون** ويشكلون أكبر عرقيات الهند حيث يبلغ عددهم نحو ٧٤١ مليون نسمة بما يمثل ٧٢٪ من مجموع الشعب الهندي، يليهم الدرافيديون ثاني أكبر مجموعة عرقية حيث يصل عددهم إلى ٢٥٧ مليوناً بما يمثل ٢٥٪ من سكان الهند ويسكن معظمهم جنوبي الهند. هذا بالإضافة إلى بعض العرقيات الأخرى صغيرة الحجم والتي لا تمثل مجتمعة أكثر من ٣٪ من سكان الهند وأهمها هم المنغوليون.

وفي أعقاب الغزو القادم من وسط آسيا بين القرن العاشر والقرن الثاني عشر أصبح جزء كبير من شمال الهند تحت حكم سلطنة دلهي، وفيما بعد من الإمبراطورية المغولية. في ظل سيادة أكبر تمتعت الهند بتقدم ثقافي واقتصادي وكذلك انسجام ديني، ثم قام أباطرة المغول تدريجياً بتوسيع امبراطورياتهم لتغطية أجزاء كبيرة من شبه القارة الهندية وكان من أهم حكَّام المغول في القارة الهندية الحاكم المسلم المغولي شاه جهان الذي ترك آثاراً عظيمة لا زالت خالدة حتى الآن تشهد على مدى تقدم البناء في عصره ومن أعظم الآثار هو تاج محل في أغرا الذي يزوره الملايين سنوياً.

ومنذ القرن السادس عشر أسست القوة الأوربية مثل البرتغال، وهولندا، وفرنسا، والمملكة المتحدة محطات تجارية واستغلت لاحقاً النزاعات الداخلية لتأسيس مستعمرات في البلاد، بحلول سنة ١٨٥٦ أصبحت معظم الهند تحت سيادة حكم شركة شرق الهند البريطانية، وبعد مرور عام حدث في جميع أنحاء البلاد عصيان مسلح من قبل متمردين من قوات حربية ومن الممالك، وعرف ذلك بأول حرب هندية للاستقلال أو بتمرُّد الجندي الهندي، مقدماً تحدياً خطيراً لحكم الشركة ولكنه فشل في النهاية، ونتيجة لعدم الاستقرار، أصبحت الهند تحت السيادة المباشرة للسلطة الملكية البريطانية.

الهندوسية: كثيراً ما تُوصَف الهند بأنها «بلد الأديان»، حيث تحتضن مزيجاً فريداً من كل الأديان السماوية وغيرها. ولابدَّ أن يلحظ الزائر لهذا البلد الشاسع أثر ذلك التنوع، والتعدد الديني على مظاهر الحياة، كما اتضح خلال هذه الجولة التي شملت دُور عبادة تابعة للهندوسية والبهائية والسيخ.

وعلى رائحة البخور وأصوات الأجراس، تبدأ الصلوات داخل هذا المعبد الهندوسي، يأتي ذلك ضمن طقوس أخرى تبدأ مع حلول الفجر وتشمل شرب اللبن والعسل بعد صبهما على رأس تمثال محاط بالورود.

تزداد التجربة إثارة إذا عرفنا أن غالبية من يؤمُّ هذا المعبد من أبناء الطبقة المتوسطة، فعدد الآلهة الهندوس بأعداد هائلة [(١)]، بعضها يعبدها الأغنياء وبعضها الفقراء!، لذا تأثر وضع الهندوسية بارتفاع مستوى معيشة عدد أكبر من السكان الذين يعتنق ثلاثة أرباعهم تلك الديانة.

☆ **والهندوسية أو (البرهمية):** ديانة وثنية يعتنقها معظم أهل الهند، وهي مجموعة من العقائد والعادات والتقاليد التي تشكَّلت عبر مسيرة طويلة من القرن الخامس عشر قبل الميلاد إلى وقتنا الحاضر. إنها ديانة تضمُّ القيم الروحية والخلقية إلى جانب المبادئ القانونية والتنظيمية متخذة عدة آلهة حسب الأعمال المتعلقة بها، فلكل منطقة إله، ومن ضمن تعاليم الهندوسية تقديس الأبقار وعدم جواز ذبحها أو أكل لحومها أو إنزال أي أذىً بها وهذا هو سرُّ تركها تجول في الشوارع وتُعطى لها الحرية الكاملة في تحركها ولا يضايقها أحد فيما لو التهمت شيئاً من الحوانيت.

تؤمن بعض الديانات الهندية بتناسخ الأرواح فعندما يموت المرء في اعتقادهم قد تنتقل روحه لإنسان آخر أو حيوان أو طير وربما ثعبان على سبيل المثال!

والهندوسية تنقسم إلى أربع طبقات تأتي طبقة البرهما في أعلى السلّم الاجتماعي وكتاب الهندوسية المقدس هو (الفيدا)، أما الأقليات الدينية في الهند فالمسلمون أكبر أقلية دينية بعد انفصال باكستان ومن ثم بنغلادش عن الهند بعد رحيل الاستعمار الإنجليزي في عام ١٩٤٨،

---

(١) مصطفى المنشاوي مراسل بي بي سي البريطانية نشر على موقع B.B.C.

ويزيد عدد المسلمين في الهند عن [١] ١٥٠ مليون مسلم أي أكثر من عشر السكان، ثم تأتي ديانة السيخ والمسحية والبارسية أي الزردشت الذين أتوا من بلاد فارس بعد أن دخلت الإسلام في السنوات الأولى لبزوغ فجر الاسلام هاجر بعض المجوس في بلاد فارس إلى الهند وهم يقدَّر عددهم اليوم بنحو ربع مليون مجوسي.

لا يوجد للديانة الهندوسية مؤسس معين، ولا يعرف لمعظم كتبها مؤلفون معينون، فقد تمّ تشكُّل الديانة و الكتب عبر مراحل طويلة من الزمن.

الآريُّون الغزاة الذين قدموا إلى الهند في القرن الخامس عشر قبل الميلاد هم المؤسسون الأوائل للديانة الهندوسية.

ديانة الفاتحين الجديدة لم تمحِ الديانة القديمة للهنود، بل مازجتها وتأثرت كلٌّ منهما بالأخرى.

في القرن الثامن قبل الميلاد تطورت الهندوسية على أيدي الكهنة البراهمة الذين يزعمون أن في طبائعهم عنصراً إلهيًّا ثم تطورت في القرن الثالث قبل الميلاد عن طريق قوانين مستحدثة تستطيع فهم الهندوسية من خلال كتبها، ونظرتها إلى الإله، ومعتقداتها وطبقاتها إلى جانب بعض القضايا الفكرية والعقائدية الأخرى.

منذ أن وصل الآريون إلى الهند شكَّلوا طبقات ما تزال قائمة إلى الآن يلتقي الجميع على الخضوع لهذا النظام الطبقي بدافع ديني.

ويجوز للرجل أن يتزوج من طبقة أعلى من طبقته ويجوز أن يتزوج من طبقة أدنى بشرط ألاّ تكون الزوجة من طبقة الشودر الرابعة، ولا يجوز للرجل من طبقة الشودر أن يتزوج من طبقة أعلى من طبقته بأي حال من الأحوال.

والبراهمة هم صفوة الخلق، وقد أُلحقوا بالآلهة، ولهم أن يأخذوا من أموال عبيدهم «شودر» ما يشاؤون.

ظهر مؤخراً بعض التحسن البسيط في أحوال المنبوذين خوفاً من استغلال أوضاعهم

(١) وفي إحصائيات أخرى ترى بأن عدد المسلمين في الهند يصل إلى ١٥٠ مليون نسمة.

ودخولهم في أديان أخرى لا سيما النصرانية التي تغزوهم أو الشيوعية التي تدعوهم من خلال فكرة صراع الطبقات، ولكن كثيراً من المنبوذين وجدوا العزة والمساواة في الإسلام فاعتنقوه، ومن معتقداتهم تناسخ الأرواح.

* السيخ: من الديانات الأخرى البارزة في الهند، و«السيخ» يتميزون بالثراء، فمعابدهم نظيفة وغنية بديكوراتها، وكل فرد من السيخ ينتهي اسمه بـ «سنغ»، ويجمعون الذهب فوق قباب المعابد، والسيخ لا يحلقون أي شعر في أجسامهم ورؤوسهم. ولكنهم يختلفون عن الهندوس في أنهم متعاونون، ولهم جمعيات تساعدهم على العمل والكسب ويعملون في التجارة والشركات ويستعملون الهندوس في خدمتهم![1].

ويدعون إلى الاعتقاد بخالق واحد، ويقولون بتحريم عبادة الأصنام، وينادون بالمساواة بين الناس.

ويؤكدون على وحدانية الخالق الحي الذي لا يموت، والذي ليس له شكل، ويتعدى أفهام البشر، كما يستعملون عدة أسماء للإله، وأفضلها عند ناناك «الخالق الحق».

ويمنعون تمثيل الإله في صور، ولا يقرون بعبادة الشمس والأنهار والأشجار التي يعبدها الهندوس، كما لا يهتمون بالتطهر والحج إلى نهر الغانج، وقد انفصلوا تدريجيًّا عن المجتمع الهندوسي حتى صارت لهم شخصية دينية متميزة.

معلمو السيخ ينكرون المعجزات والقصص والخرافات ذات الأساطير، إلا أنه على الرغم من ذلك فقد خلَّد السيخ معابد لهم مبنية على قصص تتحدث عن معجزات وقعت.

ويؤمنون بولادة الإنسان وموته ثم إعادة ولادته (كارما) بحيث تتقرر حياة الإنسان المستقبلية على ضوء حياته السابقة، ويتوقف خلاصه على هذه المرحلة.

ويقدسون العدد خمسة الذي له معنى صوفي في أرض البنجاب؛ أي الأنهار الخمسة.

وأما الخلافات الدينية فيحلُّها مجلس ديني يعقد في (أمبرتيسار) وقرارات هذا المجلس لها قوة روحية[2].

---

(١) والسيخ متفوقون اقتصادياً داخل الهند وخارجها رأيت هنوداً من السيخ في دبي وبلدان الخليج وبريطانيا وأمريكا لهم محلات تجارية ولديهم عقارات أينما حلُّوا!

(٢) «أديان العالم الحية»، مرجع سبق ذكره.

وليس لدى السّيخ طبقة دونية مشابهة للبراهمة الهندوس، إذ إنهم ـ عموماً ـ يرفضون مبدأ الطبقات الهندوسي كما يعارضون احتكار طبقة البراهمة للتعاليم الدينية.

ويقسمون أنفسهم على أساس عرقي.. منهم الجات (قبائل زراعية) وغير الجات، وهم المنبوذون، لكن وضعهم أفضل بكثير من وضع المنبوذين لدى الهندوس يتزوجون من زوجة واحدة فقط.

وأعياد السيخ هي نفس أعياد هندوس الشمال في الهند بالإضافة إلى عيد مولد أول وآخر غورو وعيد ذكرى استشهاد الغورو الخامس والتاسع.

ليس الدخول إلى المعبد التابع لديانة السيخ في دلهي أمراً سهلاً، حيث يتطلب منك أن تخلع أشياء وترتدي أخرى.

أما داخل المعبد فيمكنك أن تستمع إلى الموسيقى وتتناول طعاماً شهياً بدون مقابل.

السيخ ديانة يعتنقها عشرون مليون شخص في الهند، وهي من الديانات التي انتشرت في الهند وتدعو إلى المزج بين الديانة الهندوسية والإسلام.

ولهذا فهي تشبه الإسلام في بعض معتقداتها كعدم تحريم أكل اللحم وكذلك الاعتقاد بأن الروح تعود إلى باريها وبأن هناك اليوم الآخرة التي تُعاد فيها الروح.

وعموماً فإن السيخ جماعة دينية من الهنود الذين ظهروا في نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر الميلاديين داعين إلى دين جديد زعموا أن فيه شيئاً من الديانتين الإسلامية والهندوسية تحت شعار «لا هندوس ولا مسلمين». وقد عاد المسلمون خلال تاريخهم، وبشكل عنيف، كما عاد الهندوس بهدف الحصول على وطن خاص بهم، وذلك مع الاحتفاظ بالولاء الشديد للبريطانيين خلال فترة استعمار الهند. وكلمة سيخ كلمة سنسكريتية تعني المريد أو التابع.

* **البهائية**: هي إحدى الديانات التوحيدية، أسسها حسين علي النوري المعروف باسم بهاء الله في إيران في القرن التاسع عشر. ومن مبادئ البهائية التأكيد على الوحدة الروحية بين البشر. واليوم يوجد حوالي خمسة إلى سبعة ملايين معتنق للبهائية، يتوزعون في معظم دول العالم بنسب متفاوتة.

في زيارتي الأولى للهند زرت المعبد البهائي في دلهي وهو معبد ضخم حديث البناء وهو عبارة عن قبه على شكل زهرة وفيها قاعة أساسية كبيرة ومكتوب في السقف بالخط العربي الفارسي (البهاء حبيب الله).

يزور هذا المعبد البهائي في دلهي حوالي عشرة آلاف شخص يومياً كما يقول القائمون عليه. الزوار ينتمون إلى ديانات مختلفة ويمكنهم الصلاة وفق معتقداتهم داخل المعبد. وداخل المعبد، يتم إنشاد «أدعية بهائية» بلغات مختلفة من بينها العربية وسط صمت تام من الزوار.

الغناء والرقص الهندي:

بطبيعة الحال تختلف أساليب الرقص والغناء في الهند بتعدد الثقافات والأقاليم وقد بدأ الرقص في الهند في المعابد وكذلك الغناء، وبعض الراقصات وهبن أنفسهم للمعابد ثم خرج الرقص إلى الحياة العامة ليؤدَّى في المناسبات والأعراس والحفلات ويعتبر الرقص الهندي بأنه رقص تعبيري في الدرجة الأولى إذ يتم وفق قواعد تجعله لغة تعبيرية صامتة ومنفردة أو مرافقاً للغناء ومنسجماً معه وموضحاً لمضمونه ومراميه. ليأتي الرقص معبراً عن الفكرة المستهدفة منه وهذا يتطلب من الراقص أن يستخدم عند أدائه حركات الأيدي والأرجل والجسم والرأس والرقبة والعيون والجفون والحواجب وقسمات الوجه كاملة! وفق تناسق رائع وسريع وبخفَّة ملحوظة سواء كان ذلك عند الرجال والنساء إلّا أنه بأداء النساء أكثر انتشار ودقة.

وقد نظمت لنا (الوفود المشاركة في المؤتمر) حفلة رائعة ومتنوعة شكلت كوكتيلاً من الأغاني والرقصات الهندية منها أغاني جماعية ومنفردة، ففي الأغاني الجماعية يصطفُّ الرجال صفاً واحداً بينما النسوة في الجهة المقابلة ثم يغنون بالتناوب الرجال ثم النساء وكأنهم يروون قصة، ونحن بالطبع لم نكن نفهم لغتهم ولكنها في كل الأحوال تبدو معبرة، وينعكس ذلك في إعجاب وتقدير الحضور وهم هنود وأجانب بالطبع.

وتعتبر الموسيقى الهندية لغة الوجدان والعواطف إذ تدغدغ الأحاسيس وتشيع جواً من السرور والنشوة ولا سيما عندما تكون معبرة عن الفرح بينما هناك أغانٍ تعكس الحزن والبؤس ولكنها تأتي في إيقاع واندفاع سريعين أو في انسياب هادئ ورقيق. وتأملت الآلات الموسيقية وأعتقد أن للهنود آلات موسيقية خاصة بهم منها الآلات الوترية أو الطبل إلى جنب آلات ضبط الإيقاع..

والغناء الهندي يكاد يكون فريداً من نوعه ونسيجاً وحيداً ينقل بالأحاسيس إلى عالم آخر حتى لو كان السامع لايفهم اللغة إذ يتجلى في نبرات صوت المغني أو المغنية توافق عجيب مع طبيعة الفكرة التي يتضمنها الكلام فهي تارة تسترحم وتارة تغضب وأخرى تنفر وتارة توحي بعزة النفس وبالإباء . . . إلخ .

ومما يزيد في الغناء الهندي تأثيراً في النفس والمشاعر حرص المغني أو المغنية أثناء أداء الغناء على إقامة توأمة دقيقة بين الغناء والمضمون من جهة وبين حركة الجسم وبقية الأعضاء من جهة أخرى ولاسيما الرأس والرقبة والعيون والحواجب وكل قسمات الوجه .

الثقافة في الهند:

يعتقد كتّابٌ عرب بأن التأثير الثقافي المتبادل بين العرب وبلاد السند والهند قد بدأت جذوره منذ عهد ابن المقفع الذي ترجم كتاب (بيدبا) الفيلسوف كليلة ودمنة، وفي العصر الحديث تُرجمت أعمال لشعراء وأدباء هنود مثل شاعر الهند العظيم (رابندرانت طاغور) كما ترجمت أعمال كثيرة للغات الغربية والشرقية أهمها الإنكليزية بحكم تأثر الهنود بالثقافة الإنجليزية منذ وقبل وبعد احتلال الهند . . .

ومن المعلوم أن الهند ثالث دولة في العالم تطبع كتباً باللغة الإنجليزية [١] بعد أمريكا وبريطانيا ،وفي السياق نفسه أصبحت الهند واحدة من أكبر مراكز المجلات في العالم، حيث تصدر بها نحو ٧٧ ألف إصدار من ضمنها مجلات مكتوبة بعدة لغات مما يشير إلى ما يشهده قطاع المجلات من ازدهار، خاصة في المجلات الأجنبية . ومن المتوقع أن يستمر هذا التوجه، على عكس التراجع العالمي الكبير في الصحافة الورقية، فقد منحت الجهات الإعلامية المختصة في الهند تصريحًا بالعمل لـ (٢٦٠) مجلة متخصصة أجنبية . وتنظر وزارة الإعلام في الطلبات المقدمة من ١٢ مجلة أخرى تسعى للعمل في الهند . فضلاً عن ذلك، غزت ١٢٨ مجلة

(١) وقد ساعد ذلك الانتشار بأن الهند اتجهت لطباعة نسخ تجارية وشعبية من عناوين ونتاج هندي وعالمي فمثلاً الموسوعة البريطانية الشهيرة يتم طباعتها وتخرج بنسخ هندية شعبية ولها سوق داخل الهند وخارجها خاصة من الدول الفقيرة. وقس على ذلك كتباً أخرى في مجالات عديدة منها الثقافة واللغة الإنجليزية نفسها كلغة... إلخ.

هندية الهند في أقل من عشر سنوات من خلال الاستثمار الأجنبي المباشر. وقال أحد المسؤولين في الإعلام الهندي: إن عدد المجلات الأجنبية أو مجلات الاستثمار الأجنبي المباشر سوف يتجاوز الأربعمئة في غضون ثمانية أعوام فقط. واستضافت الهند لأول مرة مؤخرًا مؤتمر المجلات الدولي الذي يعرض خلاله ٧٠٠ وفد من ٤٨ دولة آراءهم وتوقعاتهم من سوق المجلات الهندية [١].

صناعة السينما في الهند:

من يَزُر الهند يلاحظ اهتمام المواطن الهندي البسيط بالسينما ونجومها فشوارع المدن الهندية تمتلئ بإعلانات الأفلام وصور أبطالها التي تدرُّ على منتجيها مبالغ هائلة بالنظر لكثافة السكان والمعجبين ومشاهدي الأفلام خارج الهند. .تحتل السينما الهندية مكان الصدارة على الصعيد العالمي إنتاجاً ومشاهدة قصصها تُخرج المشاهد من عالمه الضيِّق إلى رحاب عالم جذَّاب مليء بالرقص والموسيقى. المشاهد العربي يعرفها لقرب العادات والتقاليد الشرقية ولها رواج داخل الهند ذاتها ودول آسيا الوسطى وحتى المشاهد الغربي الذي بدأ يتذوق كل ماهو شرقي!.

وتتباهى الهند بإنتاج ما يقرب من ربع إنتاج العالم من الأفلام بلغات متعددة بما يزيد على الألف فلم سنوياً، واحتفلت في مطلع العام الجاري وعواصم الفن[٢] في العالم بمرور مئة عام على صناعة السينما في الهند؛ إذ عرض أول فلم في العام ١٩١٣ وكانت البداية من الأفلام الصامتة وفي مطلع الثلاثينيات من القرن الماضي تطورت السينما وبدأت تعرض أفلاماً كاملة (أبيض وأسود)، وفي الستينيات استمر تطور السينما الهندية حيث بدأ عرض الأفلام الملونة وتعتبر الستينيات والسبعينيات العصر الذهبي للسينما الهندية. !

(١) دراسة في صحيفة الشرق الأوسط العدد ١٢٠٣٥ الصادر في العاشر من نوفمبر٢٠١١.

(٢) لصناعة السينما في العالم عاصمتان هوليود الأميركية وبومباي الهندية، والتي يسميها أبناء المهنة (بوليوود) وبومباي (هوليود). ولا مبالغة إطلاقاً في هذه التسمية لأن بومباي لا توازي هوليود في الإنتاج السينمائي فقط بل تتفوق عليها بمعدلات عالية، إذ يعتاش حوالي عشرة ملايين هندي إضافة إلى الآلاف من كبار نجوم التمثيل والإخراج من صناعة السينما، حيث للنجومية مقاييس خاصة في الهند، أكبر بكثير مما في الولايات المتحدة أو أوروبا وإن كانت أقل منهما بمقياس الشهرة العالمية.

تتشارك معظم أغاني الأفلام الهندية في تلك الفترة بالمبالغة الواضحة في التعبير عن المشاعر، الأحاسيس، والعواطف، حيث نجد البطل المغرم على استعدادٍ بأن يفعل المستحيلات من أجل إرضاء حبيبته، أو كسب ودّها.

والسينما الهندية ترضي جميع الأذواق بما تقدمه من رومانسية واستعراضات غنائية وحركات مثيرة في عالم الجريمة و (الأكشن) إلى الدراما الاجتماعية القوية والقصص الوردية المبهجة والتي تسعد ملايين المسحوقين وتجعلهم يسبحون في عالم الخيال ومنهم ملايين المغتربين الهنود حول العالم الذين تشدُّهم تلك الأنواع من الأفلام التي تبعث فيهم الشوق والحنين للوطن بتلك النوعية من الأفلام![١].

وظل التباين الطبقي يحدد العلاقة بين الناس من فئات مختلفة، وهو محور الحياة في الهند. فطبقة البهراما العليا قد لاتكون لها علاقة مباشرة بالسينما إلا من خلال المشاهدة وفي دورهم بإمكانيات تختلف بتطور الزمن منذ أكثر من نصف قرن، بينما الطبقة الثانية كانت الأقل ثراء وترفًا[٢]...

أما الطبقة الثالثة في الترتيب فقد حاول بعض المثقفين والمهنيين أن يخرجوا عن إطار السينما التقليدية الترفيهية الهندية بإنتاج أفلام جادة لم تلاقِ مثل الإقبال الذي لاقته الأفلام الأولى ذات الصبغة التجارية التي اشتهرت بالمزج بين الحب والعنف وشحذ عواطف البؤساء.. إلخ.

(١) وأنتجت الهند مؤخراً أفلاماً تاريخية لقيت جدلاً لدى الأوساط الثقافية في الهند وخارجة ليس من حيث المبالغة في تكاليف الإنتاج ولكن من حيث المضمون فلم يعجب الهندوس أو المسلمين على السواء فمن خلال فلم جلال الدين أكبر والذي يعد أعظم أباطرة المغول في القارة الهندية تعرف حياة ذلك الامبراطور الذي اعتلى العرش وهو صبي في الثالثة عشرة من عمره وأراد الزواج من أميرة هندوسية رغم أنه بدأ زواجاً سياسياً إلا أنه انتهى لقصة حب في القرن السادس عشر الميلادي حيث استطاع كل من جلال أكبر وزوجته الهندوسية أن يتخطى الحواجز النفسية والثقافية.

(٢) والتي خرج منها من شاركوا في صناعة السينما فنياً وتمثيلاً مثل عائلة (كابور التي خرج منها عدد وأجيال من الممثلين المشهورين لعل أشهرهم راج كابور والذي كان بطل فلم سنجام وحول العالم وعشرات الأفلام الأخرى التي نالت شهرة كبيرة.

وتشكل الطبقات الدنيا وغالبيتهم من الشودر والهاريجان الطبقة العريضة الواسعة الفقيرة التي تشكل غالبية جمهور السينما الهندية ويضحي الناس بقوت يومهم لأجل حضور فلم سينمائي يخرجهم من واقعهم التعيس إلى عالم الحلم! وهي أفلام الخمسينيات والستينيات (العصر الذهبي لهذا النوع من الأفلام) ومواضيعها بعيدة نسبياً عن الاهتمام بمشاكل الناس وهمومهم. فهي على العكس تكرِّس الغيبيات والخرافات والاستسلام للواقع والقدرية في الحياة، وكُتَّاب أفلامها نشطون في هذا الاتجاه يكتبون قصصاً مؤثرة عاطفياً تثير الدموع والأشجان للمشاهد.. دون أي مضمون جادٍّ.. وفيها الأغاني والاستعراضات الراقصة والعنف الذي ينتهي دوماً بانتصار البطل![(١)].

وهكذا ظل جمهور السينما الهندية داخل الهند أو خارجها من بلدان العالم الثالث مغرماً بهذا النوع من الأفلام؛ لأن همومهم وثقافتهم متشابهة..ولاسيما داخل الهند بنوعية تلك الأفلام التي يطرحها المنتجون في السوق ولم يتمكن حتى الآن من فرز الأفلام الجادة والاهتمام بها... الفقير الهندي يلجأ إلى دار السينما لحضور فيلم يرفِّه عنه بأغانيه وأحداثه المثيرة ولايشده فلم جادٌّ يتحدث عن همومه ومعاناته... سائق الركشا بدخله اليومي القليل المتواضع يفضل حضور فيلم للمرة العاشرة من أفلام العنف والإثارة على أن يحضر فلماً جاداً يعرض لأول مرة!

ويُقدر المشاهدون بحدود خمسة ملايين يومياً. انتشرت السينما الهندية في الآونة الأخيرة وأصبح لديها شريحة عريضة من المتابعين لأفلامها في مختلف بلدان العالم ومن بينها ألمانيا، ويهوى الجمهور الأفلام الرومانسية ويعجب بالاستعراضات الشيِّقة والملابس الجميلة التي

(١) الملفت للانتباه في صناعة السينما الهندية أن عددا كًبيراً من كبار نجومها ونجماتها يتقاضون رواتب سنوية خيالية من استديوهات بومباي سواء صوروا أفلاماً أم لم يصوروا، يصل إعجاب جمهور السينما الهندية بنجومه المحبوبين إلى درجة التقديس، وهذا ما يفرض على نجوم السينما الهندية أن يعيشوا نمط حياة محدد، سواء على الشاشة أم في حياتهم الفعلية، يراعون فيه المقاييس المفروضة عليهم من الجمهور. ولهذه الأسباب حرص نجوم ونجمات الشاشة الهندية على تجنب أي عمل يمس القيم والأخلاق الشعبية الهندية خشية أن يخسروا شعبيتهم، وعلى النجم أن يكون في حياته الفعلية متواضعاً بعيداً عن مظاهر البذخ شعبياً يتجول في شوارع المدينة كالعامة وسخياً معطاء للفقراء المعوزين.

يرتديها الممثلون، حتى أن بعض عشاقها يقيمون حفلات خاصة يرتدون فيها ملابس هندية ويستمعون إلى موسيقى هندية [١].

ومن بين إحدى الظواهر الفريدة من نوعها والتي لا مثيل لها حتى في السينما الأميركية أو الأوروبية أو غيرها، فإن أسماء كبار النجوم والنجمات لا تظهر على الملصقات الدعائية لأفلامهم حيث يكفي ظهور صورهم على ملصق الفيلم لكي يتهافت إليه ملايين المشاهدين.

تحظى الأفلام الهندية باهتمام درجة من قبل المشاهدين في جميع أنحاء العالم، حيث نالت هذه الأفلام إعجاب الدول الغربية مثل أمريكا وكندا، إضافة إلى البلدان الأوروبية وعلى رأسها بريطانيا وألمانيا وكذلك الدول الآسيوية والعالم العربي أيضاً، ويدمن الكثير من المشاهدين في العالم العربي على مشاهدة هذه الأفلام، حيث تخلق هذه المشاهدة جواً من المتعة والإثارة بين أفراد الأسرة وخاصة في أوساط المراهقين الذين يتقمَّصون شخصياتها الرئيسية في البيت والشارع ويظهر ذلك جلياً أمام صالات السينما العربية التي تسيطر الأفلام الهندية على معظم عروضها، خصوصاً وأن الأسرة العربية المحافظة تشارك الأسرة الهندية في معظم عاداتها وتقاليدها الاجتماعية وأساليب عيشها ومشكلاتها وتطلعاتها.

يرجع السبب في انتشار الأفلام الهندية الواسع واستقطابها لجمهور عريض لكونها تقدِّم قصصاً مسلية رائعة وشيِّقة تجعل المشاهد يسبح في عالم الخيال[٢] ويحلم مع أبطال الأفلام بحياة أفضل. . معظم الأفلام الهندية ميلودرامية، وموسيقية، وغنائية. وتستهدف قصص العنف والمطاردات إضافة المزيد من عناصر التشويق كقصص المغامرات العاطفية والأساطير بما في ذلك من الثأر والانتقام والخيانة والتمرد والخطف إضافة إلى عمليات الاختلاس والتزوير وترويج المخدرات وتهريب الأسلحة. وعلى العموم تبقى قصص الأفلام الهندية جِدَّ متشابهةً لا تتغير فيها سوى الوجوه والأسماء وبعض التفاصيل المشهدية. فهناك دائماً شَابّة فقيرةٌ مغرمةٌ بشابٍ غني أو العكس.!، والحبيبان دائماً على قدر كبير من الوسامة والجمال والموهبة في

(١) موقع قناة ألمانيا العربية DW التلفزيونية.

(٢) تتشارك معظم أغاني الأفلام الهندية في تلك الفترة بالمبالغة الواضحة في التعبير عن المشاعر، الأحاسيس، والعواطف، حيث نجد البطل المُغرم على استعدادٍ بأن يفعل المُستحيلات من أجل إرضاء حبيبته، أو كسب ودّها.

الغناء والرقص، ونهاية القصص عادة ما تكون محزنة ومفجعة، إلا أن هذه النهايات الحزينة لا تقلل من نجاح هذه الأفلام بل تزيد الفيلم متعة وتشويقاً وتعطي لأفلام بوليود طابعاً خاصاً ومتميزاً[(١)]. وقد اشتهرت عبارة مصرية تقول: (الجمهور عايز كده)!

وإجمالاً فقد قيل عن السينما الهندية: إنها عبارة عن سينما مترفة وجمهور بائس!

تقاليد الزواج في الهند:

وأذكر أثناء زيارتي الأولى للهند أنني ذهبت مع سفيرنا في دلهي وبعض أعضاء السفارة إلى فندق فخم من فنادق الخمسة نجوم، وذلك لتناول العشاء وبالمصادفة أُتيحت لنا مشاهدة عرس هندي وكان كبيراً فيبدو أنه لابن شخص غني أو مسؤول حيث شاهدنا عن قرب تفاصيل ذلك العرس عندما أتى العريس يمتطي حصاناً ويرتدي زيَّ العريس فبدا وكأنه أمير من عصور المغول الغابرة!

عملية الزواج عند السيخ مثلاً تقوم على تفاهم عائلتي الشاب والفتاة، وقلَّما يخرج شاب عن هذه القاعدة وإلا تعرض لغضب الآلهة، وكبار السن يتمسكون أكثر بهذه التقاليد، ولكن ليس هناك أهمية للفوارق الطبقية.

والزواج عند الهندوس يتمُّ وفق قوانين لا يمكن الخروج عنها تمنع تداخل الطبقات التي حددتها الآلهة، فقد يتزوج رجل من طبقة عليا فتاةً من طبقة أقل، ولكن لا يحدث العكس فالقانون يسمح للطبقات العليا أن تفعل ما تشاء، ولكن الطبقات الدنيا مقيدة، وتنتشر عادة خطبة الولد للبنت منذ الميلاد أو الطفولة.

---

(١) لصناعة السينما في العالم عاصمتان هوليود الأميركية وبومباي الهندية، والتي يسميها أبناء المهنة (بوليوود) وبومباي (هوليوود). ولا مبالغة إطلاقاً في هذه التسمية لأن بومباي لا توازي هوليود في الإنتاج السينمائي فقط بل تتفوق عليها بمعدلات عالية، إذ يعتاش حوالي عشرة ملايين هندي إضافة إلى الآلاف من كبار نجوم التمثيل والإخراج من صناعة السينما، حيث للنجومية مقاييس خاصة في الهند، أكبر بكثير مما في الولايات المتحدة أو أوروبا وإن كانت أقل منهما بمقياس الشهرة العالمية.

وشهدت حفلات الزفاف الهندية تغيّرات كبيرة على مرِّ العصور، وتحوّلت من مناسبة تجمع العائلة والمجتمع لبضعة أسابيع، إلى احتفال ضخم يجمع أصدقاء العائلة في جوّ رومانسي لقضاء وقت ممتع[١].

في الهند، تُعدُّ هذه الحفلات المناسبات الأكثر بهجة، ويُصار إلى الاحتفال بها باستمتاع وحماسة شديدين. كما تُعدُّ العاصمة الهندية دلهي أيضاً «عاصمة الأعراس» في البلاد، نظراً لاتساعها وثرائها. والعرس عند الهندوس يكون ضخمًا حيث يُقام حفل فخم تُبثُّ فيه الأغاني الهندية المسجلة للمطربين، والمدعوات من الأقارب والمعارف يضعن الأساور والعقود ويطبقن أيديهن بالحناء المخصصة لذلك، ويرتدين الساري الحريري. والعروس تكون بالداخل تجهزها أمها وأخواتها قبل وصول العريس، وبعد الاستحمام تُطلى اليدان والقدمان بالحناء، وتبدأ والدتها بوضع الماكياج وإلباسها الساري، ثم تضع الأقراط في الأنف والأذن والخلاخيل في الرِجلين.

في حين يحضر العريس على حصان مزيّن يرتدي عمامة خاصة في مقدمتها ريش طاووس وزمردة وعِقْد حول رقبته وأمامه طفل صغير كرمز لاستمرار النسل، وفي مقدمة الموكب فرقة موسيقية، وأمام حصان العريس حلقة رقص تضمُّ بعض أقربائه وأصحابه ويقترب العريس ببطء، فينزل على منصدة مخصصة له، فتضع أم العروس الحناء على جبهته، ثم تأتي بقية النساء كذلك ويقدم له أهل العروس «جوزة هند» كدليل على عذرية العروس، وكذلك رزمة مال وهدايا أخرى صغيرة، وتقترب العروس حانية الرأس كدليل على الطاعة، ثم تقدم له إكليلاً من الزهور، وهو يقدم لها إكليلاً آخر، ويتمُّ ربط طرف الساري بعمامة العريس ويدور وهي خلفه حول نار في وسط المصطبة، ويوجد كاهن يتمتم ويقرأ ويرش الماء المقدس عليهما، وبعد تناول الأطعمة المعدَّة للضيوف يتمُّ شرب القهوة مع مشاهدة عرض كوميدي بين رجلين يتنافسان في الرقص الطريف، ثم يرحل العريس مع عروسه في اليوم التالي.

يبدو أنه وبعد أكثر من ستة عقود في الهند على استقلال الهند قد تحسَّن وضع المرأة الهندية فكانت في القرون الماضية تُحرق حيةً بعد موت زوجها وقد منع الاستعمار البريطاني هذه التقاليد وخلال العقود الماضية يمكن القول بأن وضع المرأة قد تحسَّن نسبياً رغم التقاليد

(١) صحيفة الشرق الأوسط عدد رقم ١٠٩٥٣ الأحد ٢٣ نوفمبر من العام ٢٠٠٨.

المقيدة لانطلاق المرأة ومساواتها بالرجل فالهندي حتى الرجل يعاني من النظام الطائفي على النحو الذي ذكرنا بوجود طائفة المنبوذين ووأد البنات بعد ولادتهن . . . إلخ .

لقد شاهدت بأم عيني في دلهي نسوة يعملن في مجال البناء ولم أرَ ذلك أو أسمع عن ذلك في أي بلد آخر في العالم ورغم ذلك تجد المرأة الهندية في كل مجالات العمل الزراعة والإدارة والتجارة والفن وغير ذلك .

ومن تقاليد الهند حرق الجثة فعند وفاة شخص يتم وضع جثته وسط كومة من الحطب وإشعال النار فيها ، فتحترق الجثة ، وهذا يعتبر تكريماً للميت عندهم! ولإثبات ولاء الزوجة (الأرملة) يتمُّ حرقها معه ، إلا أن عادة حرق الزوجة قد تلاشت إلّا ماندر ، أما حرق الميت فهو من أساسيات الديانة الهندوسية[(١)] .

زي المرأة الهندية:

وعند تجوالك في شوارع المدن الهندية تلاحظ تنوع الأزياء في هذا البلد الفسيفسائي وتعددها بتعدد الأقاليم والطوائف والأديان ، ولعل أبرز ملامح الزّي الهندي للمرأة مثلاً هو الساري وهو عبارة عن قطعة قماش حريرية أو قطنية ذات ألوان زاهية وقد تكون مطرزة أو موشّاة بخيوط الفضة أو الذهب تكون أحياناً بطول خمسة إلى عشرة أمتار حسب طبيعة القماش ، حيث تقوم المرأة بثنيها بشكل فني ثم تلفها حول جسمها من رقبتها وحتى أخمص قدميها تاركة رأسها ورقبتها مكشوفين ، أما المسلمة فتلفُّ رأسها أيضاً بجزء منه .

أما اللباس الآخر فهو ذوقطعتين ، سروال مع قميص كبير قد يكون بلون واحد كالأبيض ، أو بلونين ، ويسميه بعضهم البنجابي وهو عملي أكثر بينما الساري للمناسبات تقريباً . أما الرجال في الهند فيرتدون سروالاً ضيقاً من القطن أو الحرير وقد يكون في الغالب أبيض اللون ، وقميصاً قطنياً أو من الحرير ، ويكون أبيض أيضا وقد يكون ملوناً ، وهناك أناس يلبسون قبعة سوداء (طربوش أسود) ويحاكيهم في ذلك الباكستانيون والأفغان والإيرانيون والعراقيون في (العصر الملكي) ، ويكون لونه أسود بينما طائفة السيخ يلبس رجالها العمامة الكبيرة ويطلقون اللّحى الكثيفة .

(١) وقد ذكر ابن بطوطة ضمن كتابه الشهير ورحلته للهند وقد تقلصت تلك العادة لدرجة كبيرة في عهد الإنجليز كما إن الحكومات المتعاقبة منذ أيام جواهر لال نهرو وإلى الآن تجرم ذلك قانوناً ورغم ذلك لازالت هناك حالات استثنائية في حرق المرأة الأرملة.

زيارة للملايو (ماليزيا):

لم تُعرف ماليزيا لدى السيَّاح العرب بالصورة التي هي عليها اليوم إلا منذ عقدين أو ثلاثة عقود، وقد زادت شهرتها في السنوات الأخيرة بفضل تحوُّل كثير من السيَّاح العرب إليها والعزوف عن بعض الدول الغربية إما بسبب الغلاء أو النظرة العنصرية المتنامية بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر في أمريكا، هذا فضلاً عن وجود مقومات السياحة في هذا البلد الجميل الدافئ في مناخه وأهله المسالمين البسطاء وزِدْ على ذلك الروابط الدينية والتأريخية.

وقد شهدت السنوات الماضية تدفق آلاف من الطلبة العرب لاسيما من دول المشرق العربي وليبيا وإيران، ويوجد في ماليزيا نحو ثلاثة آلاف طالب يمني وكثير منهم من أبناء المغتربين في دول الخليج وبالطبع فهم مبعوثون على حساب ذويهم، وهم موزعون على عدة ولايات ماليزية، وفي هذا السياق فقد استقطبت ماليزيا عقولاً وكوادر في مجالات علمية، منها عربية ولاسيما من العراق.

وشهدت ماليزيا نهضة علمية متنامية خلال العقود الثلاثة الماضية وتطورت صناعاتها ولاسيما في المجالات الكهربائية والالكترونية والأثاث فضلاً عن الصناعات الثقيلة كالسيارات والطائرات ونحو ذلك. وشهدت المدن الماليزية ـ ومنها العاصمة ـ توسعاً ملحوظاً في العقود الأخيرة التي أعقبت الاستقلال فشيدت المباني الشاهقة والأسواق العملاقة وفتحت الطرقات الواسعة المزينة بالأشجار. وعرفت شوارع ماليزيا بالتنظيم والنظافة المفرطة كما هو الحال في جارتها سنغافورة. كما تضاعفت صادراتها النفطية والصناعية والزراعية ولاسيما زيت النخيل حيث تعتبر الأولى في تصدير هذه المادة عالمياً.

تعتبر السياحة من أهم دعائم الاقتصاد الماليزي، وقد صادف وجودي في ماليزيا والبلد يتهيأ للاحتفال الكبير بمناسبة الذكرى الخمسين لاستقلال ماليزيا (١٩٥٧) [١]، حيث شاهدت

(١) نظام الحكم في ماليزيا ملكي دستوري ورئيس الدولة يلقب بالملك يتم انتخابه لمدة خمس سنوات من بين سلاطين تسع ولايات من الولايات من أصل ثلاث عشرة ولاية التي تتكون منها ماليزيا الفدرالية ومنصب الملك أو السلطان فخري أما نظام الحكم فمبني على الديمقراطية فالحزب الذي يشكل الأغلبية في الانتخابات البرلمانية هو من يشكل الحكومة ولمدة خمس سنوات أيضاً.

عدداً هائلاً من الدعايات والملصقات التي تروِّج للسياحة في ماليزيا بل إنّ نشاط دعايات المؤسسات السياحة هناك قد وصل للقنوات الفضائية السياحية المتخصصة العربية والعالمية وطالما تكررت عبارة (شاركنا الاحتفال بالذكرى الخمسينية لاستقلال ماليزيا . . . آسيا الحقيقية). وكذا شعار عشرين عشرين؛ أي سنة (٢٠٢٠) الذي يتوقع الماليزيون لبلدهم في هذا التأريخ أن تكون في مصافّ الدول الأكثر رقياً.

وللوهلة الأولى يلاحظ الزائر مدى نظافة شوارع العاصمة كوالالمبور وكثرة المساحات الخضراء وشوارعها المعبَّدة وأرصفتها المبلطة وعماراتها الباسقة والبعض منها على شكل أبراج عملاقة ولكنها لاتضاهي أطول برجين توأمين في العالم وهما برجا: (بوبرناس) في قلب العاصمة الماليزية[(١)].

ويوجد شارع يسمى شارع العرب ومرتادوه من السيَّاح والجالية العربية في كوالالمبور وتوجد فيه مطاعم عربية كثيرة سواء العراقية أو اللبنانية واليمنية وغيرها، فهناك مطاعم للمِندي والمضّبي والمشويات والحلويات والسلطات الشامية مثل التبولة وغيرها، وهي أماكن تجذب وتغري السائح العربي ومن المعلوم أن المأكولات الماليزية ترتبط بالثقافة الصينية في الشكل والمضمون، فالمأكولات الصينية معروف بأنها في الغالب من الأحياء المائية كالأسماك والجمبري ونحو ذلك وتُطبخ بطريقة صينية، والدجاج مثلاً بدلاً من البهارات يوضع عليه العسل أو الحلويات! كما أن السلطة تخلط بالحلويات وهكذا، ورغم أن الطعام في الصين وفي شرق آسيا عموماً صحي ويخلو من الزيوت والبهارات (عكس المأكولات الهندية) إلا أنه مفيد صحياً لذا ترى الآسيويين أصحاء ويعمرون طويلاً وتكاد تلك البلدان تخلو من بعض الأمراض، وإجمالاً فأصناف المائدة الماليزية غير مرغوب فيها عند الزائرين من بلدان الشرق الأوسط الذين اعتادوا على أكلات معيّنة في بلدانهم.

وعندما تصل مطار كوالالمبور ترى لوحة مكتوب عليها بالحروف اللاتينية عبارة (سلامات) وتعني مرحباً كما أن هذِه الكلمة تدخُل في تحية المساء والصباح فمثلاً كلمه (سلاماتْ باغيْ) تعني صباح الخير، بينما تعني كلمة (سلامات بَتْنغْ) مساء الخير!

(١) كان ذلك قبل بضع سنوات واليوم هناك أبراج منافسة شاهقة مثل برج خليفة في دبي وبرجين تحت البناء قد يكونا الأطول في جدَّة والصين حسب ما تطلعنا به الأخبار.

فهناك بالمناسبة العشرات وربما المئات من مفردات لغة الملايو في ماليزيا وأندنوسيا من أصل عربي وأذكر منها على سبيل المثال لا الحصر (هدية، خدمة، أفهم، المقصود، أنت، بندر) وتعني بندر مدينة على البحر وهي أيضاً جذورها فارسية وكذا كلمت أخرى مثل (صبر، دفتر، مسألة؛ وتعني مشكلة)وكذلك أغلب الكلمات التي تتعلق بالديانة الإسلامية.

ركبنا القطار من صالة الوصول في المطار رأساً إلى منطقة (بترجايا) وهي المدينة الملاصقة لكوالالمبور وفي وسط العاصمة يبدو غريباً في إنشائه فهو معلّق، ويعتبر أحدث مترو رأيته في ماليزيا وهو شبه (مترو دبي[(١)] الذي افتتح بها مؤخراً) وهو الآخر جزء منه أرضي وآخر تحت الأرض وجزء ثالث معلَّق على أعمدة وقد أنشئ بطريقة هندسية دقيقة بحيث لم يستغل من الشارع سوى متر واحد بين مساري الشارع كأنه عمود من الخرسانة مرتبط بجسر معلَّق عليه سكة القطار [(٢)].

البرجان التوأم بتروناس:

أول المعالم التي تمت زيارتها البرجان اللذان يعودان لشركة البترول الوطنية بتروناس وهما الأبرز في ماليزيا حيث أصبحا شعاراً ورمزاً لماليزيا وكانا حتى مطلع العام ٢٠٠٩ أعلى برجين في العالم، ولكن بعد افتتاح برج خليفة في دبي أصبحا في المرتبة الثانية، ومسموح للزوار الصعود إلى ثلثي البرج عند الجسر الموصل بينهما والذي يمتد لنحو أربعين متراً وفي المكان المعلَّق بين البرجين يترجَّل السيَّاح للمشاهدة وأخذ صُور تذكارية وعلى ارتفاع كبير برج منارة كوالالمبور ويقع البرج بالقرب من شارع (بوكيت بوننتانج) الشهير بشارع العرب والذي بالفعل تمَّ تغيير اسمه رسمياً بشارع (العرب)، وتعتبر رابع أعلى منارة في العالم وأول منارة في ماليزيا وآسيا ويستطيع الزائر الصعود إليها مجاناً وبواسطة المناظير المزوَّد بها يستطيع مشاهدة بعض أطراف المدينة الجميلة بالقرب من برجي باتروناس الشهيرين، ويوجد مطعم في قمة البرج تعلوه قبة تحمل أبراجاً ومعدات إرسال تلفزيوني. ويُعطى لكل زائر جهاز أشبه بالراديو أو الهاتف المحمول لشرح الأماكن المطلَّة والمجاورة حيث توجد خريطة تضم معالم لها أرقام

(١) وهو الأقدم بالنسبة للمترو الحديث المشابه في دبي.

(٢) يوجد أربعة أنواع من القطارات في كوالالمبور ويعتبر المعلق أحد تلك الأنواع.

وبمجرد الضغط على رقم المَعْلَم المطلوب يتم الشرح عن ماهية المكان ومعلومات عنه وبعدة لغات منها العربية، وهذا يعتبر وسيلة إغراء وجذب للسياح العرب الذين لا يعرفون لغات أجنبية!

وفي اليوم التالي تهيأنا لرحلة استجمام في أجمل منتجع سياحي في العاصمة ويُدعى (صانوي) وتعني طريق الشمس، وهو مجمع سياحي شامل يضم فنادقَ وملاعب وملاءٍ ومسابحَ بأمواج صناعيةٍ وشلالاتٍ وحدائقَ غنَّاء، وكأن الزائر لها في قلب الطبيعة! ونحو ذلك مما يتمتع به الزائر ولاحظنا وجوداً عربياً كبيراً ولاسيما من أقطار الخليج العربي، وعُرفت ماليزيا بأنها مركز لاستقطاب الشباب العرب لقضاء إجازات شهر العسل ولاسيما في جزرها الهادئة الوديعة ففيها ماينشده العرسان من رومانسية وهدوء وشواطئ ناعمة ذهبية، ومياه زرقاء تخلب الأنظار ويقصدها العرب وغيرهم ليقضوا أياماً في أجواء هادئة رومانسية لاتسمع إلا تغريد الطيور وخرير المياه في الشواطئ ذات الرمال الناعمة. وتشبه جزيرة بالي في أندنوسيا إلا أن بالي أكثر صيتاً، و شواطئ جزيرة هاواي وهذه الجزر السياحية لاتشتهر بجمال الطبيعة والمياه الزرقاء والجو الدافئ فحسب بل بوجود الخدمات في فنادق مكتملة التجهيز وطرقات ومحلات ومطاعم إلى غير ذلك من المرافق التي يحتاجها مرتادو تلك الأماكن.

وفي كثير من الشواطئ بإمكان السائح الوصول بقارب صغير لأيٍّ من الجزر المتناثرة والمكسوة بالخضرة طوال العام، وفيها مياه نقية وأخرى تتفجر منها الينابيع المعدنية والتي يعتقد مرتادوها وسكان المنطقة بشفائها لكثير من الأمراض. وقد سبحنا في إحدى البحيرات المعدنية والتي تتدفق على جوانبها المياه الحارة وسط الجزيرة التي يحيط بها بحر لجيٌّ مالح فسبحان الله على تلك المفارقات.

وتضم كوالالمبور أسواقاً عديدة بعضها شعبي على طراز الأسواق الصينية ويمتلكها صينيون، وأخرى على شكل الأسواق الأمريكية المغطاة والتي تُدعى (مولات) التي انتشرت مؤخراً في أقطار الشرق الأوسط ولاسيما بلدان الخليج العربي.

وليس هناك مايغري السائح للشراء خاصة للقادمين من بلدان الخليج العربي فالسياحة في ماليزيا هي لمحبي الطبيعة والجو الدافئ والسباحة في مسابح خاصة أو في مسابح الفنادق أو الشواطئ الجميلة لاسيما في جزيرة لنكاوي، ومدينة بيننق، والتي زرناها بعد (لنكاوي) بحراً

بسفينة صغيرة ومن ثم عدنا بالطائرة إلى العاصمة حيث هي مدينة حيوية بعكس لنكاوي الوادعة فبيننق إضافة لجمال الطبيعة والجبال الخضراء تمتاز بالحركة الدائبة وتضم كل مايرفِّه عن السائحين كما أنها مركز للتسوق، هناك سلع رخيصة وتخفيضات معقولة ويحرص الزوار على شراء الهدايا التذكارية فقط.

في تجوال السائح في أسواق المدينة أو التّنزُّه في شوارعها يفاجئِه أحياناً هطول المطر وقد حدث لنا خِلال ذلك الشهر ـ أي في يناير ـ نحو مرتين فأمطار المناطق الحارة متعة تماماً كاليمن، فالأمطار في عِزّ الصيف تسعدنا بعكس الحال في مناخ البحر المتوسط أو أوربا حيث يكون المطر شتاء معكراً للمِزاج ويحجّم من حركة الناس إلا لضرورات الحياة، فعلاً استمتعت بزخات المطر في ماليزيا أكثر من اليمن لحرارة الجو ونظافة المدينة وسهولة وسيولة حركة الناس راجلين أو راكبين.

سافرنا في الأسبوع التالي إلى مدينة (مالقا)[١] وتقع في طريقنا إلى سنغورة، ومالقا تعتبر من أقدم المدن الماليزية (وتشابهت ربما ليس بالمصادفة باسم مدينة مالقا الإسبانية[٢] على البحر المتوسط)، في مالقا الهادئة دخلنا منتجع (افاموسي) الضخم الذي يحتوي على ملاهٍ وألعاب مائية وبرية، فنادق ومطاعم ومنتزهات ومنها حديقة الحيوان المفتوحة بحيث تكون الحيوانات طليقة بينما نحن الزوار في مركبة محمية من الوحوش، وهذا النوع من حدائق الحيوان يسمى حدائق سفاري وهي منتشرة في بعض البلدان ومنها كينيا في شرق أفريقيا.

وفي الحديقة قاعات عرض عبارة عن مسرح في الهواء الطلق تستعرض فيه الحيوانات والطيور مهاراتها ويستمر العرض لنحو ساعة أو ساعتين ثم نشاهد مسرحاً في الهواء الطلق منصته الأمامية عبارة عن بركة فيها حيتان الدلفين والتي دُرِّبت على حركات معينة على أنغام الموسيقى وهناك عربات في المدينة تجرها الخيول، وتُباع في سوق (مالقا) التقليدي التحف والهدايا وغيرها.

---

(١) ومن قراءتي بأن مالقا الماليزية بناها البرتغاليون عند احتلالهم للمنطقة وحينذاك كانت كل من البرتغال وإسبانيا بلداً واحداً بعد سقوط غرناطة.

(٢) تم الحديث عن مدينة مالقا في جنوب إسبانيا بأقليم الأندلس في سياق تناولي لزيارة إسبانيا في الصفحات التالية.

وقد سكنت في ضواحي كوالالمبور بمنطقة (بترجايا)المجاورة للعاصمة كوالالمبور وهي أجمل من العاصمة نفسها والتي تسمى (K.L) اختصاراً لكلمة كوالالمبور. وبترجايا هي العاصمة الإدارية فيها المؤسسات الحكومية ويتوسطها مسجد كبير جداً يقع وسط حدائق غنَّاء وله قبة كبيرة ومآذن كثيرة ولكنها صغيرة جداً وكنت أعتقد أن ذلك برلمان أو قبة جامعة كبيرة ونحو ذلك، فإذا هو مسجد قمة في الجمال والروعة وكل سائح لابدَّ أن يزور هذا المسجد العظيم في ضواحي العاصمة، والذي يسمى بـ«بوترا».

وأشهر جامعات العاصمة تقع تقريباً في هذا المنطقة أو حولها، وتضم عمارات سكنية كبيرة وأسواقاً مركزية على نظام (المولات الأمريكية).

ويسيطر على التجارة الصينيون من السكان وهم في المرتبة الثانية بعد قومية الملايو السكان الأصليين لكل من ماليزيا وسنغافورة وبروناي وإندونوسيا وهم في غالبيتهم مسلمون ويشتركون في التحدث بلغة الملايو وبعد قومية الملايو والصينيين يأتي الهنود، أما الوظائف الحكومية والأمن والجيش فهم في الغالب من المالاويين الأصليين ويلاحظ بأن الهنود ـ ويشكلون نسبة ١٠٪ تقريباً ـ لهم باع طويل في التجارة وقد استقدمهم الاستعمار من الهند وأغلبهم من قومية التاميل وهي من شرائح المجتمع الهندي الذين يقطنون إقليم (تاميل نادو) في جنوب شرقي الهند، وفي اعتقادي بأن الاستعمار قد تعمَّد وشجَّع استقدام التاميليين غير المسلمين وله نظرة بعيدة المدى حتى لايكون هناك انسجام داخل المجتمع الجديد المتنوع وتقوي الوحدة الوطنية هذا مالم يرمِ إليه المستعمر بطبيعة الحال، ومن ضمن برنامج الزيارة قمت وزميلي عضو السفارة بزيارة المتحف الإسلامي وفيه صور ومجسمات من أغلب دول العالم وكذا مقتنيات إسلامية كالملابس والأزياء والسيوف والحلي ونحو ذلك. والملاحظ أن المساجد في ماليزيا قبل النهضة والطفرة البترولية والصناعية كانت في حالة يرثى لها ومبنية بطريقة بدائيَّة عبارة عن مساجد مصنوعة من الخشب ومثبتة على أعمدة على شكل منصَّة على غرار مساكن المالاويين القديمة خشية الرطوبة والحشرات. . .إذ لم يكن يوجد مكيفات وإسالة مياه ونحو ذلك من سبل الرقي المتوفرة حالياً.

عين على ماليزيا:

تعتبر عين على ماليزيا من المعالم الجديدة الجميلة في هذه المدينة وهي محاكاة لعين لندن الشهيرة على نهر الراين، وقيل لنا بأنها قد افتتحت في عام ٢٠٠٧ وهي عبارة عن عجلة دولاب عملاق مكوّنة من عربات زجاجية كبيرة كل عربة بحجم غرفة تتسع لِبضعة أشخاص وتطل على بحيرة جميلة، حيث يتاح للسائح رؤية أغلب مناطق كوالا لمبور في صورة بانورامية رائعة ومشهد مهيب لا ينسى وسمعت من قريبي الذي كان يحضِّر للدكتوراه حينها بأن تلك العجلات صُنعت بطريقة هندسية بحيث يسهل فكُّها وتركيبها في الوقت والزمن المراد وضعها فيه! ولذا فإنها سنوياً تنقل إلى أمكنة مختلفة ذات المناظر الخلابة التي يرتادها الزوار.

كما توجد في نفس المكان شاشة عرض ضخمة تعطي أصواتاً وهناك ألعاب نارية مرافقة تضفي على المكان جواً من البهجة والسرور لكل زائر لهذا المكان الجميل.

مجمع الحدائق المختلفة:

تتميز مدينة كوالالمبور بوجود حدائق جميلة وأماكن للترفيه منها مثلاً حديقة الفراشات الغريبة بأحجامها المختلفة... وقد بدأت اللغة العربية تنتشر فالعلامات والإشارات في تلك الحديقة غدت باللغات المالاوية والإنجليزية والعربية ولكن للأسف هناك أخطاء فقد تندّرنا على عبارة (لمس فراشة ممنوع) ورغم أن الجملة مفهومة عربياً إلا أنها غير سليمة لغوياً ولكن العبرة بالنتيجة كما يقال!!

وشاهدنا زواحف غريبة منها عقارب محنَّطة ومعلَّقة على الجدران، ويمكنك شراء بعضها محنَّطة كهدية أو تحفة تذكارية كما توجد في حديقة الفراشات زهور كثيرة لتجميل المكان أو غذاء للفراشات نفسها؛ لأنها لايمكن أن تعيش دونها فالمكان بطبيعته يجعلها كأنها في بيئتها الطبيعية.

توجد حديقة خاصة بالزهور فيها المئات من أنواع الزهور الغريبة المتجددة طيلة العام وتعتبر مكاناً مثالياً لقضاء الإجازات لكل أفراد الأسرة وهي مقابلة لحديقة الطيور مباشرة كما يوجد بها نوافير مياه غاية في الجمال تعتبر متنفساً لأهالي المدينة والزوار من كل مكان، وهذه الحديقة أيضاً فيها محلات لبيع الزهور وشتلات الزهور لمن يريد أن يزرعها في فناء أو شرفات بيته.

ولعل أجمل الأماكن التي زرناها في الأيام الأولى ويتردد عليها الزوار من كل مكان هو زيارة عالم البحار (اكواريا) وتقع (اكواريا) داخل منطقة المعارض في كوالالمبور وبقرب البرجين الشهيرين، ويوجد بها عدد لايحصى من الأسماك المنوَّعة وبألوان غريبة وجميلة موضوعة في أحواض زجاجية.

وتعتبر حديقة الطيور المغطاة في ماليزيا أكبر حديقة طيور ليس في ماليزيا وحدها بل في العالم كله ويرتادها زوار من بلدان كثيرة فكل من يزور العاصمة كوالالمبور يرشده الدليل السياحي أو من يعرِّفهم إلى هذه الحديقة الغريبة والجميلة وفيها طيور كثيرة ومتنوعة وملونة ولها أصوات مختلفة وتبدو أليفة، وكنا نشتري حفنةً من الحبوب المفضلة لديها ونضعها في راحة اليد وهي تأتي إلى يديك لتأكل من الحبوب بأمان واطمئنان!

ويسمى مجمع هذه الحدائق الثلاث ـ الطيور والزهور والفراشات ـ (حدائق برادنة) وهي منطقة ليست بعيدة عن مركز المدينة،كما يوجد في المنطقة نفسها المتحف الإسلامي وقد اصطحبني أحد الزملاء لمشاهدة المتحف الإسلامي والذي يحتوي على مجسمات لمعظم المعالم الإسلامية من مساجد وقلاع وأماكن حضارية فضلاً عن معلومات مكتوبة ووثائق، ورغم ترتيبه وجماله إلا أنه يعكس فقراً في المواد ولا يقارب في مستواه أيّ متحف إسلامي في بعض البلدان العربية أو تركيا وإيران على سبيل المثال.

ويوجد عشرات الآلاف من الماليزيين من أصل يمني، ولكن العدد الهائل هو في أندونيسيا فقيل: إن نحو مليونين من الأندونيسيين هم من أصول يمنية وبالطبع جلُّهم من حضرموت ولكن الفرق بين حضارمة أندونيسيا وماليزيا أنهم في الأخيرة تضاءل وجودهم بشكل كبير وغدت الغالبية منهم في المؤسسات الدينية كأئمة المساجد ويديرون مدارس تحفيظ القرآن ونحو ذلك؛ لأن الصينيين ـ وهم يشكلون ثلث السكان تقريباً ـ لهم باع طويل في التجارة ويليهم في المرتبة الثالثة الهنود، وأكثرهم من إقليم تاميل نادو في حين أن حضارمة أندونيسيا لازال جزء كبير منهم يشتغل في التجارة إلى جانب الأعمال الحكومية.

مرتفعات جنتنج:

تقع ملاهي (جنتنج) على سلسلة جبال ارتفاعها يصل لنحو ألفي متر، وهناك طريق آخر للوصول إلى قمة مرتفعات جنتج بدلاً من ركوب الحافلة أو قيادة السيارة وذلك بواسطة استخدام العربة المعلَّقة؛ أي (التلفريك).

ويوجد المجمع الترفيهي على قمة المرتفعات، ويغطي الضباب الكثيف أحياناً معظم أرجاء المدينة خاصة عصراً، وتعتبر أشهر مدينة ملاهٍ في ماليزيا، وتحتوي على فنادق وملاهٍ مكشوفة ومغلقة ومسابح، وجزء الألعاب الخارجية وهو عبارة عن ألعاب كمبيوتر وحظ وغيره، كما يوجد فيه ستة ألعاب شهيرة مسماة باسم بعض الدول مثل فرنسا (قصر الأليزيه)، وإنجلترا «لندن»، إيطاليا «البندقية» وأمريكا (تايمز سكوير)، وسويسرا (جبال سويسرا) و (ماليزيا)جنتينج وورلد، يمكنك أن تتجول في قناة بواسطة الجوندولا قبل أن تنتقل إلى لندن لتركب فيريست وول بجانب بيج بن المصغرة، وبالقرب منه يوجد يونيفرسال ووك وتايمز سكوير وتمثال مصغر لتمثال الحرية وجائزة الأوسكار. كما يمثل فرنسا برج أيفل المصغر، ويتكون هذا الجزء من ٤ طوابق، ومع نموذج جبال سويسرا يوجد عالم الجليد متمثلاً في الكوخ الخشبي والكوخ المقبَّب والمزالق ومنطقة ألعاب الثلج.

كما يوجد في (فيرست وورلد بلازا) وهي ملحقة بفندق (فرست ورلد) المعروف بمنطقة الهبوط بالمظلات، وتعتبر الأولى من نوعها في آسيا، كما يوجد قطار هانتد المعلَّق والذي ينحدر بدرجة ٤٥ درجة بسرعة خيالية. كما يوجد فيها مجمع للسينما و٥٢ محلاً للأطعمة والمشروبات، كما يوجد العديد من المطاعم العالمية مثل (بيتزا وكنتاكي وماكدونالدز).

أما في مدينة الألعاب الداخلية فيوجد أكثر من ٣٠ لعبة مشوقة، وأهم لعبة فيه هي الصاروخ الفضائي الذي يرتفع فجأة لعلوٍّ عشرات الأمتار ليلامس السحاب ثم يعود بسرعة كبيرة جداً ، ومما يزيد الإثارة بأن الصاروخ مبني على قمة الجبل وبالتالي يعطي علواً إضافياً قي قمة الجبل وبالطبع هذه اللعبة لاتناسب من يعانون مشاكل في القلب حسب التحذير المكتوب عند اللعبة! كما توجد ممرات القوارب التي تصعد لارتفاع أكثر من ٢٠ متراً ثم تهوي فجأة بمن فيها للناحية الأخرى من الممر، كما يوجد قطار المناجم السريع الذي يتحرك بسرعة جنونية وسط

منجم، كما توجد الدراجات المائية سواء ذات المحركات أو التي تستخدم الأرجل لتسييرها، وهناك ألعاب عديدة تناسب الأطفال والكبار مثل سيارات الفورمولا وان، وقطار الموت الشهير، وبيت الرعب.. إلخ.

وجنتنج هايلاند: تبعد عن العاصمة كوالامبور حوالي ساعة، وربما تودُّ استخدام التلفريك لإكمال الصعود للقمة أو السير مباشرة إلى القمة مستخدماً السيارة، كما توجد باصات من محطة (بودورايا) تذهب للمدينة في مواعيد مِنْتظِمة.

وهذا المنتجع مرتفع ومتطور وحديث ولا يبعد سوى خمسين كيلومتراً شمال العاصمة كوالالمبور، ولا ينصح بالذهاب للمنتجع يومي السبت والأحد لشدة الزحام، ويقدم المنتجع لزواره نشاطات ممتعة وترفيهية، وأصبح يضم العديد من الأماكن الترفيهية والتسهيلات الرياضية والفنادق والشقق المفروشة والمخيمات.

تستغرق الجولة الواحدة نحو عشرين دقيقة دون توقف، وترتفع العربة آلاف الأمتار وبذلك يتمكن السائح من إلقاء نظرة شاملة على المناظر الجبلية الجميلة.

رحلة في الغابات:

يتعرف السائح خلال هذه الرحلة على طبيعة الغابات ذات النباتات المطرية وحياة الطيور والحيوانات فيها، ويزوِّد مرشد الرحلة السيَّاح المشاركين بكتاب لتسجيل ملاحظاتهم عن الأوراق الجافة والبذور والزهور البرية والزنجبيل البري وأشجار الخيزران والسرخس المتسلق.

والنزول من المرتفعات لهواة لعبة التزحلق على المنحدرات يجدون متعتهم في المحطات الاثنتي عشرة التي تقع في أعلى المنتزه.

ويجد السائح داخل المنتزه ممرات لراكبي الدراجات وتشمل ممرات للاستجمام وأخرى في التلال وثالثة في الغابات ورابعة في ملعب الجولف ويقع ملعب الجولف على ارتفاع شاهق، وفيه ثماني عشرة حفرة، وتقدم جوائز تقديرية للزائرين في هذه اللعبة.!

وهناك مزرعة لهواة الفروسية وركوب الخيل على بُعد كيلو مترين من ملعب الجولف و هناك يمكن تلقى دروساً لركوب الخيل مع القيام بجولات على ظهر الخيل.

يحتوي منتجع مرتفعات (جنتج) على أكثر عشرات المطاعم المختلفة، وأهم هذه المطاعم (قصر جنتج) حيث يقدم أشهى المأكولات وألذّها.

والذهاب إليها في الواقع سهل ومتعة وتبعد عن العاصمة كوالالمبور نحو ساعة يستمتع السائح خلالها بأجمل المناظر الطبيعية من وديان وجبال خضراء وسهول على مدى البصر وفي القمة تحيط بها السحب المتحركة.

جزيرة لنكاوي:

وصلنا هذه الجزيرة الوادعة الحالمة جواً قادمين من مطار العاصمة (KL) كوالا لمبور وهي واحدة من مجموعة جزر (تتكون من نحو٩٩ جزيرة) وهي أكبر هذه الجزر وتقع الجزيرة في الشمال الغربي من مملكة ماليزيا على بعد ١١٢ كم تقريباً من جزيرة بينانج كما تقع الجزيرة بالقرب من تايلاند، إذ يمكنك مشاهدة الشواطئ التايلندية أثناء المرور حول الجزيرة في رحلة بحرية، وعاصمة الجزيرة هي مدينة كواه، وهي الميناء الذي يرسو فيه القادمون للجزيرة عن طريق البحر سواء من بينانج بالفيرى أو من سنغافورة على متن الباخرة ستار كروز، كما يوجد مطار دولي بالجزيرة يصل الجزيرة برحلات منتظمة ومباشرة بين تايلاند وأندونيسيا وسنغافورة وهونج كونج، وتعتبر (كواه) أكبر المدن على الجزيرة، كما أنها أصبحت مركزاً هاماً للمال والأعمال حيث تشتهر بوجود فنادق ومحلات تجارية كثيرة فيها العديد من السلع والبضائع، والمعروف أن جزيرة (لنكاوى) عبارة عن منطقة حرة لا رسوم جمركية على السلع فيها مما يجعلها مكاناً رائعاً للتسوق، وتشتهر الجزيرة بالهدوء وتتميز بوجود مجموعة كبيرة من الكهوف وحقول الأرز المنتشرة في الجزيرة، مما جعلها محفلاً خصباً للأساطير والحكايات.

جزر لنكاوي حالمة قابعة في أرخبيل الملايو على مدى رؤية العين، مناظر خلّابة وكأنها لوحة فنان محترف، منظر أشجار النخيل الباسقة على الرمال البيضاء وكأنه يغازلها أو يبوح لها بسرٍّ..! ويتدرج اللون الأزرق في سماء صافية تخلو من الغيوم بقع خضراء صغيرة كأنها من الزمرد الأخضر التي تلفُّها المياه وكأنها حبات من الخرز مبعثرة في عرض البحر، أكواخ متناثرة للسياح بصورة توحي بالعودة للطبيعة مع صبغة من الحداثة وبقربها سوبرماركت فيه ما لذَّ

وطاب، وغرفة اتصالات تلفونية دولية ومحلية وأنترنت كلها في سياق سلسلة من الخدمات التي تجذب السياح وتزيد من متعتهم.

ومعظم الفنادق المطلّة على البحر هي عبارة عن أكواخ فيها وسائل الرفاهية والراحة، ومعظمها مطلٌ على البحر مباشرة، كما تتوفر وسائل النقل في الجزيرة ووسيلة النقل الرئيسية هي السيارات وأسعارها معقولة ومتوفرة، وأهم ما يميز الجزيرة إمكانية القيام برحلات بحرية منظمة لزيارة باقي الجزر المحيطة بها.

أكثر ماتتميز به لنكاوي، هدؤها، وأكثر ما يثير اهتمام السائح العدد الكبير من أماكن الترفيه والمغامرة والتشويق التي تمتلكها هذه الجزيرة فبالإضافة للمنتجعات المثيرة الموجودة فيها، والتي تترامى على شاطئ البحر تمتلك إطلالات مميزة وسط الحدائق والأشجار السامقة، والشواطئ الرملية، ويتَّجه السيَّاح لرحلات الغوص والمغارات والكهوف، وصعود الجبال، والرحلة بالمركب وسط الغابات في المحيط الهندي. وتستحوذ حدائق «لانكاوي» الطبيعية على ٧٥ في المئة من مساحتها العامة [(١)]. هي تجاور البحر تحت سماء ملبَّدة بالغيوم وقد تتساقط أمطارها بين لحظة وأخرى من دون أي تبدُّل في درجة الحرارة التي تبقى مرتفعة طوال ساعات النهار. التنقل بين أحياء«لانكاوي» يعكس طبيعة حياة أبناء هذه المنطقة الهادئة التي تعتبر من أكبر الجزر الماليزية والتي لا يزيد عدد سكانها على ٨٠ ألف نسمة، ٨٠ في المئة منهم من المسلمين، هذا الواقع يبعد عنها هاجس زحمة السير ويلغي عمل الشرطي في الوقت عينه. اكتشاف «لانكاوي» يتطلب من السائح أياماً عدة، لكن الزيارة القصيرة كفيلة بإعطاء صورة عامة عما تحتويه هذه المنطقة من متاحف وحدائق ومصانع، عمل الماليزيون باحتراف على الاستفادة منها لاستقطاب سيَّاحهم. وأهم هذه الأماكن هي «حديقة الأسماك تحت المياه»، عالم من الأسماك بألوانه المختلفة وأنواعه المتعددة التي وزعت في أحواض مختلفة الأحجام.

توفر (لنكاوي) للسائح خدمات متكاملة، بدءاً من المواصلات حيث يصلها السائح من جزيرة (بيننغ) في رحلات منتظمة بين الجزيرتين، أو عن طريق الجو، حيث يوجد فيها مطار يربطها بالعاصمة كوالا لمبور ولجزيرة بيننغ وأماكن أخرى من البلاد.

---

(١) صحيفة الشرق الأوسط٢٣ سبتمبر ٢٠٠٩ العدد ١١٢٥٧.

كان قريبي الذي كان وقْتها يدرُس الدكتوراه المدنية في الهندسة في ماليزيا يعرف الأماكن السياحية عن ظهر قلب ونصحنا هذه المرة بأن نزور جزيرة أخرى غير (لنكاوي) هي (بيننج) وقد سافرنا إليها بحراً من جزيرة لنكاوي ومن ثم عدنا بالطائرة إلى العاصمة الماليزية، والحقيقة أن جزيرة (بيينج) أجمل فهي حية بسكانها الكثيرين، وفيها جبال خضراء، بينما لنكاوي تبدو بأنها مجرد جزر خلابة وأراضٍ سهلة. نزلنا مركز المدينة فلقينا منتوجات ذات نوعية متدنية ولا سيما العطور المقلدة والبضائع الصينية إلى جانب سلع راقية وغالية. وللتسوق عناوين أخرى أيضاً في «بينانج» ولا سيما منطقة جورج تاون، التي تمثل ما يشبه وسط عاصمة المدينة الذي استمد اسمها من اسم ملك إنجلترا جورج الثالث، بينما تعتبر منطقة (بانوفرنجي) هي المنطقة السياحية التي تعجُّ بالمطاعم والمحلات التجارية التي تزخر بأنواع عديدة بأسعار تناسب الجميع، إلى جانب الشواطئ ذات الرمال الذهبية الناعمة والمسابح المتوفرة بكثرة إضافة إلى المحلات التي تُعنى بالتدليك، ولهذه الأماكن خصوصيتها أيضاً في «بينانج»، إذ ينتشر على طول خط أحد شوارع هذه المنطقة الشباب والفتيات يحملون لافتات تعلن عن عروض التدليك باللغة العربية مرفقة بتفاصيل إضافية من خلال «كلمات عربية متقطعة. وللسياحة عنوانها في هذه الجزيرة. وخير دليل على ذلك حديقة الأزهار التي تحتاج إلى ست ساعات لاكتشافها مشياً على الأقدام، ومَنْ يفضل الراحة يركب القطار المخصص لهذه الغاية. وتبقى للنزهة على الأقدام ميزتها، ويسهل هذه المهمة الجسر الذي شُيِّد فوق النهر ليصل قسمي الحديقة ببعضهما، وتزيد من جمالية المنظر الطبيعي الشلالات التي تتدفق على جانب الحديقة. وعند الخروج لا بد أن تتولى مهمة الوداع القرود التي تقفز على جوانب الطريق. وللفراشات في «بينانج» عالمها الخاص، عالم تحول إلى حديقة تجمع بين جدرانها ١٢٠ نوعاً من الفراشات بأحجام مختلفة يبلغ عددها ٤٠٠٠، يحرص المسؤولون على الاعتناء بها. إنّ التجول في هذه الحديقة له ميزته الخاصة، ولاسيما حين يلمح الزائر الفراشات الملونة تتطاير فوق رأسه لتحطَّ على زهرة هنا ووردة هناك. مساحات كبيرة مزروعة بكل أنواع الأشجار والورود لتشكل مع الفراشات وبرك المياه الموزعة في الزوايا لوحة طبيعية تبهر النظر بامتزاج ألوانها. للانتقال من «بينانج» إلى «لانكاوي» وهي أرخبيل يضم ٩٩ جزيرة، لا بد من الاختيار بين الجو أو البحر، مع العلم أن

الرحلة البحرية تتطلب أربع ساعات تقريباً. وتستحوذ حدائق «لانكاوي» الطبيعية على ٧٥ في المئة من مساحتها العامة [١].

وختام الرحلة مسك غدا بوفيه يضم أجود أصناف الأكل، مع فاكهة جوز الهند، فبائعها ينتظر السيَّاح لتوديعهم على متن قارب صغير ليتذوقوا جوز الهند الطازج الذي تتحول فاكهته إلى كوب يشرب فقط ما في داخله. «بينانج» و«لانكاوي» ليست إلا نموذجاً للجزر الماليزية التي تزخر بالجمال الطبيعي الرائع ويبقى اكتشاف كلٍّ منها لذة ومتعة ومغامرة تستحق التجربة.

كل من يزور هذا البلد الناهض في فترة وجيزة يتبادر إلى ذهنه قيادة فذَّة مخلصة كانت وراء هذا التطور السريع والمستمر، وأصبح نموذجاً يُحتذى في بلدان العالم الثالث.

يُعَدُّ مهاتير محمد[٢] رئيس وزراء ماليزيا السابق الذي تولى رئاسة الوزراء ١٩٨١م من أعظم القادة السياسيين والاقتصاديين في آسيا، حيث استطاع تغيير وجه ماليزيا، وتمكن من أن ينهض بها تنمويًّا ويجعلها في مصافّ الدول الاقتصادية المتقدمة. .

ولكنه في العام ٢٠٠٣م قدَّم استقالته وزهد في الحكم، وهو ما نَعُدّه في عالمنا العربي والإسلامي غاية في الغرابة، فقد قرر الزعيم الماليزي الانسحاب من السلطة طوعاً وهو في قمة مجده، وبكامل إرادته، فقرر اعتزال الحياة السياسية تمامًا، معطيًا الفرصة لغيره من أبناء وطنه أن يساهم في تطوير وبناء ماليزيا الحديثة، التي أصبحت الآن مصدر فخر وعزة للأمة الإسلامية كلها، وشجع المؤسسات العلمية على تعلم اللغة الإنجليزية.

تبنّى مهاتير محمد المنهج التنموي فدفع شعبه نحو النهضة التنموية من خلال توفير مستويات عالية من التعليم والتكنولوجيا لهم، كما شجعهم على تعلم اللغة الإنجليزية ، وقام بإرسال البعثات التعليمية للخارج وتواصل مع الجامعات الأجنبية، حاول بكل جهده في إطار سياسته الاقتصادية تهيئة المواطن الماليزي بكافة الوسائل العلمية والتكنولوجية لكي يستطيع

(١) صحيفة الشرق الأوسط٢٣ سبتمبر ٢٠٠٩ العدد ١١٢٥٧.

(٢) ولد مهاتير محمد في عام ١٩٢٥م بولاية كيداه بماليزيا، وتلقى دراسته بكلية السلطان عبد الحميد، ثم درس الطب بكلية «المالاي» في سنغافورة، والتي كانت تعرف بكلية الملك إدوارد السابع الطبية، وقام بدراسة الشؤون الدولية بجامعة هارفارد بالولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٦٧م.

الانفتاح والتواصل مع العالم الخارجي والتعرف على الثقافات المختلفة، ثم بعد ذلك الدفع به إلى سوق العمل من أجل زيادة الإنتاج وخفض مستوى البطالة بين أفراد الشعب، حيث كان يهدف لتفعيل الجزء الأكبر من المجتمع الأمر الذي يؤدي إلى ارتفاع مستوى التنمية الاقتصادية للبلاد في نهاية الأمر، واستطاع أن يحوّل ماليزيا من دولة زراعية يعتمد اقتصادها على تصدير السلع الزراعية والمواد الأولية البسيطة مثل المطاط والقصدير وغيرها إلى دولة صناعية متقدمة، حيث شارك القطاع الصناعي والخدمي في اقتصادها بنسبة ٩٠ ٪، وأصبحت معظم السيارات التي توجد بها صناعة ماليزية خالصة، وزاد نصيب دخل الفرد زيادة ملحوظة فأصبحت واحدة من أنجح الدول الصناعية في جنوب آسيا، كما أدى هذا التحول إلى تقوية المركز المالي للدولة ككل[١].

اعتمد مهاتير في فكره للتقدم بالبلاد على ركائز أساسية ويعدُّ أولها بل في مقدمتها الوحدة بين فئات الشعب حيث إن سكان ماليزيا ينقسمون إلى السكان الأصليين وهم المالايا ويمثلون أكثر من نصف سكان ماليزيا، وقسم آخر من الصينيين والهنود وأقليات أخرى، وأيضاً توجد الديانة الأساسية وهي الإسلام بالإضافة للديانات الأخرى مثل البوذية والهندوسية «ولقد نص الدستور الماليزي على أن الدين الرسمي للدولة هو الإسلام مع ضمان الحقوق الدينية للأقليات الدينية الأخرى»، لذلك لزم التوحد بين جميع الأطراف لتسير البلاد كلها من أجل الاتجاه نحو هدف واحد، والعمل وفق منظومة تتكاتف فيها جميع الفئات. والركيزة الثانية في خطة التنمية تمثلت في البحث عن دولة مناسبة تقوم بعملية الدعم لماليزيا في تجربتها نحو التقدم والتنمية وكانت هذه الدولة هي اليابان التي أصبحت من أكبر حلفاء ماليزيا في مشروعها نحو التنمية والتقدم. وثالثاً العمل على جذب الاستثمار نحو ماليزيا وتوجيه الأنظار إليها، كما قام مهاتير بإدخال التكنولوجيا الحديثة والتدريب عليها حتى يتمَّ الانتقال بالبلاد سريعاً إلى مرحلة أخرى أكثر تقدماً وأيضاً لتحقيق إمكانيات التواصل مع العالم، وأصبحت تجربة ماليزيا في النهضة الصناعية التي قامت بها تحت رعايته مثالاً يُقتدى. والمثير للإعجاب بأنه قرر بإرادته الشخصية

(١) مهاتير محمد. «عاقل في زمن الجنون» للدكتور عبد الرحيم عبد الواحد، إصدار (مؤسسة ميديا هب) للنشر في دبي الطبعة الرابعة ٢٠٠٨.

أن يترك كرسي السلطة رغم كل المناشدات، ليستريح تاركاً لمن يخلفه «خريطة» و«خطة عمل» اسمها «عشرين.. عشرين».. أي شكل ماليزيا عام ٢٠٢٠ والتي ستصبح رابع قوة اقتصادية في آسيا بعد الصين، واليابان، والهند.

كما ركز محاذير محمد على الاعتماد على الذات؛ أي على الماليزيين أنفسهم و على الاقتداء بدول متقدمة منها شرق آسيوية كاليابان وغيرها ، والمثير للإعجاب أن مهاتير محمد كان دائمًا وفي كل المحافل الدولية يعتز بإسلامه، ويُرجع نجاحه إلى تطبيقه لتعاليم الإسلام، وأنه ينطلق نحو النجاح بفهم عميق لجوهر الدين الإسلامي الذي يُعلي من قيمة العلم والتقدم.. فنجده في أحد خطاباته يقول: «إن ماليزيا واثقة بأن الأمة الإسلامية يمكنها أن تكون أقوى قوة في العالم إذا توحدت، وأحسنت استخدام ثرواتها ومصادرها المختلفة»، ووضح بأن على هذه الأمة أن تنشط في تحصيل العلوم وتقتحم مجال تكنولوجيا المعلومات حتى تستطيع أن تنافس تقدُّم الغرب في هذا المجال الحيوي والمهم في هذا العصر.

وعندما يقارن القارئ همة قائد طموح كهذا مع قيادات بلداننا نرى الفوارق كبيرة للأسف، وبلد مثل اليمن لو توفرت لها قيادة وطنية مُخلصة لحقّقت المعجزات فالشعب اليمني توّاق لقيادة فذّة وهو شعب مبدع بدليل نجاح الكثير منه في الخارج للعمل أو في البحث والتحصيل العلمي وفي هذا السياق يقول مهاتير محمد عندما زار اليمن وخلال محاضرة له بمدينة المكلا بحضرموت قال:

«..اليمنيون الذين نراهم في الخارج ناجحون جداً في التجارة والمال والأعمال إنهم ينمون البلدان التي يعملون بها، ويتسمون بالنجاح والتميز نجدهم في سنغافورة وماليزيا وأندونيسيا، وكما نجحوا في الاقتصاد كانوا ناجحين أيضاً في السياسة ويتميزون بالثراء الشديد إنهم يملكون القصور هنا ويعيشون فيها، وفي اليمن يظهر أنهم غير ذلك! من الأفضل عليكم الإسراع في تطوير البنية التحتية والقيام بتحسين القوانين من فترة لأخرى..».

رحلة سنغافورة

بعد زيارتي لمدينة مالقا الماليزية والتي تقع في طريق سنغافورة وقريبة جداً لها وسهولة الوصول إليها عن طريق جسر بحري بينها وبين مدينة جهور الماليزية، ولما عدت إلى كوالالمبور ساعدني زميلي في السفارة بإرسال جوازي إلى سفارة سنغافورة؛ كي أمنح تأشيرة، وماهي إلا بضعة أيام حتى عزمت أمري لزيارة هذه المدينة الجميلة فتوجهت إليها بباص سياحي ومررتُ بمالقا مرّة أخرى دون أن ننزِل بها، وواصل سيره حتى آخر مدينة في جنوب ماليزيا وهي (جوهور) والتي لايفصلها عن سنغافورة سوى جسر معلَّق على مضيق جوهور، بعد مغادرة الحافلة مدينة جهور لم يبقَ أمامي سوى بضعة أميال للوصول للجسر فتوقفنا لدقائق فقط لإجراءات دخول هذا البلد من قبل شرطة جوازات الحدود، وبعد لحظات وخلال إجراءات سلسة وغير معتادة للدخول غادرنا إلى وسط الجزيرة في نحو نصف ساعة، وللحظة الأولى تبدأ الانطباعات للزائر الآتي من البرِّ الماليزي، نفس الوجوه ونفس المباني تقريباً إلا أنها أكثر رقياً ونظافة بصورة ملموسة، وبرغم أنها جزيرة مكتظَّة بالبناء والعمران، فهناك مساحات خضراء رائعة سواء في عمق المدينة أو ضواحيها.

ووصلنا خلال دقائق إلى قلب الجزيرة ولأنها غالية جداً حرصت على ألاّ أبيت فيها سوى ثلاث ليالٍ، ولكنها كانت حافلة بالحركة والسياحة ولاحظت أنها أكثر رقياً وتنظيماً وحركة من مدن ماليزيا، ويبدو أن دخل الفرد فيها أكثر من جيرانها بل الأعلى في جنوب شرق آسيا.

وكانت سنغافورة مع ماليزيا بلداً واحداً ولكن انفصلت عنها مثل سلطنة بروناي، ويعتبرالماليزيون سنغافورة شوكة في خاصرة ماليزيا، بل إن البعض يسميها «إسرائيل أرخبيل الملايو»!

والمدينة أنظف بكثير وأجمل من كوالالمبور وإن كانت الأخيرة راقية أيضاً ولكن ليس بمستوى سنغافورة المفرِطة في نظافتها وتنسيق حدائقها وشوارعها ومنشآتها لدرجة تغريم من يبصق في الشوارع أو يرمي عقب السيجارة. وجغرافيّاً تقع سنغافورة في جنوب شرقي آسيا،

عند الطرف الجنوبي من جزيرة الملايو، ويفصلها عن جزيرة الملايو مضيق جوهور ولا يعتبر فاصلاً كبيراً فعن طريق الجسر الموصل بينهما يرتبط البلدان بمواصلات برية وسكة حديد.

ولسنغافورة موقع جغرافي فريد عند رأس شبه جزيرة الملايو حيث تشرف على مضيق ملقا الواقع بين الملايو وسومطرة، ومن ثم أصبحت أهم الموانئ التجارية في جنوب شرقي آسيا، لوقوعها على خطوط الملاحة بين حوض البحر الأبيض المتوسط وغربي أوروبا من جهة وبين الشرق الأقصى من جهة أخرى، وعدد سكانها أكثر من خمسة ملايين يتوزعون على مساحة صغيرة لاتتجاوز الـ٧٠٠ كيلومتراً مربعاً. وسكان سنغافورة خليط من جنسيات متعددة ٧٥٪ صينية و١٤٪ ماليزية و٩٪ من الباكستانيين والهنود والأندونوسيين، وتعدد العناصر من أبرز مشكلاتها، وتنتشر بين سكانها اللغة الصينية لهجة (ماندارين) واللغة الماليزية العامية التي هي لهجة من لهجات لغة الملايو، وتعتبر الإنجليزية لغة أساسية ويتحدث الهنود لغة التاميل[(١)].

المعتقدات الدينية تتمثل في البوذية، والكنفوشية، والمسيحية ويعتنق الإسلام ١٥٪ من سكانها؛ أي حوالي أربعمئة ألف مسلم، بعضهم من أصول عربية، والكثير من الماليزيين والهنود التاميل والباكستانيين والأندونسيين، ويتعرضون لعزلة اجتماعية.

السياحة في سنغافورة:

أول يوم وصلت فيه بتُّ في فُندق صغير وجميل في الحي الصيني فكانت فرصة لزيارة هذا الحي بواسطة الباص الشهير ذي الطابقين فوجدت في تجوالي خليطاً من البشر والسلع والروائح الشرقية والباعة المتجولين يبيعون الأسماك و الأعشاب و المصابيح المنقوشة بالزخارف الصينية والتحف، وذكرني بالأحياء الصينية في بعض مدن أمريكا مثل الحي الصيني في واشنطن أو نيويورك وغيرهما، وفي هذا الحي تستطيع زيارة أقدم معبد هندوسي في سنغافورة.

كما زرت في اليوم التالي الحي الهندي أو «الهند الصغيرة» الذي يضمُّ عروضاً للمنتوجات الهندية الشهيرة وكل مايدل على نمط الحياة الهندية، وفي نفس اليوم تمكنت أيضاً من زيارة «حي العرب» في منطقة (كامبونج جلام) و التي تعتبر جزيرة عربية وسط سنغافورة به محلات

(١) التاميلية إحدى اللغات الهندية ويتكلمها قومية التاميل نادو في جنوب شرق الهند وأكبر مدن إقليم التاميل هي مدينة مدْراس.

العطور العربية و البخور والعود غالي الثمن والملابس العربية والإسلامية، وفيه عدد من المطاعم العربية والإسلامية خاصة شارع مسقط كما أن المنطقة فيها مسجد شهير وهو مسجد السلطان، ومن ضمن المعالم التي تسنى لي زيارتها خلال الثلاثة أيام هي جزيرة (سانتوزا) والتي وصلتها عن طريق التلفريك، وهي مَعْلَم مهم من المعالم السياحية، وفيها رمز سنغافورة وهو مجسم سمكة ونصفها أسد؛ لأن سنغافورة تسمى (مدينة الأسد). !

أما حديقة الحيوان في سنغافورة أو الحديقة الليلية فهي حديقة رائعة الجمال كما أنها تضم «حديقة طيور» فيها مختلف أنواع الطيور.

لعل أهم عوامل جذب السيَّاح والاستثمار الخارجي في هذه الجزيرة هو قوة القوانين الصارِمة وانخِفاض معدل الجريمة فيها، وتعتبر من المدن النظيفة بامتياز، وإياك أن ترمي المخلفات مهما كانت صغيرة على جوانب أو قارعة الطريق وإلا ستدفع غرامة قدرها ٥٠٠ دولار سنغافوري. !

واقتصادياً يعتبر دخل الفرد فيها مرتفعاً مقارنة بدول آسيا، وتأتي بعد اليابان بالنسبة للحالة المعيشية.

والموقع المتميز الذي تحظى به سنغافورة وكونها بيئة خالية من الجرائم جعلا منها مكاناً مناسباً للقيام بالأعمال الحُرة أكثر من الدول الآسيوية الأخرى، وبسبب توفر فرص العمل والاستثمارات في البلاد فقد شهدت تحسناً ملحوظاً في الآونة الأخيرة.

تُعدُّ سنغافورة موزعاً رئيسياً للسلع الإلكترونية في العالم وتبرز كمركز رئيسي في بناء السفن وتجديدها (الحوض الجاف). وأدى وجود أكثر من ١٣٠ مصرفاً في البلاد إلى رخائها. وقد أدى توافر وسائل الاتصال الحديثة في سنوات مبكرة والتي تسهل الوصول السريع إلى كل أنحاء العالم كالأقمار الصناعية والنظام البرقي والهاتف إلى تحفيز الخدمات الاقتصادية. وهذه الخدمات الممتازة التي لا تُعدُّ ولا تُحصى ساهمت في دعم عجلة تطور الجزيرة التي تتشكل من ٦٣ جزيرة، والتي لا تزال أغلبيتها مقفرة، وتقع ضمن العشرين دولة الأصغر في العالم.

وبالإضافة للأغلبية الصينيين والملايو والهنود هناك جنسيات أخرى كالعرب وأغلبهم من اليمنيين ذوي الأصول الحضرمية ويزيد عددهم على عشرة آلاف من مجموع عدد سكان

سنغافورة[(١)]، وقد دخل الحضارمة إلى سنغافورة بغرض التجارة، فقاموا أيضاً بنشر الدين الإسلامي واللغة العربية في هذه الجزيرة عن طريق تعاملهم وأسلوبهم الراقي مع أهل سنغافورة، مما أدى ذلك إلى زرع الثقة في نفوسهم واندماجهم مع العرب المهاجرين والحضارمة منهم تحديداً.

لقد سيطر العرب على الأعمال التجارية في سنغافورة، وتحديداً الأعمال النفطية والتجارية المفتوحة.

وفي خلال فترة ماقبل الاستقلال كان للثقافة العربية تأثير قوي جداً على الثقافة الماليزية من خلال الدين، وكان ذلك واضحاً من الهندسة المعمارية العربية في المساجد. في ذروة الازدهار العربي، أبقى عرب سنغافورة الارتباطات الوثيقة مع مصدرهم الأساسي حضرموت، وقد قاموا أيضاً بضخِّ الأموال إلى معقلهم الأصلي محاولةً منهم في إنماء المنطقة وإبقاء أهلها فيها بدلًا من السفر إلى مكان آخر، لقد قام الأغنياء منهم ببناء البيوت الفاخرة، وقد كان أعظمها قصر عائلة الكاف، قام العرب أيضاً بإرسال أبنائهم إلى حضرموت لمدة من الزمن؛ لكي يستطيعوا التعرف إلى حضارتهم العربية ولتقوية الهوية العربية لديهم، وقد أبقت هذه العادة لغتهم وثقافتهم العربية الحضرمية، ونتيجة لذلك اندمج المالاويون معهم وأصبحوا يستطيعون التحدث باللهجة الحضرمية من اللغة العربية، لقد اعتبرت حضرموت ساحة تدريب ثقافية وكان الوقت الذي قضاه الجيل الجديد من العرب السنغافوريين هناك التحضير النهائي للتعلم عن هوية الرجل العربي، وبعد ذلك يعودون مباشرة إلى سنغافورة ليقوموا بأخذ مكانهم في تجارة الأعمال العائلية.

في فترة الستينيات حدثت تغيرات جوهرية، وهو استقلال جنوب اليمن ومن ثم وصول حكومة يسارية متطرفة تحكَّمت بمقدَّرات ومصير البلد، ساهم ذلك في وضع حدٍّ فاصِلٍ لعودة الحضارمة إلى بلدهم الأصلي، وفي نفس الوقت أتت التنمية الاقتصادية في سنغافورة إلى زيادة أهمية اللغة الإنجليزية والحصول على درجات علمية عالية كان مطلباً ضرورياً. وعندما كبر الجيل الجديد من عرب سنغافورة كانوا قد أضاعوا لغتهم وهويتهم العربية وحتى انتسابهم إلى

(١) الذين يتجاوز عددهم الخمسة ملايين.

حضرموت، فقامت بعض العوائل بإرسال أبنائهم في السبعينيات مع ازدهار النفط إلى الخليج العربي والسعودية وقليل منهم للدراسة في العراق وشمال اليمن[١] ليستعيدوا هويتهم ولغتهم العربية، لكنهم لم ينجحوا في البقاء هناك؛ لأنهم لم يستطيعوا التأقلم بعد أن تعودوا على نظام الحياة في سنغافورة، وكانت فرصتهم في سنغافورة أفضل من الخليج العربي آنذاك.

وحالياً يواجه الحضارمة في سنغافورة أزمة الهوية، فالجيل الجديد لا يستطيع أن يتكلم اللغة العربية إضافة إلى أنهم فقدوا انتسابهم إلى حضرموت، وقد كان السبب الرئيسي في ذلك هو توقف الأهل عن إرسال أبنائهم إلى حضرموت، وتدرك الجالية العربية ضعف اللغة العربية التي هي مشكلة رئيسية بالنسبة لهم، فقاموا بإنشاء مركز لتدريس اللغة العربية، على أمل أن يتعلم الجيل الصاعد لغته العربية ويتواصل بثقافته وتراثه، لقد كان التحدي الذي يواجه الجالية هو الاحتفاظ بالهوية، فمن الضروري التواصل مع حضرموت بإرسال الشباب إلى بلدان عربية.

الحضارمة السنغافوريون كانوا من أصحاب الأملاك الرئيسية في البلاد، وكانت العوائل الكبيرة تقوم بإنشاء الوقف الذي يساعد جميع أفراد العائلة على المسكن، وأصبحت أوقاف خيرية مفتوحة للجميع، ومعظم المناطق التي فيها المراكز التجارية في سنغافورة كانت ملكاً للحضارمة، هذه الأوقاف تحمل أسماء العوائل الحضرمية، سواء الخاصة منها أو الخيرية، وكانت هذه الأوقاف أحد الأسباب التي أعطت سمعة جيدة للجاليات العربية بين المسلمين في سنغافورة.

وأذكر خلال مطالعتي قبل سنوات لكتاب «حول العالم في مئتي يوم» يقول الكاتب الشهير أنيس منصور عن سنغافورة: ويذكر أن بعض أغنياء سنغافورة من الحضارمة وبأن شخصاً من بيت السقاف يعتبر من أغنى رجال الأعمال في شرق آسيا في الستينيات.

وهناك أسر لازالت بأسمائها الحضرمية منها بيت الكاف والعيدروس والحبشي والحداد والحامد وبيت آل شهاب ومديحج وباعشن وبافضل وباذيب وباحشوان وباسويدان وباخبيرة والعطاس، وهناك مدرسة إسلامية اسمها مدرسة العطاس.

(١) والتي كانت تسمى منذ الثورة على النظام الملكي في الشمال عام ١٩٦٢ وحتى قيام الوحدة اليمنية المباركة في عام ١٩٩٠ بالجمهورية العربية اليمنية.

هناك أعلام في الأدب والفكر ورجال دين وصحافة نشطة وفي أندونوسيا خلال القرن المنصرم وحتى يومنا هذا، في سائر بلاد الملايو ولاسيما أندونوسيا يرى البعض أنهم يوازون أهمية أُدباء المهجر من بلدان الشام في العالم الجديد أمريكا والبلدان اللاتينية في جنوب القارة.

لم تأخذ هذه الخاصية حقَّها في البداية لدى الكتَّاب وفي وسائل الإعلام ولكن بوادرها بدأت على الأقل من قبل المهتمين وقد صدرت عشرات الكتب في الأدب وغيرها في مجالات أخرى تعكس الحضور العربي الحضرمي في بلدان الملايو..

المغرب بعيون يمنية

المغرب الأقصى وما عرف بمراكش من جملة البلدان التي طالما حلمت بزيارتها وزاد شوقي بعد زيارة نحو سبع مدن أندلسية . . ذلك أن أوجه الشبه بين مدن الأندلس والمغرب (فاس ومكناس وتطوان ومراكش) لم تقتصر على الجانب المادي من بناء وطبيعة . . . بل تعدَّته إلى الثقافي من عادات وتقاليد وتاريخ مشترك، وهي إلى جانب ذلك مدرسة مستقلة في التأريخ الإسلامي والأدب والفن والمِعمار .

والزائر لمدن المغرب العريقة يتلمّس خصوصية هذا البلد الجميل الغني بموروثه الحضاري . . فهو مزيج بين التاريخ والأسطورة . . تأريخ اشترك فيه مغاربة ومشارقة عرب وبربر وأفارقة، سكان أصليون ومهاجرو الأندلس الذين أُرغموا قسراً على مغادرة بلادهم بعد سقوط آخر الممالك العربية (غرناطة) . . وعلى مدى قرون من التلامس الحضاري تنوعت ثقافة المغرب في وعاء إسلامي . . كما لعبت العوامل الجغرافية دوراً مهماً فتأثر المغرب بتراث الأندلس، وتلاها عقود من الاحتلال الفرنسي والتي بلاشك أثَّرت في تكوين مفردات حياة قاطني هذه البلاد الكلاسيكية وشكَّلت بألوان الفسفيساء المغربية فنون البناء المراكشي ومساجد فاس وتنوع فنونه من غناء وموسيقى مغربية متأثرة بالموشحات الأندلسية وبأغاني زرياب! .

ومن أرض المغرب انطلقت جحافل الفتوحات الإسلامية إلى بلاد الأندلس والفرنجة ابتداءً من جيش (طارق بن زياد) ومروراً بدخول الفاتح (عبدالرحمن الداخل) مؤسس الدولة العربية الأموية في الأندلس وانتهاءً بعبور جيش السلطان (يوسف بن تاشفين) لنجدة أحد أهم ملوك الطوائف المعتمد بن عباد أمير إشبيلية[١] .

(١) لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع وتجنباً للتكرار يرجى مطالعة الفصل الخاص بزيارتي للأندلس وبالأخص مايتعلق بموضوع مدينة إشبيلية.. وقد تم ذكر التفاصيل الدرامية لسقوط حكم المعتمد على يد من أمدَّه بالعون يوسف بن تاشفين سلطان مراكش وقد انتهى الأمر بالمعتمد أسيراً في مدينة اغمات جنوب مراكش ومات فيها، وقد زُرت قبره عند زيارتي لتلك المدينة الرائعة.

في القرون اللاحقة غدت سواحل المغرب الشمالية مطمعاً للقوات الغازية من إسبانيا وفرنسا وغيرهما، ولازالت آثار الاحتلال الإسباني السياسية والاقتصادية في مدينتي (سبته) (ومليلة) ظاهرةً إلى يومنا هذا. !

وفي العقود الأخيرة وبعد استقلال المغرب وضمن بلدان المغرب العربي فقد غدت كما هو معلوم بلداناً طاردةً لهجرة معاكسة مجدداً حيث يوجد الملايين من المغاربة في الدول الأوروبية الفرنكونية (فرنسا بلجيكا سويسرا)فضلاً عن إسبانيا وإيطاليا وهولندا. . وذلك لقربه جغرافياً من أوروربا، فلا يفصلها عن الشواطئ الإسبانية سوى ثمانية عشر ميلاً. ! ولاعتبارات ثقافية وتاريخية يتكلم معظم المغاربة إحدى اللغتين الفرنسية أو الاسبانية.

وقد ساعدت ظروف عملي السابق في العاصمة البلجيكية بروكسل[(١)] لمعرفة طبائع الجالية المغربية عن قُرب والذين يشكِّلون نحو نصف الجالية المسلمة هناك والتي تقدَّر بما يقارب نصف مليون مسلم وعربي فلهم أحياؤهم ومحلاتهم من مطاعم ومكتبات ومساجد[(٢)] وقيامهم ببعض المهن والخدمات التي يحتاج إليها المقيم ولاسيما العرب والمسلمين القاطنين في العاصمة البلجيكية. .

والمغاربة كما عايشتهم سواء في أوروبا أو في مدن المغرب طيبون وكرماء. . بسطاء يكدحون من أجل لقمة العيش الكريم، غيورون على دينهم ووطنهم وعروبتهم. . وهناك من مغاربة في أوروبا من غير العرب (أي الأمازيغ) وهم أيضاً يتصفون بنفس الصفات ويتحدثون العربية باللهجة المغربية بحيث لايعرف المرء عن أصولهم اللغوية وقوميتهم إلا بعد حين.

كانت زيارتي للمغرب أواخر شهر رمضان وقد حرصت أن أعرف حياتهم عن قرب في هذه المناسبة الكريمة ولاسيما المدن العريقة مثل فاس ومكناس ومراكش. . وكل عموم المغرب

(١) وأثناء إقامتي في بلجيكا لنحو أربع سنوات كنائب للسفير في بروكسل والاتحاد الأوروبي تسنى لي زيارة عدد من البلدان الأوروبية التي لم أكن قد زرتها مثل إسبانيا وغيرها.

(٢) يشكل المسلمون في بليجكا نحو ٥٪ من إجمالي السكان الذين يقدر عددهم بنحو عشرة ملايين أي نحو نصف مليون مسلم ويشكل المغاربة ما يقارب نصف المسلمين المتواجدين في المدن البلجيكية واغلبهم في بروكسل ولهم ما يقارب المائتي مسجد ومصلى وحضورهم ملموس في الحياة الاقتصادية بل والسياسية وهناك أعضاء برلمان ووزيرة من أصول مغربية..

تقريباً يفاخر المغاربة بحفاوتهم بالمناسبات الدينية وتراهم يلبسون أزياءهم التقليدية رجالاً أو نساء ويرتادون المساجد ويتناولون المأكولات والمشروبات المغربية ويقتنون المصنوعات الوطنية من أواني الخزف المحلية التي تستخدم لوجبة (الطاجن) الشهيرة و (الحريرة). . ويلتقون مع أهاليهم لاسيما المهاجرين في أوروبا وهم بالملايين الذين يحرص أغلبهم على زيارة ذويهم في مثل تلك المناسبات الدينية. .

قبل عيد رمضان بأربعة أيام وصلت إلى مطار محمد الخامس بالدار البيضاء على إحدى طائرات أسطول الخطوط الملكية المغربية (الايرباص) قادماً من مطار بيروت وقد استقبلني صديق يمني عزيز يعمل موظفاً محلياً بسفارتنا في الرباط. . . وفي ظرف ساعتين نزلت بفندق (رويال) في قلب العاصمة الرباط والواقع على بعد خطوات من البرلمان ومحطة سكة الحديد الرئيسة في المدينة وليس بعيداً عن طرف شارع محمد الخامس أشهر شوارع العاصمة المغربية.

وفي الصباح الباكر ـ وقبل أن ألمَّ بمعالم العاصمة ـ غادرنا بسيارته الخاصة إلى فاس باتجاه الشمال الشرقي ومكثنا فيها يومين، وواصلنا إلى أفران في طريقنا إلى مكناس صبيحة اليوم التالي والتي بقينا فيها يوماً آخر، ومن ثم عدنا إلى الرباط صبيحة عيد الفطر، وبذلك كنت قد أنهيت زيارة الثلاث المدن الأولى من زيارتي للمغرب وبقيت في الرباط نحو يومين فقط ثم تابعنا زيارتنا للمدن المغربية، حيث زرت مع مرافقي أربع مدن أخرى باتجاه الشمال وهي أصيلة وطنجة وسبته وتطوان ومدن أخرى في الطريق مثل «القصر الكبير» و«شفشاون» وغيرهما. وبعد ثلاثة أيام أنهيت المرحلة الثانية لأبقى يومين آخرين في الرباط «استراحة المحارب»! كي أستأنف الرحلة إلى مراكش بالقطار وبقيت في مراكش الحمراء [(١)] ثلاثة أيام وعدت للرباط ليومين آخرين، بعدها اتجهت للعاصمة الاقتصادية أكبر مدن المغرب الدار البيضاء أو «كازا بلانكا» كما يسميها المغاربة.

أما بقية الأيام والتي تفصل انطلاق رحلة عن أخرى فقد قضيتها كاستراحة من عناء الترحال في ربوع مدينة الرباط الجميلة الوادعة وضواحيها والتي استغرقت نصف أيام الرحلة.

(١) عرفت مراكش بالمدينة الحمراء لأن كل منازلها وعمارتها وبواباتها تقريباً مصبوغة باللون الأحمر. وهي عاصمة الموحدين وقد أسسها أمير المؤمنين يوسف بن تاشفين. وقد زرت أيضاً ضريحه والذي يقع وسط المدينة.

الحياة في مدن المغرب الكلاسيكية في المناسبات الدينية بالنسبة لزائر من اليمن والمشرق العربي تعيده الذكريات لعقود مضت بعد انقراض الكثير من عاداتنا في مثل هذه المناسبات، بينما ظل المغرب محافظاً عليها إلى حدٍّ ما، وهذا ما أكسبه لوناً خاصاً وعامل جذب سياحي لكل زواره عرباً كانوا أو غيرهم. ولم نعد نسمع عن تلك التقاليد إلا في بطون الكتب أو المسلسلات التلفزيونية!

المغاربة يميلون للتنوع في ملابسهم وموسيقاهم ومأكولاتهم بل وألوان مدنهم فمراكش يغلب عليها اللون الأحمر وسُمّيت بالمدينة الحمراء... بيوتها وأسوارها وقلاعها وقصورها منذ أمد طويل. بينما شوارع أغلب المدن المغربية ولاسيما الساحلية يغلب عليها الطابع الأبيض حيث يطلون به منازلهم بينما أبوابها مطلية باللون الأزرق، وهذا ليس في المغرب فقط بل وفي معظم مدن شمال إفريقيا وجنوب أوروبا المتوسطية (اليونان وجنوب إيطاليا وإسبانيا).

وهو الأمر نفسه بالنسبة لطباعهم كغالبية الشعوب المتعددة الأعراق والثقافات متباينة في مفردات حياتهم وهناك تنوع ملموس يميزها، فقد اشتهر أهالي مراكش بروح النكتة والفن بكل مجالاته وغدت مراكش هوليود شمال أفريقيا والعرب..! وبالقرب منها أُنشئت مدينة متكاملة واستديوهات لتصوير أشهر الأفلام والمسلسلات العالمية.. بينما عرفت فاس بكونها كنزاً ثقافياً وبنُخَب من العلماء والسّاسة ورجال المال..وبأنها تضم صفوة برجوازية المغرب، في حين عرف أهالي مدن الشمال الساحلية بالزراعة والصيد والتجارة أو الهجرة لذا يلاحظ ميلهم أكثر من غيرهم لاكتِساب لغات أخرى إلى جانب اللهجة المحلية بفعل التلامس الحضاري مع أوروبا على مدى قرون، وتأثرهم اجتماعياً وثقافياً.

دخلتُ أماكن ومساجد في عدة مدُن ولاسيما في فاس حيث استِضافتنا إحدى أُسر فاس ولاحظْت منازلهم من الداخل، وهي كثيرة الشبه بمنازل قُرطبة في الأندلس ولكنها مفتوحة للداخل على بهو تزينه أشجار في أوانٍ معلَّقة أو على الأرض حول بركة صغيرة، بينما تظهر من خارجها والمطلة على الشوارع عادية وهو الطراز نفسه في منازل أهل الشام (بعض بيوت دمشق القديمة) ورغم أنها من الخارج مطلية باللون الأبيض دون زخارف أو نقوش وذلك بخلاف

الحال في صنعاء[١] اليمن على سبيل المثال حيث تميز فن المعمار الصنعاني بزخرفة الخارج أيضاً. . إلا أن أهل المغرب والأندلس يهتمون ويبالغون في تجميلها من الداخل بنقوش الفسيفساء والزخارف ولكنها في الجملة تتبع الطراز المغاربي الأندلسي الأموي بينما طراز البناء في مدن المشرق كبغداد وصنعاء وأصفهان وأسطنبول وغيرها لها تفاصيلها الهندسية المختلفة، ولكل منها مدرسة مستقلة بذاتها.

والعامل المشترك بين بعض المدن الإسلامية هو سبيل الشرب المنتشر في تلك المدن والذي انقرض من بعض تلك المدن وغدت مجرد مبانٍ فارغة للفرجة ليس إلا!

هذا فضلاً عن بعض المعالم الحضارية التي تشترك فيها أغلب المدن التي شهدت مداً حضارياً وتأريخياً عريقاً كالمساجد المتقاربة والأسوار والأبواب. . إلخ.

أخيراً نلت ماتمنيته من زيارة مدن المغرب منذ أمد بعيد، وقبل أن أبلغ أراذل العمر وطالما قد شددت الرحال وتكبدت عناء السّفر فقد تأملت أدقَّ التفاصيل لمدن المغرب بحدس المتطلع للمعرفة بعد طول انتظار وبِوَلَهِ العاشق للتأريخ بكل أمجاده وعظمته وشغف الرحَّالة الباحث وليس السائح العابر!

زيارة فاس ومكناس:

فاس بالنسبة للباحث وعاشق التأريخ فضاءٌ رحبٌ ومجالٌ خصبٌ للتأمل. . . فهي واحدة من أعرق المدن المغربية وعاصمة دولة الأدارسة، اشتهرت بالثقافة والعلم ورجالات السياسة والمال. .

(١) عندما أشاهد تهافت السياح على مدن المغرب أقارن ذلك ببلدي اليمن ولاسيما مدنه التاريخية صنعاء القديمة وشبام حضرموت ومأرب وغيرها من الأماكن التي يفترض أنها تجذب ملايين السياح سنوياً وصحيح أن استراتيجية تحويل اليمن إلى بلد سياحي ليكون رافداً اقتصادياً لموارده الأخرى والشحيحة أصلاً مقابل الانفجار السكاني فإن جهود المؤسسات السياحية والثقافية والإعلامية وتوسيع قاعدة الخدمات في تلك الأماكن المقترحة لاجتذاب السياح هي عامل مهم إلا أن العامل الأساسي هو حل المشكل السياسي والأمني وإرساء دولة النظام والقانون وسيادة المؤسسات وهذه لاشك إلى جانب العوامل المذكورة ستجلب الاستثمارات في مجال السياحة من الداخل والخارج وستقفز باليمن في خلال عقد من الزمن إلى منافسة بعض دول المنطقة مثل تونس والمغرب ومصر.

تنقسم فاس إلى ثلاثة أجزاء «فاس البالي» على حد تعبير المغاربة!أي المدينة القديمة، وفاس الجديدة وهي في الحقيقة ليست جديدة فهذا القسم له نحو ثمانمئة عام (أي منذ القرن الثالث عشر الميلادي) وقياساً لفاس البالي التي لها أكثر من ١٢٠٠ عام تعتبر جديدة! وهناك فاس التي بناها الاحتلال الفرنسي، هذا غير الأحياء الحديثة التي بُنيت على مدى العقود القليلة الماضية بعد استقلال المغرب تكاد تكون ثلث فاس الكبرى.

وتضم فاس[(١)] مئات المساجد وعدداً كبيراً من القصور والدور القديمة والبوابات والأسوار وتعدُّ من كبريات المدن المغربية وهي في الجملة مدينة واسعة وتعتبر ثالث مدن المغرب سكاناً، حيث يزيد تِعداد سُكانها عن الثلاثة ملايين نسمة.

فاس مدينة متوَّجة بتاريخ مجيد، وهي تجسيد لحضارة عريقة متألقة مطعَّمة بسِحْرِ الشرق، بثَّ في حاضرها روعة وجمالاً وترك بصماته على كل مفرداتها، فتستطيع أن تلمسها في موسيقاها، وفي مآكلها، وفن العيش، وفن العمارة، فأصبحت مركزاً دينياً وسياحياً وجامعياً. ويتجسد هذا في جامع وجامعة القرويين، أول جامعة في العالم العربي، وكذلك الزوايا والأضرحة والقصور والأسواق والأحياء والصناعات اليدوية التي ميزت المدينة وأعطتها هذه الروعة والبهاء.

وفاس من أهم المدن المغربية والإسلامية التي حافظت على طابعها الكلاسيكي ولم يختلط بها العمران الحديث كما هو الحال في كثير من مدن عربية أخرى[(٢)].

صادفت زيارتي لفاس ومكناس الثلاثة الأيام الأخيرة لشهر رمضان حيث تسنى لي معايشة

---

(١) أسسها المولى إدريس بن عبد الله الأزهر سنة ١٧٢هـ/ ٧٨٩م أول ملوك الأدارسة كانت في القديم بلدتين، لكل منهما سور يحيط به وأبواب تختص به، والنهر فاصل بينهما وقد ظلت المدينة مقسمة هكذا إلى أن دخلها المرابطون فأمر يوسف بن تاشفين بتوحيدهما وجعلهما مدينة واحدة فصارت القاعدة الحربية الرئيسية في شمال المغرب للدول المتتالية التي حكمت المنطقة.

(٢) في السبعينيات من القرن الماضي جرى معرض ومسابقة لأجمل المدن الإسلامية في اليونسكو بباريس وفازت ثلاث مدن عريقة هي أصفهان وفاس وصنعاء والسبب بأن هذه المدن دون سواها تكاد تكون المدن الوحيدة المحافظة على تقسيم الحديث مع القديم ولم يتم الخلط على غرار مدن أخرى في أغلب البلدان الإسلامية.

طقوس رمضان في أقدم وأجمل مدن المغرب بالقرب من جامع القرويين الذي أدَّينا الصلاة فيه وهو يعُجّ بالمصلين الذين توافدوا إليه من كل أنحاء المدينة وعموم المغرب لقدسيته. . لأن فاس هي العاصمة الروحية للمغرب وجامع القرويين يعتبر أقدم جامعة إسلامية في المغرب الأقصى والبلاد الإسلامية.

وللمهتمين هناك مكتبة عامرة بأمهات الكتب في التراث العربي والمغاربي خصوصاً مودوعة في خزانة الكتب الملحقة بجامع القرويين، وتستقبل أعداداً هائلة من الطلبة في المغرب وخارجها والزائرين وفيها أعداد هائلة من الكتب النادرة وفي كل العلوم والمعرفة، والكثير منها مخطوطات البعض منها موقوفة باسم مؤلفيها وممن زاروا أو درسوا في (القرويين)، منها (كتاب العبر، وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر) للعلامة ابن خلدون الذي زار فاس في عِزّ مَجْدِها وأوقف نُسخة أصلية لهذا الكتاب الذائع الصيت، قيل لنا بأنها بخط يده، والذي يعدُّ بحق موسوعة تاريخية، ويقع في سبع مجلدات يتصدرها كتاب المقدمة.

و كانت فاس إحدى ركائز الصراع بين الأمويين في الأندلس والفاطميين الذين حكموا بعض أقطار شمال إفريقيا و ظلت المدينة تحت سيطرة الأمويين في الأندلس لمدة تزيد على الثلاثين عاماً وتمتعت خلالها بالازدهار الكبير.

في التاريخ الحديث كانت فاس[١] عاصمة المغرب حتى عام ١٩١٢م (فترة الاحتلال الفرنسي والتي استمرت حتى ١٩٥٦م) وتمَّ فيها تحويل العاصمة إلى مدينة الرباط. وفي تأريخ المدينة الحديث فقد هاجر العديد من سكان فاس للمدن الأخرى وخاصة يهود المدينة، إذ أُفرغ حي «الملاح» تماماً من ساكنيه، وكان لهجرة السكان من المدينة أثر اقتصادي سيئ.

(١) ارتبط مصير فاس بالأحداث في الأندلس وبانهيار الحكم الأموي في قرطبة زالت جميع أنواع المعارضة للحكم الفاطمي في شمال إفريقيا وفي فاس خصوصاً وحدث فراغ في السلطة في شمال المغرب سد ذلك الفراغ المرابطون وهم من البربر وكانوا مقاتلين أشداء انتعشت وقتها كل من فاس ومراكش وبعدهم جاء الموحدون من الجنوب واستولوا على فاس وبعد المرنيين جاء السعديون الذين نقلوا العاصمة إلى مراكش ثم جاء العلويون والذي فضل أول حاكم لهم نقل العاصمة إلى مكناس.

إضافة لطبيعة فاس الخلابة تحتفظ فاس أيضاً بالعديد من المعالم التاريخية التي يقبل السائحون على زيارتها وفي مقدمتها أسوار المدينة القديمة، وبواباتها الثمانية ذات العقود المزخرفة وهي من إنشاء (المرينيين) وإن جرى تجديد بعضها في عهود لاحقة.

والذي لاحظته بأن فاس تعاني من تكدّس سكاني وتعدُّ الأكثر كثافة في المغرب، وكثرة الحوانيت ومحلات الصناعات التقليدية والمباني الأثرية وهذا إضافة إلى جغرافيا فاس القديمة وطبيعتها المعمارية حيث الأحياء المتداخلة في صعود وهبوط تستدعي ضرورة استخدام الحمير في بعض أجزائها تماماً مثل بعض مناطق طليطلة القديمة عندما زرتها قبل بضع سنوات من زيارتي مدن المغرب حيث لا يمرُّ من هنا إلا المشاة أو الدواب، ولاتستطيع أي سيارة التجوال في تلك الأزقة مهما صغُر حجمها![1].

كان مرافقي يعرف أسرة مغربية يقطن بعضها في الرباط والتقينا مع صديقه حسب الموعد عند إحدى بوابات جامع القرويين الشهير بعد صلاة ظهر ذلك اليوم والذي رافقنا لمدة ساعات في أزقَّة فاس ولم يكن يخطر ببالنا أنه يُعدُّ العدَّة لاستضافتنا لعشاء وسمر رمضاني مغربي، وكان منزله في قلب المدينة ولا يبعد كثيراً عن جامع القرويين، رحب بنا وبعض أفراد أسرته تناولنا وجبة العشاء وبعدها قدموا لنا حلويات مغربية ومكسرات وشاياً أخضر على الطريقة المغربية، وبالمناسبة لهم طقوسهم الخاصة في شرب الشاي فإذا كان الصينيون هم أول شعب اكتشف الشاي فالمغاربة هم من أبدعوا في تحضيره وتذوقه، وجعلوا له طقوساً احتفالية، لا تقتصر على المناسبات والأعياد فقط، بل أصبحت جزءاً من الحياة اليومية. فالشاي أو «اتاي» بالعامية المغربية، يحضر طوال النهار، وفي جميع الأوقات سواء في الصباح الباكر، أو حتى في ساعة متأخرة من الليل، والشاي عند المغاربة قبل أن يكون مشروباً يومياً، هو أيضاً وسيلة للترحيب بالضيوف، إذ لا يمكن أن تدخل بيتاً سواء كان أهله من الفقراء أو الأغنياء، إلا وسارعوا إلى إحضار صينية الشاي، والشيء اللافت للزائر هو جمالية الأدوات المستعملة لتحضيره وتقديمه، فالصينية والبراد «الإبريق» مصنوعان من معدن الفضة الخالص، أو من معدن مشابه له، والخاصية المشتركة بينهما هي اللمعان، كما أن الصينية تكون مزينة بنقوش يدوية

(١) من صحيفة الشرق الأوسط اللندنية العدد ١١٧٨٥ الصادر في ٥ مارس ٢٠١١.

أندلسية، وكذلك الشأن بالنسبة «للبراد»، الذي يتخذ شكلاً فريداً وشامخاً، لا نجده في أي بلد آخر، وتعدُّ مدينة فاس المنبع الرئيس لأدوات الشاي، حيث حافظ الحرفيون على هذه الصناعة التقليدية التي تحمل بصمة أندلسية، تدل على البذخ والفخامة!.... وترافق الصينية والبراد، أدوات أخرى يطلق عليها «الربايع» وهي ثلاث علب من نفس المعدن، مخصصة للشاي والسكر والنعناع.

لم يكن اختيار فاس عاصمة ثقافية للمغرب عشوائياً فهي بالفعل مدينة ثقافية بامتياز، وأنجبت فاس أعلام فكر وأدب على مدى قرون خلَتْ، وفي العصر الحديث برز منها الطاهر بن جلون وعلال الفاسي وغيرهما.

تجوَّلنا في شوارع وأزقَّة فاس العتيقة... ومن أسواقها وأزقَّتها ومساجدها يفوح عبق تأريخها المجيد.. ولاحظنا سبيل الماء الموزع في كثير من حارات فاس (البالي) كان مرافقنا من أهالي المدينة يشرح لنا بزهو أهم معالمها ومنها أحواض صباغة ودباغة الجلود التي تشتهر بها فاس دون سواها والمغرب مُصدِّر أساسي للجلود وصناعاته الوطنية يدخل فيها عنصر الجلود.

من كثرة المعروض في أسواق فاس وعموم المدن أدركت مدى أهمية الجلود وكثرتها وبكونها مهنة أساسية توارثتها الأجيال وغدت مهنة تقليدية تجتذب السياح[(١)]، كما زرنا محلات تقليدية مشهورة ببيع عصارة الزيوت والعطور الزكية والبخور والحناء وهو ماتشتهر به أغلب مدن المغرب، وكذلك زرنا حوانيت للصياغة وبيع الأحجار الكريمة.. وفيها يتاح للزائر أن يشاهد عن قرب الصنَّاع والصاغة وهم يصنعون حليه أو قلادة أمامه وبسعر معقول، فعلاً كانت بالنسبة لي لأول مرة أرى بملء العين تفاصيل صياغة الحلي والقلادات التي ضمن مكوناتها)المرجان (و)العقيق (و)الياقوت (و)الزمرد (... مسميات لم أكُن أسمع بِها إلا في بطون الكُتب..!

أسواقها عامرة بالبضائع كثير منها صناعات محلية تنتشر المكتبات في عدة أماكن من

(١) ومن يزور أماكن دباغة الجلود في فاس يسمع عن «العرسة» و«الكبيرة» و«شوارة» و«الدورية».. كلها أسماء لأماكن دباغة الجلود في مدينة فاس القديمة، أعرق حواضر المغرب، التي اشتهرت بهذه المهنة منذ ٣ قرون.

المدينة القديمة والمجاورة لجامع القرويين، وهو مايعكس الوجه الثقافي لفاس فكثير من العلماء والساسة والأدباء هم من أبناء هذه المدينة.

عُرِفت فاس ببيوت عريقة كأسرة ابن جلول[١] وبناني والكتاني والتازي والعلوي والعلمي والعمراني وابن كيران [٢]، كما عرفوا بنفوذهم العلمي وفي عالم السياسة والمال ويصفهم البعض ببرجوازية المغرب على مرِّ العصور[٣].

يقول أحد أعلام فاس: «.. بأن سكانها أكثر أهل المغرب ذكاءً وأشدَّهم فطنة وأرجحهم عقلاً وألينهم قلوباً وأكثرهم للصدقات وأعزهم نفوساً وألطفهم شمائلاً وطباعاً وأقلهم خلافاً على الملوك وأكثرهم طاعة لولاتهم وحكَّامهم..».

ورغم قراءتي المسبقة عن فاس وبعض مدن المغرب لا أنكِر الانبهار والإعجاب بل وتفاجأت بالفعل لكثرة معالمها وحيويتها بحيث لم أقتنع بزيارتها ليومين فقط، بعد ذلك غادرتها وفي نفسي إحساس بأني قد أعود إليها يوماً ما غادرتها لزيارة جارتيها مكناس وأفران ذواتي الطقس الرائع صيفاً.

وهكذا لضيق البرنامج وكثرة المدن المنتظر زيارتها فقد حرصت قدر الإمكان أن أعطي كل مدينة حقها من الوقت الكافي إن أمكن والتحرك في زوايا وخبايا تلك المدن، حتى لو

(١) يقول الكاتب الشهير الطاهر بن جلول بأن أهل فاس «يشعرون بنوع من التفوق لأن بشرتهم بيضاء وناعمة وحتى فقراؤهم يرغبون في العيش على شاكلة الأرستقراطيين! لأنهم أهل الحاضرة رجال الداخل والأسوار ترعاهم أمهاتهم وزوجاتهم.. حذرون ومخططون وأنانيون غالباً كرماء فقط مع ذويهم وباعتبارهم حراس التقاليد فإنهم لا يشاركون في الحروب بل يمارسون السياسة فحبهم الشديد لأجسامهم يجعلهم يخشون تعريضها لعنف الحجر..!وطيلة تأريخهم تزوجوا فيما بينهم ويقفلون أبوابهم خوفاً وكراهية للأجنبي.. ويعتبرون أجنبياً كل من لا ينتمي إلى فاس»!

(٢) وكل هذه الأسر تولت مناصب عليا في الدولة سواء في الماضي أو بعد الاستقلال والعمراني وعبد اللطيف الفيلالي وعز الدين العراقي وابن كيران بعضهم أكثر من مرة وهناك أكثر من وزير من الأسر علال الفاسي والفاسي الفهري وابن جلول والتازي.

(٣) محمد إدريس الكتاني في كتابه «سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس».. نقلاً من كتاب أهل فاس المال والسياسة للدكتور حسن قرنفل وهو أيضاً من أهالي وأعيان فاس، والكتاب صادر عن دار أبي رقراق للطباعة والنشر في الرباط الطبعة الأولى عام ٢٠٠٧.

تحمَّلت أعباء الترحال المعروفة، وأحمد الله الذي منحني قوة التحمل والتجوال في أزقَّة فاس ومكناس وأخواتهما في شمال المغرب (تطوان) وجنوب البلاد (مراكش)والتمتع بمشاهدة معالمها .

مولاي يعقوب:

غادرنا فاس وقبل توجهنا إلى أفران ومنها إلى مكناس عرَّجنا على منطقة استشفائية شهيرة تسمى مولاي يعقوب وهذا المنتجع يقع وسط سلسلة من التلال في ضواحي فاس المغربية، وعلى بعد نحو عشرين كيلو متراً، والذي لم يكن قبل سنوات سوى بركة صغيرة، لكنه أصبح حالياً مجمعاً طبياً وسياحياً كبيراً يلجأ إليه كثير من المغاربة والأجانب للتداوي من أمراض الروماتيزم والتهاب المفاصل والأمراض الجلدية، وتُعدُّ «حامة مولاي يعقوب»، (مركز هذا المنتجع)، ويُعدُّ أول منشأة سياحية عصرية في المغرب بمواصفات دولية، خاصة بعد أن أُنشئت بها حمامات طبية ومعدنية حديثة أواخر ثمانينيات القرن الماضي بتمويل محلي وخليجي. وتقول الروايات: إن ارتباط هذه المياه باسم «السلطان مولاي يعقوب» مردُّها إلى أنه كان يعاني مرضاً استعصى علاجه، غير أنه حينما استحمَّ بهذه المياه شُفي بعد بضعة أيام![(١)] .

المرور على مدينة أفران:

هي بحق (سويسرا المغرب) ذات الطقس البارد صيفاً والمكسوة بالثلوج شتاءً، وفيها يقطن أغنياء المغرب والمشرق. غابات من الأشجار الكثيفة وحدائق غنَّاء وسيَّاح يجولون ويتنزهون في تلك الأجواء الطبيعية الساحرة.

ومن يَزُرْ أفران في الغالب يشاهد في أحد ميادينها الهادئة تمثال الأسد الرابض وسط المدينة والمنحوت من الحجر ويكاد يكون شعاراً أو رمزاً لهذه المدينة الرائعة، ولا تكتمل

(١) وتمتع بمياه حارة تتجاوز ٤٥ درجة، وتحتوي على عدة عناصر مثل الكبريت والملح، وعلى خصائص فيزيائية مما يجعلها ذات فعالية كبيرة في علاج الأمراض الجلدية وبعض أنواع الروماتيزم، ومرتادو «مولاي يعقوب» من جميع الشرائح الاجتماعية، فقراء وأغنياء، منهم من يستفيد من مرافق المنتجع الفاخرة والعصرية، ومنهم من يكتفي بالحوض العام، كل حسب إمكانياته المادية وميزانيته الخاصة، وكانت هذه العين اكتشفت عام ١٩٠٠ ولم يتم تجهيزها إلا في عام ١٩٦٥.

طقوس زيارة المدينة إلا بأخذ صورة تذكارية بجانبه . . !، ولا تعرف على وجه الدقة حكاية هذا التمثال، لكن يشاع ـ وكما حدثني مرافقي ـ بأن أسيراً ألمانياً خلال الحرب العالمية الثانية هو الذي تكفَّل بنحته مقابل إطلاق سراحه!وفي أفران واحدة من أهم الجامعات المغربية، وهي «جامعة الأخوين» التي تتمتع بسمعة أكاديمية كبيرة وتتبع مناهج الجامعات الأميركية[(١)] .

مكناس:

غادرنا فاس وأفران قبل يومين من انتهاء رمضان بحيث تسنى لنا معايشة الأيام المباركة في مثل تلك المدن التاريخية والعواصم الإسلامية ذات التأريخ العريق. . وهي شديدة الشبه بجارتها مكناس وبينهما نحو ستين كيلومتراً.

وتعتبر مكناس إحدى حواضر المغرب الشهيرة، وقد رأت النور منذ القرن العاشر الميلادي، وازدهرت مكناس مع مجيء المرابطين على يد السلطان (مولاي إسماعيل) الذي أمر ببنائها لتكون العاصمة الجديدة لمملكته؛كان طموح المولى إسماعيل أن يجعل مكناس مدينة تضاهي العواصم الأوربية حتى أنها وصفت بفرساي المغرب مقارنة مع فرساي الملك لويس الرابع عشر المعاصر للمولى إسماعيل وقد عرفت المبادلات والسفارات بين العاهلين شأناً كبيراً آنذاك.لم تتنازل مكناس عن أهميتها كمدينة هامة وحاضرة كبرى حتى عندما فقدت صفتها كعاصمة سياسية للعلويين خلال المنتصف الثاني من القرن الثامن عشرالميلادي لصالح جارتها فاس في بداية الأمر إذ كانت سكناً مفضلاً لعدد من الأمراء ورجال الدولة، أما خلال خضوع المغرب للحماية الفرنسية فإنها استعادت بعض أدوارها كموقع استراتيجي له أهمية عسكرية واقتصادية بالدرجة الأولى وترجم اهتمام سلطات الحماية بهذا الموقع من خلال فتح معامل، ولتشييد مدينة جديدة على الطراز الأوربي بشوارعها وعماراتها وحدائقها وأحيائها الصناعية والتجارية والسكنية وكافة مرافقها الإدارية والعسكرية والرياضية والثقافية ولعل المآثر التاريخية

(١) وتقع الجامعة المذكورة عند سفوح جبال الأطلس بضواحي أفران وهي بالإضافة إلى جمالها المعماري تتمتع هذه الجامعة بموقع جغرافي باهر وتجهيزات عالية الجودة والحداثة مما يجعلها متميزة عن كثير من الجامعات العربية والدولية.وتعود تسمية الجامعة إلى الملكين الراحلين السعودي فهد بن عبدالعزيز والعاهل المغربي الراحل الحسن الثاني حيث ساهمت السعودية في بناء تلك الجامعة.

التي تربض بين جنباتها تُعدُّ شاهد إثبات، على أصالة هذه المدينة، فهي بأسوارها وأبراجها وبساتينها، بقصورها ودورها وبمآذنها ومساجدها، بساحاتها، بزواياها وأزقّتها وعادات وتقاليد ساكنيها تُعدُّ متحفاً نابضاً وشاهداً حياً على تاريخ هذه الحاضرة.

واليوم فإن أكثر ما تفخر به مكناس هو مآثرها الإسماعيلية كباب الرايس والبردعيين باب جديد وباب وقصر المنصور ومربط الخيول وساحة لالة عودة وأسوار والأبراج العديدة الشامخة فضلاً عن المدينة العتيقة وجوامعها ومآذنها العديدة وأضرحتها وزواياها... لقد استحقت المدينة بما تحتضنه من مآثر تاريخية مهمة أن تسجل لدى منظمة اليونيسكو في قائمة التراث العالمي سنة ١٩٩٦.

لقد ساعد هذا الموقع أيضاً على التمازج البشري والاندماج الثقافي والحضاري بين مجموعات بشرية متعددة الروافد: (أمازيغية) من الأطلس المتوسط والريف و (صحراوية) عربية وإفريقية، إضافة إلى جالية (يهودية) نشطة استوطنت المنطقة مما شكل مجتمعاً متفاعلاً ومندمجاً يعطي صورة واضحة عن التركيبة البشرية المغربية التي تبلورت عبر العصور [(١)].

الرحلة إلى طنجة ومدن شمال المغرب:

في طريقنا إلى مدن شمال المغرب اقترح مرافقي ألا نسلك الطريق السريع حرصاً منه على تمتُّعنا لمشاهدة أماكن ومدن وقرى متناثرة في جانبي الطريق على عكس الخطوط السريعة ـ والتي بنتها شركات خاصة تجبي عوائد كثيرة لقاء مرور كل مركبة وسيارة عبر بوابات خاصة... ـ تماما كُما هو معمول في أرقى البلدان ولكِننا كسيَّاح نأمل مشاهدة الكثيرة بتأنٍّ وبدون عجالة فنحن في كل الأحوال في رحلة ولدينا متسع من الوقت وهكذا أتيحت لي رؤية مدن وقرى لم

(١) يتوزع الناطقون باللغة الأمازيغية في المغرب على ثلاث مناطق جغرافية واسعة، وعلى مجموعة من المدن المغربية الكبرى، وعلى عدد من الواحات الصحراوية الصغيرة..المناطق الثلاث في الشمال والشرق لاسيما طنجة وتطوان ومدن الشرق ووجده وهذه تسمى منطقة الريف ومنها انطلق البطل الوطني المغربي عبدالكريم الخطابي في جهاده ضد الاحتلال الإسباني. والأطلس المتوسط هي منطقة واسعة متنوعة جغرافياً ومناخياً لا تطل على البحر، وتتميز بقساوة في المناخ تتراوح ما بين البرد القارس في أعالي جبال أطلس وجفاف الصحراء الشرقية.ومناطق سهل سوس وهي مناطق واسعة متنوعة يغلب عليها المناخ الدافئ قرب البحر والحار في الداخل والبارد في جبال الأطلس.

تكن تخطر ببالي وليست في خطتي المسبقة التي ركزت فيها فقط على بضع مدن رئيسية. . . ففي رحلة شمال المغرب مررت مرور الكرام بمدن صغيرة مثل سلا (والتي تعتبر الشطر الثاني لمدينة الرباط الكبرى) ثم (القنيطرة) و (بوسلهام) و (أصيلة) التي توقفنا فيها لأقل من ساعة ومن طنجة مررنا بمدن صغيرة أخرى مثل القصر الصغير و (الفنيدِق) و (تطوان) ثم (شفشاون) في طريق العودة إلى الرباط، وخلال استراحة نحو ساعتين في أصيلة والتي عرفت بأنها مدينة الفنون والرسم ويقام فيها سنوياً مهرجانات وعروض فنية يحضرها أعداد هائلة من المثقفين من مشرق الوطن العربي ومغربه. . وغادرنا إلى طنجة المدينة الرائعة والتي تقع على ملتقى بحري الأطلسي والبحر المتوسط وهي مسقط الرحالة الشهير ابن بطوطة كما أنها تضمُّ رُفاته[(١)].

طنجة بوابة المغرب الشمالية:

هي مدينةٌ حالمة رابضةٌ على حافة مضيق جبل طارق منذ الأزل، منها عبرت جيوش طارق بن زياد لفتح الأندلس، وإلى شواطئها رجعت نسبةٌ كبيرةٌ من الأندلسيين، مطرودين من بلادهم، في قوارب الحزن، تدفع الرياحُ أشرعَتها السوداء نحو المجهول. . البحر هو نفس البحر، والمسافة بين الضفتين لم تتغير قيد أنملة، لكن العيون اختلفت في النظر إلى كِلا الضفتين. . السفن تعبر المضيق اليوم بمسافرين بشروط ووثائق سفر صارمة، والضباب الذي يخيّم على المنطقة يمحو كل أثرٍ لضفاف الأندلس التي صارت اليوم ذكرى للتاريخ، تماماً كما لو أن تلك الحقبة الطويلة رُسمت على سطح الماء. . . طنجة مثل كثير من مدن المغرب تضم أحياء عتيقة كلاسيكية، وأخرى من زمن الاحتلال الإسباني أو الفرنسي وأحياء حديثة بُنيت قبل عقود أي منذ استقلال المغرب وحكم محمد الخامس للمملكة المغربية بعد عودته من المنفى[(٢)].

---

(١) وبالمناسبة زرت ضريحه رغم أني لست مقتنعاً بأنه قبر الرحالة ابن بطوطة ويقع في زقاق لا تدخله سيارة وقد دلنا أحد المارة من ساكني الحي بقلب المدينة ورغم وجود لوحة تشير أنه قبره واسم الشارع ابن بطوطة إلا أن دليلنا قال بأن هناك جدلاً حول صحة ذلك وقد رجعت بالفعل للبحث في بعض الكتب وبالفعل قيل إنه قبر لأحد أولياء المغرب.

(٢) من برنامج وثائقي في قناة الجزيرة القطرية وأعيد نشره على موقع القناة في الشبكة العنكبوتية.

لم يكن يخطر في بالي مدى ضخامة المدينة واتساعها فهي تقع بين أراضٍ خضراء وبحر ووديان خصيبة... فيها مبانٍ حديثة شاهقة على البحر بل وأجمل من الدار البيضاء نفسها التي تعتبر واجهة المغرب التجارية والاقتصادية..

بعد تأمين فندق جميل بالقرب من شارعها الرئيسي المطلّ على البحر تجوَّلنا في شوارعها وميادينها وبدأنا بالتجوال في إحيائها القديمة ومن ثم الأماكن الحيوية التجارية سواء تلك المطلَّة على البحر أو الأسواق العتيقة في عمق المدينة..

طنجة الهاجعة على ضفاف بحرين: المتوسط والأطلسي يلتقي عند أقدامها عباب بحر لجيٍّ.. تتلاطم أمواجه بدلال وتطل عليه شوارعها الأنيقة بتناسقها ونظافتها تزينها أشجار النخيل الباسقة، وتنتشر الفنادق والمطاعم التي تعرض على زائريها أصناف الأطعمة في إطلالة قلَّما تجدها في بلد آخر وبأسعار معقولة!

تميزت مدن المغرب العربي بتشجير شوارعها ولاسيما في مدن المملكة المغربية طنجة والدار البيضاء والرباط وكثير من المدن الساحلية على المتوسط أو المحيط الأطلسي، وطنجة رائعة وساحرة بإطلالتها وازدحام المتنزهين على كورنيش البحر مع نسائم الغروب مقاهٍ ومطاعم جميلة وأنيقة تمتد بامتداد الشاطئ طنجه تبدو مدينة مولودة من رحم الأساطير أحبها الكثيرون من الشعراء والكتَّاب والفنانين وأقاموا فيها... مدينة لاتنام كل دروبها تقود إلى البحر، على الطريق تنتصب الفنادق الفخمة.. ارتشفت الشاي المغربي المثقل بحلاوة السكر والنعناع في مقهى مطلٍّ على المحيط بجوار (مغارة هرقل) الشهيرة تلك المغارة التي غدت قبلة للسائحين فهي بجانب كونها أعجوبة الطبيعة وفاردة الجغرافيا فإنها بتأريخها وما يكتنفها من غموض جعلها أقرب إلى الأسطورة المرئية، وأصبحت المغارة إحدى نقاط الجذب لسيَّاح المغرب وطنجة على وجه الخصوص، وبالقرب منها متنزهات للمدينة سنحت لنا وقفة استراحة واسترخاء لبعض الوقت والتأمل لمنظر فريد حيث تلتقي وتختلط مياه بحرين هما الأبيض المتوسط والمحيط.

في أحد أشهر شوارع طنجة والمطلَّة على المحيط تتناثر أعداد كبيرة من المحلات التجارية الراقية والشركات والمكاتب والمطاعم والمقاهي.. تناولنا الغداء في أحد تلك المطاعم ذات

الإطلالة الرائعة وكان النادل غريب الأطوار عندما لاحظ أكثر روَّاده في ذلك الحين من العرب المشارقة وكثير منهم من بلدان الخليج كان يتكلم العربية الفصحى بطلاقة «كما أُنزِلَتْ».. !، ولكننا لاحظنا أيضاً مجاملته وتمييزه لزبائنه مع أن أغلبهم من المشرق ولكن هناك المشارقة الأثرياء والذين تميزوا ليس بلهجتهم فقط بل بلباسهم المعروف وهناك المشارقة أمثالنا والمهم انتظرنا كثيراً لوجبة الغداء مع أن البعض تم تلبية طلبه في وقت قصير فقلت له على سبيل الطرافة والعتاب بيت شعر معروف:

رأيــت الــنــاس قــد مــالــوا ... إلــى مــن عــنــده مــالُ

ومــن مــا عــنــده مــالُ ... فــعــنــه الــنــاس قــد مــالــوا

فأعجبه بيت الشعر وعندما مرّ علينا مرة أخرى قال لي باللهجة المغربية مبرراً تأخره بأنه (يخدم لوحده جِزَاف) بمعنى أنه الوحيد من يخدم كل من في المطعم في ذلك الوقت! ولكنه كان حريصاً على الاستماع من الزبائن فقال: هل لديك مقولة أخرى أو تكملة لهذا الشعر؟ فقلت له:

رأيــت الــنــاس قــد ذهــبــوا ... إلــى مــن عــنــده ذهــبُ

ومــن مــا عــنــده ذهــبُ ... فــعــنــه الــنــاس قــد ذهــبــوا

فضحك وقال باللهجة المغربية: (لابأس عليكم) ماهي إلا دقائق وسوف ألبِّي طلبكم!

وعندما جاء بالغداء للمرة الأخيرة قال: وما عندك هل هناك بقية لهذا الشعر الجميل..؟

فقلت له:

رأيــت الــنــاس مــنــفــضَّــة ... إلــى مــن عــنــده فــضــة

ومــن مــا عــنــده فــضــة ... فــعــنــه الــنــاس مــنــفــضَّــة!

فضحك مرة أخرى على استحياء بينما ظهرت عليه ملامح الخجل والتأسف وقال بأنه رغم عمله نادلاً وخريج آداب إسباني إلاّ أنه مغرم بأبيات الشعر العربي والمأثورات والمقولات والأمثال العربية.. ومضيفاً: أحب من أهل المشرق اليمنيين باعتبارهم أصل العرب والعراقيين والشاميين؛ لأنهم منبع الأدب العربي.. وقد عرفت ميوله من لغته الفصيحة الواضحة وثقافته ولباقته وتأسف مرة أخرى، بل وزاد من طلباتنا عما طلبناه وفي آخر المقام وعند الحساب ألحَّ

علينا بأن يكون غداؤنا كضيافة منه . . فلم نوافق وبعد إلحاحه وافقنا على الطعام المضاف على طلباتنا أن يكون بدون مقابل . !

قبل المغادرة عرّجت على مكتبة صغيرة بالقرب مِن المطْعم الذي تناولنا فيه الغداء لألقي نظرة على المجلات والدوريات المغربية ونماذج لبعض الكتب[١] ولفتَ انتباهي رواية القاص المغربي ابن طنجة محمد شكري صاحب رواية (الخبز الحافي) الذائعة الصيت[٢] .

ودّعْنا (طنجة) منتصف اليوم التالي متجهين إلى سبته في الطريق السريع رأينا يافطة كبرى تقول : (إلى مطار إبن بطوطة الدولي) حقاً يستحق هذا العلم الشامخ أن يُخلد في اسم مطار طنجة الدولي، وفي طريقنا (والنازل جنوباً) رأينا مدناً وقرى متناثرة على جانبي الطريق . . منها (القصرالصغير) ثم (الفنيدق) والأخيرة مدينة رائعة وحديثة ويبدو أن لها أجزاء قديمة داخلية وشعرت بأني في إحدى ضواحي المدن الأوروبية بمبانيها الفارهة والنظيفة المنظمة وحدائقها المشجرة بعناية فائقة والأهم إطلالتها على شواطئ ساحرة . . . واكتفينا بمرور الكرام حيث تناولنا الشاي والمرطبات واشترينا صوراً تذكارية (كروت) والتقطنا صوراً هناك للذكرى . . . بعدها غادرنا إلى مدينة «سبته» وما أن وصلنا بوابة المدينة والتي عليها سور وأسلاك شائكة يفصلها عن البر المغربي ؛ لأنها بالطبع محتلة من قبل إسبانيا وهذه الأرض المحرمة على الأجانب والمغاربة على السواء لا يتمُّ دخولها لأهل البلد إلا بتصريح أما الأجانب مِثلنا فيقتضي الحصول على تأشيرة دخول لإسبانيا باعتبارها أرضاً إسبانية أو تأشيرة (التشنجن) وحينها انتهت صلاحية تأشيرتي لدول الاتحاد الأوروبي منذ أيام عملي في بروكسل وهكذا حُرمت من دخول المدينة واكتفينا بمشاهدتها عن بُعد، ولاحظت كثرة السيارات العسكرية المصفحة في بوابة المدينة الرئيسية وهي على استعداد وتأهب دائم تحرزاً من حدوث أعمال شغب من قبل العمال المغاربة الذين ينقصهم الحصول على الإذن المسبق .

(١) ولاحظت بأن نوعية المعروض من الكتب والمجلات والصحف يختلف بعض الشيء عما يسوق في الرباط والدار البيضاء فهنا تكثر المطبوعات المتعددة اللغات وبالإضافة للعربية والفرنسية التي في معظم مدن المغرب هنا يكثر ما ينشر بالإسبانية، والإنجليزية باعتبار أن طنجة متنوعة الثقافات حيث يلم الكثير بأكثر من لغة ومنها البربرية التي تروج ثقافتها أيضاً في كل أرجاء المغرب.

(٢) من أشهر روايات الكاتب الشهير محمد شكري في عام ١٩٧٢وترجمت لنحو ٣٥ لغة ترجمها للإنجليزية بول بولز بينما ترجمها للفرنسية الكاتب المغربي الطاهر بن جلون ولم تترجم للعربية إلا في العام ٨٢م.

غادرنا بوابة (سبته) متجهين إلى تطوان ومررنا بالطبع على مدن وقرى متعددة، وفي طريق العودة والنزول جنوباً إلى الرباط وقبل الوصول إلى تطوان سمعنا أذان العصر من مسجد يقع على قارعة الطريق الزراعي العام بين تلك القرى يُدعى مسْجد (موسى بن نصير) واستوقفني هذا الاسم؛ لأنه كان قائداً لشمال إفريقيا في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك، وفي عهده عبر طارق بن زياد المضيق الذي سمي باسمه (جبل طارق) [(١)]. وتوقفنا لوقت قصير للاستراحة وصلاة الظهر والعصر قصراً وجمعاً وفي المسجد سألنا أحد المصلين حول المدة والمسافة الباقية لتطوان وأقرب الأماكن من ذلك المسجد للزيارة فقال: إذا كان لديكم وقت فأنصح بعد زيارتكم لتطوان أن تعرجوا على مدينة شفشاون والتي لايفصلها عن تطوان سوى خمسين كيلو متراً أو يزيد وفعلاً واصلنا سيرنا وزرنا شفشاون لساعات قليلة وهي بالفعل قريبة جداً ولإيماني بأن الفُرص لا تتكرر فقد انتهزت الفرصة لزيارة تلك المدينة الأندلسية على أرض المغرب.

تطوان:

قبل أن يحل غروب ذلك النهار كنا مغادرين سبته متجهين إلى تطوان، وصلنا تطوان، وفي مركز المدينة حظينا بِنُزُل مناسب للمبيت ولحسن الحظ كان ذا إطلالة رائعة، وبعد أخذ قسط من الراحة خرجنا في جولة صغيرة استكشافية وتناول وجبة العشاء على أن يكون اليوم التالي مكرَّساً للتجوال في أحيائها المختلفة واستكشاف أكثر المدن المغربية تأثراً بمهاجري الأندلس أو ماعرف بالمورسكيين[(٢)].

---

(١) تم تفصيل موضوع دخول جيوش المسلمين عند فتوحاتهم للأندلس في الفصل الخاص بإسبانيا وذلك تحاشياً لأي تكرار.

(٢) تمثل مدينة تطوان نموذجاً متميزاً للمدينة الإسلامية ذات الطّابع الأندلسي الخاص، وتعتبر نموذجاً للحضور الأندلسي بالمغرب بسبب احتفاظها بالإرْث الأندلسي واضحاً في معالمها التاريخيّة وفي عاداتها وتقاليدها، وفي ألقاب أسَرها الأندلسيّة، وفي مختلف مظاهر حضارتها، من موسيقى وطبخ ولباس وصنائع... إذ ما زالت المدينة تحتفظ بفنّ المعمار الأندلسي داخل جدْرانها، ومازال سكان تطوان يحتفظون باللهجة الشّعبية، وبالموسيقى الأندلسيّة،، وبالصناعة التقليدية إنها تشبه إلى حدّ كبير غرناطة في أزقّتها وطريقة بنائها، حتى نعتَها الفقيه محمد داود، مؤرخ تطوان، بكونها «نُسخة من أخريات المدن الإسلامية العربية في بلاد الأندلس»، والحاضنة للحضارة الإسلامية الأندلسيّة فوق أرض المغرب.

تقع تطوان في الشمال الغربي من المغرب على بعد عشرة كيلومترات من البحر الأبيض المتوسط ونحو أربعين كيلومتراً من سبته (الواقعة تحت الاحتلال الإسباني)، جدد بناؤها في أواخر القرن الخامس عشر، من قبل الأندلسيين الذين هاجروا إليها بعد استيلاء الإسبان على بلادهم، وكانت هجرتهم متقطعة في فترات مختلفة التواريخ.

وأصبحت تطوان ملجأ للمسلمين واليهود بعد سقوط الأندلس وإقامة محاكم التفتيش، فعمروها وطبعوها بالطابع المعماري الأندلسي، وأحاطوها بأسوار وأبراج عالية، وبها سبعة أبواب.

توالت الهجرات إلى تطوان من مختلف الجهات، واندمج السكان فيما بينهم وتخلّقوا بأخلاق الأندلسيين في عاداتهم وملبسهم ومأكلهم ولهجة كلامهم واصطبغ الجميع بالصبغة الأندلسية في أغانيهم وموسيقاهم ولاسيما الموشحات الأندلسية وغيرها(١)، عندما امتلأت المدينة بالسكان خرجوا عن أسوارها القديمة بإقامة أبنية خارج أسوارها وتوسعت بمرور الزمن ولاسيما في نصف القرن الأخير بعد الاستقلال شأنها شأن أغلب مدن المغرب بفعل زيادة السكان.

وبالمناسبة تشير الإحصائيات بأن المغاربة من أصول (موروسكية) يتراوح عددهم مابين ثلاثة إلى أربعة ملايين نسمة، أي نحو عشر سكان المغرب من أصول أندلسية!

في قلب الأحياء القديمة وقفنا برهة للاستراحة وشرب الشاي المغربي في مقهى على الطراز الأندلسي وكأننا في إحدى أجنحة قصر الحمراء بزخرفته وديكوراته، فتح صاحب المقهى صوت المذياع ليبثَّ على الأثير برامج محلية للمدينة اُستهلّت بموشحات أندلسية لفنانين مغاربة... تبعها موسيقى أندلسية بنكهة مغاربية مدن شمال المغرب والتي تسمى منطقة

(١) ولعل المغرب قد نال حظاً وافراً من الآلة الأندلسية التي احتضنها دون بقية العالم العربي وإن كان العراق هو الذي أمدَّ الأندلس بأول موسيقار وهو زرياب. فإن الأندلس قد أمدَّت المغرب بآلات موسيقية وألحان وموسيقيين، وبعدما سقطت الأندلس، انتقلت الألحان والآلات الموسيقية كالعود والقيثارة والطنبور مع سكانها إلى بلدان شمال إفريقيا المجاورة. وطورت هذه البلدان وأبرزها المغرب وتعتبر حواضر الجزائر قسطنطينة و عنابة وتلمسان و الجزائر العاصمة هي أكثر الحواضر التي حافظت على الفن الأندلسي.

الريف. . . تذكرت رحلتي لغرناطة وقرطبة، نفس الأجواء والأحاسيس حيث يوحي المكان بأجواء زمن الازدهار الأندلسي، انقضت نحو ساعة نتجاذب أطراف الحديث مع مرتادي المقهى[1] في هذه المدينة الذين لخَّصوا لنا تفاصيل حياة أهل المدينة التي تطبَّعت بتراث المورسيكيين ونحن نستمع للموشحات و يشرحون لنا بافتخار بعض معاني مفرداتها وإيحاءاتها. !

قال مرافقي: ألا تدرك بأننا أضعنا أكثر من ساعة لتناول الشاي وسماع تلك الموشحات؟ فقلت له: الأذن تعشق قبل العين أحياناً كما قال بشار بن برد، ولم لا! فلن نخسَرَ شيئاً في تلك الساعة فقد كنا في رحلة موسيقية إلى جانب الاستراحة من عناء التجوال.

من عدة زوايا واتجاهات للمدينة يرى فيها زوراها لوحة سريالية تمتزج فيها الأبعاد الأندلسية والمغاربية والأمازيغية، عنوان انصهرت فيه جميع تلك الثقافات.

ولقرب مدن المغرب بشبه جزيرة (ايبيريا) والتشابه الجغرافي وتأريخهما المشترك لقرون يلاحظ الباحث والمتطلع لتأريخ المغرب وإسبانيا (الأندلس) ويدرك مدى التأثير والامتزاج الحضاري والسياسي بين البيئتين على مرِّ العصور فمن الناحِية الحضارية لاننسى بأن مكونات المجتمع الأندلسي بالإضافة للعرب والمسلمين المحليين واليهود كان هناك البربر وهم عنصر أساسي وأحد مكونات المجتمع المغربي أيضاً، وفي المقابل كان للأندلسيين الذين استقروا في المغرب بعد تهجيرهم القسري بعد سقوط ممالك الطوائف الأندلسية تباعاً، وكان أكثرها إيلاماً سقوط مملكة غرناطة، التي صمدت لوحدها نحو مئتي سنة إضافية حيث تدفَّق بعد ذلك السقوط المدوِّي بسنوات حيث بدأت هجرات كبيرة إلى كل عدد من دول المغرب العربي كتونس

(١) كان في المقهى صدفةً بعض مِن نُخبة المثقفين بتطوان حسب ما عرفت من حديثهم ونتاجهم الفكري بينهم المؤرخ والموسِيقي والأديب الشاعر... عندما علموا بأننا من اليمن فرحوا وقالوا إن كثيراً من المغاربة سواء عرباً أو بربر تعود جذورهم إلى اليمن وأدرجت لهم بعض أسماء من التاريخ ممن تعود جذورهم لأصول مشرقية يمنية منهم على سبيل المثال القاضي عِياض الذي سميت أكبر جامعة بمراكش بإسمه بل إن الحاضرين في المقهى قالوا بأن طارق بن زياد نفسه هو من أصل يمني، وعند إعداد هذه السطور رجعت لبعض المراجع التاريخية فعرفت معلومات من هذا القبيل التي تضاربت بين كونه بربري من أصل يمني وبين من يقول بأنه من فارسيا من همَدَان (إقليم بإيران) ولكن كثيراً من الروايات ترجح المعلومة الأولى.!

والجزائر وتلمسان ولكن كان أكثرها إلى مدن المغرب (تطوان وطنجه ووجده وفاس ومكناس ومراكش وحتى الرباط وسَلا) وغيرها . .وقد ساهم المغرب في مدِّ عمر الأندلس لفترة طويلة إلى حين سقوط غرناطة ثم فتح أبوابه للأندلسيين وتفاعل مع قضيتهم للانتقام ممن أخرجوهم من ديارهم[١]!

في هذه المدينة تتجانس الثقافتان المغربية والأندلسية . .هنا لكل عادة مقامها، ولكل مهنة زقاقها وعلى بعد ستين كيلومترًا جنوب تطوان بعيدًا عن المنطقة الساحلية تقع مدينة شفشاون البيضاء ذات الأبواب الزرقاء، الغنية بينابيع مياهها العذبة، إنها من أبهج المدن المغربية وقد ساهم اليهود المهاجرون من غرناطة وكذا (الموريسكيين)[٢] في تعمير المدينة.

احتضنت مدن مغربية فنون التراث الأندلسي من غناء ورقص ولبس ومأكل ومفردات عربية[٣] أندلسية ونحو ذلك وقد كانت مدن الشمال المغربي أول من تأثرت بتراث الأندلس عبر المورسكيين لاسيما تطوان وشفشاون إضافة إلى طنجه وسبته ومليلة وغيرها، كما هاجر أعداد كبيرة منهم إلى فاس ومكناس والرِباط ومراكش وغيرها، بينما ترعرع الصنف الثاني، وهو الطرب الغرناطي، بالمغرب الشرقي امتداداً من غرب الجزائر (تلمسان ووهران وبيجة) وتونس ولقرب مدن المغرب من الأندلس والتشابه الجغرافي وتأريخهما المشترك لقرون.

(١) محمد رزوق «الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب» دار إفريقيا للطباعة، رسالة دكتوراه بامتياز لكاتبها من كلية الآداب بجامعة الدار البيضاء الطبعة الثالثة ص ٢٧.

(٢) الموريسكيون هم العرب المتبقون من بقايا الأمة الأندلسية المغلوبة الذين عاشوا تحت الحكم الإسباني بعد إرغامهم على التنصير زهاء قرن من الزمن منذ سقوط غرناطة حتى أصدر الملك فيليب الثالث في عام ١٦٠٩ قراراً بطردهم من إسبانيا بعد أن يئست المحاولات المتعددة والمتعاقبة من تحويلهم عن دينهم واعتناق المسيحية ولكن دون جدوى، فاضطروا إلى مغادرة أراضيهم إذ منحوا مهلة قصيرة فازدحمت الطرقات بهم واشتد الإقبال على البواخر المنطلقة من السواحل الإسبانية نحو شمال إفريقيا وغيرها. «وقد استقر هؤلاء في أنحاء مختلفة من إسبانيا والبرتغال والمغرب وتونس وفرنسا، بل وصل بعضهم إلى القارة الأمريكية».

(٣) من الكلمات الإسبانية التي دخلت اللهجة المغربية الدارجة وأتذكرها هي بابور (باخرة) بلاصه (ميدان اوساحة) لامبه (مصباح) صنداله (نَعل) فالصو (زور وبهتان) فاميلا (عائله) فريشك (طري) سمانه (أسبوع) سباط (حذاء) ..إلخ.

فعلاً لازالت تطوان وبعض مدن الشمال متأثرة بالحضارة الأندلسية في المأكل والملبس والفن بكل فروعه[١]. . . والمتجول في أنحاء القديمة من عدة زوايا واتجاهات يرى فيها زوّراها ولوحة سريالية تمتزج فيها الأبعاد الأندلسية والمغاربية والأمازيغية، عنوان انصهرت فيه جميع تلك الثقافات.

أخيراً رأيت تطوان بملء العين، وقد سمعت عن تطوان منذ طفولتي قبل أن أسمع عن أي مدينة مغربية أخرى؛ وذلك لذكرها في أبيات شعرية مشهورة:

بلادُ العُربِ أوطاني منَ الشّـامِ لبغدانِ ومن نـجدٍ إلى يَمَنٍ إلى مِصرَ فتطوانِ

فـلا حدٌّ يـباعـدُنـا ولا ديـنٌ يـفـرّقـنـا لسان الضَّادِ يجمعُنا بغـسَّانٍ وعدنانِ[٢]

فعلاً هي مدينة السلام البيضاء فهي ضمن السبع المدن التي تستحق الزيارة في المغرب وقد زرتها جميعها بحمد الله.

بعد مغادرتنا تطوان بنحو ساعة وصلنا شفشاون الحالمة الصغيرة الوادعة وهي إحدى مدن الشمال المغربي والتي يقع بعضها فوق سلسلة جبال الريف وهذه المدينة الهادئة بُنيتْ في نهاية القرن التاسع الهجري والخامس عشر الميلادي[٣]، وفي ظرف ساعتين ترجَّلنا في أهم شوارعها

(١) والمورسكيين كانوا ميالين إلى الأناقة في الملبس حيث كانت النساء الفاسيات يتشبهن بموريسكيات غرناطة في اللباس! وقد حملن معهن إلى المغرب صناعة الحرير والصوف، وهناك العديد من الألبسة ما زالت محفوظة إلى يومنا هذا في متاحفهم،، كما أثر الموريسكيون في عادات المغاربة وتقاليدهم واستعمالهم لصندوق العروس الذي تجمع فيه لباسها وحليها وغير ذلك. كما كانت مساهمة الجالية الأندلسية واضحة جلية في الميدان العلمي والترجمة، وبفضل الموريسكيين دخلت عدة مصطلحات تقنية إلى اللغة العربية، كما تمثل هذا التأثير في انتشار الأمثال العامية الأندلسية وانتشار اللغة الإسبانية، وظهور أسماء عائلية كثيرة.

(٢) القصيدة للشاعر فخري البارودي.. وفي أصل القصيدة: بغدان وليس بغداد.

(٣) كما عرفت وصول الفاتحين العرب كموسى بن نصير الذي بنى مسجداً له بقبيلة بني حسان شمال غربي شفشاون وكذا طارق بن زياد الذي لا يزال مسجده يحمل اسمه بقرية قريبة من شفشاون وهكذا، فمنذ الفتح الإسلامي للمغرب، أصبحت هذه المنطقة مركزاً لتجمع الجيوش. وفي عهد الأدارسة (القرن التاسع)، أصبحت المنطقة تحت حكم عمر بن إدريس الثاني الذي جعل فاس عاصمة له.

بل وتوغلنا في أزقّتها وأول مالفت انتباهنا بيوتها الملونة باللون الأبيض وبعضها الأزرق لهذا سميت بالمدينة الزرقاء.

وأهم معالمها المسجد الأعظم وحي السويقة ويعتبر هذا الحي ثاني أقدم تجمع سكني بُني بعد القصبة، ويضم أهم وأقدم البيوتات الموجودة بشفشاون التي ترتدي لوناً أبيض ممزوجاً بالأزرق السماوي خاصة وحي الأندلس بُني هذا الحي من أجْل إيواء الفوج الثاني من المهاجرين الأندلسيين الذين قدموا إلى مدينة شفشاون في نهاية القرن التاسع الهجري وتتسم شفشاون بطرقها الوعرة وطبيعتها الجبلية. رأينا في ضواحي المدينة طبيعة خضراء تسرُّ الناظرين فيها مكان يسمى (رأس الماء) وهو من أجمل الأماكن التي تستحق الزيارة حيث تتدفق شلالات المياه المعدنية الباردة.

وسمعنا بأن لهذه المدينة رغم صغرها وقلة سكانها نشاطاً سياحياً، ويُنظَّم فيها كل صيف مهرجانات مثل مهرجان (الأندلسيات).

التوجه جنوباً إلى مراكش:

كانت زياراتي للمدن المغربية بالسيارة وبصحبة مرافقي المقيم بينما كانت مراكش هي الوحيدة التي توجهت إليها بالقطار الذي انطلق من محطته الرئيسية بجوار البرلمان المغربي وعلى بُعد خطوات من فندق (رويال) الذي نزلت فيه وعند توديعي بتلك المحطة نصحني صديقي أن أركب مقصورة الدرجة الأولى، وفعلاً كان هناك فرق كبير على الأقل في مستوى تكييف الهواء فمراكش في عزِّ الظهر في أغسطس حارة جداً وخارج مقصورتي كان أشبه بفرن..! وكذا الكراسي كانت وثيرة ومتحرِكة وكان مُرتادو تِلك المقَاعِد فعلاً عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ...! وكانت آخر محطة لقطار الجنوب مراكش التي وصلتها ظهراً وسبق ذلك توصية من زميلي في الرباط لشخص يمني أكاديمي يُحَضِّرُ رسالة الدكتوراه لاستقبالي وبالفعل ما أن وقف القطار وترجَّلت خطوات في أروقة المحطة الفخمة فإذا بالشاب اليمني يتصل على هاتفي يؤكد لي بأنه في الانتظار، وفوراً تحركنا لفندق مجاور راقٍ جداً يدعى (Red Hotel) يبعد أمتاراً قليلة من بوابة المحطة العملاقة وفي أطراف شارع فرنسا بقلب مراكش، وبعد العصر

تحركنا إلى ساحة الفناء وتعتبر ساحة جامع الفنا[(١)] وهي ميدان شعبي واسع يتجمع فيه للترفيه زوار هذه المدينة والقاطنون بها على السواء وتعتبر بحق القلب النابض لمراكش، ومحجاً لكل زائر من كل أنحاء المغرب والعالم.

مراكش[(٢)] المدينة الرابعة في المغرب من حيث عدد السكان ولكنها الثالثة مساحة وارتبط اسمها منذ تأسيسها على يد السلطان المرابطي الشهير يوسف بن تاشفين واكتسبت شهرة عالمية بصورة جعلها مرادفاً للمغرب بأكمله ولاسيما باللغات اللاتينية. وهي مدينة متسعة رحبة وشبَّهتها بمدينة إشبيلية إلا أن الأخيرة يجمّلها نهر الوادي الكبير (الفادي الكفير) بالإسبانية!

وتَحظى مراكش بقائمة من المعالم الأثرية والسياحية متمثلة في أسوارها ومساجدها وبواباتها وسورها العتيق وبواباتها المتعددة، ويعتبر باب دكالة وباب غمات من الأبواب الرئيسية التي تتخلل أسوار المدينة العتيقة لمراكش، حيث تقع تلك البوابة في جهتها الغربية ويؤدي إلى مسجد باب دكالة، بينما يوجد باب أغمات في الجهة الشرقية من المدينة العتيقة.

وأعتقد أن من يزور المغرب ولا يرى مراكش فزيارته ناقصة فمراكش قلب المغرب النابض شأنها شأن فاس ومكناس وغيرهما من المدن العريقة، تعتبر مراكش التي منحت المغرب اسمه القديم واحدة من أهم مدن المغرب السبع[(٣)]، وهي لؤلؤة حقيقية وسط مدن شمال إفريقيا،

(١) هو واحد من الأماكن السياحية الإسلامية والتي تتميز بالأصالة والرقي في التصميم، ونجد ساحة الجامع الواسعة والتي تعد واحدة من الأماكن التاريخية القديمة، حيث يرجع تاريخ تأسيسها إلى عام ١٠٧١ وبالتحديد أثناء تأسيس مدينة مراكش.

(٢) مراكش كلمة بربرية وتعني (مر بسرعة)! وللإحاطة فإن أغلب المدن المغربية ترجع أصول معانيها للغة البربرية.

(٣) للسياحة دور هام في اقتصاد المغرب، حيث تعد النواة الأساسية لقطاع الخدمات فيها الذي يتوفر على شبكة طرق وسكك يصل طولها إلى ٥٩٤٧٤ كلم و١٨١٣ كلم، وتوجد أهم المطارات الدولية بكل من الدار البيضاء، الرباط، فاس، أغادير، مراكش، طنجة، وجدة والعيون. كما تتمركز أهم الموانئ بكل من الدار البيضاء، المحمدية، القنيطرة، طنجة، الداخلة والناظور وأغادير.

بالمناسبة أغلب الكلمات والمفردات (سواء اسم مدينة أو حي أو أسماء شخصيات ونحو ذلك) التي تبدو لنا غريبة في المشرق العربي اتضح بعد البحث والتدقيق بأنها بربرية أمازيغية.!

وطالما اشتهرت مراكش بأسواقها المزدحمة بالمتسوقين وأكشاك الأطعمة الشعبية اللذيذة، والحكواتية، والسَّحَرة، والبهلوانات والمهرّجين الاستعراضيين والموسيقيين وقراء الكف! . . . ومن أبرز النزهات الشاعرية في هذه المدينة هي تلك التي تتمّ في عربات تجرُّها الخيول، وتتركّز المطاعم والمراكز الترفيهية بصورة رئيسة في المنطقة التي يطلق عليها السكان اسم «المدينة الجديدة» حيث تنتشر عشرات المقاهي ومطاعم الوجبات الخفيفة التي تقدم الأطباق المغربية التقليدية والعروض الفولكلورية الترفيهية في المدينة القديمة، وخاصة في قصر الرياض القديم.

ولعل ما يجذب أنظار الزائرين لمراكش قمم جبال أطلس المكسوة بالثلوج والمطلّة على المدينة التي تحيط بها أسوار حمراء اللّون تعطيها ذلك اللون الورديّ الجميل، وتحيط بها أشجار النخيل الباسقة لتعطي منظراً فنياً طبيعياً رائعاً، ونظراً لما تزخر به من إرث حضاريٍ كبير، أصبحت مدينة مراكش قِبلة للسياحة العالمية بل ومقراً لبعض المؤتمرات التي تُعقد في المغرب، وعاصمة للفن والسينما للمغرب وللبلاد العربية!

وبالقرب من ساحة الفناء يقع جامع الكتبية الشهير بمئذنته العالية[(١)]، ومن ضمن مشاهداتي في اليوم التالي للزيارة هي قبور السعديين والتي تقع بحي القصبة التي بنيت مع نهاية القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر بتشييد قبة دفن فيها أفراد العائلة الملكية السعدية خاصة لالة مسعودة، أم السلطان أحمد المنصور، وأبوه وأحد إخوانه.

في اليوم التالي قمت بجولة أخرى على المدينة بالعربة التي يجرُّها الخيل وفي العربة أراقب أعداداً متزاحمة من السيَّاح تتوزع على سعة ساحة جامع الفناء من كل بقاع الدنيا وتتناثر بقايا مراكش العتيقة من بوابات وأسوار ومقابر وصوامع. وعلى إيقاع قعقعة أقدام الخيل التي تعيد للمشهد أيامها المجيدة وانتابتني أحاسيس الزهوّ لحضارة سادت ثم بادت في هذا المكان وكأني أسمع سنابك خيول يوسف بن تاشفين وصهيلها يجلجل في فضاء المدينة وكأني أرى

(١) وتعتبر إحدى المنارات الثلاث العالية أكبرها (الخيرلاده) في إشبيلية وتعتبر الكتبية الثانية أما الثالثة فهي صومعة حسان في الرباط والتي بحكم الزمن تعرضت لهدم الجزء العلوي منها وهو اسم سوق لبيع الكتب يعتقد أنه كان بمقربة من المساجد الأثرية عن بناياته ومكوناته المعمارية.

غبار أرض مراكش المترامية الأطراف يتصاعد للسماء استعداداً لحملة إمام المرابطين لنجدة أمير إشبيلية.

ومن تلك العربة التي دارت بنا على جملة من الأماكن السياحية وبعض الأماكن بالباص السياحي الأحمر المكشوف المعدّ للسيَّاح على غرار ماهو معمول به في أغلب العواصم الأوروبية ومدن الأندلس على وجه الخصوص، أما في عصر ذلك اليوم فقد خصص لزيارة (حديقة ماجوريل) التي تعتبر من أهم معالم مراكش السياحية وسميت كذلك نسبة إلى الرسام (جاك ماجوريل) والذي حلّ بمراكش لأول مرة في مطلع القرن الماضي حيث وجد السحر الملائم ليواصل مهنته كرسام ولما حصل على قطعة أرض عمل على إقامة الحديقة المعروفة اليوم بحديقة ماجو ريل والتي تم افتتاحها عام ١٩٤٧ لاستقبال الزائرين[(١)].

تعتبر حديقة ماجو ريل برأي زائريها من أكثر الحدائق سحراً و تزْخَر بثروة هائلة من نباتات تم تجميعها من القارات الخمس! كما زرت حديقة مشابهة في ضواحي الرباط في الطريق المتجه لفاس (شمال شرق) وتسمى الحديقة العجيبة وهي لاتقلُّ روعة عن حديقة (ماجوريل) في مراكش وفيها أيضاً متحف للزواحف الحية.

خلال اليوم الأول لزيارة مراكش تبادلت الحديث مع مرافقي المثقف المعيد في (جامعة القاضي عياض)[(٢)] بالمدينة حول تأريخ المغرب عموماً ومراكش على وجه الخصوص وعن أهم المعالم التاريخية وعندما ذكرت له العلاقات الجدلية بين تأريخ المغرب والأندلس ونجدة الإمام يوسف بن تاشفين أمير المرابطين لأمير إشبيلية وزحف جيشه الجرار وخوض معركة (الزلاقة).. إلخ قلت له: هل بالإمكان زيارة ضريح المعتمد بن عباد الذي قرأت عنه في مدينة أغمات إحدى المدن الصغيرة جنوب مراكش فرحب بالفكرة وبالفعل في اليوم الثالث والأخير

(١) اقتباس من الموسوعة العالمية (ويكيبديا)..

(٢) أبوالفضل بن عياض السبتي اليحصبي عاش منذ أوئل القرن الحادي عشر الميلادي وهو قاض مالكي وعلامة وفقيه متحدث ومؤرخ وقيل عنه بأنه كان أعرف الناس بعلوم عصره ويعود نسب القاضي عياض إلى إحدى القبائل اليمنية العربية القحطانية.

لمراكش شددنا الرحال بمرافقة شخص ثالث مغربي بسيارته إلى اغمات[(١)] بعد أن صلينا الجمعة في الجامع الوحيد المجاور للضريح زُرنا قبر المعتمد بن عباد وزوجته اعتماد وابنه وسط قبة داخل فناء وللمزار قيِّم انتظرناه لنصف ساعة بعد صلاة الجمعة حتى أتى ليفتح لنا فناء الضريح، وبعدها واصلنا الرحلة لأقل من ساعة[(٢)] إلى أطراف جبال أطلس في منطقة معروفة تُدعى (اوريكا)، والطريق إليها جبلي يتلوى بين سهول وجبال حتى وصلنا مبتغانا في منتجع وشلال يتفجر من عين وينابيع مياه باردة في عزِّ الصيف ونهر صغير يجري وسط الأشجار الوارفة الظلال ورأيت أناساً كثيرين يستمتعون بعطلاتهم في تلك المنتجعات الرائعة الجمال، ويوجد عدد من المطاعم التي تقدم الأكلات المغربية الشهيرة واللحم المشوي وكان يوماً جميلاً قضينا نحو ساعتين في ظلال الأشجار الوارفة نستمتع بخرير المياه وجريانها في وادي (اوريكا).

الرباط:

هي أكثر المدن التي تجولت فيها فنحو نصف مدة الرحلة كانت في ربوع العاصمة وهي مدينة ساحلية على المحيط الأطلسي شأنها شأن أكثر المدن المغربية إما على المحيط أو المتوسط، وتشرف الرباط على مصب نهر (أبي رِقراق) والذي يفصل مدينتي الرباط وسَلا ، وكأغلب المدن المغربية محاطة بأسوار، وشوارعها هادئة وبعض منها تعجُّ بالمارة مثل شارع محمد الخامس، والذي ينتهي بإحدى بوابات المدينة القديمة ومنها يمكن للمتجول الدخول للإحياء والأزقة داخل سور الرباط القديمة.

(١) قبل قدومي للمغرب كانت مراكش بالطبع ضمن أربع مدن رئيسية يجب زيارتها وهي بالإضافة للعاصمة والدار البيضاء فاس ومكناس ومراكش وطنجة.. وكنت آمل بزيارة بعض الأماكن الأخرى فإذا بي وبحمد الله زرت بضع مدن وضواح أخرى مثل مدينة اغمات الصغيرة والتي تبعد نحو أربعين كيلومتراً جنوب مراكش والتي سجن فيها أمير المرابطين يوسف بن تاشفين رفيق دربه وكفاحه أشهر ملوك الطوائف المعتمد بن عباد حتى الممات.. ذلك السجن الذي شهد أكبر مأساة يمر بها ملك يوم أن زارته بناته يوم عيد الفطر حافيات ممزقات الملابس وقد كتبت عن المعتمد بن عباد ومأساته هذه بالتفصيل في الطبعة الأولى وفي هذه الطبعة في الفصل المتعلق برحلتي لعدد من المدن الأندلسية.

(٢) تبعد منطقة اوريكا نحو ستين كيلومتراً عن مركز مراكش وأقل من ثلاثين كيلومتراً من اغمات.

أبواب العاصمة المغربية الرباط ليست مجرد معالِم تاريخية منسيَّة يزورها السيّاح الأجانب من وقت لآخر لالتقاط الصور التذكارية، بل هي نبض المدينة الذي لا يتوقف، فعبرها يدخل الناس ويخرجون في حركة دائِبة ترسم إيقاع الحياة اليومية.

وأكثر من ذلك فهي بمثابة لوحات إعلانية ضخمة ترشد إلى مختلف الاتجاهات، فما من أحد أراد تحديد عنوان متجر، أو مصرف، أو سوق، أو ساحة، إلا واستعمل اسم أحد الأبواب كمؤشر دقيق لتحديد المكان أو الطريق المؤدية إليه، فهذه الأبواب لا تضاهيها شهرة إلا بعض المعالم الأخرى التي تميز المدينة مثل صومعة حسان أو مبنى البرلمان.

من ضمن معالم الرباط الثقافية هو المكتبة الوطنية، جامعة محمد الخامس التي خرّجت معظم المسؤولين والكوادر المغربية في شتى المجالات.

ويقول المؤرخون: إن كل الأبواب المغربية الشهيرة بُنيت في عصر الموحدين خلال القرن الثاني عشر الميلادي، كرموز لعظمة الدولة، وتتميز بطابعها المعماري الإسلامي الذي يعتمد على النقوش والزخارف الخشبية والحجرية.

من أطراف ضواحي المدينة يمكن للزائر رؤية صومعة حسان ومسجده وهو من المعالم التاريخية في الرباط وعلى مقربة منه يوجد ضريح محمد الخامس والحسن الثاني.. ومن ضواحي الرباط (تماره)، (الصخيرات)، (هرهورة).

والرباط من جملة المدن المغربية التي آوت الأندلسيين الذين لجأوا إليها بعد طردهم من إسبانيا واستقروا فيها في موجات متلاحقة بين القرنين الثالث عشر والرابع عشر، واستقروا في (قصبة الأوداية) وهي جزء من المدينة الحالية، ولا يزالون يحتفظون بفنونهم وصنائعهم الرفيعة، ولا تزال كنية بعض العائلات اليوم شاهدة على أصلها الأندلسي[(١)].

واليوم تعتبر قصبة (الأوداية) [(٢)]منطقة للاستجمام فمن أسوارها الحصينة تقابل مدينة سلا الشطر الثاني للرباط وتطلُّ على المحيط كما يستمتع زوراها بمنظر الغروب الفريد وهم يتأملون

(١) وجاءت أولى هذه الموجات عام ١٣٢٩ وكانت تضم مهاجرين من بلنسية وأنحاء أندلسية أخرى، وضمن الموجة الأخيرة وصل آلاف الموريسكيين الذي طردوا بقرار من الملك فيليب الثالث في عام ١٦٠٩م.

(٢) ٢ صحيفة الشرق الأوسط اللندنية العدد رقم ٩٤٠٢ أغسطس ٢٠٠٤ العدد ....

الشمس تختفي بين زرقة السماء وزرقة المحيط ولعل هذا ما يجعلها مكاناً مفضلاً لسكن صفوة من الأعيان والفنانين، والمثقفين وينظم بِها المهرجان السنوي «جاز الأوداية». وتتميز قصبة الأوداية بحديقتها الأندلسية الفيحاء، ومقاهيها التقليدية التي تعج يومياً بالمجموعات السياحية المقبلة من مختلف الأصقاع لاحتساء الشاي المغربي على الطريقة التقليدية المعروفة باسم «الزيزوا». كما تتميز بمتحفها المقام في جناح بناه السلطان مولاي إسماعيل في القرن السابع عشر، ويختزن مختارات من الأزياء المغربية القديمة والمجوهرات التقليدية والآلات الموسيقية والزرابي والخزف. أما تاريخها المكتوب، فيبدأ في منتصف القرن الثاني عشر للميلاد، عندما اختارها سلاطين دولة المرابطين.

الرباط مدينة وادعة حالمة ليس فيها زحام بعض مدن المشرق أو حتى كازابلانكا وباستثناء بعض شوارعها مثل شارعها الرئيسي المسمى بمحمد الخامس وفي ساعات المساء ينبض بالحياة والمشاة وفيه مكتبات وأكشاك صحف على جانبيه تعرض كتباً ومجلات[١] من الشرق والغرب، وعلى جانبي الشارع تعج أرصفته بتحف وبمنحوتات العاج والأبنوس لبائعين أفارقة يعرضون عليك منتجات بأبخس الأثمان، وأطرافه عند بوابة وجانب السور المتبقي تبدأ الأسواق العتيقة والأزقَّة والمآذن المربعة (الأموية) وهو الطراز الشائع في مدن الأندلس وهناك يمر خط (الترام) المستحدث في الآونة الأخيرة وما عدا ذلك فهي أحياء هادئة وحدائق غنَّاء تسرُّ الناظرين.

وكانت زيارتي للرباط والمدينة تنتهي بعد بضعة أسابيع لاحتفال بمناسبة مرور قرن على اختيارها عاصمة للبلاد[٢] وتزامن ذلك مع إدراج المدينة ضمن احتفالات التراث العالمي الإنساني من قبل (اليونسكو) حيث اختيرت الرباط في نفس العام لتصبح «موروثاً ثقافياً» وهو

(١) ولمحبي اقتناء الكتب المعروضة بسعر زهيد يتواجد في أطراف ميدان البرلمان وهي المسافة بين فندق رويال وبداية الشارع الرئيسي محمد الخامس تنتصب بضعة خيام كبيرة لعرض كتب مستعملة أو قديمة بأسعار زهيدة وهي محاكاة لسور الأزبكية في القاهرة أو شارع المتنبي في بغداد وقد ترددت أكثر من مرة على تلك الخيام لاقتناء ما خفَّ وزنه وغلا ثمنه من تلك الكتب النادرة.

(٢) أي في نوفمبر من العام ٢٠١٢ ذكرى مرور مئة عام على انتقال العاصمة من فاس إلى الرباط.

ما يعني دخول المدينة سجل التراث العالمي لليونسكو مثلها كفاس ومكناس وغيرها من المدن المغربية التي أغلبها عبارة عن متحف مفتوح يحظى بإعجاب الزائرين.

منذ نحو عامين أو يزيد بدأ في العاصمة المغربية استخدام (الترام) والذي يسمى بالمغرب (طراموای) ويقال بأنه ينقل نحو ١٨٠ ألف راكب بين الرباط وسلا يومياً عبر خطين أساسيين ناقلاً أعداداً هائلة من الموظفين والطلاب الذين يتنقلون بين جناحي الرباط الكبرى (سلا والرباط) وفعلاً فقد جربنا هذا الخط من قلب مدينة الرباط أمام إحدى البوابات المواجهة لشارع محمد الخامس وسار بنا عبر جسر نهر (أبو رقراق) بضعة كيلو مترات اكتشفنا خلالها أماكن ومناظِر جديدة.

ولاحظت في ضواحي الرباط وكثير من مدن الوسط والشمال كثرة أشجار الأرز والفلين والذي قيل لي بأنه يُصدَّر بكمّيات هائِلة لأوروبا، لاستخدامه كأغطية لقوارير المشروبات التي تنتجها مصانعها..

يومين في كازابلانكا[(١)] (الدار البيضاء):

كانت آخر مدينة أزورها العاصمة الاقتصادية للمغرب وهي أول مدينة وطئتها قدماي وآخر مدينة ترجّلت بِها، صحيح أنها مدينة رائعة وجميلة ومنظمة ولكنها بالنسبة لي لم تكن مفاجئة مثل مدن العمق وداخل المغرب كفاس ومِكْناس ومراكش وتطوان وغيرها، ولكنها باختصار مدينة رائعة وساحرةٌ بإطلالتها على المحيط الأطلسي وعملاقة وتعدُّ من أكبر مدن المغرب ومن المدن المهمة في المغرب العربي وإفريقيا ومركزها التجاري والاقتصادي، وفيها أكبر مطاراتها ومصانعها وأماكن الترفيه ونحو ذلك.

يسميها المغاربة بـ «كازا» هي إحدى عرائس المحيط الأطلسي، تبعد عن أوروبا بأقل من ساعتين أما من مدينة مالقا الإسبانية فنحو ساعة بينما قطعتها في خمس ساعات من مطار بيروت، «وكازا» العاصمة التجارية للمغرب حيث تضم المدينة معظم الشركات العاملة في البلاد، ومنها تلك العاملة في قطاع تقنية المعلومات، إنها الدار البيضاء، هذه المدينة المغربية الشهيرة، والتي لها موقع خاص في قلب كل من زارها، من المغاربة وغيرهم.

(١) تعني كازابلانكا بالإسبانية الدار البيضاء على اعتبار أن كازا بيت وبلانك أبيض!

وعلى مدى يومين من التجوال بالسيارة وعلى الأقدام شاهدنا شوارع ومعالم ومبانٍ وحدائق غنَّاء تسرُّ الناظرين منها ساحة الأمم المتحدة ومتنزّه جامعة الدول العربية ودار البلدية ودار القضاء، شوارعها الأساسية مثل مولاي يوسف الذي تتوزع فيه أشجار النخيل بتناسق بديع وشارع الكورنيش، ومروراً بأكبر (مُول) في إفريقيا كما قيل لنا (MORACO MALL)، وأنا لا أهوى التجول كثيراً في (مولات) حديثة فلم أشدَّ الرحال لمسافة طويلة من أجل مشاهدة محلات على الطراز الغربي ولكنني شاهدت داخله سوقاً تقليدياً يُسمى (سوق فاس) وبجواره سوق آخر (سوق مراكش).. عندما يتجول الزائر في الحوانيت التي صُممت على طراز الأسواق القديمة وسط هذا (المول) الراقي يشعر وكأنه فعلاً في مدينة فاس أو مراكش نفس البضائع ونفس الوجوه بل وكان بناء تلك الحوانيت على النمط القديم لكلا المدينتين، وهذا الأسلوب والفكرة لعلها أسلوب جذب دعائي لمن لم تتحْ لهم فرصة زيارة عمق المغرب وأتوا فقط لساعات أو ليوم واحد.!

وتحظى المدينة بالكثير من فرص الترفيه والرياضة والاستجمام والتسوق والتجوال وتناول أشهى الأطعمة، وعلى الرغم من أن العربية هي اللغة الرسمية، إلا أن الجميع وفي كل أنحاء المدينة تقريباً يتحدثون الفرنسية أيضاً، بينما يتحدث العاملون في الفنادق والمتاجر والشركات الإنجليزية والإسبانية أيضاً.

وتحفل «كازابلانكا»، العاصمة الاقتصادية للمغرب، بالميادين الحافلة بالحركة والحيوية والحدائق العامة والنوافير الجميلة والمباني التقليدية والحديثة، وهي مدينة بديعة تجتمع فيها الثقافة والتاريخ والهندسة المعمارية بأسلوب فريد، وزاد المدينة جمالاً في السنوات الأخيرة مسجد الحسن الثاني، بينما يتميز حي (الحبوس) في المدينة القديمة بساحاته المظللة وأزقَّته الضيقة وأسواقه الشعبية التي تعرض الهدايا التذكارية والمنتجات الحرفية عالية الجودة، وفي هذا الحي نموذج مصغر لسوق مراكشي، إنها عبقرية الزمان والمكان المغربي هنا تباع الطرابيش والزرابي (السجاد) المغربية بأنواعها وألوانها والتحف النحاسية والخشبية[١].

(١) محمد المخزنجي. «جنوباً وشرقاً.. رحلات ورؤى» إصدار دار الشروق القاهرة الطبعة الأولى ٢٠١١.

وتتميز «كازابلانكا» بمبانيها البيضاء وأشجار النخيل الشاهقة والمزينة لحدائقها وشوارعها النظيفة، ولا تشبه هذه المدينة أيّاً من المدن العربية أو الأجنبية، فهي تتمتع بطابع خاص جداً، وتقع أحياؤها القديمة في المنطقة الداخلية مقابل الميناء، وهي عبارة عن متاهة من الأزقَّة الضيقة والمنازل المصبوغة باللون الأبيض، وتعتبر فردوساً للمتسوقين والباحثين عن المنتجات الفنية والحرفية المغربية الأصيلة.

في تلك الأسواق الكلاسيكية تنتشر مخازن الكتب فبضع مكتبات تعرض أندر الكتب التي تُطبع في المغرب والمهتمة بالتراث والحضارة الإسلامية ولا سيما في الأندلس والمغرب وكانت فرصةً لي لاقتناء بعض الكتب التاريخية والأدبية وكذا أدب الرحلات، وللمغاربة باعٌ طويل في هذا النوع من الأدب.

أروع ما يمكن زيارته شواطئ الدار البيضاء الجميلة، حيث يمكن لزائرها التوجه إلى الشرق من مركز المدينة حيث الكورنيش، وهي منطقة راقية تنتشر فيها الفنادق والمطاعم الفخمة، ويستطيع الذوَّاقة الاستمتاع في هذه المنطقة بأشهى الأطعمة التي تمتزج فيها فنون الطهي المغربية والفرنسية، وللاستمتاع بحياة «كازابلانكا» الحقيقية، عليك بمرافقة حشود الناس على الشواطئ وفي المقاهي والمطاعم التي تجاور الكورنيش، كما يمكن الاكتفاء بالاسترخاء ومشاهدة العالم وهو يمُر أمَامك!

في مساء يوم وصولي حرصت على أداء صلاة المغرب في مسجد (الحسن الثاني) المطلّ على المحيط الأطلسي وهو من أكبر وأجمل المساجد في العالم(١)، ويقال بأنه أكبر مساجد العالم بعد الحرمين الشريفين، وقد بدأ تشييده في ١٩٨٧ م ، لينجز في الثالث من أغسطس ١٩٩٣ ويستوعب أكثر من مئة ألف مصلٍّ، وهو حقاً تحفة فنية، ويتميّز كون ثلثه يقع على البحر؛ لأن الملك الراحل الحسن الثاني كما حدثنا أحد سدنة المسجد أراد ترجمة الآية

(١) غالبية سكان بلدان المغرب العربي مسلمون سنة على مذهب الإمام مالك وهذا الأمر يعتبر من أهم أسباب تقوية الروابط بين البلدان المغاربية حيث لا تباين يذكر في المرجعية الدينية، وهناك تواجد بسيط لمسلمين يتبعون المذهب الإباضي، وكون أن الغالبية العظمى من السكان مسلمين فإن هذا الأمر جعل الثقافة الغالبة في المغرب المغربي أساساً هي الثقافة الإسلامية حيث يشكل المسلمون في أغلب بلدان الاتحاد نسبة تزيد عن ٩٧٪.

الكريمة: ﴿وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ﴾ [هود: ٧]، وقد بُني على طراز المساجد المغاربية والأندلسية سواء في شكل منارته أو دعائم المصلى الداخلي وزخارفه... وعن وصف المسجد فأقل ما يقال عنه: إنه مبهر فهو يمتد على مساحة شاسعة ويطغى عليه الرخام، لا سيما الأصفر، وواجهته مطعّمة بالفسيفساء، ويحتلّ النحاس وخشب الأرز حصة كبيرة من المواد المستعملة في البناء، كل المواد التي استعملت في بناء المسجد أُتي بها من المغرب إلا الثريات جُلبت من إيطاليا وغيرها، والجميل أن القبة الرئيسية تفتح صباحاً لضوء الشمس وتغلق مساء، أو عند نزول المطر..

ومن أبرز أحياء كازابلانكا، «عين دياب»، وهو حي سكني راقٍ. ومن معالم المدينة حديقة جامعة الدول العربية، الواقعة بالقرب من جادة الحسن الثاني، التي يعود تأريخها إلى أوائل القرن العشرين، وتشكل واحة هدوء فضلاً عن تلمُّس الزائر كثرة الحدائق والمنتزهات التي تزينها أشجار النخيل... وهناك المدينة العربية القديمة التي تقع داخل السور وتضم طرقاً ضيقة وبيوتاً من الفخار الأبيض أو الحجر ومحلات كثيرة وبضائع متنوعة. وفي الجانب الآخر يقع ميناء «مولاي يوسف» يعدُّ أكبر ميناء والأكثر حركة في المغرب والرابع على مستوى قارة إفريقيا، ويعجُّ بكل أنواع السفن من ناقلات النفط وحتى السفن السياحية، لكن ما ننصح به هو ألّا ينسى الزائر التجوال في ميدان محمد الخامس، وهو عبارة عن ساحة في قلب المدينة، تزينها مبانٍ على الطراز المعماري الفرنسي وتضم مكاتب حكومية وعامة وتتوسطها نافورة ماء تنثر المياه الملونة في كل صوب، على أنغام موسيقى ساحرة ووسط أسراب من الحمام الأبيض، وينتشر عدد من المصورين الذين يتوددون للزائرين لأخذ صور تذكارية لهم، ولكن الملاحظ بأن أغلب السيَّاح لديهم كاميراتهم! أما المدينة الجديدة فتقع في جنوب الدار البيضاء، وتعرف باسم حي الحبوس أو منطقة القديسين، وقد بناها الفرنسيون لحل مشاكل السكن في الثلاثينيات، ومع اختلاط الهندسة الغربية التقليدية بالتخطيط الحديث ازدادت المدينة جمالاً بازدياد الأشكال والألوان والأنوار.

المدينة القديمة تضم داخل أسوارها الأسواق الشعبية حيث المصنوعات الجلدية والفخاريات والملابس وبأسعار زهيدة، وساحة محمد الخامس والتوين سنتر والكورنيش وعين الدياب، حي الأحباس حيث الصناعات المحلية وروائح العطور والزيتون والمنتجات الجلدية والتحف والأثريات.

يلاحظ الزائر والمتابع والمقيم في المغرب التلامس الحضاري والقومي بين المغاربة الأمازيغ[(١)] والعرب بخلاف ماهو كائن في بعض بلدان المشرق العربي بين الكرد والعرب في العراق مثلاً، وكذا السودان شماله وجنوبه، فالانتماء للمغرب في وعاء روحي واحد هو الإسلام طغى على بعض النعرات القومية فعلى الأقل ليست ظاهرة على السطح..!

تفاصيل الحياة في المغرب جعلتني أقارن في أوجه الشبه بينها وبين اليمن فكلاهما تقعان على بحر ومحيط، وهناك تشابه جزئي في تضاريسه ومناخه مع اليمن ولباسهم بل وبعض مفردات لهجتهم فيها من اللهجة اليمنية.. والبلدان لازالا يحتفظان إلى حدٍ ما بتقاليدهما، والناس في كلا البلدان بسطاء وبينهما الكثير من الصفات المتشابهة.

إنّ من يزور المغرب لا يستغرب (كما يقال)، هي مبهرة بالمفارقات والتنقاضات، وهي باختتصار فريدة في أسلوب حياتها، سحرت زائريها من كل صنف... وبهذا الإيقاع الفريد يتجلى فيها الماضي بالحاضر وتتنوع الحياة في ربوعها بألوان الطيف بتداخل الأصالة مع المعاصرة وتمازج الزمان والمكان.. فيها لكل ذوق ما يشتهي... فهواؤها عليل، وظلها ظليل، وماؤها عذب سلسبيل...!

(١) تعد الأمازيغية أيضاً لغة رسمية للدولة، باعتبارها رصيداً مشتركاً لجميع المغاربة. يحدد قانون تنظيم مراحل تفعيل الطابع الرسمي للأمازيغية، وكيفية إدماجها في مجال التعليم، وفي مجالات الحياة العامة ذات الأولوية، وذلك لكي تتمكن من القيام مستقبلاً بوظيفتها، بصفتها لغة رسمية. حسب ما ينص به الدستور.
ويتحدث بالأمازيغية أكثر من ٤٠ مليون نسمة في شمال إفريقيا.. ففي المغرب حيث يشكل الناطقون باللغة الأمازيغية كلغة أم ٩.٣٩٪ من السكان البالغ مجموعهم ٣.٣٣ مليون نسمة وعموماً فإن الأمازيغية أو لغة البربر هي في الحقيقة لغة السكان الأصليين لشمال إفريقية (تونس والمغرب والجزائر وطرابلس والصحراء بل والجزر المتاخمة لها).

إسبانيا بعيون عربية
في رحاب الأندلس

كانت إسبانيا إحدى البلدان التي طالما حلمت بزيارتها منذ بدأ شغفي بقراءة كُتب الرحلات منذ سنين الشباب الأولى ، وكنت أسمع بأن السائح العربي ما إن يقف على أطلال مدينة الزهراء في ضواحي قرطبة أو جامعها الأموي الكبير وقصر الحمراء بغرناطة تختلجه جملة من العواطف والأحاسيس وها أنا برحلتي هذه في نفس المكان الذي وقف فيه شعراء ومؤرخون عرب (١) ومستشرقون، إن هذه الفئة من الناس ليسوا بالطبع الوحيدين الذين يحملون تلك الأحاسيس الجيَّاشة، ولكنهم الأكثر قدرة في التفنن في التعبير عن مشاعرهم نثراً وشعراً ورسماً!

والأندلس الحالية ليست الأندلس التي نعرفها في كتب التأريخ العربي ففي الجغرافيا الإسبانية اليوم هي عبارة عن الجنوب الإسباني أو ما يعرف بأندلوسيا (Indulesia) و بها نحو ثماني محافظات سوف يتم تناول بعضها في سياق هذا الجزء من الكتاب، بينما الأندلس تاريخياً هي كل الأراضي الإسبانية الحالية والبرتغال وجنوب فرنسا أي مايعرف جغرافياً بشبه الجزيرة الأيبيرية، وكل الأراضي الإسبانية تاريخياً خضعت في حقب مختلفة للدولة العربية الإسلامية في الأندلس إلى أن تقلصت في مملكة غرناطة التي استمرت بعد سقوط الدويلات الإسلامية الواحدة تلو الأخرى، وصمدت آخر الممالك الأندلسية غرناطة نحو (٢٥٠) سنة وكانت آخر الممالك الأندلسية التي سقطت على يد الملك (فرنارد) والملكة (إيزابيلا) . . . .

حضارة الأندلس ليست مجرد قصور ومساجد وقلاع وحصون أذهلت زوارها من كل بقاع

(١) تغنى وبكى عشرات الشعراء والأدباء حول أطلال الأندلس ومنهم من عمل في إسبانيا كسفراء أمثال الشاعر نزار قباني والشاعر عبدالوهاب البياتي كسفراء لسوريا والعراق.. كما عاش في الأندلس الشاعر أحمد شوقي وغيرهم كثيرون.

الأرض، وإنما هي أيضاً حضارة في جانبها الفكري والأدبي المتمثل في تراث هائل في مجالات العلم بكل فروعه من طب وهندسة وفن معماري وخلافه، وفي الأدب والفن والفكر والفلسفة والشعر والغناء، فالتأثير اللغوي واضح رغم مرور قرون على أُفول تلك الحضارة وبرز علماء في المجالات السابقة وأغنى الموروث الحضاري العربي الإسلامي في الأندلس الحضارة في كل أوروبا واستمرت مدارس غرناطة وغيرها من الحواضر الإسلامية في نشر تلك المعارف والعلوم حتى بعد سقوطها فقد استفاد أعداء آخر مملكة عربية بقيت في الأندلس (غرناطة) من علومهم وانعكس ذلك على بقية بلدان أوروبا بحيث كان هناك ترابط زمني لم ينقطع بعد انهيار الدويلات الإسلامية وانبثاق عصر النهضة في أوروبا، وما التمدن والتطور العلمي السريع في عصرنا الحالي إلا امتداداً طبيعياً لتوارث وتعاقب تلك الحضارات!

وهي في التاريخ الإسلامي الكبير شهيرة بتراثها الزاخر وبشعرائها وبتقاليدها وبفنونها الشعبية والمعالم البارزة التي تجسد قوة الحضارة العربية في الأندلس وشهرتها عند الإسبان بأنها منبع الفنون الإسبانية كالرقص والغناء، وغرناطة إحدى مدن الأندلس الهامة، ومنذ أن عرفت هذا الاسم من خلال الكتب والدوريات التي دأبت على قراءتها وأنا أحلم بزيارة هذه المدينة التي تحتضن أهم معالمها وهو قصر الحمراء، كذلك مدينة قرطبة وجامعها الشهير ولاحت فرصة لزيارة مدن الأندلس وفكرتُ ملياً بضرورة القيام بتلك الزيارة ولاسيما أنني وقتها موجود ومقيم في قلب أوروبا حيث من السهل زيارة الكثير من الدول الأوروبية التي لم أكن قد زرتها[١].

ولقناعتي بأن الفرص قد لاتتكرر ولأن الإنسان مهما امتدت أمامه جبال الآمال لا يستطيع أن يطمئن إلى مايُمنّي به نفسه؛ لأن قوة الجسم إلى ضعف والشباب إلى كهولة ومآل الصحة إلى المرض ومصير القدرة إلى عجز والتعجيل من التأجيل أفضل. .إنها سنَّة الحياة لامناص منها ولا مفرَّ، وقد يتوفر المال يوماً ويفيض عن الحاجة ولكن بعد أن يُبلى المرء بمرض أو يمرُّ بظروف تعيقه عما كان يُمنّي به نفسه يوماً ما.

(١) وبالفعل فقد كانت فرصة لزيارة بلدان جديدة مثل النمسا وألمانيا والتشيك واللكسمبرج كما زرتُ بلداناً كنت قد زرتها من قبل مثل لندن وهولندا وفرنسا.

وأثناء آخر سنوات عملي في بروكسل في صيف ٢٠٠٥ أعطيت لنفسي موعداً مع التأريخ والجغرافيا مع حضارة سادت ثم بادت في «فردوس العرب المفقود الأندلس»ففي منتصف يوليو من ذلك العام عزمت على زيارة إسبانيا ولاسيما جنوبها الذي يسمى إقليم الأندلس، وقبلها ببضعة أسابيع اهتممتُ بالبحث عبر صفحات الإنترنت عن مدن وتأريخ ومواقع المدن الإسبانية، وأهم المعالم وهي مجرد استذكار لما كنت قد قرأت عنه فيما مضى؛ لأن مكتبتي وقتها لم تكن معي في بروكسل، وهكذا فإن الإنترنت كان من أفضل الوسائل لاسترجاع وزيادة المعلومات السياحية حول كثير من البلدان ولاسيما تلك التي نويت زيارتها في ذلك الصيف، وبالطبع فقد تواصلت مع زملاء وأصدقاء كانوا يعملون ضمن طاقم سفارة اليمن في مدريد عبر الإيميل والهاتف.

وعلى كل حال فقد شددت الرِّحال مستخدماً القطار من بروكسل في شمال أوربا وإلى جنوبها في مدريد ومن ثم قطار آخر إلى مدن الجنوب الإسباني في إقليم الأندلس، وقد غادر القطار مساء مخترقاً أراضي (وولونيا) في جنوب بلجيكا وهي أراضٍ تصنف لمن يعرف بلجيكا بأنها ضمن أقاليم (وولونيا) الناطقين[١] بالفرنسية إلى مدينة (مونس) في جنوب بلجيكا ومن ثم دخول الأراضي الفرنسية من شمالها في مدينة (ليل) ولم يتوقف قطار (TGV)[٢] السريع إلا في المحطة الرئيسية في شمال باريس[٣] وكان نحو ساعة لتغيير القطار والاستراحة وتناول وجبة خفيفة، و من باريس واصلت الرحلة إلى إسبانيا مخترقاً كل الأراضي الفرنسية طولاً وحتى جنوبها وكانت كلها سهولاً خضراء مروراً بمدن وقرى الريف الفرنسي الجميل القريب من إسبانيا ربما مرَّ القطار مخترقاً تلك الأماكن التي تمت فيها معارك الأجداد من المسلمين

(١) بينما تعرف منطقة بروكسل وشمالها إلى الحدود الهولندية بمناطق الفلامنك وهم الناطقون باللغة الفلامنكية وهي لغة هولندية بنكهة بلجيكية!

(٢) هذا النوع من القطار حديث بحيث يتمكن اختصار المسافة بين بروكسل وباريس إلى ساعة وعشرين دقيقة فقط بينما القطار العادي وقد استخدمته في زيارة لبروكسل في مطلع التسعينيات بحيث استمرت الرحلة أكثر من ضعف الوقت ومع توقف في مدينة ليل.

(٣) بالطبع لم أزُر باريس في تلك الرحلة المباشرة لأني قد زرتها مراراً نحو اثنتي عشرة مرة وقد تناولت بالتفصيل زيارتي لها بالطبع ضمن هذا الكتاب.

الأوائل في تور بواتييه (بلاط الشهداء) في الجنوب الفرنسي والتي لو قُدِّر للعرب النصر فيها لتغير وجه أوروبا، ولكانت ضمن الأراضي الإسلامية العربية مثل الأندلس وربما كان لتاريخ الحضارة الإسلامية في أوروبا منحًى آخر، وعلى كل حال بدأ القطار دخوله في الأراضي الإسبانية في الصباح الباكر وما هي إلا ساعات حتى وقف في محطته النهائية في قلب العاصمة الإسبانية مدريد منتصف اليوم. وقد استقبلني أصدقاء وزملاء دبلوماسيون يعملون في سفارتنا في مدريد، وتكرموا بإيصالي للفندق الذي تم حجزه سلفاً والواقع في ساحة إسبانيا المشهورة في قلب مدريد، وتدبّرنا موضوع إعداد برنامج سياحي مسبق من قبل شركة سياحية تتكفل بتوفير وتأمين تذاكر السفر في كل خطوط القطارات لتلك الأماكن التي أرغب فيها وحتى العودة فضلاً عن الإقامة في فنادق معقولة مختارة تكون في قلب المدن حتى يسهل عليّ التنقل والتمتع بتلمس الحياة في قلب الأشياء! في مساء نفس اليوم وبعد تأمين نُزُل مريح وبسعر معقول والأهم موقعه الذي لم يكن يخطر على البال، خرجت أنا وزميل لي في جولة أولية سريعة نكتشف فيها مدريد الجميلة مررنا بالقصر الملكي ويدعى هنا بالكازار؛ أي القصر وهي تحريف لكلمة القصر العربية.

وفي هذه المدينة الجميلة مكثت نحو أسبوع قبل أن أنطلق جنوباً في زيارة لسبع مدن إسبانية أخرى على أن أكمل زيارتي لمدريد عند الانتهاء من زيارة مدن الأندلس وخلال عودتي عبرها إلى شمال أوروبا محل إقامتي حينها (بروكسل) بعد الانتهاء من زيارة إسبانيا.

وعموماً فكنت خلال الرحلة إلى مدريد أُمنّي نفسي بخارطة سياحية.. فمن أين أبدأ، وكيف؟ ولكن ما إن وصلت ومكثت بضعة أيام في العاصمة مدريد وبمساعدة زميل لي بالسفارة هناك فقد كانت محطة استراحة لاكتشاف عاصمة إسبانيا الحديثة وقلبها النابض.. ومدريد نفسها عالم آخر في السياحة فهي بحق عاصمة جميلة كلاسيكية تمزج فيها الأصالة والمعاصرة وفيها آثار عربية إسلامية كنت أجهلها من قبل ومن يَزُرْ مدريد ينبغي أن يقيم فيها أسبوعاً كاملاً على أقل تقدير، وتعتبر إسبانيا ثاني بلد أوربي جذباً للسياحة بما يزيد عن عدد سكانها الذي يربو على الأربعين مليوناً وهي دولة صناعية تعتبر التاسعة عالمياً، وهي أهم من هذا منطقة جذب سياحي للمهتمين بتأريخ العرب في الأندلس.

رفعت إسبانيا شعار «سائح لكل مواطن» كان ذلك في عام١٩٦١ عندما كان عدد سكان إسبانيا ٣٠ مليوناً وكان عدد السيَّاح حينها لايتجاوز الستة ملايين وارتفع الرقم إلى ٣٢ مليوناً عندما ارتفع سكانها إلى ٣٤ مليوناً ، أما في عام ٢٠١٢ فقد بلغ عدد سكان إسبانيا ما يقارب الخمسين مليوناً، وأصبح زوارها يقاربون هذا العدد، وبعد خمسة عقود حققت إسبانيا أملها في أن يكون هناك سائح لكل مواطن وربما أكثر مما كان متوقعاً![1].

وتنقسم إسبانيا إلى عدة أقاليم، ولعلّ مايستهوي السائح العربي والمستشرقين هو إقليم الأندلس الواقع في جنوب إسبانيا وتنقسم إلى عدة مناطق ومدن مثل قرطبة وغرناطة وأشبيلية وطليطلة ومالكا وماربلا وبلد الوليد وبرشلونة . . . وغيرها ، فضلاً عن مدريد والتي كانت تسمى (مجريط).

تعتبر إسبانيا إحدى أبرز الدول السياحية المعروفة عالمياً، ومن المتوقع أن يصبح عدد زوارها ضعفي عدد سكانها في السنوات المقبلة، وتشكل السياحة صناعة حقيقية تدرُّ على البلاد دخلاً هائلاً من العملات الأجنبية، مُشَكّلةً مصدراً رئيساً في موازنتها العامة، ومتقدماً على دخلها من الأنشطة الاقتصادية الأخرى كالزراعة والصناعة والتجارة، إضافة إلى تفوق إسبانيا في هذه المجالات على كثير من الدول الأعضاء في الاتحاد الأوروبي، وخصوصاً في مجال إنتاج الخضر والفاكهة وتصديرها.

الشعب الإسباني كبقية شعوب دول البحر الأبيض المتوسط مرح ومنفتح وينفق ببذخ ويكرم الضيف، ويعيش حياته في الشارع تقريباً وقلّما يذهب إلى داره قبل ساعات من نومه المتأخرة ليلاً.

ومن المعروف لدى السيَّاح بأن إسبانيا كانت من أرخص بلدان أوروبا الغربية خلال السبعينيات والثمانينيات بل وحتى في التسعينيات، ولكن بعد أن تحولت عملتهم من (البيزو) إلى (اليورو) مطلع عام ٢٠٠٢ تحول اقتصاد إسبانيا ليندمج مع اقتصاد الاتحاد الأوروبي فارتفعت الأسعار كثيراً عما كانت عليه قبل بضع سنوات ورغم ذلك فالزائر لإسبانيا اليوم لازال يرى فروقاً كثيرة في الأسعار سواء كان الإقامة في الفنادق أو الطعام والمواصلات وغيرها مقارنة بدول أخرى مثل سويسرا وفرنسا وبريطانيا وغيرها.

(١) الدكتورة نعمات أحمد فؤاد «رحلة الشرق والغرب» الهيئة المصرية للكتاب عام ١٩٨٦ القاهرة ص ٢٧.

هناك مايلفت انتباه البعض حول تكرار اسم المدن الإسبانية فكنت ألاحظ أسماء لمدن إسبانية في أمريكا اللاتينية، نظراً لخضوعها فترات طويلة تحت حكم الإسبان أو البرتغاليين وحتى في مدن غرب الولايات المتحدة، فأثناء إقامتي في أمريكا عرفت مدناً بأسماء إسبانية مثل (سكرمنتو وسان فرانسسكو وسنتياغو) وغيرها، وقد يستغرب القارئ بأن في إسبانيا وحدها يوجد أكثر من مدينة باسم مدريد وكذلك في الولايات المتحدة الأمريكية وفي أمريكا اللاتينية وفي فرنسا والفلبين!

ومدريد[١] مدينة واسعة وهي من الحواضر الأوروبية الكبيرة ويقطُنها نحو خمسة ملايين أو يزيد وهي من أجمل المدن الأوروبية ففيها الميادين والشوارع الفسيحة وحدائق غنَّاء وأسواق و(مولات) حديثة وفي ضواحيها منتزهات وأماكن للاصطياف، كما يوجد فيها شبكة مترو لا بأس بها وكذا عدد من محطات القطارات التي تربطها ببقية المدن الإسبانية ومختلف العواصم الأوروبية ومحطات للأتوبيسات التي تربط مدريد بمدن إسبانيا الأخرى وببعض العواصم الأوروبية.

ورغم طابعها الحديث الحضاري هناك أماكن قديمة كلاسيكية منذ قرون وهي طرق وشوارع مهمة لكثير من السيَّاح وهي تمتد من جنوب وشرق ساحة (البورتا دي سول).

وتستقبل مدريد والمدن الإسبانية الأخرى سواء مدن الأندلس التي تستهوي السيَّاح من الشرق والغرب ومدن شمال إسبانيا ومصايفها على المتوسط الملايين من السيَّاح سنوياً.

ويستطيع زائر إسبانيا أن يتناول أي طعام يحلو له لتوفر جميع أنواع الأطعمة الموجودة في العالم، كما أن الأطعمة الإسبانية كثيرة ومتنوعة سواء من اللحوم أو الأسماك أو الطيور، وعلى المسلم الالتزام بما هو مشروع وحلال في دينه ، وهذا ميسر وموجود في الكثير من المطاعم رغم طابعها الحديث والحضاري، ورغم أن إسبانيا ثاني دولة في العالم استهلاكاً للأسماك بعد اليابان إلا أنها تستورد بعض احتياجاتها من الخارج، والمطبخ الإسباني غني بالتنوع ولاسيما في أصناف المأكولات البحرية...

(١) وكانت تسمى مجريط ومنها العلامة المعروف المجريطي وقد بنيت أيضاً في العصر الأندلسي الزاهر... وفيها ولد العالم الشهير أبو القاسم مسلمة بن أحمد المجريطي الذي استحق لقب «إقليدس الأندلسي»، مؤسس علم الفلك والرياضيات في مدرسة قرطبة، وذلك في القرن العاشر الميلادي.

والإسبان إلى حدٍّ ما يشبهون الطليان في لغتهم وطباعهم الحادة إلا أنهم «كما لاحظت» أكثر وداعة وتأدباً ورقَّةً وهم كالعرب مولعون بلعبة كرة القدم ولكنهم ـ ربما ـ الوحيدون المشهورون بمصارعة الثيران وهي الأكثر شعبية في إسبانيا، ويشجع الرياضيين من سكان إسبانيا ولذا نجد أن القائمين عليهما يتحكمون بقطاعات اقتصادية مهمة لها مواردها الثابتة، والأندية الإسبانية من أغنى الأندية في العالم.

وفي حديثي لموظف الاستقبال بالفندق الذي نزلت فيه قال لي بأني محظوظ لتوفر غرفة في عزِّ الصيف؛ لأن موقع الفندق يطلُّ على ساحة (اسبانيالو) والتي تقع في قلب مدريد، ومن ميزات ذلك المكان أنه يقع بالقرب من بعض الآثار العربية الباقية في مدريد ويمكن الوصول إليها سيراً على الأقدام أو بالمواصلات العامة.

ومدريد اليوم تحافظ على آثارها العربية الكثيرة رغم تقدم العمران [(١)] وقد اكتشفت مؤخراً عدة آثار عربية تمثل أسس وجدران «مجريط» الأولى، كما لا يزال شارع (الغرنادة) وعدد من المساجد، وساحة البلدية التي كانت مسجداً؛ أضف إلى ذلك أن قصر الشرق، أو القصر الملكي الذي استضاف افتتاح مؤتمر السلام، والذي يعتبر من أجمل القصور الأوروبية، قد أُقيم مكان قصر عربي قديم وقلعة بناها الأمير محمد الأول (الفاتح) لتكون ثغراً متقدماً لحماية مدينة طليطلة.

مدريد من المُدن الأوروبية الحيّة تستقطب بصورة متزايدة زوارها لما تزخر به من مزارات تجذب السيَّاح من كل بقاع العالم سواء من معارض وحدائق ومتاحف وأسواق وميادين وكل ما يتمناه الزائر، وقد ركزت على أهمها متحف البرادو والمتحف الحربي، الكثير من زوار العاصمة مدريد والمهتمين بالشأن التاريخي الإسلامي، يتوجهون في أيامهم الأولى من زيارتهم

(١) تعتبر مدريد مقارنة مع العواصم الأوروبية الأخرى مدينة حديثة العهد، حيث يرجع تاريخ تأسيسها إلى ما بين ٨٥٢ و٨٨٦ حين أمر محمد الأول أمير قرطبة ببناء قصر صغير يقع في مكان القصر الملكي الحالي في مدريد، وهذا هو أول سجل تاريخي عن وجود استقرار في مدريد تاريخه من الفترة الإسلامية. وكان قد أسسه لغرض جعلها نقطة انطلاق لشن غارات ضد الممالك المسيحية في الشمال وسميت المنطقة المحيطة بـ «مجريط» أي المجاري أو منبع المياه. كان المكان مسكوناً من قبل المسلمين وقلة من اليهود والمسيحين.

إلى (قصر الشرق) [1]، ومتحفه الحربي، ويعتبر المتحف الحربي أهم المتاحف في مدريد بالنسبة للسائح العربي حيث يضم في جنباته وتحديداً في الطابق العلوي منه الصالة العربية والتي تحتوي على ملابس وسيف الملك أبي عبد الله الصغير آخر ملوك المسلمين في الأندلس، كما يضم المتحف الوثيقة التي وقعها ملك غرناطة أبو عبد الله الصغير مع «فرناندو» وزوجته «إيزابيلا» ملكي إسبانيا، وقد تَّم نقض هذه الوثيقة في واحدة من أكبر النكبات التي تعرض لها المسلمون في الأندلس.

ومن المتاحف التي زرتها في الأيام الأولى لإقامتي في مدريد متحف الفن الشهير (البرادو) ويعتبر من أهم وأعظم المتاحف العالمية وملتقى الزوار من جميع أنحاء العالم، ويقع في بناء كلاسيكي من القرن الثامن عشر الميلادي ويضم بداخلة مجموعة كبيرة من اللوحات الرائعة والشهيرة لكبار الفنانين الإسبان والتي تحكي قصة وتاريخ إسبانيا في كل العصور، وكان الدليل السياحي يشرح لنا باللغة الإنجليزية وهناك أدلاَّء يجيدون الفرنسية والإيطالية وللأسف لا يوجد من يحسن التحدث بالعربية ربما لقلة السيَّاح العرب ولكني شاهدت في ماليزيا على سبيل المثال يهتمون بالعربية فهناك مترجمون للعربية سواء أدلاَّء مختصين أو بصوت بشري عبر أجهزة إلكترونية..

ومن ضمن أهم الميادين الأساسية التي أتذكرها هي الساحة الكبرى وهي قلب العاصمة مدريد العتيقة، وتعتبر واحدة من أهم المعالم والأماكن السياحية.. وميدان «بلازا مايو» ويطلق عليه: ميدان بلاثا مايو (plaza mayor).

وتقع هذه الساحة المستطيلة وسط مدريد وتطل عليها من جميع الجوانب قصور قديمة وقد شبهتها بميدان (قراند بلاس) في بروكسل إلا أن ميدان بروكسل أجمل وأشهر فالقصور التي تطل على (ميدان بلاس دي قراند) في قلب بروكسل تحفة معمارية هي أجمل القصور في أرووبا قاطبة.!

(١) ويعتبر من أجمل قصور أوروبا وفيه عقدت جلسات مؤتمر مدريد للسلام في خريف عام ١٩٩١م، وفيه المتحف الحربي، والقصر، كما تقول كتب التاريخ، أقيم مكان أول قلعة وحصن أنشئ في عصر الأمير الأموي محمد الأول قبل أكثر من ألف عام.

وبعد تصفح دليل مدريد السياحي كان من ضمن برنامج ذلك الأسبوع الحافل هو زيارة حديقة (الريتيرو) في مدريد Parqu del Buen Retiro وتعتبر هذه الحديقة الضخمة رئة مدريد الخضراء ومتنفس سكان العاصمة؛ وهي حديقة عامة يرتادها الناس وخاصة يوم الأحد، حيث تجري فيها عروض فنية ترفيهية تقدمها فرق البلدية وبعض الفرق الفنية الزائرة، كانت في الأصل منطقة قصر استجمام الملك فيليب السادس، تَّم تدمير القصر في الحرب الأهلية، وبقيت الحدائق والتي تعتبر متنفس سكان مدريد، ويوجد فيها اثنان من المباني الرائعة: الأول قصر الكريستال (Palacio de Cristal)، والثاني قصر فيلاسكيز (Palacio de Velazquez) يعود تاريخ بنائهما لعام (١٨٨٤م).

وشاهدتُ بحيرة كبيرة وسط الحديقة يمكن للسائح استئجار قارب والدخول وسط البحيرة، وعلى أطرافها يوجد نصب للملك الفونسو على جواده، وتقع الحديقة بالقرب من المتحف الحربي ومتحف البرادو الشهير والذي تمَّ ذكره.

وهناك حديقة أخرى غاية في الجمال لم أعرفها إلا بعد عودتي من جنوب إسبانيا في الأربعة أيام الإضافية التي أكملت فيها مشاهداتي لبعض معالم مدريد الجميلة وهي منطقة تُدعى كازا دي كامبو (Casa de Campo) وتقع تقريباً على الضفة الغربية من نهر منازنارس في المنطقة الموجودة خلف القصر الملكي. واستمتعت برياضة المشي حول البحيرة الموجودة في هذه الحدائق ضمن المئات من الإسبان الذين يهوون هذه الرياضة، إضافة لوجود عدد من المسابح وملاعب التنس، وأهم ما يوجد في هذه المنطقة حديقة الحيوان (The Parque Zoolgico).

زرت أيضاً ضمن برنامج زيارتي في الأسبوع الأول في إسبانيا المركز الثقافي الإسلامي في مدريد والذي تَّم افتتاحه في عام (١٩٩٢م) وقد تمَّ إنشاؤه بمساعدة السعودية و ذلك بعد أن تنازلت بلدية مدريد في أواخر عقد الثمانينيات من القرن الماضي عن قطعة الأرض للجالية الإسلامية في إسبانيا لجعل هذا الصرح داراً للإسلام والمسلمين في إسبانيا بعد أن عاشت سنوات طويلة تتطلع لأن يكون لها مكان لائِق تقيم فيه الصلوات الخمس ويضم المركز أول مدرسة عربية إسلامية مع مكتبة وقاعات للمعارض وقاعة كبرى للمحاضرات، وقد شهد المركز

أنشطة لا حصر لها ثقافية ودينية وملتقيات للحوار مع مختلف المعتقدات والثقافات ويهتم المركز بمدِّ جسور التقارب والود والتفاهم بين الجالية الإسلامية وأهل إسبانيا وبتقديم العون الأدبي والديني والثقافي والمالي للجمعيات الإسلامية كما يقوم بالنشاط الديني، الثقافي، التربوي، الاجتماعي، الرياضي، وبالتعاون مع المؤسسات الثقافية الإسبانية ويستقبل المركز المسلمين وأبناء الجالية العربية الموجودين في إسبانيا ويقدم الكثير من الخدمات لهم ويعمل الآن من أجل تحسين صورة الإسلام في الغرب.

صيف إسبانيا كما هو في أوروبا طقس جميل ومساحات خضراء ومدن تنبُض بالحياة، كنت إذا شعرت بالتعب أركب الحافلة السياحية حيث تعتبر زهيدة الأسعار نسبياً مقارنة بسيارة الأجرة التاكسي فلا يزيد سعر التذكرة ليوم كامل على مدار الساعة عن أربعة عشر يورو وهذا نفس السعر في أغلب بلدان أوروبا التي تحاول استقطاب السيَّاح بهذه الوسيلة الجميلة ولم أرَ مِثلها في بلد عربي إلا في مدينة (دبي) وكذا (مراكش). . . كانت تلك بمثابة جولة استطلاعية فعند مشاهدة مَعْلَم معين يمكن النزول والبقاء فيه لبعض الوقت ومن ثم استئناف الجولة بحافلة أخرى بنفس التذكرة وهكذا ومن ضمن المشاهدات التي تسنى لي أيضاً مشاهدتها هو القصر الملكي وهو أحد أجمل وأكبر القصور الملكية في أوروبا، ومن وجهة نظري يعتبر من أجمل الأماكن التي تستحق الزيارة في مدريد رغم أنني اكتفيت بمشاهدته من الخارج، وهو مبني على الطراز المعماري الإيطالي في عهد الملك فيليب الخامس وقيل: إنه يحتوي على أكثر من مئتي غرفة.

وبالطبع عند أي تحرك من مَعْلَم لآخر يمر الزائر بشوارع وميادين مدريد الساحرة ومن أشهرها (قران فيا) أو الشارع العظيم بالإسبانية، ولعله من أهمها أو أبرزها في العاصمة الإسبانية ويطل عليه عدد من الفنادق ودور السينما والمطاعم والأسواق والمعالم التي تستحق الزيارة، وقد صُمِّم هذا الشارع ليربط بين بوابة (ألكالا) أو القلعة وساحة إسبانيا، وبعد منطقة القلعة يواجه المتجول والزائر مبنى الطيران المميز بقبته الذهبية التي يعلوها مجسم لامرأة بجناحين!

وبوابة القلعة واحدة من أهم معالم مدريد كما تعتبر مَعْلَماً وطنياً، وتتوسط هذه البوابة الضخمة ساحة يطلق عليها «ساحة الاستقلال» كما توجد ميادين وساحات عديدة منها الساحة

الكبرى وبوابة الشمس Puerta de lSol وساحة المدينة Plaza de la Villa وهناك متاحف كثيرة بعضها لم أجد الوقت لزيارتها منها متحف الملكة صوفيا، يعتبر أكبر متاحف الفن الحديث في إسبانيا وهو من ضمن المتاحف النوعية التي أحرص على زيارتها كمتحف الشمع فقد ذكرني بمتاحف مشابهة زرتها في لبنان ولندن وكل متحف يضم شخصيات تختلف عن الآخر، وبعض هذه المتاحف تتميز بالصوت أيضاً مثل متحف المشاهير في جبل لبنان في ضواحي بيروت حيث الشخصيات تتكلم بصوت بشري بل بصوتها الحقيقي.

أما متحف الشمع في مدريد فيوجد فيه العديد من الشخصيات العربية أهمها ياسر عرفات وصدام والملك محمد السادس ملك المغرب، إضافة لذلك يوجد مجسمات تمثل بعض الشخصيات الإسلامية الخالدة مثل عبد الرحمن الداخل والحاجب المنصور، كما يحتوي المتحف على صالات لتقديم العروض ويقع المتحف عند ساحة كولون (Plaza Colon)، ويتوسط ساحة كولون مجسم يخلد ذكرى الرحَّالة كولومبس[١].

ومن أشهر الميادين أو الساحات التي مررت بها أكثر من مرة هي (ساحة سيبلس) وكذلك ساحة (كلاو)، ويتوسط هذه الساحة نافورة رائعة تحيط بنُصُب لرمز الخصوبة اليونانية سيبيليس، كما تعتبر المنطقة القريبة من هذه الساحة من أفضل مناطق التسوق في مدريد، وتحيط به حديقة رائعة، كما تضم المنطقة القريبة من هذه الساحة متحف الشمع، وقصر العدل بالنسبة للمعالم الأخرى مثل الحمّام العربي الذي حرصت أيضاً على زيارته في بعض المدن الأوروبية مثل بروكسل فقد سمعت عنه في مدينة مدريد وفعلاً زرته وبعد التمتع بمشاهدة معالم مدينة مدريد الساحرة حيث يمكن أخذ قسط من الراحة والاستجمام في الحمام العربي، لاستعادة النشاط وفي النهاية يمكن تناول وجبة الغداء أو العشاء في المطعم الخاص بالمركز والتمتع بالعروض الفنية والاستعراضية المصاحِبة.

(١) وقد شاهدت تمثالاً آخر للمكتشف الشهير (كرستوف كولومبس) في ميدان في وسط غرناطة بجنوب إسبانيا ولكنه بشكل آخر تم ذكره في الصفحات الخاصة بوصف مدينة غرناطة.

الإسكوريال:

عندما سمعَ مرافقي كثرة حديثي عن إسبانيا وآثارها العربية وقبل أن أغادر مدريد بعد عودتي من الجنوب (الأندلس) قال: مارأيك بزيارة الاسكوريال؟ فقلت: سمعت به وشهرته وقلعته وحدائقه ومكتبته وشجعني بقوله: إنه قريب ولا يبعد سوى خمسين كيلومتراً من مدريد؛ أي أقرب من طليطلة التي زُرناها معاً قبل زيارة مدن الجنوب، فقلت: طبعاً إن كان لديك وقت وقد قرأت عنها في كتب الدكتور حسين مؤنس والذي شغل في فترة الستينيات منصب مدير المركز الإسلامي في مدريد هذا المعهد الذي أسسه الأديب الكبير طه حسين عندما كان وزيراً للمعارف في مصر وهدفه نشر المعرفة الإسلامية والعربية في الغرب فبدأ بإسبانيا بحكم العوامل التاريخية المعروفة.

وأثمن مافي الاسكوريال مخطوطات عربية ترجع لسنة ١٠٠٩ م كُتبت على ورق من القطن، وعثر على أخرى ترجع إلى سنة ١١٠٦ م كُتبت على ورق الكتان مما يشهد لعرب الأندلس بفضل السبق والبراعة في هذه الصناعة. وفيه قائمة من المخطوطات التأريخية تدل على أن العرب كانوا أول من استعمل الديناميت في الحروب، وغير ذلك مما يلقي الكثير من الضوء على حقائق لبثت قروناً تحتضر في ظلمات الاسكوريال[(١)].

والاسكوريال عبارة عن دير وكنيسة ضخمة ومقابر وحديقة ومتحف ومكتبة عامرة بالكتب لم أستطع رؤيتها، ولكن قيل لنا بأنها تحوي كتباً قيمة[(٢)] ويعتبرها الإسبان من عجائب الدنيا الثمانية!

ودخول الاسكوريال بالمناسبة مجاناً والمكتبة بسقفها المقوّس تضم ذخائر الكتب التي تحكي التأريخ العربي الإسلامي في الأندلس في العهود الغابرة، وأما الحديقة فتضفي على المكان جمالاً أخّاذاً.

انفردت إسبانيا بخصوصية ميّزتها عن غيرها من الدول الأوروبية والتي تتمثل في (مصارعة

(١) سامي الكيالي..«الربوع الأندلسية» مكتبة الشرق حلب سوريا.
(٢) تحوي المكتبة كما ذكر في كتاب الأستاذ أحمد السماوي «الأندلس الفردوس المفقود» نحو أربعين ألف كتاب بلغات مختلفة.

الثيران) و (رقصة الفلامنكو) ومهرجان سنوي للمشاجرة بحبات الطماطم. ! وسيتم تناول تلك الخصوصيات في الصفحات التالية.

مصارعة الثيران!

ومن الأشياء الجديدة بالنسبة لي التي ربما لا تتواجد إلا في هذا البلد الأندلسي الجميل[١] الحلبة الخاصة بمصارعة الثيران (الكوريدا) وبالطبع لم أكن يوماً من هواة مشاهدة مصارعة الثيران بل لم أعرف عنها شيئاً إلاّ ماسمعته.

لقد كانت «الكوريدا» آخر مكان في مدريد أرغب في مشاهدته ولكن كان ذلك من باب معرفة الشيء خير من جهله كما يقال، وطالما أني في بلد اشتهر بهذه اللعبة فالزيارة ستكون لها ذكرى ولم لا! وكنت أعتقد بأني سأذهب مع مرافقي وأرى المصارعة ولم يكن يدور بخلدي بأني سأكون بالقرب من تلك الحلبة، وقد كان الحظ فعلاً إلى جانبي عندما وصلتها وهي في حال الصيانة وسُمح للسيّاح بالدخول مجاناً وفي حال إقامة المباريات سمعت أن أسعار التذاكر باهظة ويرتفع ثمنها كلما كنت قريباً من المتصارعين، الثور الهائج وبني البشر غريب الأطوار! وهنا أضاف مرافقي . . بأنك أيضاً لو دخلتها في حالة المصارعة فلن تتمكن من التأمل في تفاصيل بنائها وزخارفها . . !

ومبنى المصارعة والمدرج كبير وواسع وفي مقدمته نقوش وزخارف بعضها من وحي الفن العربي الأندلسي، وقال مرافقي: لو كان هناك مصارعة لرأيت الآلاف ينتظرون دورهم للدخول ولدفعت عشرات الدولارات لتضمن كرسياً، وتختلف قيمة التذكرة تبعاً لقرب الكرسي من المصارعين، وكنت قبلها بيومين أشاهد بالصدفة برنامجاً سياحياً على شاشة التلفاز في بهو الفندق وربما كان مسجلاً، والمهم كان يعرض الجوانب السياحية في إسبانيا ومنها مباريات مصارعة الثيران وشاهدت الدماء تسيل من رقبة الثور الهائج والحقيقة أنها رياضة تشمئز منها النفوس ورغم ذلك فإن لهذه اللعبة أبطالها الذين يضاهون أبطال الكرة ونجوم السينما العالميين، ومن الطبيعي

(١) وتتواجد هذه الرياضة أو اللعبة في البرتغال أيضاً باعتبارها جغرافياً وحضارياً وتأريخياً ضمن شبه الجزيرة الأيبيرية. وربما تتواجد هذه الرياضة أيضاً في بعض بلدان أمريكا اللاتينية بالنظر للإرث الحضاري للثقافة الإسبانية فيها.

أن يكون لهذه اللعبة ضحايا من اللاعبين فهي في الجملة لعبة خطرة بطبيعة الحال! وحلبة المصارعة في مدريد تسمى الكيروليريدا وتقع في ميدان الثيران (plaza de teror) وهي من أكبر حلبات المصارعة في إسبانيا [١] وتشبه من الداخل بناء الكلوزيوم الروماني في مدينة روما من حيث الطراز والبناء تقريباً ولا يضاهيها ضخامة إلا ميدان المصارعة الكبير في مدينة إشبيلية.

ورغم أن مصارعة الثيران لا توجد إلا في إسبانيا والبرتغال وربما في جنوب فرنسا إلا أنها صناعة ضخمة يعمل فيها في إسبانيا وحدها نحو ١٥٠ ألف فرد ويتقاضى المصارعون البارزون أجوراً عالية.

أثناء زيارتي لإسبانيا وبعدها وحتى قبلها كنت أسمع عن دعوات من المهتمين بحقوق الحيوان بضرورة حظر هذه اللعبة القذرة رغم شعبيتها ورغم أن آلاف الإسبان سيتضررون من حظرها ولم يخطر ببالي بأن تلك الدعوات قد أثمرت مؤخراً، حيث لم تستطع قرارات ملكية ومناداة الفاتيكان منذ عقود عديدة القضاء على «الكوريدا» أو مصارعة الثيران في إسبانيا، لكن برلمان منطقة كاتالونيا شمال شرق إسبانيا انتصر في آخر المطاف للمدافعين عن حقوق الحيوان[٢]، فقد شهدت مدينة برشلونة عاصمة كاتالونيا في النصف الثاني من العام ٢٠١١آخر احتفال لمصارعة الثيران. والآن هناك تخوف من انتقال العدوى لمناطق إسبانية أخرى.

وتعتبر لعبة مصارعة الثيران قديمة في إسبانيا، لكن شكلها الحديث والقوانين المنظَّمة لها تعود لمنتصف القرن الثامن عشر عندما انتشرت بشكل واسع في مختلف مدن إسبانيا وجنوب فرنسا وفي عدد من دول أمريكا اللاتينية مثل المكسيك وبوليفيا والإكوادور وكولومبيا، وكانت قد انتقلت إلى مدينة طنجة شمال المغرب إبان الاحتلال الإسباني لهذا البلد العربي (١٩١٢ - ١٩٥٦)، حيث مازال مبنى حلبة مصارعة الثيران قائماً حتى يومنا هذا كما عرفت من تصفحي لأحد المواقع في شبكة الإنترنت.

أصبحت مصارعة الثيران اللعبة المفضلة لغالبية الإسبان منذ بداية القرن التاسع عشر ولم

(١) ماجد ذيب غيما.. «يوميات أندلسية» الطبعة الأولى ١٩٧٨ ص ٢١.

(٢) في يوم ٢٨ من يوليو من العام ٢٠١١ صوَّت برلمان منطقة كاتالونيا التي تتمتع بالحكم الذاتي على قرار بمنع مصارعة الثيران ابتداء من يناير ٢٠١٢... المصدر صحيفة القدس العربي الصادرة من لندن الموافق ١٤ أكتوبر ٢٠١١.

ينقص من بريقها ظهور كرة القدم حتى يومنا هذا، فملاعب مصارعة الثيران المنتشرة في مجموع البلاد أصبحت من معالم المدن بهندستها الجميلة، ويعدُّ بعض مصارعي الثيران نجوماً بكل ما تحمله الكلمة من معنى. كما غدت جزءاً من الثقافة الإسبانية، وخصص لها كبار الرسامين لوحات خالدة، وتوجد روايات مشوقة أبطالها مصارعو الثيران علاوة على أفلام سينمائية، كما أضحت حلبات الصراع محجَّ عدد من كبار النجوم في الخمسينيات والستينيات. والأهم أنها أصبحت صناعة تدرُّ مئات الملايين من اليورو، لكن لعبة مصارعة الثيران لقيت عبر التاريخ رفضاً سياسياً ودينياً، فملوك إسبانيا في البدء كانوا يعتبرون هذه اللعبة خاصة بالطبقات المسحوقة التي لا ثقافة رفيعة لديها. وقام الملك فيليب الخامس بمنعها سنة ١٧٢٣، وتراجع الملك فيرناندو السادس عن القرار شريطة تخصيص مداخيل مصارعة الثيران للأعمال الخيرية. وناقش البرلمان الإسباني خلال القرنين الأخيرين في عدد من المناسبات منع مصارعة الثيران إلا أنه كان يتراجع في آخر المطاف. وحاول الفاتيكان في القرن التاسع عشر منع مصارعة الثيران ولكنه فشل.

ورغم تضرر قطاع كبير من الإسبان المستفيدين من هذه الرياضة إلا أن المئات من الثيران قد نجتْ بجلدها من ملاعب مصارعة الثيران في إقليم كاتالونيا، وقد تكون هذه البداية نحو انتقال العدوى إلى باقي إسبانيا لوضع حدٍّ لأسوأ لعبة للتسلية يهدر فيها دم حيوان بريء.

عدت متعباً وبعد أخْذِ قسط من الراحة في غرفة الفندق، نزلت لتناول كوب من الشاي في بهو الفندق والتمتع بمشاهدة المارة من خلف زجاج تلك الصالة الجميلة وأتابع بعض الأخبار من تلفاز مسطح مثبت على الحائط، وبعد برهة شاهدت برنامجاً جديداً عن مصارعة الثيران على شاشة التلفاز وكثير من نزلاء الفندق يشاهدون بإمعان، وتشدهم تلك اللعبة أكثر من كرة القدم ولا أدري إن كان البرنامج مسجلاً أو نقل مباشراً وفي تلك اللقطات العابرة حاولت أتأمل حركات ولبس المصارع فشاهدت الأبّهة التي يدخل فيها اللاعب الحلبة وهو يرتدي حُلَّة مضيئة موشَّاة بخيوط من الذهب والفضة وحركاته الرشيقة وهو يقف على أقل مسافة ممكنة من الثور ومع ذلك يتفادى قرنيه الحادين في براعة، ورغم أن المشاهد يعيش جوَّ الإثارة إلا أن المرء غير المعتاد على هذه المشاهد يغلب عليه التعاطف مع الثور ويستغرب وحشية الإنسان غريبة الأطوار في هذه المبارزة المثيرة.

والحقيقة ـ كما شاهدت ـ أن حركة الفارس فيها كثير من البراعة والدهاء وتدُل على خبرة وتدريب منذ فترة ليست بالقليلة وعندما يغرز المصارع سهامه في جسد الثور المسكين يصيح الجمهور بالإسبانية (اوليه. . . .اوليه) فسألت أحدهم: ماذا تعني كلمة اوليه والتي تتكرر على لسان عشرات الآلاف من المتفرجين فيبدو أنها كلمة هامة؟ فقال لي: تعني اوليه. . .اوليه. . . الله. . .الله!

ومن خلال اطلاعي على دليل مدينة مدريد عرفت أن هناك أشياء كثيرة ومعالم سياحية وبيئية وفنية وتاريخية لا تكتمل إلا إذا تمكَّن المرء من زيارة الضواحي أو المدن القريبة منها مثل مدينة (توليدو) أو (طليطلة)، وفيها تجسد التراث الفني والتاريخي للأندلس وهي المعروفة بالمدينة المتحف وببوتقة الثقافات ورمز القيم الخالدة، وزيارتها ضرورية وهامة لكل سائح عربي يودُّ التعرف على الآثار الإسلامية في إسبانيا ومدن الأندلس، فهي عاصمة مطلع العصر العربي الإسلامي في الأندلس. وقال مرافقي سائق السفارة بأن طليطلة تعتبر قريبة وهي خارج رحلتك للجنوب فيمكن أن نزورها معاً بسيارته الخاصة ونعود ومن ثم تبدأ زيارتك لمدن الجنوب الإسباني، وغادرت «مع مرافقي الموظف المحلي بالسفارة اليمنية» مدريد لمدة يومين في إجازة نهاية الأسبوع متجهين إلى مدينة طليطلة وبتنا فيها ليلة واحدة فقط؛ لأنها لا تبعد سوى سبعين كيلومتراً جنوباً بانحراف قليل إلى الغرب، وهناك مقولة لأحد الرحَّالة العرب بأن طليطلة حتى لو بعدت عشرة أضعاف المسافة فإن الزائر هو الرابح دون ريب! وهي اليوم مدينة سياحية جديرة بأن تشد إليها الرحال طالما وطئت قدما الزائر إسبانيا ليرى كنوزاً من الفن الرائع النادر المثال وموقعها الجميل فوق جبل يطل على نهر (تاخو)وقال مرافقي بأن ذلك النهر الذي يلفُّ المدينة من ثلاث جهات يصبُّ في نهاية المطاف في البرتغال. ويقع على قمتها بناء شامخ كبير يسمى (الكازار) أي القصر، وهي مدينة جبلية تقع على عدد من التلال وهو ما أعطاها جمالاً وبهاء وكانت الرحلة غير مملة؛ لأنها قصيرة من جهة ولأن الراكب يتفرج على المروج الخضراء أو البنايات وقرب المدينة نهر (تاجه)،وتبدو للزائر طليطلة في قمة جبل وقلعتها الجميلة وجسرها العتيق وهذه المدينة رغم أنها في قلب إسبانيا وبعيدة عن البحر إلا أنها كانت من أوائل المدن التي فتحها العرب فكانت هدفاً للقائد طارق بن زياد هذا القائد الشجاع الذي كان لخطبته أمام جنده مفعول السحر في الجزيرة التي وصلوها وسميت باسمه (جزيرة جبل

طارق) إلى يومنا هذا عندما قال في خطبته الشهيرة أمام جنوده [١]: (البحر من ورائكم والعدو أمامكم) حاثّاً ومشجعاً جنده ليواصلوا المعركة وكان في مقدمتهم . . . وقال لهم محذراً: (أين المفر؟ وليس لكم والله إلا الصدق والصبر واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أَضْيَعُ من الأيتام على موائد اللئام) وقد منحهم قوله: إنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام على موائد اللئام) دعماً معنوياً إلى الزحف إلى الأمام وعلى بعد ستمئة كيلو متراً من تلك الواقعة حطَّ جند طارق في مدينة طليطلة المنيعة، ولهذا يعتبر أول من دخل طليطلة فاتحاً من المسلمين هو القائد طارق بن زيادعام ٧١١ م.

إنها لمدينة أسطورية فمن حيث موقعها تقع على تَلّين كبيرين ويربطها بالأطراف جِسر مُعلق قديم على نهر تاجه الذي يصب في البرتغال، وهي معروفة بكثرة المتاحف ومحلات بيع الهدايا التذكارية كالسيوف والمجسمات فكانت أيام عزِّها مركزاً للصناعات الحربية كالسيوف الأندلسية الرشيقة.

وتعتبر طليطلة أو توليدو، أول الولايات العربية التي استقلَّت عن الخلافة في قرطبة ودمشق، ومن مفارقات التاريخ أنها كانت أولى الممالك التي سقطت بيد الإسبان، وبعد سقوطها أُصيب عرب الأندلس بدهشة شديدة خُيِّل لهم أن سلطانهم قد زال عن ديار الأندلس، لولا نجدة المرابطين بقيادة يوسف بن تاشفين، والتي أَجَّلت سقوط الأندلس ٤٠٠ عاماً تقريباً.

والجدير بالذكر هنا أنّ طليطلة كانت العاصمة القديمة لإسبانيا حتى عام ١٥٦١ ولكن مناخها الجبلي البارد اضطر الملك فيليب الثاني أن ينقل العاصمة إلى مدريد حيث كان المناخ فيها أكثر مناسبة لصحته!

أما العرب فقد أقاموا في طليطلة نحو ثلاثة قرون من سنة ٧١١ إلى سنة ١٠٨٥ حين خرجوا على يد الملك الفونسو الثاني بعد سقوطها في يده[٢].

وعند الاقتراب منها يشاهد الزائر أشجار وغابات الصنوبر ومساحات واسعة مزروعة بأشجار الزيتون، ومن حين لآخر تطالعه دور ريفية أقيمت التماساً للراحة في هذا المحيط الحالم.

---

(١) أحمد عبد الرحمن السماوي «رحلة إلى الفردوس المفقود» إصدار وزارة الثقافة اليمن سنة ٢٠٠٤ ص٣٦.

(٢) «في ربوع الأندلس» للدكتور عيسى الناعوري طبعة تونس عام ١٩٧٨.

عند الدخول إلى طليطلة من بوابة «بيساغرا» أو الشقراء، التي يعلوها الشعار الإمبراطوري لشارل الخامس، تواجهك بأبنيتها وساحاتها ذات الملامح العربية والمشرقية بخلاف بيوت قرطبة البيضاء التي تشبه بيوت المغرب العربي.

اشتهرت طيلطلة بمناجم الحديد والذهب وبصناعة السيوف والخناجر والدروع والتي لازالت تتباهى بها حتى اليوم، وقد شاهدت عشرات المحلات والحوانيت تعرض المصنوعات والتحف والحلي والمجسمات التي تحكي أهم الأماكن والآثار الإسلامية في كل أنحاء الأندلس وبصناعة جميلة ودقيقة وبأسعار معقوله نتيجة لكثرة العرض والرواج الذي تشهده السياحة في إسبانيا و يتهافت على اقتنائها السيَّاح من كل بقاع الدنيا.

أهم معالم هذه المدينة الحصينة قلاعُها، وقد قضيت نحو ساعة لمشاهدة قلعتها الحصينة والتي تطلّ على نهر (تاخو) وعلى الجسرين العربيين على ضفتي النهر. وفي عهد حضارة المسلمين في هذه المدينة كان القصر مقرّاً للحاكم، ولا يُعرف بالضبط مَنْ أقامه ولكن يعتقد بأنه بُني على أنقاض قصر روماني قديم.

من ضمن مشاهداتي الأولية للمدينة ساحة (ثوكودوبير) أو سوق الدواب، وهو اسم الساحة الرئيسية للمدينة وسوقها الرئيسي في غابر الأزمان وما يزال يمثل قلب المدينة وملتقى الحركة فيها، غير أن تجارتها وبضائعها اختلفت وتغيرت، وقد نصحني مرافقي بالتجول في شوارع طليطلة العتيقة الضيقة وفي حاراتها كي أصل إلى الأعماق الأندلسية في هذه المدينة العريقة وأشعر وأتلمَّس روحها العربية الإسلامية، ومن ثم قمنا بإطلالة على نهر (التاج) والتمتع بالأفق البعيد القادم مع حلول الليل وسماع وقع خطواتنا وسط السكون المخيِّم وصوت خرير الماء وهبَّات النسيم، ورؤية ضوء القمر يتكيف ويأخذ شكل أحجار طليطلة القديمة حسب أجواء هذه المدينة العربية.. عندها نشعر بسحر طليطلة الذي ينساب إلى أعماق القلب.!

غادرت مدريد وعندي إحساس بأنني لم أرَ الكثير من عجائبها ولو كان هناك وقت في رحلتي تلك لتسنَّى لي زيارة جملة من الأماكن التي تستحق الزيارة لعل منها المركز الثقافي الإسباني الذي يستهوي من يريد الاطلاع عن قرب على الثقافة الإسبانية والمستشرقين الإسبان وفيه يعمل أكاديميون وأساتذة ومهتمون من بلدان عدة منها بلدان عربية. كما لو تسنَّت لي فرصة

الوقت لزرت أماكن أثرية وترفيهية أخرى منها على سبيل المثال حديقة الحيوان وغيرها. ولكني ادَّخرت أوقاتي لإكمال برنامجي الأساسي وهو زيارة الأندلس جنوب مدريد والذي يضم عدداً من المدن الإسلامية.

بداية الرحلة للجنوب «الأندلس»:

شُغفت منذ كنت طالباً بكتب التاريخ والجغرافيا والرحلات.. وكان السفر إلى قرطبة وغرناطة وإشبيلية مجرد حلم يداعب خيالي ورغبة عارمة من رغبات النفس والعقل والقلب وغدت بالإمكان عندما عشت في قلب أوروبا نحو أربع سنوات[(١)].

وبعد الانتهاء من الزيارة الأولية لمدريد على أمل استكمال بقية الأماكن السياحية بعد عودتي من زيارة الجنوب الإسباني أو مايعرف حالياً بإقليم الأندلس والذي يضم أغلب المدن الأندلسية القديمة ويقصدها السيَّاح من كل حدب وصوب ليشاهدوا آثار حضارة سادت ثم بادت لم تترك فقط الجانب المادي للحضارة المتمثل في الآثار العريقة من قلاع وحصون ومساجد ومتاحف وأسوار، بل الجانب المعنوي والفكري لتلك الحضارة والمتمثل في الفن والأدب وكافة العلوم ولكن كأي حضارة مآلها الاندثار مثلما رآه العلَّامة الأندلسي المغربي ابن خلدون بقوله في مقدمته: «بأن الدولة تنمو وتشبُّ وتشيخ وتنهار وتكون في أواخر أيامها مقادة بأراذل الناس..»!

السفر إلى قرطبة[(٢)]:

وقد بدأت الرحلة من محطة مدريد (أتوشا)جنوب العاصمة، ومن هذه المحطة تنطلق القطارات السريعة والعادية إلى كافة مدن الأندلس، وفي مدريد محطة أخرى في شمال العاصمة تسمى (شانمارتين) ومن خلالها تربط القطارات بين مدن الشرق والشمال.

(١) ومنذ سنين عندما كنت أتحدث لوالدي عن أهم البلدان التي يود زيارتها فيقول هي الأندلس وتركيا وإيران والهند وهاهي دول قد زرتها كلها تقريباً أما والدي فقد زار بلداناً هامة أخرى مثل مصر وإيران وسمرقند وبخارى في آسيا الوسطى إضافة إلى بلدان أخرى.

(٢) فتح المسلمون الأمويون قرطبة على يد القائد مغيث الرومي مولى الخليفة الوليد بن عبد الملك في سنة ٩٢هـ / ٧١٠ م بعد أن عبر بقواته إلى أيبيريا (التي سماها المسلمون بلاد الأندلس).

غادرت مدريد في قطار الجنوب الأندلسي في الصباح الباكر متجهاً إلى قرطبة[١]، أخذت مكاني في إحدى عرباته وكان واسعاً ونظيفاً كما هي مواصفات وسائل النقل في أوربا ، انطلقت إشارة بدء الرحلة وما هي إلا لحظات إلا وبدأت أطراف المدينة تتلاشى عن العيون وبدت حقول الزيتون كالغابات، وبالمناسبة فإن إسبانيا من أكثر بلدان أوروبا إنتاجاً للزيتون ووجباتهم ولاسيما فطور الصباح يتخلله الزيتون مع الجبنة مثل أهل الشام تقريباً. ومن نافذة القطار شاهدت قطعاناً من الأغنام أو الماعز بل لأول مرة أشاهد قطعاناً من الخيول ربما كانت مزرعة لتربية الجياد الخاصة بالسباق أو المعدَّة للبيع فالإسبان مولعون بالخيول ويتواجد في ريفها أعداد كبيرة من الحمير والبغال لغرض التنقل فإسبانيا مقارنة بأوروبا مجتمع زراعي في الأساس، ولعل أجمل ما في رحلات إقليم الأندلس وجنوب أوروبا بصورة عامة الجبال والسهول يكسوها البساط السندسي الأخضر الجميل. . . و كان القطار ينهب الأرض نهباً مخترقاً تلك المناطق الساحرة والمناظر الخلابة واجتزنا أنفاقاً وأطراف بحيرات واستمتعت برؤية الطبيعة البكر كما هي حيث الجداول تنساب في قيعان الوديان التي يمر بها القطار الآتي من الوسط الإسباني ربما كانت تلك الجداول والينابيع هي المغذية لنهر الوادي الكبير أو أحد روافده. وكنت أمعن النظر عبر نافذة القطار وأشاهد مزارع الزيتون وكروم العنب، ورغم أن إسبانيا من البلدان الأوروبية الأقل خصوبة من بلدان أوروبية في وسط القارة كسويسرا والنمسا وألمانيا مثلاً، ولكنها جميلة بهوائها العليل ودفئها في الشتاء.

فُتحت قُرطبة على يد المسلمين في عام٧١٢م بقيادة طارق بن زياد وكانت من أوائل المدن الأندلسية التي فتحتها المسلمون من القوط بعد معركة وادي (لكة) الشهيرة

تبعد مدينة قرطبة عن مدريد نحو ٤٥٠ كيلومتراً في اتجاه جنوب غرب وتبعد عن مدينة إشبيلية حوالي ١٤٠ كيلومتراً ونحو ١٧٠ كيلو متراً من الشمال الغربي عن مدينة غرناطة.

ويقطعها القطار في نحو أربع ساعات فقط بفضل تحسُن شبكة المواصلات الحديثة في

(١) في عام ١٠٣١ انهارت قرطبة وانقسمت إلى عدة ممالك صغيرة وهو الأمر الذي مهد المملكة المسيحية استعادة نفوذها من جديد بعد قرون واستمر حكم العرب لمدة قرنين ونصف قرن آخر حتى ١٩٤٢ حين اضطر آخر سلاطين غرناطة لتسليم المدينة للقائد فرنارد وزوجته إيزابيلا.

السنوات الأخيرة (ضمن جملة تحولات تنموية عملاقة شهدتها إسبانيا في الثمانينيات بعد انضمامها للاتحاد الأوروبي الذي كان يعرف سابقاً بالسوق الأوروبية المشتركة) وفي كتاب الرحَّالة (البتوني) في عشرينيات القرن الماضي يصف الطريق بأنه متعب وطويل وشاق بالنظر لمستوى الطرق والقطارات في ذلك الزمن[١].

وترى على القطار يافطة تقول: (إلى الأندلس) بمعنى أنه سيتجه جنوباً، وذكَّرني بالمصريين عندما يسمون القاهرة (مصر) والسوريين يسمون عاصمتهم دمشق (الشام) واليمنيين يسمون كل ماهو جنوب صنعاء باليمن مع أنها في قلب اليمن!

والوصول إلى قرطبة من الشمال أو الوسط الإسباني ليس بالأمر الهيِّن فهي بعيدة نسبياً من مدريد وهي إحدى أهم ثلاث مدن أندلسية (قرطبة، غرناطة، إشبيلية) تستحق شدَّ الرحال إليها علماً بأن هناك أكثر من عشر مدن أندلسية أخرى وقد تسنَّى لي زيارة نحو ثلاث مدن غير الثلاث مدن المذكورة، وهب بالإضافة لمدريد طليطلة ومالقا وماربلا..

ومن يأتِ إلى قرطبة لابد أن يتذكر أهمية تلك المدينة الأندلسية التي لعبت دوراً حضارياً في شتى فنون العلوم والفكر والأدب إبان العصر الأندلسي الزاهر فهي مدينة ابن رشد[٢] وابن زيدون وابن حزم الأندلسي وابن عبد ربه صاحب العقد الفريد وابن ميمون، وقطفت أوروبا ثمار الثقافة الإغريقية والعربية عن طريق قرطبة.

باني ومؤسس حضارة الأندلس (صقر قريش):

إن حياة هذا البطل العربي جديرة بأن تعرفها كلّ الأجيال.. فكل شروط القصة الرائعة متوفرة فيها... إن حوادثها مثيرة وعقدتها ظاهرة، وذروتها قائمة، ومفاجأتها مدهشة، وشخصيتها بطلها الذي عُرف بصقر قريش، عبقرية متعددة الجوانب يشدك إليه شداً ويحملك على الإعجاب بشجاعته النادِرة ومغامرته الجريئة، ذهنيته المتوقدة الواعية الذي استطاع بحزمه وعزمه أن يتغلب على المحن الأليمة والأحداث الجسيمة التي نزلت بأسرته لاسترداد حقه في

(١) محمد لبيب البتوني في كتابه الشهير«رحلة الأندلس» الطبعة الأولى في عام ١٩٢٧ مطبعة الكشكول في القاهرة.

(٢) يوجد تمثال لابن رشد جوار الجامع الأموي الكبير.

الزعامة والرئاسة حتى انتهت إلى نتائج باهرة مما حمل ألدَّ خصومه على احترامه والإعجاب به، ورأته شخصية قوية استطاع أن يستغل ظروف إسبانيا الممزقة المتطلِّعة لزعامة رشيدة لتوحيد كلمتها وتجميع ما تشتت عبر قرن مليء بالأعمال الجسام ومشرق بالحضارة والازدهار، ويكفيه شهادة التأريخ على إجلاله وتقديره ما روي عن (أبي جعفر المنصور) وهو يحارو بعض أصحابه متسائلاً:

من هو صقر قريش من الملوك؟

قالوا . . . أمير المؤمنين الذي راض الملوك وسكَّن الزلازل وحسم الأمور[(١)].

قال . . . . . .ماصنعتم شيئاً.

قالوا . . . . .فمعاوية.

قال . . . . . ولا هذا.

قالوا . . . . فعبد الملك بن مروان.

قال . . . . . .لا!

قالوا . . . . . فمن يا أمير المؤمنين؟

قال . . . .صقر قريش. . .هو عبد الرحمن بن معاوية. . . الذي تخلص بكيده و سعة حيلته مَنْ سنن الأسنّة والسيوف فعبر القفر وركب البحر حتى دخل بلداً منفرداً بنفسه، فمصَّر الأمصار، وجنّد الأجناد ودوَّن الدواوين وأقام ملكاً عظيماً بعد انقطاعه وطول غربته ووحشة وحدته، فعل كل ذلك بحسن تدبيره وشِدّة شكيمته!

كانت قرطبة عاصمة الأمويين[(٢)] وخلافتهم الإسلامية في الأندلس وبها آثار إسلامية خالدة مثل جامع قرطبة وقصر الزهراء وهي مدينة غنية عن التعريف في تاريخنا الإسلامي، وهي مدينة

(١) محمد لبيب البثوني «رحلة الأندلس» مصدر سابق ص ١٢٠.

(٢) ولكن لم يعل شأن قرطبة إلا مع قدوم الأمير الأموي عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس فاراً من العباسيين، فاستولى على مقاليد الأمور في الأندلس الإسلامية وجعل قرطبة عاصمة له عام ٧٥٦م، وقد كان هذا بداية لعصر قرطبة الذهبي، حيث أصبحت عاصمة الأندلس الإسلامية بأكملها وأهم مدينة في شبه الجزيرة، وفي عهد الداخل بدأ العمل على جامع قرطبة الكبير الذي لا زال قائماً في المدينة اليوم، واستمر الحكم بيد الأمويين من سلالة عبد الرحمن الداخل في تلك الفترة.

يرجع تأسيسها إلى العصر الروماني ،وقد بلغ عدد سكانها أيام الدولة الإسلامية خمسمئة ألف نسمة، وفي بعض الكتب أكثر من مليون نسمة، أما اليوم فإن سكانها لايتجاوزون المئتين وخمسين ألفاً، وأشهر شوارع قرطبة هو متنزه القبطان الأعظم Paseo del Gran Capitan بالإضافة إلى شارع كاناليخاس Avenida de Canalejas ، وتوجد ساحة لمصارعة الثيران، ويوجد ميدانان تجاريان هما ميدان إشبيلية Plaza de Sevilla وميدان كانوباس Plaza de Canovas ، وتوجد في قرطبة شوارع تحمل أسماء أعلام مسلمين مثل المنصور وابن ميمون وابن رشد. . وفي قرطبة القنطرة الرومانية التي جددها المسلمون وقرطبة صغيرة مقارنة بمدن الأندلس الأخرى مثل إشبيلية وغرناطة فسكانها لايزيدون على الربع مليون نسمة والحي السياحي يشكل نحو ثلث المدينة ومنازلها البيضاء تتسلق على جدرانها أشجار الزينة وحول نوافذها .

وتجوّلت في عدد من الشوارع الضيقة في المنطقة المجاورة للجامع الأموي الكبير وتتفرع في ذلك الحي أزقّة أصغر منها حجماً وكأنك في شوارع مدن عربية في المغرب أو المشرق العربي .

طراز البيوت دمشقي أو مغاربي سواء من شكلها الخارجي أو من الداخلي حيث تضم معظم تلك الدُّور القديمة فناء داخلياً صغيراً وبعضها تزينه حديقة صغيرة ونافورة وبحسٍّ سكان غرناطة السياحي فقد حولوا بعضاً من تلك الدور إلى مقاهٍ أو مطاعم وقد حرصت على دخول بعضها بغرض المقارنة بينها وبين منازل البلدان العربية . ولاشك أن أجزاء كبيرة من المدينة القديمة قد انقرضت ليس بحكم الزمن فحسب ولكن لتعرضها لخراب همجي على مدى العصور الغابرة بحيث لم يكن يحلو لبعض الإسبان المتعصبين لحضارة الغرب بأن يبقى أي أثر للحضارة الإسلامية ولكن ذلك التوجه جُوْبِه بوعي كبير على مدى قرون وهاهو اليوم يدرُّ على إسبانيا أموالاً كبيرة بحكم تدفق ملايين السيَّاح سنوياً لزيارة مدن الأندلس في الجنوب الإسباني .

مررت بشارع جميل بالقرب من حي الجامع الكبير في قلب المدينة وشارع الزهور ـ اسم على مسمى ـ فترى الزهور في أوانٍ معلّقة في النوافذ والشرفات بل ومتسلقة على الحيطان

والأسوار وعلى جنبات الشوارع. . . . عجيب أمر الأندلسيين فقد جعلوا من الزقاق حدائق غنَّاء وذكَّرني ببيوت بعض مدن البحر المتوسط أثناء زيارتي لأثينا[١] وكذا مدن في شمال إفريقيا أو الريفيرا الفرنسية والإيطالية وهي بيوت بيضاء مزينة بالأشجار المتسلقة مما يضفي على المكان جمالاً رائِعاً.

وهناك قرب صحن الجامع الذي يقع شماله وفيه أشجار البرتقال. . . وشربنا من ماء النافورة المتدفق. ويتفاجأ الزائر داخل الجامع بأنه وسط غابة من الأعمدة والأقواس المزدوجة وسمعت من الدليل المرافق بأنها نحو (١٢٠٠) عمود.

وقال الدليل السياحي للفوج بأن الجامع كان يُضاء بعشرة آلاف فتيل موضوعة في قناديل كبيرة تُضاء باستعمال الزيت كما كان الجامع يتسع لأكثر من أربعين ألف مصلٍّ، وقد وصف كثير من الرحَّالة عظمة هذا الجامع في القديم وعصرنا الحالي فالدكتور حسين مؤنس في كتابه النفيس (رحلة إلى الأندلس) يقول:

«مسجد قرطبة الجامع هو دون شك أضخم عمل معماري قام به العرب في الشرق والغرب على السواء وإن مساحة الصحن المسقوف تقدر بحوالي ٤٨٦٨ متراً مربعاً، فإذا أضفنا إلى ذلك الفناء غير المسقوف وهو بقية صحن الجامع لكان أكثر من ذلك بكثير أما عدد الأعمدة الباقية إلى اليوم فيزيد عن ١٢٠٠ عمود. أما محراب المسجد فهو أروع محراب أثري باقٍ إلى اليوم!

والواقع أن بناء مسجد قرطبة قد مرّ بعدة مراحل فهو ثلاثة مساجد تعاقب الخلفاء على توسعته على مرِّ تلك العصور. .» يضيف الدكتور حسين مؤنس في هذا السياق بقوله: «إن أول حجر وضع في المسجد كان سنة ٧٨٠ ميلادية وآخر حجر وضع فيه سنة ١٠٠٠ ميلادية» أي أن بناء هذا المسجد استغرق مئتين وعشرين سنة. !

يقع جامع قرطبة الكبير على بعد أمتار من نهر (الوادي الكبير) وهذا المسجد من أهم المعالم في قرطبة وإقليم الأندلس عموماً وهو أثر فريد من نوعه ويتمثل فيه فن الخلافة على أبدع صوره، وتشييده كان في عهد عبد الرحمن الأول (صقر قريش) الذي أعاد حكم بني أمية

(١) أثينا عاصمة الإغريق العريقة وقد تضمنت هذه المشاهدات بعض ذكرياتي عنها في آخر الكتاب.

في الأندلس بعد سقوطه في دمشق[١]. وأدخلت عليه توسعات في عهد عبد الرحمن الثاني والحكم الثاني ثم اكتملت عمارته إبان حكم المنصور بن أبي عامر، وقد شيد المسجد في نفس المكان الذي كانت تقوم عليه كاتدرائية قرطبة.

وحسب مايروى في تاريخ المدينة فقد كانت شوارعها مبلَّطة، وترفع قماماتها وتُنار شوارعها ليلاً بالمصابيح ويستضيء الناس بُسرُجِها ثلاثة فراسخ لا ينقطع خلالها عنهم الضوء.

وفخر قرطبة[٢] حالياً هو جامعها العظيم والذي يعتقد البعض بأنه كان قبل توسعة الحرم المكي في العهد العثماني من أكبر جوامع العالم الإسلامي وهو الآن على الأقل أكبر المساجد الإسلامية في أوروبا كلها.. وهذا الجامع يُعدُّ واحداً ضمن أربعة أشياء امتازت بها قرطبة وفي ذلك يقول الشاعر العربي:

بأربع فاقت الأمصار قرطبة ... منهن قنطرة الوادي[٣] وجامعها
هاتان ثنتان والزهراء ثالثة ... والعلم أعظم شيء وهو رابعها

هذا ما قاله الشاعر في ذلك الزمان عندما كان سكان قرطبة مليون نسمة والآن لايتجاوزون الربع مليون نسمة، لقد بلغت قرطبة أوجَ مجدها في عهد عبد الرحمن الثالث عندما كانت في عصره أعظم وأغنى مُدن أوروبا وصل عدد مساجدها إلى (٧٠٠) مسجد وحماماتها إلى (٣٠٠)

(١) هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك الذي استطاع الفرار من قبضة بني العباس بعد انهيار دولة الأمويين في دمشق ولجأ إلى أخواله في المغرب. العربي من البربر الذين آزروه وأعانوه كي يحقق حلمه بإقامة دولة بني أمية في الأندلس واستطاع بالفعل هذا الشاب اليافع بعد فترة من الزمن إقامة دولة بني أمية مرة أخرى في الأندلس بعيداً عن بطش العباسيين وقد لقبه خصمه الخليفة العباسي هارون الرشيد (بصقر قريش)!

(٢) وتدلنا الموسوعة العربية الميسرة أن هناك مدينتين أخريين تحملان اسم قرطبة؛ الأولى بالمكسيك، وفيها وقعت معاهدة استقلال المكسيك عن إسبانيا عام ١٨٢١، والأخرى عاصمة إقليم قرطبة بوسط الأرجنتين، ويبدو أن احتلال إسبانيا لبعض بلاد أمريكا اللاتينية، أو أمريكا الجنوبية، ألقى بظلاله الكثيفة، فسادت اللغة الإسبانية في تلك المناطق، وأطلقت أسماء المدن الأندلسية على بعض النواحي بتلك البلاد.

(٣) يقصد الوادي الكبير وهو نهر شهير يمر بمدن أندلسية أهمها قرطبة وإشبيلية ويسمى حالياً باللغة الإسبانية (الفادي الكفير) أي الوادي الكبير!

حمام وفيها مائتا ألف دار وثمانون ألف قصر منها قصر دمشق شيده الأمويون حاكَوا به قصورهم في بلاد الشام وقد قدر بعض المؤرخين عدد سكان قرطبة في أيام ازدهارها بمليوني نسمة.

أنجبت قرطبة نخبة كبيرة من العلماء والمبدعين والمفكرين والفلاسفة أمثال ابن رشد وابن حزم وابن ميمون وابن زيدون واشتهر فيها أيضاً ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد... وكانت قرطبة تنافس بغداد ودمشق في المشرق وكان في مكتباتها أكثر من أربعمئة ألف كتاب[1]، ويروي التاريخ بأنه في عهد الحكم بن عبد الرحمن الناصر كانت النساء يشتغلن في نسخ الكتب وأنه في الجزء الغربي من مدينة قرطبة هناك نحو مئة وسبعين امرأة يشتغلن في هذه المهنة. وكان أهل قرطبة يتفاخرون باقتناء الكتب ويعتبرها البعض زينة لداره!

وقرب المسجد أسواق وبيوت بيضاء تزينها الأشجار، ورأيت الناس يتجهون لمكان يبعد مسافة بسيطة عن المسجد فإذا بي في ساحة أو فناء منزل قديم مليء بالصور التي تعكس ذلك العصر، ثم رأيت ساحة داخلية أخرى بعد أن سمعنا أصوات موشحات أندلسية والسيَّاح يتدافعون ليسمعونها قيل لنا: إنها فرقة موسيقية جاءت من المغرب لتحيي أمسيات للسيَّاح وكانت كلمات الأغاني لأبي الحسن بن علي بن نافع الملقب بزرياب والذي تعلم الغناء على يد إبراهيم الموصلي في بغداد ثم ابنه إسحق الموصلي ولكن تلميذه زرياب برز واشتهر أكثر منهم فثارت غيرة إسحق الموصلي وقيل: إنه تآمر عليه وأمره بالهجرة أو الرحيل من بغداد أو مواجهة الاغتيال فهرب إلى الأندلس وقد سبقته شهرته فزاد شهرة على سمعته الأولى. ويقال: إن زرياب كان يحفظ عشرة آلاف مقطوعة من الأغاني وألحانها! وكان ذلك في عهد عبد الرحمن بن الحكم الخليفة الأموي في قرطبة فأكرمه وأغدق عليه وكان جليسه ونديمه في مجالس الأنس والطرب.

ولقد تخلَّى مسجد قرطبة عن بعض سماته الإسلامية لتحلَّ محله الرموز والصور والأيقونات المسيحية، ناهيك عن مئذنة المسجد التي اعتلاها الصليب، وأسفله أقيمت بعض التماثيل الملائكية.

(١) المقري في «نفح الطيب» الجزء الأول ص٥٤٠.

قد يكون الهدف من وراء ذلك إثبات أن المكان يتسع لإقامة شعائر الديانتين معاً الإسلام والمسيحية، على اعتبار أن دولة الأندلس القديمة قامت على هذا التعايش والتسامح والتعددية بين الديانات الثلاث الإسلام والمسيحية واليهودية، ولكن يبدو فعلاً بأن شعار التعددية والتسامح والحوار، وما يشابه هذه الشعارات، ليس له تطبيق على أرض الواقع.

ومن المشاهدات في قرطبة الناعورة العملاقة العتيقة والتي مضى عليها قرون وهي صامدة على ضفاف نهر الوادي الكبير وتقع خلف الجامع الأموي الكبير في قرطبة بعشرات الأمتار فقط فالجامع يكاد يطلُّ على النهر ولهذا فلم تجرِ التوسعات إلا في الجهات الممكنة، أي شمالاً وشرقاً فقد قام أمراء الممالك القديمة وفي أوج ازدهار حضارة قرطبة بتوسعة المسجد من جهة نهر الوادي الكبير رغم أنه قد تمت توسعته أكثر من مرة والملاحظ أن عدداً كبيراً من السيَّاح يذهلون لرؤية هذا المَعْلَم الجميل الأثري ويحرصون على أخذ صور لهم بجانب الناعورة العملاقة وبالقرب من النهر، ويشاهد من الجهة المقابلة أسوار الجامع الأموي الكبير الذي يُعدّ بحق أكبر جوامع أوروبا ومن المساجد الكبيرة في العالم الإسلامي.

ومن معالم قرطبة (القنطرة) وهي الجسر العتيق الذي يصل أطراف الجامع الأموي بقلعة في الجهة المقابلة وبجانب القنطرة ترى الزوار يلتقطون صوراً عندها بحيث تظهر في خلفية الصورة أهم معالم قرطبة المسجد الكبير ونهر الوادي الكبير والناعورة وهذا الجسر العتيق ذو الأقواس يقال بأن السمح بن مالك الخولاني[(١)] هو من بناها وهو أحد أمراء الأندلس من قبل عبد الرحمن الداخل[(٢)].

في صباح اليوم التالي لزيارتي لأهم مَعْلَم[(٣)]، ابتعت كتاباً بالإنجليزية عن تاريخ قرطبة يحمل بين دفتيه معلومات مفيدة عنها، وعن معالمها وأعلامها في أوج عزِّها، وبدأت تجوالي بالتوجه رأساً إلى قرطبة القديمة، شاهدت فيها الكثير من البيوت المبنية على غرار البيوت

(١) الخولاني من قبائل خولان اليمنية والتي لازالت حتى يومنا هذا.

(٢) دكتور عبد المنعم ماجد خواطر سائح مصري في رحلة إلى إسبانيا في الماضي والحاضر، الطبعة الأولى مكتبة الإنجلو مصرية.

(٣) وهو المسجد الأموي الكبير الذي يعتبر كما ذكرنا أكبر مساجد أوروبا ومن أكبر المساجد في العالم القديم قبل قيام الدولة العثمانية.

الدمشقية، التي تقوم حول باحات واسعة تتوسطها نوافير رخامية أو برك ماء جميلة، وتسوّر بجدائل متشابكة من الياسمين والريحان . . . سرتُ بين تلك البيوت التي يغلب عليها اللون الأبيض من الخارج في حارات ضيقة وشوارع تحمل اسم المنصور وابن ميمون وابن رشد، ووقفت أمام بيوت تحولت إلى فنادق ومطاعم تحمل أسماء عربية، مثل نُزل بغداد . . . فندق أمية . . . مطعم البيت الأندلسي.

شاهدت أثناء تجوالي تماثيل لرموز أهل الأندلس أيام مجدها، شُيِّدت للغافقي وابن ميمون وابن عربي، و تمثال لابن رشد غير الذي سبق ذكره أُقيم في أحد أهم أروقة جامعة قرطبة، وتمثال آخر شُيِّد لابن حزم الظاهري الأندلسي في عام ١٩٦٣ قريباً من بيته بمناسبة مرور ألف عام على وفاته.

وبعد أن تجولت في الساحة الرئيسية والقريبة من الجامع الأموي العتيق رأيت جمهرة كبيرة من الناس اتجهت نحوهم، وعندما اقتربت منهم وجدتهم من السيَّاح، كثير منهم مستشرقون وبعضهم من العرب، يقفون على شكل دائرة واسعة في عدة صفوف، الصف تلو الآخر ، وقفت بعد آخر صف، وانتظرت دوري حتى أتمكن من رؤية ما ينظرون إليه، وبعد لحظات تقدمت إلى الأمام ووجدت نفسي أمام نُصُب تذكاري أبيض، لامسته عيناي بإحساس صادق بالفرح لأن مدينة قرطبة قد أقامته قبل ثلاثة عقود للشاعر الأندلسي الكبير ابن زيدون، في الذكرى المئوية التاسعة لوفاته، يتشكل النُّصب في أعلاه من يدين اثنتين متعانقتين متلاصقتين لأشهر عاشقين في التاريخ الأندلسي، يد ابن زيدون ويد حبيبته ولادة بنت المستكفي، وتحتهما على قاعدة التمثال نقشت بحروف نافرة أبيات شعر باللغتين العربية والإسبانية، الجزء الأول منها تقول فيه ولادة لابن زيدون:

أغار عليك من عيني ومني ... ومنك ومن زمانك والمكان
ولو أني خبأتك في عيوني ... إلى يوم القيامة ما كفاني

وفي الجزء الثاني يقول لها ابن زيدون:

يا من غدوت به في الناس مُشتهراً ... قلبي يُقاسي عليك الهم والفكرا
إن غبت لم ألقَ إنساناً يؤانسني ... وإن حضرتَ فكل الناس قد حضرا

والمتطلع لتاريخ الأدب الأندلسي لاتغيب عنه حقيقة مدن أندلسية شهدت سجالات وإبداعات في الشعر والأدب عموماً منها مدينة قرطبة التي تميزت بعلامات عديدة منها ماعرف بحائط العشاق الذي يعكس واحدة من قصص الحب والعشق في التأريخ وشهدت كذلك أمجاد العرب والمسلمين في الأندلس وهناك حجر بالقرب من جامع قرطبة يرتاده السيَّاح حتى الذين لايعرفون هذه الأبيات الشعرية المتَّشحة بضفائر من القوافي الجميلة تحكي أحلى وأشهر قصص الحب والعشق في تاريخ قرطبة كان ابن زيدون واحداً من أبرز الشعراء فيها مبدعاً، مرهف الإحساس، أحب الأميرة الشاعرة ولادة[1] ابنة الخليفة الأموي المستكفي، هام بها و بادلته حباً بحب نافسه في حبها أكثر من عاشق لها في مقدمتهم الوزير ابن عبدون وقد نظم ابن زيدون في حبها شعراً كله عاطفة ورقة وشوقاً، خاصة ما قاله في وصف شوقه لها بحزن رومانسي تعلو فيه شهقات بكائية يتصاعد فيها أنينه على تقاسيم قوافي قصيدته النونية الخالدة التي مطلعها:

أضحى التنائي بديلاً عن تدانينا ... وناب عن طيب لقيانا تجافينا
بِنْتُم وبِنَّا وما ابتلت جوانحُنا ... شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا
حالت لفقدكمُ أيامنا فغدت سودا ... وكانت بكم بيضاً ليالينا

كما كتب لها قصيدة يُذكرها بها بأيام له مضت معها في الزهراء التي تركها مُجبراً إلى إشبيلية، تفيض قوافيها بمزيج من الصور الإبداعية الجميلة يعبِّر فيها عن حبه لها وعن حزنه لافتراقه عنها.

كانت ولادة شاعرة حالمة، أجمعت المصادر على أنها «نادرة زمانها ظرفاً وأدباً، على درجة عالية من النباهة والموهبة الشعرية الفائقة وآية في الحسن والجمال» فتحت بيتها للأدباء والشعراء، وجعلت منه صالوناً ثقافياً ارتاده ابن زيدون وغيره من معاصريها، وهذا ليس بغريب في زمن وصلت فيه المرأة الأندلسية إلى أعلى المراتب والمناصب الرسمية المميزة.

(١) د. بنت الشاطئ مقالة في كتاب الأندلس.. صفحات مشرقة بقلم نخبة من الكتاب ضمن سلسلة كتاب العربي العدد الثامن والخمسون الصادر في شهر ٢٠٠٤ ص١٩٠.

بقيت قصة ابن زيدون وحبيبته ولادة حاضرة طيلة القرون الماضية . . . قصة حب جميلة وحزينة عمرها أكثر من تسعة قرون . . . لدرجة أنها تذكر أكثر من ذكر حكام وقادة الأندلس، حتى أن الخليفة الأموي المستكفي بالله محمد بن عبد الرحمن المرواني يعرف في زمننا الحالي بابنته ولادة فقط ولولاها لما ذكره أحد!

ظهرت كتب كثيرة عن حبّ ولادة وابن زيدون، وظهرت أيضاً مسرحيات كثيرة، اتسعت فيها المدارات الحوارية، والأغاني واللوحات الراقصة، لتجسيد معاناتهما كعاشقين في قصة حب تتداخل فيها مكائد السياسة.

وبالجملة فقد خَرَّجَتْ الأندلس من رجال العلم[1] من لايقلُّون أهمية في كفاءتهم وعلومهم عن نظرائهم في المشرق العربي. . وكانوا يفاضلون بين ابن رشد والطوسي ، وبين ابن زهر وابن سينا، وبين ابن فرناس والفارابي! وبين يحيى الخدج وأبي الفرج الأصفهاني ،وبين ابن هاني والمتنبي. وبين ابن زيدون والبحتري، وبين ابن عبدون والأصمعي، وبين ابن مروان البصير والمعري. .وذلك لوجود شبه كل في علومه حتى الساسة والقادة يقارنون عبدالرحمن الداخل بالمنصور العباسي وبين الناصر والرشيد، وبين الحكم ابن الناصر والمأمون العباسي وذلك أيضاً لكثرة الشبه في أساليب سياستهم للحكم وغزارة علمهم، وكما كانوا يفاضلون بين قرطبة وبغداد وبين إشبيلية وحمص، وبين غرناطة ودمشق لكثرة الشبه بينهما في كثرة العمران!

بقيتُ عند النُّصُب التذكاري لابن زيدون وولادة لبعض الوقت، ومن ثم تمثال ابن رشد، وسرعان ما قررت العودة إلى الفندق، على أن أستكمل برنامج التعرف على ما تبقى من معالم قرطبة القديمة في صباح اليوم التالي وهناك التقيت ببعض من تعرفت عليهم في ذلك الفوج في بهو الفندق . . . تناولنا الغداء في مطعم كلاسيكي أشبه ببيت عربي تتوسطه نافورة وهناك تعرفت عن قرب على أغاني ورقصات الفلامنكو للمرة الأولى حيث شاهدتها مرة ثانية في إشبيلية، هناك تُوزَّع كتيبات بأسعار رمزية تتناول تأريخ هذا الفن وجذوره العربية والإفريقية

(١) لابن الرومي في كتابه «تأريخ علماء الأندلس إلى آخر القرن الرابع» ضمن جملة مجلدات ونشرت مترجمة عن الإسبانية للأستاذ كوديرا سنة ١٨٩٢.

والغجرية كما أنها تستلهم بعض أفكارها من الروائع الأندلسية والتي من أشهر روَّادها الشاعر الأندلسي زرياب الذي زار قرطبة فاراً من بغداد بعد أن هرب من أستاذه إسحق الموصلي كما تمَّ ذكره..!.

بدأت الشمس تميل إلى الغروب حين وصلت الجانب الغربي من مدينة قرطبة القديمة، شاهدت بقايا أسوارها و أبوابها القديمة، كما شاهدت القنطرة الرومانية الشهيرة التي جددها العرب، وتقع على ستة عشر عقداً، وما زالت تحتفظ بكثير من معالمها الأندلسية... واصلت السير في تِلك المنطقة القديمة من المدينة وقريباً من أحد أبوابها المعروف بباب العطّارين، على بُعد أمتار منه، وجدت نفسي أمام تمثال للفيلسوف الكبير ابن رشد (أفيروس) الذي أكد في فلسفته على «وجوب أخذ الحقائق حتى لو كان قائلها من ملة غير ملته، وكان مرجعه النهائي هو العقل حيث تبنَّى تصوراً علمانياً أعطى فيه دوراً رئيساً للإنسان باعتباره مركز الكون ومقياساً لما يحيط به» ولهذا يعتبر في الزمن المعاصر من أكثر القدماء تأثيراً في الفكر الأوروبي يفتخر به الإسبان، ويعتبرونه قد سبق عصره، والعصور اللاحقة كافة؛ لأنه قدَّم مجموعة من الأفكار قامت عليها النهضة الإنسانية الحديثة[١].

وصف الدكتور حسين مؤنس[٢] واصفاً أهل قرطبة في أوج مجدها قائلاً: «وأهل الأندلس عامةً أهل نظافة وحسن مظهر ويحكى أن الواحد منهم إذا لم يكن معه غير درهم اشترى به صابوناً واغتسل! وكان الماء جارياً إلى بيوتهم عبر أنابيب رصاص لازالت آثارها إلى يومنا هذا وكان عدد حمامات غرناطة وحدها نحو ٣٠٠ حمّام حيث كانت أكبر حجماً مما هي عليه اليوم، كانت بمثابة عاصمة أوروبا للفكر والعلم والأدب يأتونها من كل حدب وصوب». وكانوا يهتمون بلبس أفضل الثياب من الكتان والقطن ويتفاخرون بها ويضعون على رؤوسهم عمائم نظيفة.

(١) الدكتور سميح القاسم دراسة مختصرة بعنوان «أيام في قرطبة...مدينة الشعر والعشق والجمال» نشرت في موقعة الخاص على شبكة الإنترنت في شهر يوليو ٢٠١٠.

(٢) الدكتور حسين مؤنس كان رئيس المركز الإسلامي في مدريد.

حول ولادة بنت المستكفي أشهر شاعرات الأندلس:

وقد تزوج المستكفي عِدة نساء عربيات وأندلسيات وكانت زوجته الأخيرة أمة إسبانية، ويذهب بعض المؤرخين إلى أن هذه الإسبانية هي أم ولادة.

ورثت ولادة بنت المستكفي الكثير عن أبويها فثارت على تقاليد المجتمع الأندلسي حينها فنزعت حجابها وفتحت قصرها للأدباء والشعراء والفنانين، وكان لديها الكثير من الخصائص التي ميزتها عن غيرها من بنات جنسها من ذكاء وجمال وثقافة وثروة مما جعلها مرموقة في المجتمع الأندلسي. وهذا الذي جعل قصرها يؤمُّه كل مشهور وأديب وفنان وفي طليعتهم الشاعر والوزير ابن زيدون الذي أحبها وأحبته ثم انتهت القصة بينهما بخصومة وعداء! والسبب أن ابن زيدون كان يشتهي كلّ نساء عصره سواء محباً أو مجرد لذة وشهوة فقد أحب جارية ولادة السوداء اللون فلم تكد ولادة تشعر بهذا التحول من قبل ابن زيدون حتى غضبت وثارت فهجرته وتحولت إلى خصمه أبي عامر بن عبدون وكتبت قصيدة إلى ابن زيدون معاتبةً[(١)]:

لو كنتَ تنصفُ في الهوى مابيننا
لم تهوَ جاريتي وتتخيرا
وتركتَ غُصناً مثمراً بجماله
وجنحتَ للغصن الذي لايثمرا
ولقد علمتَ بأنني بدرُ الدجى
لكن دهيت لشقوتي بالمشتري

عدنا بعد تجوالنا من مدينة الزهراء، وأحد السيَّاح من الفوج والذي ذكرته وهو المواطن

(١) سامي الكيالي «في ربوع الأندلس» مصدر سابق دار الشروق حلب عام١٩٦٣.

العراقي الذي يبدو عاشقاً للأدب وكان يردد أبيات ابن زيدون الشهيرة في حبيبته ولادة، والتي كتبها بعد فراره من قرطبة[١].

ولابن زيدون أبيات تشعُّ بالحنين والحب لقرطبة يقول فيها بعد هروبه منها:

أَقُرْطُبةُ الغَرَّاءُ! هل فيكِ مَطمعُ؟
وهل كَبدٌ حرَّى لبَيْنِكِ تُنْقَعُ؟
وهل لليالِيكِ الحميدةِ مَرْجِعُ
إذِ الحسنُ مرأًى فيكِ واللهوُ مَسْمَعُ
وإذْ كَنَفُ الدنيا لديكِ مُوَطَّأُ

ساعتان مع أطلال الزهراء:

سألني موظف استعلامات الفندق في قرطبة إذا كنت أرغب في زيارة مدينة الزهراء؛ لأني كنت في الليلة السابقة التي تلَتْ وصولي قرطبة أطرح عليه بعض الاستفسارات وأطلب منه نصائح وأسأله عن مدينة الزهراء، وهل تستحق الزيارة؟ فقال: إنها عبارة عن أطلال ولكن لن تخسر شيئاً إذا زرتها لمدة ساعتين وتبعد فقط بضعة كيلومترات في ضواحي قرطبة، فأخبرته بأني أرغب فعلاً في زيارتها ضمن الفوج الذي سيتحرك من باب الفندق بعد نحو ساعة.

(١) اسمه كاملاً أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون المخزومي الأندلسي القرطبي، أبو الوليد، ولد عام ١٠٠٣م في قرطبة، ينتسب إلى قبيلة مخزوم العربية وهو أحد شعراء الطبقة الأولى من بين شعراء العصر الأندلسي وأحد المشكلين للتراث الثقافي في هذا العصر، أجاد ابن زيدون في قصائده فظهر بها جمال الأسلوب ورقة المشاعر والموسيقى الشعرية، وكانت قصائده صورة من حياته السياسية والعاطفية، وتم تشبيهه بالبحتري، وقد تميز ابن زيدون بشعره الغزلي فعرف شعره بالرقة والعذوبة والصور الشعرية نشأ أبن زيدون في فترة تاريخية حرجة وكان أبوه قاضي قرطبة علمه ورباه تربية خاصة واشتهر بشعره وثقافته وكان سياسياً وأديباً وعاشقاً وسجيناً، قد عمل ابن زيدون سفيراً بين كل من أبي الوليد وإدريس الحسني في مالقا، وبعد حدوث الجفاء بينه وبين بني جهور، قصد بلنسية، وتنقل بين عدد من الملوك والأمراء الذين أحسنوا ضيافته، وعندما عاد إلى إشبيلية تم الاحتفاء به من قبل حاكمها «ابن عباد» فجعله مستشاراً له وسفيراً لعدد من الدول المجاورة، وتولى منصب «كاتب المملكة» والذي كان يعد من أهم المناصب، وتولى الوزارة وعرف بلقب «ذي الوزارتين».

ومدينة الزهراء كان لها شأن كبير وبُنيت في عهد عبد الرحمن الناصر، وغدت مجرد أطلال لم يبقَ منها سوى أجزاء من تلك القصور وأعمدة وعقود مقوَّسة ولكن أكثر معالم المدينة مهدَّم و هي تشمل الآن على أعمال ترميم.

ولكن لم تستمر مدينة الزهراء في أداء رسالتها الجمالية والوظيفية الشامخة، سوى خمسة وسبعين عاماً فقط، حيث طالتها يد الهدم والتخريب نتيجة الحروب التي أطاحت بالخلافة الأموية بالأندلس[١]، وأدت إلى سقوط مدينة الزهراء في ظلام النسيان والتجاهل أكثر من ألف سنة. ومع أعمال الحفر والتنقيب، كان ما يُعاد اكتشافه منها يُظنُّ أنه من آثار قرطبة القديمة، إلى أن كشفت أعمال بعض الحفريات في عام ١٩١١ أن ما يكتشف من أحجار وطرق في هذه المنطقة، لا ينتمي إلى قرطبة القديمة، وإنما هو مدينة الزهراء تعلن عن نفسها بقوة، بعد أن كان الظن أن الزهراء مدينة أسطورية لا وجود حقيقي لها على الأرض الأندلسية. لقد رأينا المدينة تمتد على ثلاثة سفوح، على السفح الأعلى يوجد القصر، حيث كان يقيم الخليفة، وأهم رجال الدولة من وزراء وإداريين إلى جانب مبانٍ أخرى خاصة بالشؤون العسكرية، ويمثل هذا الجزء بالإضافة إلى الجامع ما كشفت عنه عمليات الحفر والتنقيب حتى الآن.

أما على السفح الأوسط فتوجد الحدائق والبساتين، وعلى السفح الأسفل يوجد ما يمثل المدينة ومساكنها وبناياتها. ويلاحظ وجود مجموعة رائعة من الأقواس تمثل واجهة رواق الأعمدة التي تميزت بها تلك المدينة القديمة، والتي تتشابه مع أقواس أعمدة مسجد قرطبة إلى حدٍّ كبير. وقد اتخذت جامعة قرطبة من تلك الأقواس الحمراء شعاراً مرسوماً لها.

يقول الكاتب علي عبدالعظيم (محقق وناشر ديوان ابن زيدون) عن مدينة الزهراء: «الزهراء ضاحية من ضواحي قرطبة أنشأها الخليفة الناصر على سفح جبل العروس تخليداً لذكرى زوجته وسماها باسمها ورصد لتشييدها ثلث جباية الدولة، وكانت تلك الجباية تناهز أربعين ألف ألف دينار (أي أربعين مليون دينار) واستمر في بنائها عشرات الأعوام وجلب إليها الرخام وأمهر الصنَّاع والبنَّائين من القسطنطينية فجاءت آية من آيات الفن المعماري في القرون الوسطى..»!

---

(١) أحمد فضل شبلول «من إسطنبول إلى قرطبة» إصدار دار الوفاء للطباعة والنشر، الإسكندرية مصر عام ٢٠٠٦.

صعدنا إلى مدينة الزهراء على جبل العروس المشرف على قرطبة من الناحية الجنوبية وشاهدنا ركام مدينة الزهراء الشهيرة ولم يبقَ منها سوى أنقاضها وبقايا آثار تذكرنا بما عرفت به في الزمن الغابر عندما أسسها عبد الرحمن الناصر في مطلع محرم عام **٣٢٥** هجرية والمصادف ٩٣٦م.

وعاد الفوج السياحي وبيننا مستشرقون كما عرفت وسيَّاح من أمريكا اللاتينية بعضهم من أصول عربية، وكان بيننا عرب منهم عراقي يدعى (نديم) والذي يبدو من معرفتي القصيرة به أنه يهوى الأدب والشعر ومُلِمٌّ بتأريخ الأندلس فقد كان يردد أبياتاً شهيرةً لابن زيدون في حبيبته ولادة بنت المستكفي والتي قالها متغزلاً في نفس الطريق الذي صعدناه وقد حرصت على أن أكتبها وأذكر منها هذين البيتين اللذين يقولان [(١)]:

إنـي ذكـرتـك بـالـزهـراء مـشـتـاقـا
والأفق طَلْقٌ ومرأى الأرض قد راقا

الرحلة لإشبيلية مدينة الأدب والطرب الأندلسي:

ودَّعت قرطبة الجميلة الوادعة المطلَّة على نهر الوادي الكبير متجهاً إلى عاصمة المعتمد بن عباد مدينة الفن والطرب الشهيرة إشبيلية والتي تبعد عن قرطبة نحو ١٤٠ كيلو متراً، والمناظر من مدينة أندلسية إلى أخرى هي تقريباً نفس المناظر: مروج ومراعٍ خضراء وكان القطار من إشبيلية إلى غرناطة يمر أحياناً بجوار نهر الوادي الكبير الذي تقع عليه أيضاً مدينة قرطبة.

مدينة إشبيلية باعتبارها أكبر مدن الأندلس تضم كل ماتحويه مدن الأندلس والروح الإسبانية من فن وإبداع وتنوع وجمال؛ فهي مخزن الثروة الفنية والتراث الأندلسي العريق وفيها الجمال

(١) ولادة بنت المستكفي هي أميرة عربية من بيت الخلافة الأموية قرشية أبوها المستكفي الخليفة الأندلسي الأموي الشهير وعرفت بعلمها وأدبها وشعرها وتحررها مقارنة بنساء وبنات زمنها وقد عشق ابن زيدون ولادة بنت الخليفة المستكفي، وأنشد بها العديد من القصائد التي تعبر عن حبه لها، وكانت ولادة ليست كأي واحدة من النساء فكانت تتمتع بالجمال وبالإضافة لجمالها كانت تتمتع بثقافة عالية فكانت شاعرة ومغنية لها مجلس بقرطبة يجتمع فيه أشهر المثقفين والشعراء والأدباء، وقد هام كل من ابن زيدون وولادة بعضهما حباً إلى أن وقعت بينهما إحدى المشاكل التي فرقت بينهما.

العربي الأصيل فنحو نصف سكانها بشرتهم بيضاء وعيونهم سوداء وشعرهم أسود فاحم بعكس المدن الإسبانية في شمال الأندلس الأخرى (بلد الوليد) و (مدريد) و (طليطلة).

مئذنة الكاتدرائية في إشبيلية تُشاهد من أغلب أحياء المدينة وكانت أطول مبنى في العالم! وبعد الانتهاء من زيارة قرطبة والزهراء وقبل زيارة غرناطة غادرت بالقطار إلى أكبر مدن (أندلسيا) إشبيلية الجميلة والتي تقع على ضفتي نهر (الوادي الكبير) مثل قرطبة تماماً، وهي مدينة عريقة في تاريخ الأندلس وشهدت أحداثاً وصولاتٍ وجولاتٍ في السلم والحرب وكانت ملاذاً لطالبي العلم والطرب. وقد وصلت أوجَ مجدها في عهد (المعتمد بن عباد)، أشهر مَنْ حكم مملكة إشبيلية وهو من أصل عربي ومن سلالة القائد (موسى بن نصير) ويعتبر ابنه (عبدالعزيز بن موسى بن نصير) أول حاكم لهذه المدينة وكانت أول عاصمة عربية للأندلس وما تزال آثار عبد العزيز إلى يومنا هذا فهناك برج عبدالعزيز.

وفي نقاط وتواريخ محددة في حياة تأسيس هذه المدينة العريق (اسبيليا) كما تنطق بالإسبانية نرى أنها اشتهرت أيام الحكم الإسلامي لإسبانيا وكان عبد الرحمن الثاني قد أمر ببناء أسطول بحري ودار لصناعة الأسلحة فيها في أواسط القرن التاسع الميلادي وسميت (حمص) نسبة لنزول جند الشام فيها. من معالمها منارة الخيرالدا التي بُنيت بأمر من السلطان أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدي.

وقد فتح المسلمون إشبيلية في شعبان سنة (٩٤هـ - ٧١٣م) بقيادة موسى بن نصير بعد حصار دام شهراً واحداً وأقام عليها عيسى بن عبد الله الطويل، وهو أول ولاتها من المسلمين.

في سنة ٩٥ هـ خلف «عبد العزيز بن موسى بن نصير» أباه والياً على «الأندلس»، واستقر في «إشبيلية»، واتخذها عاصمة له.

وفي سنة ٩٧ هـ قُتل عبد العزيز بن موسى في إشبيلية، وولي الأندلس من بعده أيوب بن حبيب اللخمي، الذي نقل العاصمة إلى قُرطبة.

وإشبيلية من أهم وأجمل المدن الإسبانية وعاصمة إقليم الأندلس وقد استضافت في عام ١٩٩٢ معرض أكسبو ٩٢ الدولي، ومع انتهاء المعرض تحولت أرض المعرض إلى مدينة ترفيهية كاملة، وعرفت هذه المدينة الرائعة بميادينها الفسيحة وشوارعها الواسعة وحدائقها الغنَّاء ويقال بأن إشبيلية هي مدينة الحدائق.

والمؤرخون عندما يتكلمون عن الأندلس يقصدون كامل شبه الجزيرة الايبرية التي تضم كل إسبانيا والبرتغال وجنوب فرنسا بدليل أن معركة تور بواتييه «بلاط الشهداء» كانت في الأراضي الفرنسية (الفرنجة) وكاد المسلمون يدقُّون أبواب باريس ولكن قوتهم القصوى كانت في حدود بلاد الأندلس الكاملة على النحو الذي ذكرناه. ثم تقلص الحكم العربي الإسلامي شيئاً فشيئاً نتيجة الحروب والغارات حتى انحصر في الجنوب والشرق وفي الفترة الأخيرة انحصر تحديداً في مملكة غرناطة وبعض المدن الصغيرة حولها وكان سقوط غرناطة في عام ١٤٩٢ خاتمة المطاف ونهاية العهد الإسلامي الذي استمر نحو ثمانية قرون، وعندما بدأت الدولة العربية الإسلامية في الأندلس تُحتضر كان ذلك بداية قوة وصعود الدولة العثمانية فيالسخرية الأقدار لو تأخر سقوط الأندلس أو تقدم صعود العثمانيين فربما كان لتأريخ الإسلام شكل آخر ولكن هذه مشيئة الله.

لقد اشتهرت مدينة إشبيلية من بين سائر البلدان الأندلسية بأنها مدينة الطرب والغناء والرقص والموشحات[1]،كانت ملتقى الشعراء والأدباء، وكل راغب في حياة المتعة، وكان حاكمها في فترة ازدهارها المعتمد بن عباد وعرف أنه ملك شاعر رقيق المشاعر أنيس المجلس، يحب الشعراء ويقربهم إليه وقد لجأ إليه ابن زيدون حين هرب من سجن ابن جهور في قرطبة.

ويقول أهل إشبيلية عن مدينتهم: إنها المدينة الوحيدة التي يرقص فيها المرء من السابعة إلى السبعين من العمر!

(١) الموشحات فن عرفه الشعر العربي في الأندلس وظهر في أواخر القرن الثالث الهجري وأوائل القرن الرابع وقد رأى فيه المحافظون خروجاً على القديم وبدعة شعرية على نظام القصيدة العربية التقليدية ذات البحر الواحد والقافية الواحدة فالقافية فالموشح لا يخضع لبحر واحد أو لقافية واحدة بل تتعدد فيه القوافي... ولهذا يرى نقاد هذا الفن الموشح الناجح هو الذي يتبع إيقاعاً موسيقياً خاصاً تقوده الأذن ولا يخضع لقواعد الشعر التقليدي..إلخ.
وبرز هذا النوع من الفن في إشبيلية وقد استدعت تلك النهضة الأدبية التي غذّاها المغني زرياب الذي قدم من المشرق العربي.

ولعل من أشهر قصائد الموشحات حتى يومنا هذا هي تلك الأبيات التي تُنسب إلى لسان الدين بن الخطيب الغرناطي[1]، والتي يقول فيها:

جادكَ الغيثُ إذا الغيثُ هَما ... يا زمانَ الوصْلِ فِي الأندلسِ
لَمْ يكنْ وصلكَ إلا حُلُماً ... في الكرى أو خِلسَةَ المختلسِ
ساحرُ المقلةِ مَعْسُولُ اللَّمى ... جالَ في النفس مَجَالَ النَّفَسِ

سدَّدَ السَّهمَ فأصْمى إذ رَمَى ... بفؤادي نَبْلَةَ المفْترسِ

وتوحي معظم أحياء إشبيلية بأنها مدينة عصرية ولكن هذه الأحياء لاتضاهي جمال وجذب الأحياء الكلاسيكية فيها والتي يغلب عليها الطابع السياحي الأندلسي.

ولا يمكن أن نذكر إشبيلية دون أن نذكر معها أميرها وشاعرها الفارس المعتمد بن عباد فقد كان درَّة مجدها كما كان قمة مأساتها وكان يحب مجالس الأُنس والطرب.

نهاية مؤسفة لحكم المعتمد بن عباد:

للمعتمد أيضاً أطول تاريخ وعبرة في الصراع العربي الإسلامي من جهة والإسباني المسيحي من جهة أخرى، بحيث كان أهم ملوك الطوائف الذين دعوا القائد البربري يوسف بن تاشفين لمقارعة حليفه السابق ألفونسو السادس.. وقد وقف المعتمد بصرامة أمام مستشاريه الذين كانوا مع إبقاء الحلف مع ألفونسو السادس، أو استدعاء المرابطين من المغرب لصدِّ أطماع مملكة قشتاله وليون.. وفي هذا قال المعتمد قوله الشهير: (أن يرعى أولادنا إبل المراكشيين خير من أن يرعوا خنازيرالصليبيين.!) أي: الاستسلام لابن تاشفين ولا الخضوع لألفونس الإسباني.. ويشير التاريخ إلى نهاية ابن عباد في صحارى المغرب، ودفن في قبر معروف في (أغمات) في ضواحي مدينة مراكش!.

حينذاك عبر يوسف بن تاشفين أمير المرابطين بجيشه الجرار من مدينة سبته المغربية إلى الأندلس فتسلَّم قلعة الجزيرة الخضراء في الجانب الآخر من البحر المتوسط ومنها دخل بقواته

(١) وله مؤلف شهير في أدب الرحلات باسم «الإحاطة في تأريخ غرناطة».

إلى عمق أراضي الأندلس فتسلَّم حينها بعض القلاع والأماكن من ابن عباد وكان في استقباله كبار القوم والقضاة والعلماء والفرسان وعلى رأسهم صديقه المعتمد ابن عباد وبعد الاستنجاد بأمير المرابطين والانتصار في معركة (الزلافة) الشهيرة طمع ابن تشفين في الحكم وحصل بينهم سوء فهم فخصومة ثم عداء انتهى بعزلِه ثم نفيه إلى المغرب بطريقة مهينة، وكان ابن عباد شاعراً[1] رقيق المشاعر والأحاسيس.

وتمزقت الأندلس بين أيدي أمراء الطوائف كانت إشبيلية في أوج مجدها وقد استطاع صاحب إشبيلية المعتمد بن عباد أن يُخضع قرطبة لسلطانه بعد أنْ خلع عرشها ابن جهور بمساعدة شاعر قرطبة الأكبر ابن زيدون.

كان أمير المسلمين يوسف بن تاشفين في أول الأمر يحترم المعتمد بن عباد ويقول هو ضيفنا، ولكن كما ذكرت حدث خلاف وفتنةٌ بين المعتمد وابن تاشفين ووشى المقربون إلى ابن تاشفين أن المعتمد يميل إلى الترف.

انتهى أمر المعتمد بوقوعه في قبضة يوسف بن تاشفين فحبسه في سجن أغمات، فقيراً مجرداً من ماله ومقيداً، وجاء العيد وهو في السجن فقال يصف هذا المشهد الذي يقطع نياط القلوب:

وقد نظم المعتمد شعره في غرامياته وفي فروسيته وحروبه! ثم في مأساته التي جاءت على يد يوسف بن تاشفين بعد سنتين من موقعة «الزلافة» حين عاد ابن تاشفين من المغرب إلى الأندلس واستولى على أغلب بلاد الأندلس وأخذ المعتمد بن عباد أسيراً مع أسرته وأرسل مكبلاً بالقيود إلى طنجة ثم إلى مراكش وأغمات حيث عاش فقيراً مهيناً ومات ذليلا كَسيراً..

عندما حلَّ عيد المسلمين وابن عباد أسير في أغمات تحسر للحالة التي هو فيها وتذكر مناجاة المتنبي عندما قال: (بأية حال عدت ياعيد) فقال الأمير ابن عباد ساخراً ومتحسراً في مفارقات الزمن قصيدته الشهيرة التي قال فيها:

(١) أشهر ملوك إشبيلية الملك العربي (المعتمد بن عباد) وهو من أصل عربي ومن سلالة القائد موسى بن نصير والمعتمد بن عباد ملك إشبيلية في عصر ملوك الطوائف من بني عباد، ولد في باجة (إقليم في البرتغال حالياً) و توفي في أغمات ١٠٩٥، وعند زيارتي للمغرب وبالخصوص مدينة مراكش تسنى لي زيارة ضريحه في أغمات والتي تبعد نحو ثلاثين كيلومتراً من مراكش.

فيما مضى كنت بالأعياد مسروراً ... وكان عيدك باللّذات معموراً
وكنت تحسب أن العيد مسعدة ... فساءك العيد في أغمات مأسورا[(١)]
ترى بناتك في الأطمار جائعة ... في لبسهن رأيت الفقر مسطوراً
معاشهن بعد العزّ ممتهن ... يغزلن للناس لايملكن قطميراً

ويقول أيضاً:

دعا لي بالبقاء، وكيف يهوى ... أسير قد يطول به البقاء
أليس الموت أروح من حياة ... يطول على الأسير بها الشقاء
أأرغب أن أعيش أرى بناتي ... عواري، قد أضر بها الحفاء

لقد كانت إشبيلية أكبر من غرناطة وأوفر غنى وحين دانت دولة قرطبة بعد فتنة البربر في القرن الحادي عشر الميلادي وتمزقت الأندلس بين أيدي أمراء الطوائف.

أعتقد أن إشبيلية هي أكبر مدينة أندلسية حالياً وهي أيضاً من كبريات المدن على مستوى إسبانيا المعاصرة. يشطر نهر الوادي الكبير وسطها، وتبعد عن مدينة مدريد نحو (٥٣٧) ويقول عنها الشقندي واصفاً محاسنها: أما إشبيلية فمن محاسنها اعتدال الهواء وحسن المباني وتزيين الخارج والداخل حتى العامة كانوا يقولون وقتها بأنه «لو طُلب لبن العصفور لوجد!» ويضيف بأن إشبيلية كانت تحوي كل أدوات الطرب أكثر من أي مدينة أندلسية واشتهرت بالشعراء والأدباء والندماء.

ومما يؤكد ميل أهل إشبيلية للفن والشعر والأدب والرقص والغناء.. .إلخ، هو ماذكره ابن رشد بقوله: «إذا مات عالم بإشبيلية فأريدَ بيعُ كتبه حُملت إلى قرطبة (التي اشتهرت بالعلم وكثرة مخازن الكتب حتى تُباع فيها، وإذا مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته الموسيقية حُملت إلى إشبيلية»!![(٢)].

ولإشبيلية طابع خاص فقد كانت مدينة الفن والطرب.. وكان أجدادنا الأقدمون يرونها عروس بلاد الأندلس ولا يتحرجون بوصفها أجمل مدن الدنيا حينها، وهذا ربما كان صحيحاً

(١) مدينة جنوب مراكش تبعد نحو ثلاثين كيلو دفن فيها أمير إشبيلية المعتمد بن عباد.
(٢) سامي الكيالي «في ربوع الأندلس» مرجع سابق ص ٨٦.

بالأمس أما اليوم فهي على الأقل مدينة وادعة هادئة مليئة بالمزارات والآثار التي تدل على مجدها الغابر.

وفي أهلها طباع حتى الآن موروثة فهم يميلون للغناء والرقص وأشهر رقصات الفلامنكو مزدهرة فيها.

والشيء الميسَّر للسائح هو أنّ الآثار الإسلامية في كل مدينة إسبانية هي في الغالب مجمعة تقريباً في مكان واحد أو متقاربة بحيث يستطيع المرء أن يراها في جولة واحدة.

وفي إسبانيا لازال الكثير من القصور تحمل أسماء عربية مع قليل من التحريف فمثلاً يكتبون (alcasar) ويلفظونه الكاثار!.

أما مسجد إشبيلية العظيم فلم يبقَ منه سوى صحنه ويعرف باسم فناء النارنج وفي وسطه نافورة أندلسية كما بقيت منارته أو صومعته الشهيرة المعروفة باسم (لاخيرالدا) وهي منارة شاهقة مربعة الشكل على غرار المنارات في المغرب العربي والجامع الأموي في دمشق، وقيل لنا بأن علوها نحو ٩٦ متراً.

وإشبيلية تضم في ترابها شخصيات نسمع عنها كثيراً مثل قبر (كرستوف كولومبس) وقيل: إنه إيطالي الأصل إلا أنه عاش ومات في إشبيلية وله قبر شهير يؤمُّه الزائرون.

كما عاش فيها (دنجوان) السيد يوحنا زير النساء الشهير والذي كتب حول مغامراته العاطفية والجنسية الكثير حتى غدا مثلاً لمن يعشق عدداً كبيراً من النساء في وقت واحد!

وقصة حلاق إشبيلية الشهير... تماماً مثلما نسمع في المشرق لص بغداد وحلاق بغداد وألف ليلة وليلة... إلخ.

الخيرلادا (برج الذهب... سيفيا):

شيدت كاتدرائية سيفييا[1] في الفترة ما بين أواسط القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر بعد استرداد على الموقع السابق للمسجد في المدينة. وكاتدرائية سيفييا من بين أكبر جميع كاتدرائيات القرون الوسطى الجرمانية، وهي مزينة بشكل مسرف بكمية كبيرة من

(١) وتعتبر هذه الكاتدرائية الأكبر في العالم الكاثوليكي...من الموسوعة الحرة (اليوكبيديا) على موقع الإنترنت وكذلك الموسوعة الأصلية المقروءة.

الذهب. أعادت الكاتدرائية استخدام بعض الأعمدة من عناصر المسجد، وجيرالدا أصلاً مئذنة، تحولت إلى برج لجرس الكنيسة المستحدثة. ترتفع «الجيرالدا» شامخة فوق أسطح منازل إشبيلية، وتعتبر أهم معالم المدينة، وقد بُنيت سنة ١١٨٤ كمئذنة لمسجد إشبيلية الكبير الذي تحول مع مئذنته إلى كاتدرائية. يبلغ ارتفاع الجيرالدا ٩٧ متراً، وقد تم بناء القمة المتحركة حسب اتجاه الرياح في القرن السادس عشر، ومنذ ذلك الحين أصبحت الجيرالدا تُعرف بهذا الاسم نسبة إلى التمثال في أعلاها.

الفلامنكو رمز حيوية الأندلس:

قبل مغادرة إشبيلية بيوم لفت انتباهي في إعلان بارز في بهو الفندق الذي نزلت فيه يشير لحفلة فلكلورية من التراث الإسباني يتخللها رقصة فلامنكو والموسيقى المصاحبة له.. وكان قد نُصب خيمة كبيرة في حديقة مجاورة للفندق، وفعلاً حضرت لمشاهدة الفلامنكو على الطبيعة كما شاهدت نوعاً آخر من رقص الفلامنكو في قلب مدينة غرناطة.

ويندهش المتفرج للفلامنكو لأول مرة فهذا النوع من الفن المتميز وعلى الطبيعة يؤديه أهل إشبيلية الأصليون بصرامة في الرقص يمتزج فيها حركات الجسد الصعبة وتعبيرات الوجه المقطبة غالباً وصوت الموسيقى ، أما الراقصات فممشوقات القوام يتصفن بالملامح الشرقية ووجوههن البيضاء المستديرة والشعر الأسود والعيون الواسعة السوداء وكأنهن من بلاد فارس!

يرى الكثير ـ ومن خلال دراسة تاريخ الفن الأندلسي ـ بأن جذوره ترجع إلى أصول مغربية ومصرية وهندية وغيرها عندما وفدوا إليها في القرن الخامس عشر حيث امتزجت مع الموسيقى العربية التي كانت قائمة في الأندلس ، ومع موسيقى اليهود الذين كانوا مع الغجر هاربين من الاضطهاد الذي تعرضوا له على أيدي الملوك الكاثوليك في أوروبا ولم يجدوا الحماية والأمن إلا في ظل الحكم العربي.

ويمكن للسائحين الاستمتاع بالفلامنكو في مدينة غرناطة، وتعدُّ منطقتا ساكرومونتي والبيازين من أفضل الأماكن التي يمكن الاستمتاع فيها بالغناء والموسيقى المصاحبة لرقصة الفلامنكو أو أي نوع من الأغاني والموشحات الأندلسية التي تجذب عدداً كبيراً من زائري الأندلس ولاسيما العرب والمستشرقين.

والفلامنكو تراث فنّي وثقافيّ إسباني تعود أصوله إلى هضاب منطقة الأندلس[١]. ورغم غياب تاريخ دقيق لزمن ظهوره، إلاّ أنّ معظم مؤرّخي الموسيقى يرجعون ذلك إلى القرن الرّابع عشر على وجه التّقريب، ويتّفقون على أنّ بروزه في صيغته المعروفة اليوم لم يكتمل إلاّ خلال القرن الثّامن عشر.

وقد اعتبر الفلامنكو منذ نشأته فنّ الفقراء والمهمومين والمتمرّدين داخل الأقليّات المضطهدة في إسبانيا من الموريسكيّين (بقايا العرب المسلمين في إسبانيا بعد سقوط الأندلس)، والغجر واليهود، على يد محاكم التّفتيش التي أقامها الملك فرديناند لإجبارهم على اعتناق المسيحيّة الكاثوليكيّة، ممّا دفع هذه الأقلّيات إلى مغادرة الوطن أو التخفّي في الجبال والمناطق الوعرة التي شهدت ولادة هذا الفنّ تعبيراً عن مآسيها، ليتمّ تناقله من جيل إلى جيل عبر المأثور الشّفوي.

والفلامنكو فنّ متعدد المظاهر، فهو يتضمّن الرّقص والعزف والغناء، ويعتمد مزيجاً من الألحان المستقاة أساساً من الموسيقى العربيّة، وفن الفلامنكو هو مزيج من الألحان الغنائية والرقص والشعر، تعود أصوله إلى الأندلس، كما أن له جذوره العربية من حيث أسلوب الغناء وطريقة الرقص والأنغام الموسيقية، وثمة إقرار من الإسبان أنفسهم بأن فن الفلامنكو تأثَّر بالغناء العربي وشِعر الموشحات الأندلسية، خاصة التي كانت تكتب باللغة الأندلسية الشعبية، وهناك من يرى أن الفلاحين الموريسكيين العرب الذين فروا إلى الجبال بعد سقوط آخر المعاقل العربية في الأندلس، هم الذين ابتكروا هذا الفن كتعبير منهم لما تعرضوا له من ظلم وقهر وإبادة ثقافية.

إن المتتبع لرقصة الفلامنكو المقرونة بالغناء الجميل الصاخِب أحْياناً والهادئ أحياناً أخرى يلاحظ جملة من التفاصيل الدقيقة منها ضرب الأقدام بقوة على إيقاعات موسيقية ساحرة، تخرج أصواتاً عالية متَّسقة مع الموسيقى، و تميز أداء النساء بارتدائهن أثواباً طويلة فضفاضة بألوان ساحرة، تدور الواحدة منهن متمايلة ذات اليمين وذات اليسار وهي تمسك بيديها أطراف ثوبها، وتارة أخرى تدور وهي تصفق بيديها، أو تضعهما على خصرها، أو فوق رأسها، مع تحريك للجسد بتعبيرات إيحائية تتَّسق مع الإيقاعات والأنغام الصوتية.

(١) جهاد أحمد سالم «الفلامنكو»: حين يوحّد الفنّ الأقليّات في مواجهة الإبادة الثّقافيّة مجلة الاوان أغسطس ٢٠٠٩.

الرحلة من إشبيلية إلى غرناطة:

تبعد غرناطة عن إشبيلية حوالي ٢٥٥ كيلومتراً وكان لابد أن أغيِّر القطار في منطقة غير معروفة اسمها (ابن عباد) تحرك القطار في العاشرة صباحاً وما إن غادرنا قلب المدينة حتى بدأت ملامح الريف الإسباني الجميل بعبقه الساحر ومناظره الخلابة ومزارع الكروم والزيتون والخوخ والرمان والتفاح والتين الشوكي، ورأينا تلك المساحات الكبيرة المليئة بمراعي الأغنام والخيول وحتى الثيران ويربونها سواء لحلبات المصارعة الشهيرة أو كثروة حيوانية مثل الغنم والماعز والدواجن. الجمال يكمن في ينابيع المياه وهي روافد (الوادي الكبير) كونها تغذِّيه أو متفرعة منه، فجداول المياه تتكرر مشاهدها والقطار ينهب الأرض نهباً وعندما يخفف سرعته يترك لنا مجالاً للتأمل بتلك اللوحة الربانية في الأندلس المفقود.

يتداول أهل الأندلس والإسبان عموماً مقولة أو مثلاً يقول: «ليس في الحياة أقسى من أن يكون المرء أعمى في غرناطة»![(١)].

يسميها العرب غرناطة بينما تسمى (كرناده) وتعني بالإسبانية الرمانة وفعلاً فإن شعار المدينة هو الرمانة، ولعلها سُميت بالرمانة لكثرة الرّمان في بساتينها الذي جلبه العرب من الشام أيام الفتوحات كما نقلوا عدة أنواع من الزهور وأساليب الزراعة مثل مجارٍ وساقية المياه ونظام النواعير وغيرها.

وتعتبر غرناطة من أجمل المدن الإسبانية ، فهي تقع بين جبل وبحر ولا يفصلها عن البحر إلا عشرات الكيلومترات في وسط جغرافي زاخر بالجمال الطبيعي المليء بالإيحاءات الفنية، فهي تحتل مكاناً ممتازاً على سفح جبل الثلج وهي آخر المدن الإسلامية سقوطاً في الأندلس يوجد بها قصر الحمراء الذي بناه ملوك بني الأحمر وهو قصر رائع يقع على مرتفع تتخلله الباحات والحدائق الرائعة والنوافير وساحة الأسود، وغرناطة مدينة لا يملُّ منها زائرها.

(١) يشاهد الزائر على مدخل البرج في القصبة لوحة من الرخام منقوشة عليها قصيدة مشهورة من نظم الشاعر المكسيكي فرانسيسكو دى إيكاثا يستحث فيها زوجته على إعطاء صدقة إلى فقير فاقد البصر: يقول: «ليس في الحياة أقسى من أن يكون المرء أعمى في غرناطة».

وتتميز غرناطة بوجود أماكن سياحية وتاريخية عديدة، ولها نشاطات فنية وثقافية كثيرة في الفن، وكما ذكرت كانت آخر ممالك الأندلس التي سقطت هي مملكة غرناطة التي سقطت في أواخر القرن الخامس عشر عام **١٤٩٢** م حينما خرج منها آخر ملوك العرب المسلمين في الأندلس أبو عبد الله الملقب بالصغير باكياً وصوت أمه يتردد في أعماق نفسه عندما قالت:

ابْـكِ كـالـنـسـاء مـلـكـاً مـضـاعـاً

لـم تـحـافـظ عـلـيـه مـثـلَ الـرّجـالِ

وبسقوط غرناطة انتهى الوجود الإسلامي في أوروبا وهو نفس العام الذي تمَّ فيه اكتشاف العالم الجديد بعد رحلة (كرستوف كولمبس) الإيطالي الأصل والذي جهزت حملته برعاية العاهلين الإسبانيين فرنادو وإيزبلا .

ومن سخرية الأقدار أن حضارة إسلامية يأفل نجمها وتبدأ أخرى في شرق القارة وغرب آسيا بعد فتح القسطنطينية والتي سميت إسطنبول على يد محمد الفاتح . . قامت دولة قوية بدأت تهدد أمن أوروبا من الشرق . . . فلو تأخر سقوط غرناطة فقط بضعة عقود من السنين ربما كان لتوسُّع الخارطة الإسلامية في أوروبا شأن آخر!

وتبعد غرناطة[(١)] عن مدريد (**٤٣٣**) كيلومتراً إلى الجنوب غير بعيد عن جبل طارق ومدينة مالقا وكانت في الأصل تلالاً تقابل جبال نيفادا أو الجبال الثلجية وقد أقام بنو الأحمر حصون الحمراء على قمة واحد من تلك الجبال.

غير أن أهمية غرناطة الحقيقية بدأت بعد سقوط قرطبة في يد الإسبان عام **١٢٣٦**م ويبدأ مجدها بمحمد بن نصر بن الأحمر الذي احتلَّ حصنها واعتصم به مع رجاله وأحكم أسوارها وبنى عليها أبراجاً حصينة عالية، وأنشأ مملكة ضمت كل الجنوب الإسباني وجنوبي الوادي الكبير.

(١) تسمية «غرناطة» مشتقة من مصدر روماني وهو Granate، ويقصد به «الرمانة»، وسميت بذلك لكونها ذات طبيعة جمالية عالية تحيط بها الحدائق والمروج وبساتين الرمان الكثيرة المنتشرة حولها، وقيل إنها سميت كذلك لأنها تشبه الرمانة المشقوقة بموقعها وانقسامها على التلين فتبدو منازلها الكثيفة وسط هذا المشهد كالرمانة المشقوقة.

وبعد زيارة مدينة إشبيلية الجميلة والتي مكثتُ فيها أربعة أيام غادرتها متجهاً حسب البرنامج المعدِّ لي من قبل مكتب السياحة إلى مدينة غرناطة فتذكرة القطار وموعده واسم المحطة وموقعها والفندق الذي سوف أنزل فيه كله معدٌّ سلفاً، وهذه ميزة التنظيم والتخطيط للرحلة ففيه اختصار للوقت والمال وفعلاً أقلّنا القطار عصراً وما هي إلا ساعات حتى وصلنا غرناطة ومنه استقلَّيت سيارة أجرة للفندق ولو كنت أعلم بأن الفندق في الشارع الخلفي للمحطة لذهبت إليه سيراً على الأقدام وغادرت النُّزل الذي سكنته لنحو أربعة أيام مشياً على الأقدام وكنت سعيداً؛ لأني بدأت أعرف شوارع وأسرار مدينة الأساطير غرناطة ذلك وما إن تمَّ إجراء تسلُّم الغرفة نصحني سائح مقيم قابلته في البهو بأن يكون اليوم الأول استطلاعياً، وفي اليوم التالي استطلاعياً ولكن بواسطة باص السيَّاح المسمى (saigtcing) وفي اليوم الثالث قصر الحمراء، أما اليوم الأخير فيكون استكمالاً لما تبقى من أماكن تستحق زيارتها، وكنت في اليوم التالي لوصولي ضمن فوج سياحي تجول بنا حافلة عبر شوارع غرناطة وتحديداً الجانب السياحي العتيق منها والذي يجذب السيَّاح من بقاع العالم، وأهم المناطق التي تمر بها هذه الحافلات: الكاتدرائية، وقصر الحمراء، وكرتوخا، وساحة الثيران، ومتحف لوركا، والمدينة الجامعية، وقصر المؤتمرات، وبعض الأماكن الأخرى، ويمكن الصعود إلى هذه الحافلة في الأماكن التي تتوقف فيها، وسعر التذكرة حوالي ١٣ يورو وهو مبلغ معقول مقارنة بالاستمتاع الذي ستحظى به طيلة أربع وعشرين ساعة؛ أي بإمكانك استئناف الرحلة اليوم التالي حتى تكتمل دورة الساعة للزمن الذي بدأت فيه(١).

اخترقت الحافلة السياحية شوارع غرناطة ومنها قلب المدينة عبر ميدان وساحة الملكين فردينارد وأيزابيلا الواسعة الجميلة التي ينتصب وسطها تمثال كبير للملكين على قاعدة (مسلّة) عالية وأمامهما (كرستوف كولومبس) جاثياً على ركبتيه يستأذنهما في السفر لاكتشاف العالم الجديد.

(١) وفي غرناطة كما في أغلب المدن الإسبانية والأوروبية وبلدان أخرى يتواجد فيها نظام الحافلات السياحية ذات طابقين يكون الطابق العلوي مكشوفاً ولكن لا توجد مثل هذه الخدمة في مدينة قرطبة وذلك لضيق شوارعها واستعاضوا بدلاً عنها عربات تجرها الخيول وحافلة سياحية تطوف عدة مناطق مهمة فيها، ويمكن الاختيار بين نوعين.

وعندما وقفت الحافلة في تلك الساحة لمن يريد أن يتمعَّن في اكتشاف تلك المنطقة فقد نزلت مع لفيف من السيَّاح باتجاه سوق قديمة وضمت حوانيت تشبه طبيعة الأسواق العربية وتخصصت في بيع الهدايا من تحف شرقية مثل السيوف والصحون التي عليها صور تمثل قصر الحمراء وآثار غرناطة وبطاقات معايدة (كروت) وملابس وأشياء كثيرة تجذب السيَّاح.

ومن تلك الأسواق الكلاسيكية حيث يكثر السيَّاح أخذتني أقدامي لبعض الأزقَّة القديمة المجاورة فرأيت حواري وأماكن توحي للزائر بأنه في مدينة عربية وهناك تسنَّى لي رؤية أهالي غرناطة الحقيقيين على طبيعتهم وسجيتهم أطفالاً يلعبون بملامحهم العربية ومارَّة من نساء ورجال ملامحهم شرقية أيضاً، فرغم بياض البشرة إلا أن العيون السوداء ولون الشعر يوحي أيضاً بجذور عربية وفي هذا السياق تذكرت فيما بعد عند مطالعتي لمقتطفات من كتاب لسان الدين ابن الخطيب (الإحاطة في تأريخ غرناطة) يصف أهل غرناطة: «وصورهم حسنة وأنوفهم معتدلة غير حادة، وشعورهم سود غير مُرسلة وقدودهم متوسطة معتدلة إلى القِصَر، وألوانهم زهر مشربة بحمرة، وألسنتهم فصيحة وأنسابهم عربية وفيهم من البربر والمهاجرة كثير..».

وغرناطة مدينة سياحية لوجود العديد من الأماكن التاريخية والسياحية والترفيهية وأبرزها المواقع العربية، ولولا وجود هذه الآثار لتقلص توافد السيَّاح إلى غرناطة بشكل كبير.

ويزور غرناطة الآلاف من السيَّاح، لكنهم لا يمكثون فيها كثيراً لحرارة الجو صيفاً، ذلك أن المدينة تقع في وادٍ محاطٍ بالهضاب والجبال.

إن سحر غرناطة هو الذي يفسر لنا السبب في أنها أكثر بلدان الدنيا اجتذاباً للسائحين بعد الفاتيكان فهي تستقبل أكثر من مليوني زائر سنوياً.

وقد أُغرم الأندلسيون بالحدائق وكانوا يسمونها الجنات ولا زال الإسبان في إقليم (أندلسيا) مغرمين بالحدائق إلى يومنا هذا فترى أجمل الحدائق العامة والخاصة وداخل أفنية دورهم، وترى على جدران ونوافذ منازلهم أجمل الزهور والورود التي تفوح بعبيقها شوارع وأزقَّة قرطبة وغرناطة وإشبيلية وماربلا ومالقا وغيرها من المدن الإسبانية.

جميلةٌ هي غرناطة التي تغنَّى بها شعراء عرب معاصرون ومستشرقون وكتَّاب من كل بقاع الدنيا! وقصر الحمراء فيها آية في الجمال فقد خاطبه شاعر فرنسا العظيم (فكتورهوجو) بقوله:

«أيتها الحمراء، أيها القصر الذي زينتك الملائكة.. كما شاء الخيال وجعلتك آية الانسجام.. أيتها القلعة المزخرفة بنقوش كالزهور والأغصان المائلة حينما تعكس أشعة القمر الفضية على جدرانك من خلال قناطرك العربية يسمع لك في الليل صوت يسحر الألباب..!»[(١)].

ويقول شاعر أندلسي آخر: «غرناطة ما لها مثيل»، بينما يقول المثل الإسباني: «كل شيء ممكن في غرناطة»، وبالفعل فإن غرناطة لها نكهة خاصة ليس فقط بين العرب والإسبان، بل بين الزوار الأجانب أيضاً.

وهي عند العرب تمثِّل قطبين متناقضين، الأول قمة المجد، والثاني الانهيار المطلق، إذ بقيت هذه المملكة تقاوم بعد سقوط جميع الممالك العربية في إسبانيا، حتى غدت المملكة العربية الوحيدة في أوروبا، إلى أن انهارت أمام حصار الجيوش الإسبانية والأوروبية عام ١٤٩٢م، وشكَّل سقوطها صدمة عنيفة للعرب والمسلمين، ولا يزال اسم غرناطة يشكل رمزاً تاريخياً وأدبياً مهماً لدى المفكرين العرب حتى اليوم. أما بالنسبة للإسبان، فإن سقوطها بيدهم يعني بداية بناء مجدهم وحضارتهم.

وتشمل غرناطة الحديثة (الحالية) على شوارع كبيرة وساحات واسعة، فيخترقها شارعها التجاري الرئيسي المسمى شارع الملكين، وينطلق من ساحتها الرئيسية وعدد من الشوارع التي تعجُّ بالسيَّاح طيلة أيام السنة ولاسيما منطقة باب الرملة وحي البيازين ذات البيوت الصغيرة والشوارع الضيقة وحي القيصرية القديمة بمتاجره ذات الطابع الشرقي وأزقّته التي تذكّر السائح العربي بشوارع دمشق والقاهرة وصنعاء وفاس وتونس.

وجامعة غرناطة العريقة تأسست قبل خمسة قرون تقريباً أي سنة ١٥٣١ بعد سقوط غرناطة بأربعين سنة واهتمت في البدء بدراسة اللاهوت والطب والقانون والفنون إلى أن أصبحت مع مرور الزمن جامعة متكاملة[(٢)].

وقد اهتمت الدولة الإسبانية مؤخراً بترميم بعض الحمامات القديمة التي تُعرف في المشرق

(١) ماجد ذيب غيما.. «يوميات أندلسية» الطبعة الأولى عمان عام ١٩٧٨.

(٢) دكتور يوسف شكري فرحات: «غرناطة في ظل بني الأحمر» دار الجيل بيروت الطبعة الأولى ١٩٩٤ ص١٧٤.

العربي بالحمامات التركية والتي توجد في بعض أطراف المدينة القديمة، وكذلك المتاحف القديمة التي تعكس الحضارة الإسلامية كمتحف الحمراء الذي يضم آثاراً وفنوناً عربية وبعض آثار العصر النصري (نسبة لبني نصر) نذكر منها على سبيل المثال لوحتين من الحرير على كلٍّ منهما شعار بني الأحمر «ولاغالب إلا الله» وصحن ونافورة كبيرة ولوحات خشبية من قصر الحمراء.. إلخ.

لقد تغير الكثير من معالم مدينة غرناطة في السنوات الأخيرة، لكنها لا تزال تحتفظ بمعالمها الرئيسية. وملامح الغرناطيين ليست بعيدة عن الملامح العربية، وهو ما يدل على أن الدم العربي ممتزج بدمائهم، كما أن عاداتهم وتقاليدهم أقرب إلى العادات العربية منها إلى الأوروبية. وفي غرناطة أيضاً جالية عربية كبيرة وهي في ازدياد مستمر، خاصة في السنوات الأخيرة، ويمارسون نشاطات عديدة ومتنوعة، ففيهم الطلاب وأصحاب المهن الحرة والأطباء والمدرسون والتجار والعمال، ولهم مساجدهم ومحلاتهم ومقاهيهم ومطاعمهم وفعالياتهم الخاصة بهم.

وتعتبر ساحة باب الرملة، التي لا تزال تحتفظ باسمها العربي Bibrambla، نقطة تاريخية لها دلالتها، وتقع وسط المدينة وقريبة من بلدية المدينة Ayuntamienta، ومن الكاتدرائية، وتحيط بهذه الساحة المحلات التجارية التي تخصص الكثير منها في بيع الهدايا التذكارية التي تمثِّل معالم غرناطة وفنونها، وفي هذه الساحة أيضاً تمَّ جمع الكتب العربية بعد سقوط غرناطة عام ١٤٩٢م وحرقها. وبقرب هذه الساحة تقع القيصرية التي تحتفظ باسمها العربي Alcaicerta، وهي مجموعة محلات تجارية على الطراز العربي، وكانت أيام الحكم العربي المركز الاقتصادي للمدينة.

وفي غرناطة عدة متاحف، منها متحف الحمراء في قصر الحمراء، أو حي (البيّازين العتيق)، ويقع في وسط المدينة، وهو الحي العربي القديم، وقد اعتبرته (اليونسكو) من ضمن المعالم التي يجب المحافظة عليها، وفي هذا الحي تقع عدة أماكن مهمة، وميدان باب البيرة Puerta de Alvira، وشهد هذا الحي ثورة العرب الكبرى عام ١٥٦٧ ضد الملك فيليب الثاني، مما أدى في النهاية إلى طردهم.

وتعدُّ منطقة «سكرمونتي والبيازين» من المناطق التي تزخر بالألوان والتاريخ والأشياء

الساحرة. والوسيلة الوحيدة للزيارة تكون عبر متاهة من الشوارع الضيقة المعطرة برائحة الأزهار، ويساعد ذلك على تأمل الحدائق الخلابة وتناول الشاي العطري مع حلوى عربية لذيذة.

و منطقة «سكرمونتي» المشهورة بالكهوف التي يقوم الغجر فيها بالاحتفال في كل ليلة بأغاني الفلامنكو، ويرقصون خلال تلك الاحتفالات. وهذا هو المكان الذي أقام فيه الغجر الذين جاءوا مع جنود الملوك الكاثوليك إبان غزو المدينة. ويقوم المهنيون بأعمال حدادة ومشغولات نحاسية، وهنا نشأت رقصة زامبرا التقليدية، بالإضافة إلى جميع الرقصات والأغاني المحلية. ويمكن للسائحين الاستمتاع بالفلامنكو[١] في مدينة غرناطة، وتعدُّ منطقتا ساكرومونتي والبيازين من أفضل الأماكن التي يمكن الاستماع فيها إلى الغناء الأندلسي أو تلك الألحان المرافقة لرقصة الفلامنكو.

وزائر غرناطة لأول مرة لابد أن يزور أهم معالمها وهو قصر الحمراء، إنه قصر لا يشبه القصور.. جزء من تاريخنا وحضارتنا وهويتنا.. يحرك مجموعة من الأحاسيس داخلنا كعرب أو مسلمين، ولأنه رائع ومبهر يفرحك أن تطل عليه من بعيد.. أو تتحسس زواياه بكل تفاصيل الزخارف الباذخة... ويحزنك أن تتجول داخل أروقته وحدائقه؛ لأنه لم يعد ضمن البلاد العربية وقصر الحمراء بعظمته وروعته وألَقِهِ الساحر، الذي يعتبر اليوم من أكثر الأماكن السياحية جذباً للزوار في إسبانيا، حيث يفوق عددهم المليونين سنوياً. إنه مكان يستحق الزيارة والقراءة عنه ووصفة أو مشاهدة صورة مع أنها بالطبع ليست كالعين المجردة.

ويعدُّ قصر «الحمراء» وحدائقه «جنة العريف» المَعْلَم الأبرز داخل غرناطة، ويصل إليها قرابة مليوني سائح كل عام، وأدرجت ضمن مواقع التراث العالمي بفضل الجمال الساحر

(١) فلامنكو (بالإسبانية Flamenco) هو نوع من الموسيقى الإسبانية، الذي يقوم على أساس الموسيقى والرقص. الجذور العربية للفلامنكو تظهر في طريقة الغناء من الحنجرة وفي جيتار الفلامنكو وتأثره بالعود، نشأت في أندلسيا في القرن الثامن عشر.
كلمة الفلامنكو، في إشارة إلى النوع الفني المعروف بهذا الاسم، يعود تاريخها إلى منتصف القرن التاسع عشر. ليس هناك يقين عن أصل تسميتها، والتي أثارت عدة فرضيات: وهناك احتمال أن يكون اسمها هو معنى الفلاح المنكوب.

وعظمته تكمن في أنه يجمع بين كونه قصراً وحصناً، وأنه أسمى تعبير لفن بني الأحمر في إسبانيا، وقصر الحمراء من أهم الأشياء التي تذكّر بالثقافة الإسلامية داخل أوروبا، إضافة إلى مسجد قرطبة.

زيارة قصر غرناطة «الحمراء»:

بعد نحو ساعة من انطلاق الحافلة السياحية من الساحة التي قبالة الفندق اتجهنا لقلب المدينة... تقريباً نفس خط الرحلة في اليوم السابق وبدأت أفهم بعض مفاصل ومعالم المدينة الأساسية، البعض يصعد وآخرون يترجّلون من تلك الحافلة فقلت للدليل السياحي بأني ذاهب لقصر الحمراء وفعلاً كان من وقت لآخر يقول: هنا شارع كذا وهذا ميدان كذا المؤدي إلى المنطقة المعينة وهذا المَعْلَم الفلاني الذي بني سنة كذا، وأخيراً أعلن الدليل والمرشد السياحي بأننا نتجه إلى قصر الحمراء في ضواحي غرناطة ويقع على هضبة أو تلة مرتفعة نسبياً وانتهى بنا الباص السياحي في باحة كبيرة مليئة بعشرات الحافلات الكبيرة منها ذات الطابقين التي أقلتنا وأخرى عادية، ورأيت السيَّاح زرافات ووحداناً متجهين صوب البوابة الرئيسية.. إنها مدخل قصر الحمراء.. وكان الوقت في الصباح الباكر نحو العاشرة تقريباً، وأوّل ما يتوجبُ عليك إن أردت الدخول إلى قصر الحمراء (الهَمْبرا Al hambra) كما يسميه الإسبان هو الوقوف ضمن أحد الطوابير المصطفة أمام شبابيك التذاكر، وخلال لحظات الانتظار اشتريت كتاباً مخصصاً يتحدث عن قصر الحمراء يباع عند شباك التذاكر وفيه معلومات وصور تفتح شهية الزائر وتُشبع فضوله ، فضلاً عن معلومات حية لدليلي وهناك الدليل الإلكتروني المرافق لكل سائح مثل التلفون الجوال والذي يُربط ويعلّق بخيط في عنق السائح المتجول في حدائق وأروقة القصر وكان لدي فكرة بسيطة ومعلومات لابأس بها عن تفاصيل هذا القصر الساحر والذي يتألف من ثلاثة مجمعات شبه مستقلة.

أكثر الشعارات التي تطالع الداخل إلى القصر والخارج منه هي «ولا غالِبَ إلا الله»، وهو شعار دولة بني الأحمر، آخر دولة للمسلمين في الأندلس. وقد كانت الشعارات تتغير بين تاريخ وآخر بحسب مَنْ يحكم المدينة ويسكن القصر. والشعار الذي اعتمده بنو الأحمر، آخر مَنْ سكن القصر، يختصر الحقيقة التي غفلوا هم أنفسهم عنها، فتسليم المدينة التي انتهى معها حكم المسلمين في الأندلس، كان بسبب النزاع على الحكم بين أفراد الأسرة الحاكمة (بني

الأحمر) حيث انتهى آخر الخلافات بين أبي عبد الله (محمد الصغير) وعَمِّه الملقب بـ «الزَّغَل ـ أي الشجاع»، إلى تآمر ابن الأخ مع الملك الإسباني فيرديناند الثاني ضِدّ عَمِّه، فنجح التحالف، وخسر المتنازعان بأن استولى فيرديناند وزوجته على المملكة لاحقاً لتثبيت حكمهما على كامل الأرض الإسبانية، بعد قرابة ثمانمئة عام من الحكم الإسلامي لها.

وهذا جناح قمارش الذي يضم بهو السفراء وهو أعظمها جمالاً وأما هذا البهو يقع في فناء ساحة الريحان وتتوسطه بركة من الماء تظللها أشجار الريحان. وهذا جناح الأسود الذي يتوسطه سبعة أسود وأخذتُ عدداً من الصور في كل تلك الزوايا الجميلة... حقاً لقد كان عرب الأندلس عالين كالشمس كما وصفهم الشاعر أحمد شوقي:

عالين كالشمس في أطراف دولتهم — في كل ناحية ملك وسلطانُ

فالقسم الأول كان مخصصاً لأعمال إدارية، والقسم الثاني كان مقر السلطان، أما القسم الثالث فهو مخصص لعائلة الملك وحريم القصر.

قاعة السفراء: وهنا أشارتْ المرشدة إلى فخامة القاعة وأهميتها قائلة بأنَّ هوليود اختارت هذه القاعة لتمثل بها لقطات من فيلم (لورنس العرب) الشهير وأضافت أنّ الدول العربية حينها لم تسمح بأن يمثلوا تلك الأدوار من فيلم (لورانس) في قصورهم الأثرية احتجاجاً على تحريف الحوادث التاريخية المشرّفة في الحرب العالمية الأولى والتي عبَّر فيها العرب عن غضبهم على الاستعمار والاستغلال العثماني لثورتهم العربية والتي أعطى الإنكليز وحلفاؤهم الوعود لإعادة حقوقهم المغتصبة وتوحيد بلادهم ذات الحدود الوهمية. وكان لورنس ـ كما هو معلوم ـ وسيطاً بين العرب الثائرين وبين الحلفاء الطامعين..[(١)].

وهذه قاعة السفراء المعروفة sala dell Ambaciadore حيث تقرر فيها مساعدة (كرستوف كولومبس)[(٢)] للقيام برحلته التأريخية وهي قاعة ـ كما عرف عنها ـ مزركشة بالنقوش والفسيفساء ورسوم دقيقة لنجوم وأزهار ومزينة بالخطوط العربية الكوفي وغير الكوفي سواء كانت آيات أو أشعاراً أو غير ذلك.

(١) ناجي جواد.مرجع سابق ص ٨٨.

(٢) مصطفى فروخ «رحلة إلى بلاد المجد المفقود» دار المفيد ١٩٨٢.

أما ساحة الرياحين وقاعة السفراء فيعتبران من أكبر وأفخم القاعات وكانت القاعة التي يستقبل فيها ملوك بني الأحمر سفراء الإفرنج (فرنسا حالياً) دخلنا القاعة مع الفوج السياحي ونحن في حالة ذهول فقد أبهرتنا زخارفها ونقوشها الذهبية وتلك النقشات مزينة بأبيات من الشعر حاولت قراءتها بصعوبة لتداخل الحروف مع بعضها ومع تلك الزخارف المبهرة.

وتعلو قاعة السفراء قبة خشبية ونقوش مذهَّبة يحار العقل في جمالها ودقة عملها وأعجوبة فنها، وتعتبر تلك القاعة من عجائب الحمراء بل أكثرها إثارةً للزائر حيث تتوسطها بركة مستطيلة الشكل وأحواض تحفُّ بجوانبها أشجار الريحان، وقد بنى هذه الساحة محمد الخامس وقد نقشت في زوايا ساحة الرياحين هذه العبارة: «النصر والتمكين والفتح المبين لمولانا أبي عبد الله أمير المؤمنين»، ونقشت أيضاً الآية الكريمة: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾، ونقشت على الإفريز الرخامي الأوسط للساحة قصيدة شعرية من إثني عشر بيتاً.

تركنا قاعة السفراء إلى بهو السّباع الذي كثُر الحديث عنه، فما من زائر في الماضي أو الحاضر إلا وقد خصّ هذا البهو بالكلام الكثير..

فالواقع أنه أعظم وأهم ما يلفت نظر الزائر هو باحة الأسود التي تتوسط جملة أقسام رئيسية ويعتبر أكثر أمكنة قصر الحمراء اتساعاً فقد شرحت لنا المرشدة السياحية بأن طوله ١٠٠ متر وعرضه ٥٠ متراً، وحين تسير بين أروقته التي أقيمت على مئة عمود مرمريٍّ تقف مبهوراً بتناسقها الجميل، وبعقودها ذات الزخارف البديعة، ولعل أجمل مافي البهو النافورة التي يحملها اثنا عشر أسداً من المرمر الأبيض[(١)] يقذف كل أسد المياه من أنبوب في فمه. وقد نُحت على كل أسد كتابات من أشعار «ابن زمرك» وهو آخر علم من أعلام الشعر في الأندلس حيث تراجعت دولتهم تدريجياً حتى تسليم غرناطة من قبل آخر ملوك غرناطة أبي عبد الله الصغير.

ويعتبر بهو الأسود الجزء الأكثر شهرة داخل قصر الحمراء، وفي التصميم صورة رمزية

---

(١) وقد قرأت بعد زيارتي للحمراء بنحو سنتين بأن السلطات الإسبانية قد نقلت الأسود من مكانها لبضع شهور كي يتم ترميمها وأعادوها لمكانها لذا فالزائرون في تلك الفترة حرموا من مشاهدة الأسود الاثني عشر وهي تقذف الماء الرقراق من أفواهها!

للجنة، فالبهو مثل واحة من الصخر تتدفق المياه داخلها، وترمز أعمدة أقواس الدعم التي يبلغ عددها ١٢٤ إلى أشجار النخيل.

تتكرر أينما ذهبت أشهر عبارة في قصر الحمراء وهي: «ولا غالب إلا الله» بخط النسخ والكوفي، وتطالعنا أيضاً في قاعة بني السراج أبيات من قصيدة لابن زمرك، بعض المستشرقين والمؤرخين وصفوا القصر بأنه صورة رمزية للجنة، ورغم أنه كان لدي دليل إلكتروني يشرح لي زوايا القصر فكل مَعْلَم له رقم فعندما أضغط على رقم معين يشرح لي بالتفصيل عن ذلك المكان ورغم ذلك كنت أسمع مرشداً يشرح لفوج آخر من السيَّاح يبدو أنهم خليط من الأوروبيين وشمال إفريقيا يشرح بزهو عن كل ما تقع عليه أعيننا بأدق التفاصيل سواء في الأجنحة داخل القصر أو في الفناء الذي يتوسط القصر لاسيما قاعة الأسود ونافورتها العتيقة، ولا يدع لك مجالاً للخيال فهو ينتقل من زاوية لأخرى ويشرح بإسهاب ويجيب عن أسئلة السائحين المتعطشين للمعرفة كان يبدو الدليل ملمّاً بعمله ولغته الإنجليزية كانت واضحة بحيث يسهل فهم أكثر مايقوله.

وتعدُّ المياه العنصر الأساسي في الفن المعماري وفي ديكور هذا المكان، ويمكن الاستمتاع بها داخل بهو السباع الشهير أو في قاعة الملوك أو بهو السفراء ومع ذلك، فإن هذه القصور ما كان لها أن تكون تامة من دون أكثر الحدائق جمالاً في غرناطة، ومن غير مقرِّ الإقامة الصيفي «جنة العارف» والطريق الأمثل لزيارة هذا الجزء هو المشي في صمت واستنشاق عطور المئات من الأزهار.

إن الحمراء صورة معبرة عن حضارة عربية ازدهرت في غرناطة وامتدت جذورها لأكثر من خمسة قرون في الأراضي الإسبانية وكان لها أثر هام، وما تزال، في حياة البلاد.

يمكن اختصاراً تعريف مدينة غرناطة (١) بأنها وليدة الثقافة والحضارة العربية في إسبانيا،

(١) غرناطة هي عاصمة مقاطعة غرناطة في منطقة الأندلس ذات الحكم الذاتي جنوب إسبانيا، وتقع بمحاذاة جبال سييرا نيفادا، عند نقطة التقاء نهري هَدَّرُه وسَنْجَل، وعلى ارتفاع ٧٣٨ متراً فوق سطح البحر ويبلغ عدد سكانها حوالي ٢٤١٠٠٠ نسمة، يعمل معظمهم في قطاع الزراعة والسياحة. وقد أسست على موضع مدينة رومانية اسمها «أليبيري»، واسم غرناطة يحمل معنى «رمانة» وهي فعلاً فاكهة كل المواسم، فهي مدينة تاريخية سياحية ترفيهية، يزورها الآلاف من السياح.

فمن هضبة الحمراء يشرف الزائر على جبال سييرا نيفادا المغطاة بثلوج شبه دائمة (١). وقصر الحمراء أهم معالمها، وكان بلاطاً لملوك العرب. شُيِّد في البداية ليكون بمثابة قلعة، ولكن الأحمر أول ملوك أسرة بني نصر قرر في عام ١٢٣٨ ميلادية نقل بلاطه من الحي الإسلامي (البيازين) إلى الهضبة المجاورة، ثم اتسع نطاق المدينة، وزاد عدد سكانها وصارت عاصمة لمملكة هامة، كانت آخر الممالك الإسلامية في إسبانيا، وقد حاول خلفاء بني الأحمر متابعة أعمال توسيع المدينة، وقاموا بإجراء عدة تغيرات وإنشاء مبانٍ تمَّ معظمها في عهد أبي الحجاج يوسف الأول وابنه محمد الخامس، قام الأول بإصلاحات في القصبة والقصور وأضاف سوراً جديداً إلى السور القائم وجعل فيه مدخل بوابة العدل، كما أمر بتوسيع وزخرفة أبراجه التي يزيد عددها عن الثلاثين وبعضها كان قصوراً صغيرة مثل: قصر الأميرات وقصر الأسيرة وغيرها. وقام بتجميل وتوسيع الحمامات وقصر قمارش الذي أكمله محمد الخامس بعد سلفه يوسف الأول، الذي شَيَّد به مدخلاً فخماً إلى جانب تزيين بهوه وقاعة البركة، وأخيراً أنشأ بهو الأسود وجميع ملحقاته.

إن موقع هذا الصرح الشامخ (قصر الحمراء) وما يحيط به من مناظر رائعة من كل جانب، يجعل منه إحدى عجائب العالم، فأبراجه وأسواره وقصوره تنهض فوق الأرض على اختلاف مستوياتها، شرقية عربية الملامح والجذور، في أشكالها وطرق تصميمها والأغراض المخصصة لكل عنصر من عناصرها.

وضمن مجمع قصور الحمراء يلاحظ الزائر وجود قصر آخر مختلف تماماً عن قصور الحمراء وهو قصر ضخم أنشأه الملك كارلوس الخامس عام ١٥٢٧ على شكل مربع وفي داخله ساحة دائرية، حيث أراد الملك بهذا العمل البرهنة على قدرته على بناء قصر أجمل من قصر الحمراء، حتى أنه هدم جزءاً من القصر العربي، إلا أن قصره لم يتفوق على الحمراء، على الرغم من عظمته وأبهته، ويشهد كل من يزور القصرين على أن الحمراء أكثر رقياً وجمالاً وفناً من قصر الملك كارلوس الخامس المجاور له.

(١) جبال سييرا نيفادا: على بعد حوالي ٣٠ كيلومتراً من المدينة تقع جبال سييرا نيفادا المكسوة بالثلوج ويؤمها الآلاف للتزلج والتمتع بمناظرها. ويمكن الوصول إليها بحافلات خاصة تنطلق إليها ثلاث مرات يومياً.

الأهمية التاريخية لمدينة غرناطة:

بعد أن سقطت إشبيلية علي أيدي الملوك الإسبان في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي بقيت مملكة غرناطة[١] معقلاً وحيداً وأخيراً للعرب في الأندلس، فقد سقطت أغلب مدن العرب المسلمين في الأندلس وبقيت مملكة غرناطة مطمعاً أخيراً للملوك الإسبان ولم يكن أحد يتوقع أن تصمد وحدها أمام أطماع الإسبان قرابة قرنين من الزمن ولكن موقعها الجبلي الوعر وصلابة أهلها جعلها منيعة على الأعداء وقد سقطت أخيراً على أيدي فرناردو وإيزبيلا في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي عندما زال الحكم العربي الإسلامي نهائياً من بلاد الأندلس[٢].

وسوف نجد مدرستين في البناء: الأولى تقترب من أسلوب مدارس فاس والمساجد في تلمسان، أما المدرسة الأخرى فليست عربية إنما استُعين فيها بفنانين غير عرب (أعاجم) إلا أنهما في النهاية تنسجمان مع العمارة الإسلامية، كما هو موجود في فناء البركة مع الرواقين، وترتيب الحمام وقاعة السفراء التي تظهر تنوعًا واسعًا يشرف على الوادي، وكذلك الفناء الشهير الذي تقع فيه بركة الأسود الرخامية الاثني عشر، والذي عرف بهذا الاسم. وثمة جناحان محمولان على أعمدة رشيقة، يبرزان أمام أروقة تمتد على طول الضلعين الصغيرين لساحة القصر.

من يشاهد أفواج السيَّاح من كل بقاع العالم تتدفق على تلك المعالم السياحية الخالدة في غرناطة أو قرطبة وغيرهما من المدن الإسبانية يلمس عظمة تلك الحضارة، وهذا يعكس مدى اهتمام الحكومات المتعاقبة في إسبانيا المعاصرة بالمحافظة على تلك الآثار وتجعلها مزاراً للملايين للوقوف أمام أعرق الحضارات في أوروبا. وأشارت دراسة[٣] إلى أن قصر الحمراء أحد المصادر الاقتصادية المهمة لمدينة غرناطة، حيث يزوره سنوياً مليونا زائر من مختلف أنحاء العالم، فيساهمون بذلك في دفع الحركة الاقتصادية في المدينة.

(١) لقد شهد عام ١٤٩٢ حدثين هامين للعالم أولهما: اكتشاف كولومبس للعالم الجديد، والثاني هو سقوط غرناطة.

(٢) دكتور يوسف شكري فرحات: «غرناطة في ظل بني الأحمر» دار الجيل بيروت الطبعة الأولى ١٩٩٤ ص١٨٨.

(٣) دراسة موجزة عن السياحة في الأندلس بعنوان «قصور الحمراء.. أعجوبة الأندلس» نشرت في صفحات الإنترنت في موقع محيط الشهير www.moheet.com في منتصف شهر يناير من العام ٢٠٠٨.

وحسب الدراسة فإن ٧٥٪ من الذين يسافرون إلى مدينة غرناطة يكون هدفهم الرئيسي هو زيارة قصر الحمراء، وإن كل واحد من هؤلاء يقضي في غرناطة ما معدله ثلاثة أيام، ويصرف حوالي ٧٠ يورو يومياً على أقل تقدير.

والقصر يعدُّ من أهم المعالم السياحية، ويعود الاهتمام بالهضبة التي يقع عليها قصر الحمراء إلى القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، لكن البناء الفعلي لقصر الحمراء بدأ عندما تسلم السلطة محمد بن الأحمر عام ٦٣٥هـ/ ١٢٣٨م، ثم أخذ كل واحد من الملوك الذين جاءوا بعده بمواصلة البناء أو إضافة أجنحة أخرى للقصر، حتى أصبح تحفة فنية رائعة وهو يمثل اليوم قمة ما وصل إليه الفن العربي في إسبانيا.

وعلى مقربة من قصر الحمراء يقع قصر آخر يسمى (جنة العريف)[(١)] والذي كان بمثابة استراحة خاصة لملوك تلك العصور باعتبار أن قصر الحمراء ذو صبغة رسمية.

وبعد تسليم غرناطة بعد حصار امتدّ لسبعة أشهر حتى كاد الناس أن يأكل بعضهم بعضاً مما آل في نهاية المطاف أن يسلم أميرها أبو عبد الله الصغير لتسليم مفتاح المدينة للملك فردينارد وزوجته إيزابيلا بشروط كانت سبعة وستين شرطاً ولكن للأسف لم يكن للنصارى عهدٌ فقد نقضوا معظمها عندما تم ترحيل الكثير من المسلمين وأجبر البعض للارتداد عن دينهم والبعض اضطروا لإخفاء دينهم لقرون حتى بداية القرن العشرين عندما تغير الدستور في عهد (فرانكو) وسمح بالأديان فخرجوا عن التواري وأظهروا إسلامهم للعلن وكان للمسلم اسم في البيت مثل محمد وأحمد أو عبد الله وفي الشارع له اسم آخر مثل ماركوس أو الخندرو وجوزيف وغير ذلك من الأسماء النصرانية!

(١) يقع قصر جنة العريف على بعد نحو ألف متر من أطراف قصر الحمراء وهو مجموعة من الأبنية والحدائق فوق تلة تدعى تلة السبيكة شمالي الحمراء في ركن منعزل هادئ والطريق المؤدية إليه صاعدة وعلى جوانبها أشجار السرو وغيرها وقد جعل سلاطين بني الأحمر «جنة العريف» بعيدة نسبياً عن قصر الحمراء في ذلك المكان الهادئ كي يخلدوا إلى الراحة بعيداً عن هموم الحكم، ومعروفة باسم Generalife وهي حدائق ملوك غرناطة ومصيفهم وهي ملحقة بقصر الحمراء وفيها قصر وبركة ماء ونقشت على الجدران كتابات عربية.

ولو وصفنا الحمراء بكل صفات البذاخة والثراء والجمال والرونق، لأسميناها حسب أهوائنا بدار المفاجآت، ثم ألَّفنا فيها الكتب المتعمقة والمدائح الطويلة والأشعار البليغة، ولَمَا خطر ببال من زارها وتنقل في أجنحتها وشاهد روائعها، أن يتهمنا بالمبالغة والإسراف؛ لأن الحمراء لا توصف ولا تمدح، بل تشاهد فقط، وأي ذاكرة تقدر على تسجيل واستحضار آلاف الصور والمشاهد الماثلة في كل مدخل ونافذة وزاوية»[(١)].

عدت مع الفوج للفندق بأحاسيس متداخلة ويطارحني الزهو تارة والانكِسار تارةً أخرى. . شعور ينتاب أيَّ زائر لمِثل تلك الأماكن ولاسيما من البلدان العربية والإسلامية عندما يشعر وكأن قطعة من الجغرافيا والتأريخ قد انتزعها الزمن في غفلة!

زيارتي لمالقا وماربلا على شواطئ المتوسط:

تقع على الشاطئ الجنوبي الشرقي في إسبانيا المعروف باسم ساحل الشمس (كوستا دي صول) بالإسبانية عروستان من عرائس الاصطياف هما مالقا والمرية (ماربلا) ولأنها في الجنوب فشواطئها تعجُّ في الصيف والشتاء بمئات الآلاف من السيَّاح الذي يَنْشدون الدفء والرمال الناعمة والشواطئ النظيفة الزرقاء؛ لأن شواطئ جنوب المتوسط صيفاً من أجمل الشواطئ على مستوى العالم وحوض المتوسط على وجه الخصوص!

كانت مالقة المدينة السادسة في إسبانيا التي أتيح لي زيارتها في تلك الرحلة ضمن مدن الأندلس ومنها انطلقت لمدينة ماربيا التي لاتبعد عنها سوى ساعة بالحافلة السياحية وكلا المدينتين تزخر بنشاط سياحي متزايد، والفرق بين مالقا وماربيلا أن الأخيرة أكثر هدوءاً، وأصغر حجماً، وشواطئها غاية في الصفاء ورمالها ناعمة وتشتهر بملاعب الغولف ويؤمُّها مئات الآلاف من السيَّاح من داخل إسبانيا وأوروبا والبلاد العربية وتعتبر مقصد الأثرياء العرب من بلدان الخليج ولهم فيها قصور ويخُوت ترسو في مراسٍ خاصة.

وصلتُ مالقا الساحلية ظهراً وقد انبهرت باتساع المدينة التي تشبه في انبساطها مدينة إشبيلية رغم أن الأخيرة يزينها نهر الوادي الكبير الذي يشطرها نصفين ويضفي عليها جمالاً وروعة.

(١) د. عبد العزيز الدولاتي ـ مسجد قرطبة وقصر الحمراء وهو كاتب من المغرب العربي وقد قدم كتاب الأستاذ أحمد السماوي المعنون باسم «الأندلس الفردوس المفقود».

ومالقا جميلة بشاطئها الطويل وحدائقها التي تطلُّ على المتوسط وبحيويتها مع الأعداد المتزايدة من السيَّاح على كافة مستوياتهم المالية بعكس ماربلا التي عرفت بغلائها غير المبرر باعتبارها مصيف صفوة السيَّاح من كل بقاع الدنيا!

ويعتبر المؤرخون مالقا إحدى قواعد الأندلس وبلادها الحسان فهي جامعة بين مرافق البحر والبر، كثيرة الخيرات والفواكه، ونذكر بأن الرحَّالة الشهير ابن بطوطة قد وصفها[(١)] بالأرض المبروكة حينما قال: رأيت فيها العنب يباع في أسواقها ثمانية أرطال بدرهم صغير! ورمَّانها الياقوتي لا نظير له في الدنيا. وأما التين واللوز فيُجلبان منها ومن أحوازها إلى بلاد المشرق والمغرب[(٢)].

وسكنت في فندق يدعى (كبانا) وهي كلمة إسبانية تذكرت الشاطئ الشهير في البرازيل الذي يدعى (كوبا كبانا) لهذا لم أنسَ هذا الاسم وكان الفندق الذي قطنته رغم بساطته له شاطئ خاص في الخلف ومن الواجهة يقع على شارع رئيسي تكسوه أشجارٌ من برتقال وزيتون وزهور، وكان يقف باص عمومي كل خمس دقائق لنقل الركاب إلى قلب المدينة بسعر زهيد لا يتجاوز اليورو، وقلب المدينة ينبض بالحياة ولكن الجمال والاسترخاء كان على شاطئ فندق كبانا، وفي المساء تقام حفلات ورقصات وغناء طوال الليل وتُقدّم وجبات السمك الشهي في مقلاة فخارية وهي من تقاليد وطقوس وجبات السمك في بعض الأقاليم الإسبانية أو أنها أُخذت من مستعمراتها من دول أمريكا اللاتينية الناطقة بالإسبانية.

أثناء إقامتي بذلك الفندق الجميل تعرفت على مقيم مغربي وهو لاشك واحدٌ من عشرات

---

(١) محمد بن عبد الله بن محمد الطنجي عرف بابن بطوطة (لد في ٢٤ فبراير ١٣٠٤ ـ ١٣٧٧م بطنجة) ٧٠٣ ـ ٧٧٩هـ (هو رحالة ومؤرخ وقاض وفقيه عربي مغربي لقب بأمير الرحالين المسلمين. وقرر عام ١٣٢٥ وخرج من طنجة سنة ٧٢٥ ه فطاف بلاد المغرب ومصر والسودان والشام والحجاز والعراق وفارس واليمن وعمان والبحرين وتركستان وما وراء النهر وبعض الهند والصين الجاوة وبلاد التتار وأواسط أفريقيا. واتصل بكثير من الملوك والأمراء فمدحهم ـ وكان ينظم الشعر ـ واستعان بهباتهم على أسفاره. عاد إلى المغرب الأقصى) ومات في طنجة وقد زرت قبره. رغم أنني لا أرجح أنه قبر ابن بطوطة وإنما هو لأحد الأولياء في المغرب.

(٢) سامي الكيالي «الربوع الاندلسية» مكتبة الشرق حلب عام ١٩٦٣ ص٩٥.

الآلاف من المغاربة الذين قذفت بهم السواحل الجنوبية للمتوسط للأندلس مجدداً وكان يدير محلاً صغيراً للإنترنت والتلفون الدولي في محل ملاصق لفندق (كبانه) في مدينة مالقا الساحلية الجميلة ،ولازلت أذكر اسمه عبد الحفيظ؛ لأنه قال بأنه سُمي تيمناً باسم مولانا عبد الحفيظ جد الملك الراحل الحسن الثاني، وعندما تطرقنا لمواضيع تاريخية تتعلق بوجود الجاليات الإسلامية ولاسيما المغاربة عرفت منه قصة شخصية غريبة عكست حكايات أعداد كبيرة من أبناء شمال إفريقيا . . .فتتلخص قصته بأنه من أحفاد المغرب الموركسيين الذين كانوا قد طُردوا من الأندلس بعد فترة من سقوطها، الذين رحلوا كرهاً في أوج النقمة المسيحية على الموركسيين فهو في الأصل كان أجداده من الأندلسيين الموركسيين[(١)] و هم مسلمون عرب أتوا أيضاً من عرب وبربر منطقة المغرب العربي ومن أصول عربية أخرى في بلدان المشرق. . فكأنه يقول: خلاصة تأريخ عائلتي أتينا من شمال المغرب لجنوب إسبانيا ورحلنا كموركسيين إلى المغرب ثانية وعدنا مهاجرين مرة أخرى، فيا لسخرية القدر!!!

ومؤخراً وفي متابعات لهذا الموضوع علمت بأن إسبانيا قد فتحت ملف الموريسكيين في ٢٠٠٩ والمتزامن ذكرى مرور ٤٠٠ عام على طردهم من الأندلس، لم يكونوا مستعمرين جاؤوا من الخارج بل إسبان اعتنقوا الإسلام وطُردوا من بلادهم، يقدَّر عددهم في المغرب بحوالي ٤ ملايين نسمة من أصل ٣٥ مليوناً (إحصاء ٢٠٠٧)، يعيش حالياً معظمهم في شمال المغرب، بل إن بعضهم ما زال يسكن في قرى بمحاذاة السواحل المطلّة على مضيق جبل طارق، حيث يمكن مشاهدة السواحل الإسبانية من الضفة المغربية.

بعد أربعة قرون على قضية طرد المسلمين الموريسكيين من الأندلس في القرن السابع عشر، تحرك البرلمان الإسباني لكي يعيد فتح أبرز صفحات التاريخ الأسود لإسبانيا التي لا

(١) وما لا يعرفه كثيرون أن عدداً كبيراً من المدن الإسبانية تحتفل سنوياً برحيل الموركسيين (أي المسلمين المغاربة) عن إسبانيا. ومدينة غرناطة تحديداً تقيم ذلك الحفل المعروف باسم «استعادة غرناطة»، في يناير من كل عام، وهو تاريخ تسليم المدينة للإسبان. وهي مناسبة يحضرها السياح، يُستعرض فيها انتصار المسيحيين الإسبان على الموركسيين، الذين يتلقون شتائم المشاركين في الاحتفال ولعناتهم. كما أنها تحتفي بمحاكم التفتيش وبالملك فيرديناند وزوجته إيزابيل باعتبارهما قديسين حاربا لأجل الكنيسة.

زالت أشباحها تطارد الذاكرة الإسبانية حتى اليوم، فقد وضع الفريق الاشتراكي أمام لجنة الخارجية في البرلمان مشروع قانون ينص على رد الاعتبار لأحفاد الموريسكيين الذين طُردوا بشكل جماعي في أبشع المشاهد التي يندى لها جبين الإنسانية.

ونعود لشواطئ مالقا الساحرة هذه المدينة البحرية التي أسسها الفينيقيون وعُرفت باسم (المالكة) أو (الملكة) كما تقول كتب التاريخ، وقد استوطنها التجار الفينيقيون ووصفوها بأنها «ضوء الليل» وذلك لانعكاس ضوئه على شاطئها المطل على البحر الأبيض المتوسط ليلاً، وقد اكتشفت عدة عملات فينقية نقش عليها تصوير ضوء القمر..

وتاريخياً فتحها المسلمون عندما دخلتها الجيوش العربية بقيادة موسى بن نصير وتقول إحدى الروايات العربية: إن اسم (مالقه) جاء من (مالحة) لشهرة سكانها بصيد وتمليح الأسماك واستخراج الملح..

وعلى الرغم من أهمية مالقا التاريخية، فإن شهرة سواحلها ومنتجعاتها السياحية قد سلبت تلك الشهرة وأخذتها مدنها الصغيرة مثل توري مولينوس وفوينخيرولا.. وأخيراً عروس ساحل الشمس (ماربيلا).

ماربيلا وشاطئ الشمس:

بعد نحو ثلاثة أيام من إقامتي في مالقا الجميلة وقبل السفر بيومين عزمت على القيام بزيارة لمدينة ماربيلا الساحلية أيضاً وتعتبر أجمل بكثير من جارتها مالقا ولكنها أغلى ولذا فلم أبتْ فيها سوى ليلة واحدة، ولكني قضيت نحو يومين أتجول في ساحلها الرائع بقطار صغير مثل ألعاب الأطفال مكوّن من عربات تتسع كل عربة لشخصين ربما صنع خصيصاً للتجول في شوارع وشواطئ ماربيلا؛ لأنه مهما كان صغر المدينة إلا أن التجوال فيها يكون بمشقة ولابد من استخدام هذه الوسيلة الغريبة.

وقد اشتهر الساحل الأندلسي الجنوبي باسم (شاطئ الشمس) وهو ترجمة لما يعرف عالمياً، وبالإسبانية (La Costa De Sol) لكون الشمس لا تغيب عنه طوال السنة سوى مدة ٤٠ يوماً، أي أن ٣٢٥ يوماً تقريباً، تكون شمس الأندلس ساطعة و«حنونة» وبوجه خاص في هذه المدينة الصغيرة البيضاء (ماربلا)، إن مناخ البحر الأبيض المتوسط المعتدل يساهم مع

سلسلة جبال سييرا بلانكا التي تحجب رطوبة البحر، في جعل مدينة ماربيا في بقعتها الخضراء تعيش ربيعاً دائماً، وليصبح ساحل الشمس الفردوسي السياحي الذي يؤمُّه آلاف الزائرين ليتنعموا بهذا التراث الطبيعي الخارق.

ورد اسم ماربيلا في كتب أدب الرحلات وغيرها ولكن باسم مشابه غير الذي نعرفه اليوم فقد ذكرت في كتب «الشريف الإدريسي والرحَّالة الشهير ابن بطوطة» أيضاً بـ (مربله)![١] أما في كتب القرون الوسطى باللغتين العربية واللاتينية فقد ذكرت بـ (مارفيليا) أي البحر الجميل[٢]... وهو فعلاً بحر جميل وأرض خضراء وتلال مكسوة بخضرة رائعة تذهل الألباب وقد يشاهد المرء شواطئ ومدناً تشبه ماربلا على سواحل المتوسط وغيره ولكن الشيء الملاحظ لمن يزورها بأن درجة الحرارة في شواطئ ماربيلا معتدلة في فصول السنة الأربعة لاسيما فصل الصيف لخلوه من الرطوبة وتميزه بنسائم منعشة تهب عليها من شواطئ البحر المتوسط، وجمالها يكمن في قلة سكانها الذين لا يزيدون عن مئة وثلاثين ألفاً ولكن يتضاعف سكانها في الصيف لما يقارب المليون أي أكثر من ستة أضعاف السكان!

واشتهرت (ماربيلا) بملاعب الغولف وطيب الماء من آبارها الجوفية ولذة الفواكه والطعام فيها ولاسيما أطباق الأسماك الطازجة.

الجزء القديم من مدينة مالقا يضم ثلاثة أبواب من العصر الأندلسي[٣] الأول يدعى باب مالقا، وهو في جهة الشرق باتجاه مدينة مالقا، والآخر غرباً باتجاه (رندة) وهي مدينة (أبو البقاء الرندي) شاعر الأندلس المعروف الذي كتب بكائية سقوط الأندلس، أما الباب الثالث فهو باب البحر وهو باتجاه الجنوب أي شاطئ المتوسط.

---

(١) في كتابة الشهير «تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» يقول: «إن مار بله مدينة تفيض بالأغذية المتنوعة لكثرة مزارعها ومواشيها ولقد استفاد المسلمون من تربتها الخصبة وأنهارها وسواقيها وجودة مناخها ونقلوا إليها أشجاراً مثمرة كالتين والرمان والزيتون والبرتقال والنخيل والتوت لتربية دود القز واستخراج الحرير منه...».

(٢) مجلة العربي العد ٣٥٣ أبريل ١٩٨٨.

(٣) «إسبانيا أصداء وأصوات عربية» سلمى الحفار الكزبري وآخرون من سلسلة كتاب العربي العدد الخامس والثلاثون الصادر في ١٥ يناير عام ١٩٩٩.

يأتي إليها السيَّاح من سائر أنحاء إسبانيا وأوربا وعدد من بلدان العالم طلباً للاستجمام والاستمتاع بهذا الشاطئ الجميل الذي يمتد من مدينة مالقا حتى مدينة الجزيرة الخضراء ولا يمثل السيَّاح العرب وأغلبهم من أثرياء بلدان الخليج العربي سوى ٥٪ من زوارها. . . ورغم ذلك لهم بصماتهم في الاستثمارات الضخمة التي تدفقت على المنطقة منذ مطلع الثمانينيات من القرن الماضي.

اليمنيون في الأندلس:

بعد انتصارات وفتوحات العرب المسلمين لشمال إفريقيا اتجهت الجيوش من عرب المشرق والمغرب العربي والذين كانت غالبيتهم من القبائل المغربية والبربر وفيهم أعداد لا بأس بها من عرب المشرق، وفي القرن الأول الهجري كان جلُّ جيوش عرب المشرق من اليمن ـ حسب ماتذكره المصادر التاريخية ـ وكانوا جنوداً وقادة من القبائل العربية اليمنية[(١)] والمعروف تاريخياً حينما دخلت جيوش طارق بن زياد في العام ٩٢ هجرية بأمر موسى بن نصير كان قد سبقها بعام واحد الحملة العسكرية الاستطلاعية تمهيداً للفتح التي كان على رأسها قائد يماني متميز ينتمي إلى قبيلة المعافر[(٢)] وهو طريف بن مالك اليعفري ، وكان منهم جنود وقادة من قبائل كهلان وأزد ويحصب وخولان اليمنية أبو السمح الخولاني وغيرهم.

ومن هؤلاء القادة المشهود لهم عبد الملك بن أبي عامر اليعفري ومغيث الغساني وعلقمة اللخمي[(٣)]. وكما شارك اليمنيون في أيام الفتح الأولى ساهموا أيضاً في صنع الاستقرار وإدارة ممالك الأندلس المتعاقبة وكان بينهم ولاة مناطق وحكام وغير ذلك.

ويضيف الكاتب اليمني محمد العروسي[(٤)] في دِراسة مُختَصرة بأن القائد (السمح بن

(١) عبد الرب الصنوي «اليمنيون في الأندلس» إصدار وزارة الثقافة اليمنية عام ٢٠٠٤ الطبعة الأولى ص٢٥.

(٢) نفس المصدر السابق ص ٤٠.

(٣) حسين مؤنس. «فجر الإسلام» ص ٦٨.

(٤) كاتب يمني مبدع درس الواقع الأندلسي والمغاربي عن قرب حيث تنقل بين مدن فرنسا كونه كان طالباً هناك وقام بمعاشرة طلاب من بلاد المغرب الأقصى لذا فإن أطروحاته وكتابته من وحي الواقع الملموس فضلاً عن أسلوبه الأكاديمي المميز. وتلك الفقرة اقتباس منها.

مالك الخولاني) (١٠١هـ ـ ٧٢١م) رابع ولاة الدولة الإسلامية على بلاد الأندلس في بداية القرن الثاني الهجري القرن الثامن الميلادي يعتبر (الخولاني) أول قائد حملة إسلامية فتحت مدن ومناطق جنوب فرنسا، وتقدمت حتى بلغت جِبال (البرينية) ثم تتابع الولاة الذين أكملوا الفتوحات فعبر تلك الجبال (البرينية) وتمكّنوا من فتح مُدن وادي الرون La Rhone ed vallee والمدن المحيطة به وهي المناطق الواقعة حالياً في مقاطعة مرسيليا في الجنوب متقدماً نحو وسط وشمال فرنسا، وواصل هذا القائد فتح المدن والمناطق الفرنسية الواحدة تلو الأُخرى حتى وصل إلى مدينة سانس (Sans) على بعد ثلاثين كيلو جنوب باريس ويعتبر هذا القائد اليمني الشجاع أول وآخر قائد عربي وصل بجيوش الفتوحات الاسلامية إلى أبعد مسافة في قلب أوروبا، وكان مقتل عنبسة (سنة ١٠٥هـ ـ ٧٢٥م) وعدم وصول المدد ونفاد المؤن أهم أسباب تراجع وانسحاب الجيوش الإسلامية وعودتها إلى قاعدة الجيش بأربونة في جنوب فرنسا، وبعد توقف الفتوحات بعد ذلك بسبب المشاكل والصراعات السياسية التي شهدتها ولاية الأندلس خلال فترة الخمسة الولاة الذين تعاقبوا على حكمها بعد مقتل القائد اليمني (عنبسة).

القائد العظيم عبد الرحمن الغافقي الذي لم ولن ينْسَى التاريخ انتِصاراته العظيمة هذا القائد اليمني العربي المسلم الذي فُتحت على يديه كبريات المدن الفرنسية: آرل، وتولوز، وبوردو وكذا مدينة سان مرنا المدينة المقدسة لدى المسيحيين وغيرها حتى بلغ مدينة بواتييه التي اجتمعت لقتاله فيها كل أوروبا!، لم يكترث الغافقي للغنائم وينسحب من بواتييه كما أشار عليه من فضّل الانْسِحاب من مستشاريه، بل رفض التَّخلي عن كل المدن والأقاليم التي فتحت على يديه وآثر المضي في المعركة حتى النهاية وبإيمان قوي وثبات لا يلين.. قاتل ببسالة مع النخبة المقاتلة من العرب قِتالاً بطولياً أسطورياً حتى سقط شهيداً في معركة بلاط الشهداء الشهيرة والتي تعرف لدى الفرنسيين بمعركة تور بواتييه المعروفة في التاريخ الأوروبي والإسلامي على السواء عام (١١٤هـ ـ٧٣٢م).

وإلى جانب أولئك القادة التاريخيين هناك عدد كبير من اليمنيين المشهورين الذين عينوا

ولاة أو حُكاماً على أقاليم ومناطق في بلاد المغرب[(١)] والأندلس ومن أشهرهم في القرون الهجرية الأولى حنظلة بن صفوان الكلبي والي إفريقية ويحيى بن سلمة الكلبي والي الأندلس وأبو الأخطار الحسام بن ضرار الكلبي والذي عينه قريبه حنظلة بن صفوان سنة ١٢٥هـ ـ ٧٤٣م وعمر بن عبد الله المرادي حاكم طنجة سنة ١٢٢هـ ـ ٧٤٢م.

وانصهر الجميع في بوتقة الممالك الجديدة وعند انحسار المد الإسلامي وتراجعه بعد سقوط غرناطة أجبر الكثير على الرحيل لشمال إفريقيا وبقي آخرون باسم الموريسكيين[(٢)] كما عاد البعض لبلدانهم سواء في شمال إفريقيا وغيرها وهكذا أسدل الستار على حضارات سادت ثم بادت سطَّر فيها العرب سجلات ناصعة البياض في تأريخ الحضارة الإسلامية وآلت كل الممالك والحضارات إلى زوال، لقد مال أهل الأندلس إلى الترف واللهو مثلهم مثل أسلافهم الأمويين في دمشق ومعهم حضارة العباسيين في بغداد الحضارة، بينما مال عدوهم المتربص إلى بناء قوته والاستعداد لمعارك كانت نتيجتها معروفة هي الانتصار، فاندثرت حضاراتهم فما أشبه اليوم بالبارحة وكأن الأحفاد يعيدون أخطاء الأجداد فلم يتَّعظوا من الدروس والعبر أو استنباط الخبرة والموعظة فضاع ملكهم وعزتهم.

تأثير العربية في اللغات الأوروبية:

يعدُّ هذا أحد السّمات التاريخية المكونة للثقافة واللغة الإسبانية (ومن خلالها التأثير في

(١) وظهر الكثير من العلماء اليمنيين في بلاد المغرب والأندلس وبرزوا واشتهروا وذاع صيتهم في الفترات المختلفة من العصر الإسلامي، ونبغوا وساهموا في تطوير علوم شتى ومن أشهر هؤلاء العلماء: في علم اللغة العربية ابن منظور الحضرمي مؤلف كتاب أول قاموس «لسان العرب» وفي علم التاريخ العالم الفاضل أبو عبد الله محمد الصنهاجي الحميري توفي (سنة ٨٦٦هـ ـ ١٤٧٤م) ومن أشهر مؤلفاته كتاب «صفة جزيرة الأندلس» كما اشتهر عدد من القضاة اليمنيين أمثال القاضي عياض الشهير والذي سميت باسمه عدد من المؤسسات القضائية والعلمية مثل جامعة القاضي عياض في مدينة مراكش.

(٢) الموريسكيون هم من تبقى من المسلمين بعد سقوط غرناطة آخر المعاقل الإسلامية في الأندلس تحت وطأة النصارى الإسبان..وأنشئت وقتها محاكم التفتيش الشهيرة لملاحقة المسلمين الذين ظلوا عقوداً بل قروناً يخفون إسلامهم.

اللغات اللاتينية) حيث استوطنت إسبانيا من قبل العرب لمدة ناهزت الثمانية قرون وتحتوي اللغة الإسبانية على الكثير من الكلمات ذات الأصل العربي وهي تفوق ٦٠٠٠ كلمة، إن انتشار اللغة العربية إلى اليوم داخل اللغة الإسبانية دليل واضح على عمق التأثير العربي والإسلامي وهو شاهد إلى يومنا هذا على حضارة أسسها العرب في شبه الجزيرة الأيبيرية. ويتجلى هذا في أوضح صورة في الكم الهائل من تلك الألفاظ العربية التي يزخر بها قاموس اللغة الإسبانية ولم تضمحل رغم خروج العرب منذ مئات السنين، ولم تكتفِ اللغة الإسبانية من النهل من لغتنا العربية وهي تحتوي على آلاف المفردات التي لم تتبين إلا لمن يعرف كلا اللغتين ليسمع بأذنيه تلك المفردات من وقت لآخر، بل إن قواعدها تأثرت هي الأخرى باللغة العربية ومنها على سبيل المثال أل التعريف فاسم اسكندر يطلق عليه بالإسبانية الخندرو والزهراء تطلق الزهراء وهناك حتى الأمثال العربية لها نظير بالإسبانية وكأنها مترجمة حرفياً مثل (عصفور في اليد ولا عشرة على الشجرة) و (ابن الوز عوام) و (دوام الحال من المحال) و (الدَّيْن همٌّ في الليل وذل في النهار) و (باب النجار مخلع) و (تراعيني قيراط أراعيك قيراطين) و (يصطاد في الماء العكر) و (إذا غاب القط لعب الفار). . . إلخ

لقد ثبت للباحثين اللغويين الإسبان أن تأثر اللغة الإسبانية باللغة العربية عميق جداً، بسبب انتشارها الواسع في الأندلس وبعض المقاطعات الإسبانية على مدى ثمانية قرون تقريباً إبان الحكم العربي الذي بدأ مع دخولهم إليها سنة ٧١١م، واستمر حتى بعد خروجهم منها سنة ١٤٩٢م. ولقد شهد التاريخ أن العرب أسسوا حضارة في شبه الجزيرة الأيبيرية تجلَّت في انتشار العلوم والفنون والعمران وفي الصناعة والزراعة والهندسة المعمارية إبان تلك القرون الغابرة، مما جعل الأندلس آنذاك مزدهرة ومركز إشعاع في أوربا كلها، ومحجَّة لطالبي العلم فيها. أما السبب في تحريف بعض المفردات العربية، وأسماء المدن والأماكن الجغرافية فيعود إلى الذوق الإسباني أولاً، ثم إلى افتقار اللغة الإسبانية ذات الأصل اللاتيني إلى حرف (الضاد) العربي، في حين أنها اقتبست من اللغة العربية أحرفاً غير موجودة في اللغات الأوربية ذات الأصل اللاتيني منها: (الثاء)، و (الخاء) على سبيل المثال. كما أكد المؤرخون أن غالبية الكلمات التي تبتدئ بأل التعريف في اللغة الإسبانية بقيت على حالها فيها، منها مثلاً (الرّز ـ ARROZ) و (السكر ـ ACUCAR)، و(الناعورة ـ NORIA)

و(الياسمين: JASMIN) و(الكرز ـ ALCARAZ) وهو اسم قرية أندلسية، و (القُصَيْر ـ ALCOCER) وهي كنية إحدى العائلات الإسبانية في عصرنا الحاضر ذات المنبت الأندلسي، و(القلعة ـ ALCALA)، و(المدوّر ـ ALMODOVAR)، فيما أضحت بلدة (المنكّب) الواقعة في جنوب إسبانيا على ساحل البحر الأبيض المتوسط، بالقرب من مدينة ملقة، التي دخل إليها الأمير الأموي الناجي من دمشق عبد الرحمن بن معاوية قادماً من المغرب تُدعى بالإسبانية ـ (ALMUNECAR)، ولقد أقام محافظها في التسعينيات من القرن العشرين تمثالاً ضخماً على شاطئها للأمير عبد الرحمن الداخل اعترافاً بفضله في ازدهار الأندلس، حضره عدد كبير من المستعربين والباحثين والمؤرخين العرب والإسبان والأوروبيين.

وهناك مفردات [1] تتعلق بالطبيعة والجغرافيا وأسماء المدن مثل الحمراء وتسمى بالإسبانية حالياً الهمبرا (Alhambra) والزهراء «ومدينة» والجزيرة الخضراء وجبل طارق و (بلد الوليد) وتنطق باللغة الإسبانية: فلد الفليد!

ومنها أيضاً الوادي الكبير «الفادي الكبير» وجبل العروس وجنة العريف... إلخ.

ومنها أسماء قلاع أو حصون وما شابه مثل (القلعة) و(قلعة الحرة) و(سوق) و(مدرسة) و(رباط) و(مسجد) و(قصبة) و(قصر) و(مخزن) و(طاحونة) و(ناعورة) (بحيرة) (بركة) (ساقية) وألفاظ شائعة في العمارة والزخرفة مثل (البناء) (القبة) (الطوب) (المنارة) (تربيعة العقد) (الغرفة) (السطح) (القنطرة)... إلخ

وهناك مفردات تتعلق بالمنسوجات والملابس والمفروشات مثل (الإزار) (المئزر) (الستارة) (القطن) (المخدّة) (الجبّة) (السروال) (القميص).. وغيرها

وكذلك مفردات تتعلق بالمأكولات مثل (الأرز) (الباذنجان) (الزيت) (الزعفران) (السكر) (الزيتون) ويسمى (زيتونا)! (الكروم) العنب ويسمى (كرما) و (طاس) طست أو إناء، وثمة كلمات تتعلق بالفن والغناء وآلات الموسيقى مثل (العود) (الدفّ) (الطبل) (البوق) (القيثارة) وغيرها..

(١) خالد بن محمد القاسمي «تأريخ الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس» دار الثقافة العربية ١٩٩٨ ص٢٣٣.

وليس فقط التأثير في ذلك العدد الهائل من المفردات العربية التي يزخر بها القاموس الإسباني بل وفي قواعدها أيضاً، وليس هنا مجال لتفصيل أكثر ولكن أكتفي بالإشارة إلى أنَّ كثيراً من الكلمات الإسبانية تبتدئ بـ al أو ben .

زفرة العربي!:

حدثنا دليل الحافلة السياحية بأن هناك مكاناً يزوره الكثير من السيَّاح العرب خصوصاً ويدعى (زفرة العربي) إنه مكان معروف في غرناطة ليس ببعيد عن قصر الحمراء الشهير يجذب آلاف السيَّاح يسميه الإسبان (EL UITIMO SUPRIRO DE LMORO) ومعناه زفرة العربي الأخيرة، وهو المكان الذي أطلّ منه أبو عبد الله الصغير المنكوب على الحمراء بعد أن رحل عنها نظر إليها النظرة الأخيرة وشاهد القساوسة وهم يتسابقون على رفع الصلبان في قمم المباني الشاهقة في الحمراء، والبعض منهم يثبتون الأجراس على مآذن المساجد بينما ألحان الشكر المسيحية تتردد أصداؤها في أنحاء الحمراء ولم يتمالك نفسه وزفر زفرة عميقة أتبعها بعبراته ، إنها البقعة التي شهدت لحظات درامية لتسليم مفتاح غرناطة آخر الممالك العربية في الأندلس للملك فرنارد وزوجته إيزابيلا من قبل أبي عبد الله الملقب بالصغير باكياً وصوت أمه وهي تربِتُ على كتفيه وتمسح دموعه يتردد في أعماق نفسه وتقول له قولها المشهور[١]:

ابْكِ مثل النساء مُلْكاً مضاعاً لم تحافظْ عليه مثل الرجال!

كانت الرحلة لإسبانيا نوعية لكثرة مشاهداتي فيها وتركَتْ بالفعل لديّ حبّاً لقراءة تأريخ الأندلس وجغرافيتها وموسيقاها وحتى كل شعر يكتب عنها بدءاً بعصر الازدهار الإسلامي العربي في الأندلس وانتهاء بشعراء العصر الحاضر، وأنهي الفصل المتعلق بهذا البلد السياحي الجميل بجملة من القصائد أولها لشعراء الأندلس الذين أبكوا الأجيال المتتالية بقصائدهم وآخرها قصيدة لشعراء من عصرنا كتبها شاعر مرهف من عصرنا عندما كتب نزار قباني يوم كان سفيراً لبلاده في إسبانيا يجسد فيها أحزان الشاعر على أطلال العرب في الأندلس وعن آثار

(١) أحمد عبدالرحمن السماوي. «الفردوس المفقود الأندلس» إصدار وزارة الثقافة في اليمن صنعاء سنة ٢٠٠٤.

العرب فيها التي تزول شيئاً فشيئاً بعد خمسة قرون من رحيل الخليفة الصغير عنها تاركاً مجد ثمانية قرون قضاها العرب في بلاد الأندلس.

فهنا بالفعل قصيدة ووطن.. وهنا شجن باقٍ في غياهب الحلم العربي الذي يسري في عروق الأمة بأكملها. وهنا نحو سبعة قرون من الحسرة التي تتردد في الصدور وتتضاعف عند كل نكبة جديدة من نكبات العرب التي صارت تاريخاً مستمراً، وهنا دمعة مازالت تترقرق في المآقي كلما تذكرنا شواهد الزمن المنصرم والعنفوان الذبيح بسكين التهاون وأنانية الكرسي الذليل. وهنا قبل هذا وذاك شعراء ظلت أسماؤهم تذكاراً للرثاء عندما يكون الرثاء بحجم الأندلس في حقبته العربية. وأما الشاعر هنا فهو أبو البقاء صالح الرندي وكانت مراثيه في حجم قصائده الخالدة في سجله الشعري الدامع والتي لازالت تُقرأ بشوق وحنين حتى يومنا هذا.

كثيرون قرؤوا تلك المرثية نحيباً على أنقاض المجد الأندلسي، الذي سقط نهائياً لولا بعض مشاهد معمارية وشواهد إنسانية غير قابلة للسقوط بسقوط غرناطة في تلك الليلة الليلاء، وبالرغم من دموع أبي عبدالله الصغير التي أشاعت الإحساس لدى الشعراء والكتّاب للتعبير عن مكنونات أنفسهم.

وسأورد هنا أبيات معبرة للشاعر الأندلسي أبي البقاء الرندي[1] وهي أبيات شهيرة يبكي فيها الأندلس[2]:

لكل شيءٍ إذا ما تّم نقصان ... فلا يُغر بطيب العيش إنسانُ
هي الأمورُ كما شاهدتها دولٌ ... من سره زمن ساءته أزمانُ
وهذه الدار لا تُبقي على أحدٍ ... ولا يدومُ على حالٍ لها شانُ
أينَ الملوكُ ذوو التيجان من يَمَن ... وأينَ منهم أكاليل وتيجانُ؟
فجائع الدهر أنواع منوعة ... وللزمانِ مَسراتٌ وأحزانُ

(١) هو الشاعر أبو البقاء ابن الشريف الرندي.. وكان خاتمة شعراء الأندلس وقد عاش آخر أيامه في غرناطة فشاهد ما شاهده من محن ومصائب ألمّت بآخر ممالك الأندلس «غرناطة».

(٢) ناجي جواد.. «رحلة إلى الأندلس»، دار الأندلس للطباعة والنشر بيروت الطبعة الأولى عام ١٩٦٩.

ولـلـحـوادثِ سُـلـوانٌ يُـسـهـلـهـا … ومـا لـمـا حـلّ بـالإسـلام سُـلـوانُ
أصابـهـا الـعين في الإسلام ارتزأت … حـتـى خـلـت مـنـه أقـطـار وبـلـدانُ
فـاسـأل بـلـنـسـيـة مـاشـأن مـرسـيـة … وأيـن شـاطـبـة أم أيـن جـيـان
وأيـن قـرطـبـة دار الـعـلـوم فـكـم … مـن عـالـم قـد سـمـا فـيـهـا لـه شـان
وأيـن حـمـص ومـا تـحـويـه مـن نُـزهٍ … ونـهـرهـا الـعـذب فـيـاض ومـلآنُ
قـواعـد كـنّ أركـان الـبـلاد فـمـا … عـسـى الـبـقـاء إذا لـم تـبـق أركـانُ
حيثُ الـمـساجدُ قد صَارت كنائسَ … مـا فـيـهـنّ إلا نـواقـيـسٌ وصـلـبـانُ
حتى الـمـحـاريب تبكي وهي جامدةٌ … حـتـى الـمـنـابـر تَـرثـي وهـي عـيـدانُ
يـاغـافـلاً ولـهُ فـي الـدهـر مـوعـظـة … أن كـنـتَ فـي سِـنـةٍ فـالـدهـر يـقـظـانُ
يـاراكـبـيـنَ عِـتـاقَ الـخـيـلِ ضـامـرةً … كـأنّـهـا فـي مـجـال الـسـبـقِ عُـقـبـانُ
وحـامـلـيـنَ سـيـوفَ الـهـندِ مُـرهـفـةً … كـأنـهـا فـي ظـلام الـنـقـعِ نـيـرانُ
أعـنـدَكـمُ نـبـأ مـن أهـلِ أنـدلـسٍ … فـقـد سَـرى بـحـديـث الـقـوم ركـبـانُ
كم يستغيث بنا المستضعفونَ وهم … قـتـلـى وأسـرى فـمـا يـهـتـز إنـسـانُ؟
يَـا مـن لـذلـة قـومٍ بـعـد عِـزهـمُ … أحـالَ حـالـهـمُ جَـورٌ وطـغـيـانُ
بـالأمـس كـانـوا مـلـوكـاً فـي مـنـازلـهـم … والـيـومَ هُـم فـي بـلاد الـكـفـر عُـبـدانُ
يـارُبّ أمّ وطـفـل حـيـل بـيـنـهـمـا … كـمـا تـفـرق أرواح وأبـدانُ
يـقـودهـا الـعـلـج لـلـمـكـروه مـكـرهـةً … والـعـيـن بـاكـيـة والـقـلـب حـيـرانُ
لـمـثـلِ هـذا يـذوبُ الـقـلـبُ مِـن كـمَـدٍ … إن كـانَ فـي الـقـلـب إسـلامٌ وإيـمـانُ

وهنا وقف عددٌ من الشعراء العرب إعجاباً وذهولاً وتحسراً لضياع الفردوس المفقود.. كالشاعرأحمد شوقي وعبد الوهاب البياتي ونزار قباني وغيرهم.

لعل خصوبة بلاد الأندلس مقارنة ببلدان المشرق العربي قد أذهلت من أتوا من بلاد الشام وغيرها من بلدان المشرق، ففي ربوع الأندلس المترامية الأطراف وبساتين العنب والزيتون على امتداد البصر... تلك البلاد التي فتنت بجمالها أجدادنا العرب والوافدين إليها من البربر....

بل وكل زائر لها حتى اليوم. لقد امتلأت بطون الكتب بالشعر والنثر والأدب في وصف بلاد الأندلس[١].

في الحرب الدينية الصليبية ضد مسلمي الأندلس عانى أغلبيتهم الأمرّين فأُرغموا على التنصُّر وتم تعميدهم ثم عادوا لبيوتهم أكثر إصراراً على التمسك بدينهم، وفي هذا السياق فقد ذكر الأمير شكيب أرسلان في كتابه المكون من ثلاثة أجزاء الكثير[٢] عن هذا الجانب؛ أي تنصير المسلمين بالقوة واضطر الكثير للارتداد عن دينهم خوفاً، والكثير أبقى إسلامه سراً فإذا تزوج المرء من نصرانية كان يخفي إسلام أبنائه عن أمهم والعكس.

بعث المورسكيون بعدة استغاثات إلى العالمين العربي والإسلامي ولأن المغرب العربي هو الأقرب فقد بدأوا بالاستنجاد به ولكن المغرب كان في حالة ضعف ولم يتمكن إلا القليل من الحضور للمشاركة في الحرب ضد الصليبيين، وكانت الإمبراطورية العثمانية في بداية قوتها فيالسخرية القدر لو تقدمت تلك القوة عقوداً لاستعان بها المورسكيون كان ذلك في عهد السلطان العثماني بايزيد الثاني الذي دام حكمه من ١٤٨١ إلى عام ١٥١٢م وفي ذلك الوقت وجه المسلمون الباقون الذين عرفوا بالمورسكيين استغاثات محزنة مبكية على شكل قصيدة نورد هنا جزءاً منها وهي بلاشك تعبر تعبيراً عميقاً عن المأساة التي ألمَّت بهم. والقصيدة غير معروف صاحبها[٣]:

سلام كريم دائم متجدد ... أخص به مولاي خير خليفة
سلام على مولاي ذي المجد والعلا ... ومن ألبس الكفار ثوب المذلة
سلام على من وسع الله ملكه ... وأيده بالنصر في كل وجهة
سلام على مولاي من دار ملكه ... قسطنطينية أكرم بها من مدينة
سلام على من زين الله ملكه ... بجند وأتراك من أهل الرعاية
سلام عليكم شرف الله قدركم ... وزادكم ملكاً على كلّ ملة

(١) أحمد عبد الرحمن السماوي «رحلة إلى الفردوس المفقود.. الأندلس» إصدار وزارة الثقافة والسياحة في اليمن صنعاء سنة ٢٠٠٤.

(٢) «الحلل السندسية في وصف البلاد الأندلسية» للأمير شكيب أرسلان.

(٣) أحمد عبد الرحمن السماوي «الأندلس....الفردوس المفقود» مرجع سابق.

أحاط بهم بحرٌ من الروم زاخر ... وبحرٌ عميق ذو ظلام ولجة

غدرنا ونُصّرنا وبُدِّل ديننا ... ظلمنا وعوملنا بكل قبيحة

وكنا على دين النبي محمد ... نُقاتل عمال الصليب بنية

فجاءت علينا الروم من كل جانب ... بسيل عظيم جملة بعد جملة

ومالوا علينا كالجراد بجمعهم ... بجد وعزم من خيول وعدة

فكنا بطول الدهر نلقى جموعهم ... فنقتل فيها فرقة بعد فرقة

وفرسانها تزداد في كل ساعة ... وفرساننا في حال نقص وقلة

فلما ضعفنا خيموا في بلادنا ... ومالوا علينا بلدة بعد بلدة

فلما تفانت خيلنا ورجالنا ... ولم نر من إخواننا من إغاثة

ونبقى على آذاننا وصلاتنا ... ولا نتركن شيئاً من أمر الشريعة

فلما دخلنا تحت عقد ذمامهم ... بدا غدرهم فينا بنقض العزيمة

وخان عهوداً كان قد غرنا بها ... ونصّرنا كرهاً بعنف وسطوة

ولم يتركوا فيها كتاباً لمسلم ... ولا مصحفاً يخلى به للقراءة

ومن صام أو صلى ويعلم حاله ... ففي النار يُلقوه على كل حالة

وفي رمضان يفسدون صيامنا ... بأكل وشرب مرة بعد مرة

وقد أمرونا أن نسب نبينا ... ولا نذكرنه في رخاء وشدة

وعاقبهم حكامهم وولاتهم بضرب ... وتغريم وسجن وذلة

إلى غير هذا من أمور كثيرة ... قباح وأفعال غزار ردية

وقد بُدلت أسماؤنا وتحولت ... بأسماء أعلاج من أهل الغباوة

واهاً على تلك البلاد وحسنها ... لقد أظلمت بالكفر أعظم ظلمة

وصارت لعبَّاد الصليب معاقلاً ... وقد أمنوا فيها وقوع الإغارة

وصرنا عبيداً لا أسارى فنفتدي ... ولا مسلمين نطقهم بالشهادة

فلو أبصرت عيناك ما صار حالنا ... إليه لجادت بالدموع الغزيرة

عسى تنظروا فينا وفيما أصابنا لعل إله العرش يأتي برحمة
فبالله يا مولاي منّوا بفضلكم علينا برأي أو كلام بحجة
فأنتم أولو الأفضال والمجد والعلا وغوث عباد الله في كل آفة
وما لهم مالوا علينا بغدرهم بغير أذىً منا وغير جريمة
ولم يخرجوا من دينهم وديارهم ولا نالهم غدر ولا هتك حرمة
ومن يعط عهداً ثم يغدر بعهده فذاك حرام الفعل في كل ملة
وقد بلغ المكتوب[1] منكم إليهم فلم يعملوا منه جميعاً بكلمة
لقد كذبوا في قولهم وكلامهم علينا بهذا القول أكبر فرية
ولكن خوف القتل والحرق ردنا نقول كما قالوه من غير نية
ووالله ما نرضى بتبديل ديننا ولا بالذي قالوا من أمر الثلاثة[2]
فها نحن يا مولاي نشكو إليكم فهذا الذي نلناه من شر فرقة
ومن عندكم نرجو زوال كروبنا وما نالنا من سوء حال وذلة
فأنتم بحمد الله خير ملوكنا وعزتكم تعلو على كل عزة
فنسأل مولانا دوام حياتكم بملك وعز في سرور ونعمة

ولكن كما يبدو أن بايزيد السلطان العثماني لم يستطع تلبية صرخة الموريسكيين وذلك لانشغاله في الخلافات الأسرية وإهمال أوامره من جانب الإنكشارية [3]، وقد اكتفى بتوجيه خطاب للملكين الكاثوليكيين، واستنجد الموريسكيون بسلطان مصر قانصوه الغوري (١٥٠١ ـ

(١) يشير هنا إلى الرسائل المتبادلة والتحذيرات بعدم اضطهاد مسلمي الأندلس.
(٢) يشير إلى التثليث عند النصارى الأب والابن وروح القدس.
(٣) الانكشارية تعني: «الجنود الجدد» طائفة عسكرية من المشاة العثمانيين شكلوا تنظيماً خاصاً لهم ثكناتهم العسكرية وشاراتهم ورتبهم وامتيازاتهم، وكانوا فرقة ذات مركز مميز في الجيش العثماني وأكثرها نفوذاً. وكانوا فرقة كان لها مركز متميز بين فرق الجيش العثماني، عساكرها كانوا شبان نشؤوا على الولاء الكامل للسلطان العثماني و تدربوا تدريباً عسكرياً عالي المستوى. بقي لهم نفوذ كبير في القرنين ١٧ و ١٨، لدرجة أن بقيت لديهم القدرة على تنصيب السلطان وخلعه. خلص عليهم السلطان محمود الثاني في مذبحة الآستانة سنة ١٨٢٦.

١٥١٦) سلطان المماليك وقام السلطان بإرسال وفد للملكين الكاثوليكيين يحذرهم بأنه سيجبر النصارى المقيمين في بلاده على الدخول في الإسلام قسراً ولكن دون جدوى، وهكذا تمكَّن حكام إسبانيا من تحييد العرب والمسلمين عن التدخل لصالح إخوانهم المسلمين في بلاد الأندلس.

ولعل أجمل ماكتبه الشاعر الكبير نزار قباني في الأندلس هذه القصيدة الشهيرة[(١)]:

كتبتِ لي يا غالية [(٢)] كتبتِ تسألينَ عن إسبانية
عن طارق يفتح باسم الله دنيا ثانية
عن عقبة بن نافعٍ يزرع شتلَ نخلةٍ..
في قلبِ كلِّ رابية سألتِ عن أميةٍ..
سألتِ عن أميرها معاوية..
عن السرايا الزاهية تحملُ من دمشقَ.. في ركابِها
حضارةً وعافية لم يبقَ في إسبانية منّا، ومن عصورنا الثمانية
غيرُ الذي يبقى من الخمرِ، بجوف الآنية..
وأعينٍ كبيرةٍ.. كبيرةٍ ما زال في سوادها ينامُ ليلُ البادية..
لم يبقَ من قرطبةٍ سوى دموع المئذناتِ الباكية
سوى عبيرِ الورود، والنارنج والأضاليه..
لم يبق من ولّادةٍ ومن حكايات حُبها.. قافيةٌ ولا بقايا قافيه..
لم يبقَ من غرناطةٍ ومن بني الأحمر.. إلا ما يقول الراوية
وغيرُ «لا غالبَ إلا الله» تلقاك في كلِّ زاوية..

(١) الدكتور خالد القاسمي. «تأريخ الحضارة الإسلامية في الأندلس» مصدر سابق.
(٢) نفس المصدر السابق «تأريخ الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس» ص١٨٨.

لـم يـبـقَ إلا قـصـرُهـم كـامـرأةٍ مـن الـرخـام عـاريـة . .
تـعـيـشُ ـ لا زالـت ـ عـلـى قـصَّـةِ حُـبٍّ مـاضـيـه . .
مضت قرونٌ خمسةٌ مذ رحلَ «الخليفةُ الصغيرُ» عن إسبانية
ولم تزل أحقادنا الصغير كما هي ولم تزل عقليةُ العشيرة
فـي دمـنـا كـمـا هـي حـوارُنـا الـيـوميُّ بـالـخـنـاجـرِ . .
أفـكـارُنـا أشـبـهُ بـالأظـافـر مَـضـت قـرونٌ خـمـسـةٌ
ولا تـزال لـفـظـةُ الـعـروبـة كـزهـرةٍ حـزيـنـةٍ فـي آنـيـة . .
كطفلةٍ جائعةٍ وعارية نصلبُها على جدارِ الحقدِ والكراهية . .
مَضت قرونٌ خمسةٌ ياغالية . كأننا . . نخرجُ هذا اليومَ من إسبانية . .

العلاقات الثقافية الإسبانية العربية:

تعود العلاقات الثقافية العربية الإسبانية لقرون خلت عندما قام الملك ألفونسو العاشر بتشجيع الترجمات في علم الفلك والفيزياء وغيرها وقد استمرت حركة الترجمة بفضل الوجود المهم لجماعات إسبانية عربية خلال القرون الوسطى حتى طرد المسلمين في إسبانيا في العام ١٤٩٢ ولكن استمرت حتى منتصف القرن السادس عشر تقريباً .

قام الموريسكيون بعد ذلك بمهمة ترجمة أعمال عربية إلى الإسبانية واستمرت الدراسات العربية في إسبانيا طوال القرن الثامن عشر وبدءاً من القرن التاسع عشر تحولت الدراسات العربية في هذا البلد إلى مهمة أكاديمية ركزت جلَّ اهتماماتها على الدراسات الأندلسية وتأريخ الأندلس .

وفي العام ١٩٥٤ قام المستعرب الكبير (اميليو غارثيا عوميت) بتأسيس المعهد الإسباني العربي للثقافة (التابع لوزارة الخارجية الإسبانية) توافقاً مع السياسية الإسبانية التي كانت تهدف إلى كسر عزلتها الدولية بتدعيم أواصر الصداقة مع العالم العربي وجدير بالذكر أن (اميلو غارثيا) كان تلميذاً لطه حسين عندما كان في منحة دارسية لمصر كما اتصل بأحمد زكي باشا

الذي أهداه مخطوطاً مهماً للشاعر ابن زيد المغرب كان النواة الأولى لمعرفته بالأدب الأندلسي عام ١٩٣٠ الذي امتد تأثيره إلى حتى الآن، توافق هذا مع إنشاء المعهد المصري للدراسات الإسلامية برعاية طه حسين في ١٩٥٠ الذي أصدر تسع ترجمات منذ إنشائه[١]، تزامن ذلك مع إنشاء البيت العربي الإسباني وانتهى النشاط في مجال العلاقات الثقافية العربية الإسبانية بإنشاء المركز الإسلامي في إسبانيا والذي رأسَه الدكتور حسين مؤنس[٢] كما أن الحكومة السعودية أنشأت مدرسة ومسجداً يعتبر مركزاً للنشاط العربي الإسلامي.

كما أن بعض الجامعات الإسبانية تدرس اللغة العربية وكذا الفكر السياسي الإسلامي ولاسيما في الجامعات التي في مدن إقليم الأندلس بجنوب إسبانيا مثل غرناطة وإشبيلية وغيرهما.

وفي وقت لاحق ازدهر النشاط العربي في إسبانيا لتزايد أعداد المهاجرين من جهة والاهتمام الإسباني للمستشرقين من جهة أخرى فكثرة المطبوعات من صحف ومجلات يومية وأسبوعية وشهرية وإذاعات محلية وكذا تلفزيون عربي يعرف باسم الأندلس وكان يبث للبلدان العربية، ولا أدري إذا لازالت تلك القناة تبث أو استبدلت بأخرى؟ تأتي مصر في مقدمة المهتمين بتواصل الثقافتين العربية والإسبانية ولكن ذلك لايعني دور بلدان أخرى مغاربية أو حتى مشارقية.

كما أن كثيراً من المغاربة اهتم بنشر الأدب العربي بالإسبانية أمثال الطاهر بن جلون وفاطمة المرنيسي ومؤخراً ترجمت أعمال للأدباء محمد الصباغ ومحمد شكري وغيرهما.

(١) الدكتورة نادية جمال الدين جزء من دراسة نشرت في كتاب العربي الفصلي الذي تصدره حكومة دولة الكويت العدد رقم ٩١ لشهر يناير ٢٠١٣.

(٢) افتتح المعهد المصري للدراسات الإسلامية في العام ١٩٥٠ وكان من وراء إنشائه الدكتور طه حسين بهدف توثيق العلاقات بين مصر وإسبانيا التي عاش المسلمون في رحابها نحو ثمانية قرون.

رحـــلاتي لباريـــس

باريس من المدن النادرة... وربما لايختلف اثنان من زوارها على جمالها ورقتها وأناقتها إنها بلد الثقافة والموضة والجمال والسحر.. ربما لن أضيف شيئاً بعد أن كُتب عنها الكثيرون منذ عقود بل قرون، وقد كتب عنها رواد الفكر والرحَّالة العرب آلاف المقالات ومئات الكتب صدرت لوصف باريس وحياة الباريسيين مثل كتاب الطهطاوي المثير «تخليص الإبريز في تلخيص باريز» ووصولاً إلى الأديب طه حسين وكتابه (الأيام) و(عصفور من الشرق) للحكيم و(الدنيا في باريس) لتيمور و(رحلة الشرق والغرب) للويس عوض و(الإنسان الأوروبي في الجد واللعب) لعبد الستار طويلة وكتابات غادة السمان وإحسان عبد القدوس وأنيس منصور وغيرها من الكتب القيمة، فباريس من أكثر المدن العالمية التي استحوذت على قلوب المفكرين العرب وعقولهم وهي جديرة بذلك فهي مدينة الحرية والحب والاندفاع والفن والفكر، إنها المدينة التي تجمع العالم بين شوارعها وفي متاحفها ودور الفن والثقافة والأزياء، وهي القلب الذي يضخ الفن والثقافة والمودة والتحرر إلى ربوع الدنيا، فباريس كما يقول أنيس منصور: كالمرآة تعكس ما بنفسك وترى فيها صورة مما في روحك وفكرك باريس منبع الفن والأناقة، إنها تنبض بالحياة بالثقافة والعلم أذهلت كل من زارها سائحاً أو طالب علم. لقد زرت بلداناً أكثر رقياً وعمراناً مثل نيويورك وسان فرانسيسكو وسنغافورة ولكن باريس تظل في القمة. والجميل فيها أن كل شيء في مكان واحد أو على الأقل في مدينة واحدة، فمثلاً عشت في أمريكا سنوات فإذا أتاك ضيف عزيز تريد أن تصحبه في عدد من الولايات الأمريكية فإن واشنطن تبعد عن سان فرانسيسكو مثلا كًالمسافة بين اليمن والهند وفي ذلك مشقّة وتكلفة لاشك.!

فمعالم باريس كلها متقاربة في مكان واحد تستطيع أن تلمَّ بأغلبها ابتداء من رحلة نهرية تحت جسور نهر السين الكلاسيكية يتبعها رحلة في باص ذي طابقين المنتشر في العواصم

الأوروبية ويكون الجزء العلوي منه مكشوفاً ويجول بالسيَّاح والزائرين في كل أنحاء باريس وبسعر معقول ومن خلاله تمعن وتستمتع برؤية الكثير من المعالم وأنت جالس على كرسي مريح! والرائع أيضاً لسيَّاح هذه المدينة هو النظر بصورة بانورامية من أعلى برج إيفل وتأمل لوحة (المونوليزا) في متحف اللوفر وتذهل لتناسق شوارعها، وقلب تلك الأحياء هي (الكونكرد) وتعني بالفرنسية التناغم والتناسق. ثم تخلد للراحة والهدوء وكأنك في غابة رغم أنك في قلب باريس عندما تتجول في حديقة «بولون» والتي تذكرني بسنترال بارك في قلب نيويورك والتي تفصل جنوب المدينة الراقي عن حي هارلم الذي يقطنه الزنوج.

وقد خُلّدت باريس في كثير من الأغاني والشعر والروايات والأفلام السينمائية لدرجة جعلت الكثيرين يعتبرونها تحفة وليست مدينة مسكونة! حتى الفرنسيون وسكان أوروبا يعتبرونها كمغناطيس تجذبهم من وقت لآخر!

باريس ليست بمدينة كبيرة كبرلين مثلاً والتي هي أضعاف باريس في المساحة، ولكن لا جمال فيها ليس مقارنة بباريس ولكن بعواصم أوروبية أخرى!

وباريس ربما أقل حجماً من سان فرانسيسكو ولكنها في البنيان والتنسيق أجمل وتسمى الأخيرة باريس أمريكا أو باريس الغرب؛ لأن روعتها تكمن في الطبيعة التي تتمتع بها تلك المدينة الساحرة من جبل وبحر ومناظر خلابة!

وسكان باريس لايتجاوزون الثلاثة ملايين ولكنها بضواحيها تزيد عن الخمسة ملايين.. ويشطرها نهر السين إلى جزءين هما القسم الشمالي وهو الذي يطلق عليه الضفة اليمنى، والقسم الجنوبي والذي يسمى الضفة اليسرى ويقوم بربط الضفتين ٣٢ جسراً بالإضافة إلى جزيرتين صغيرتين هما جزيرة سان لويس وجزيرة المدينة، ولو وقفت أعلى قوس النصر لرأيت اثني عشر شارعاً متفرعاً منها الشانزلزيه ويعتبر هذا الشارع الحيوي من أشهر شوارع [(١)] باريس وتجد السيَّاح من كل بقاع الدنيا يتجولون فيه، أو يحتسون الشاي والقهوة في المقاهي المنتشرة على جانبيه، ويبدأ هذا الشارع من ميدان «شارل ديجول أتول» أي ساحة النجمة وينتهي في

(١) رغم أن العنصرية تميز الشعب الفرنسي عن غيرهم من الأوروبيين وذلك بسبب كثرة الجاليات المغاربية والإفريقية. وقد قارنت طباع الفرنسيين فلاحظتهم كالألمان عكس البلجيك مثلاً.

ساحة الكونكورد، وتحتضنه من الجانبين أشجار وارفة ومتناسقة. المشي على هذا الشارع هو المتعة الحقيقية حيث الرصيف الواسع والمحلات الكبيرة الراقية وهو مكتظ بالناس ليلاً ونهاراً، والطرقات في الأحياء القديمة في باريس مرصوفة بالحجارة مما يعطي انطباعاً مميزاً وجذاباً لدى السائح وكذلك جمال مبانيها العتيقة والتي يصل عمر بعضها إلى ثلاثة أو أربعة قرون!

منذ أن تطأ قدماك أرض مطار (شارل ديجول) أو (مطار اورلي) تشعر بأنك انتقلت لجوٍّ مختلف فبعد نصف ساعة من مغادرتك أحد المطارين تجد نفسك في قلب باريس في الشانزلزيه أو سان جرمان أو بجوار كنيسة نوتردام. والملاحظ أن الفرنسيين أصبحوا يتعاملون مع السيَّاح باللغة الإنكليزية وليس كما كانوا قبل عقدين من الزمن، فبعد أن دخلت اتفاقية التشنجن في التنفيذ حرص الفرنسيون على ألاّ يخسروا[١] السيَّاح فتخلوا عن عنصرية اللغة الفرنسية وإلا لتحول السيَّاح إلى بلد أوروبي آخر!

باريس مقسمة إلى عشرين دائرة ربما تكون متقاربة من حيث المساحة ولكنها بلديات وأحياء متفاوتة من حيث الأهمية الاقتصادية والوزن الاجتماعي في قلب العاصمة ومن الشانزليزيه وقوس النصر تبدأ الدوائر على ما أعتقد وهو مركز المدينة التاريخي وترى أطراف المدينة التي يقطن غالبيتها العرب والأفارقة[٢] والفقراء ومنها اندلعت تظاهرات قبل بضع سنوات.

أما أرقى الدوائر وأغلاها ثمناً فهي الدائرة الأولى والثامنة والسادسة عشرة، وثمة دوائر تاريخية مثل الحي الخامس والسادس والحي اللاتيني وشارع سان جرمان وكنيسة نوتردام ونهر السين.

ينصح الزائر بأن يبدأ من الشانزليزيه وقوس النصر الذي يتفرع منه اثنا عشر شارعاً من أهم

(١) وربما ازدادت معاناة الفرنسيين في السنوات الأخيرة في سياق تدني القدرة الشرائية في كثير من بلدان الاتحاد الأوروبي والتي ابتدأت من اليونان وإسبانيا وإيطاليا. حيث ارتفعت أسعار السلع في هذه البلدان عما كانت عليه قبل سنوات.

(٢) لاحظت العكس في مدينة بروكسل العاصمة البلجيكية فالأجانب والغرباء من الأيدي العاملة يسكنون قلب المدينة بينما أطرافها هي الأرقى!

الشوارع الباريسية. ومن زار باريس ولم يترجَّل في الشانزلزيه فكأنه لم يزرها، ففي هذا الشارع عدد كبير من المقاهي على جنبات رصيف الشارع الواسع ومحلات الموضة ونادٍ ليلي شهير اسمه الليدو وفيه محلات العطور وأرقى الماركات من البضائع التي تجذب السيَّاح الأغنياء أما محدودو الدخل فهم في أحسن الأحوال يحتسون كوباً من القهوة على قارعة الطريق والتمتع بمنظر المشاة من كل بقاع الدنيا. وفي نهاية الشارع يوجد قوس النصر أحد معالم المدينة.

وقد بدأ بناء قوس النصر سنة ١٨٠٦ في فترة نابوليون الأول الذي قال لجيوشه: «سترجعون إلى بيوتكم عبر أقواس النصر». وجاء بناؤه وهندسته بإيحاء من قوس تيتوس في روما. استغرق بناء القوس ثلاثين عاماً، وافتتح في سنة ١٨٣٦. بُني القوس في ساحة تُدعى بلاس دوليتوال Place de l'Etoile التي تعني «نجمة»، أُعطيت الساحة هذا الاسم لأنه يخرج منها اثنا عشر شارعاً ضخماً، أسماء هذه الشوارع مستنبطة من أسماء المعارك التي خاضها الفرنسيون ومن أسماء عظماء الأمة الفرنسية؛ غُير اسم الساحة فيما بعد لساحة شارل ديغول. على الجدران الداخلية لقوس النصر محفورة أسماء الحروب الفرنسية وأسماء جنود وجنرالات فرنسيين. القوس يخلد أيضاً ذكرى الجندي المجهول، فمنذ العام ١٩٢٣ استحدثت شعلة دائمة لتخليد الجندي المجهول. وهنالك نحو ثلاثمئة درجة للصعود إلى قمته، ومن قمة القوس ينجلي منظر خلاب لباريس، ويوجد لوحات إرشادية في قمة القوس توضح أسماء المباني المهمة الظاهرة من تلك النقطة.

ويعدُّ هذا القوس اليوم رمزاً للنصر والرسومات والمنحوتات وجوانبه تعود لمعركة ومآثر للحروب الفرنسية ونابليون بونابرت.

وقد صعدت إلى أعلاه وعلى سطحه والدرجات والسلالم ضيقة للغاية وعالية. وقبل أن نبلغ سطح القوس نطل على متحفه ويقع داخله متحف صغير يبرز أهم الشخصيات التي زارته.

ومجمل القول يمكن القول بأن هذا المَعْلَم يعتبر أكبر قوس في العالم ويعدُّ ثالث معالم باريس العظيمة إذا اعتبرنا برج إيفل أولها وكنيسة نوتردام ثاني معالمها.

أما في طرف الشانزليزيه من الجهة الأخرى المعاكسة أي من جهة متحف اللوفر ينتهي بالزائر بميدان الكونكورد ومن أشهر ميادين باريس ورغم أنه يعجّ بالسيارات ليلاً ونهاراً إنه يبتلعها باتساعه وتتوسطه مسلّة مصرية ونافورة جميلة تحرسها تماثيل أحدهما مكان المقصلة

التي نُصبت أيام الثورة الفرنسية ومكان وساحة الكونكود قيل: إنه المكان الذي هدم فيه سجن الباستيل الشهير في وقت ماقبل الثورة الفرنسية الشهيرة.

ولمحبي السير على الأقدام يجدون في الحي اللاتيني متعتهم عبر أزقّته الضيقة المليئة بالحيوية والمطاعم الأوربية والشرقية التي تفوح منها رائحة الشواء ففي هذا الحي تجد كل ماتشتهيه من فنون الطعام سواء كانت فرنسية أو يونانية وإسبانية وإيطالية وبالطبع المطاعم التركية والعربية، ومن الغرائب أنني شاهدت مطعماً يونانياً وبمجرد أن ينتهي مرتادوه من تناول وجباتهم ويفرغون صحونهم يرمونه على الأرض وترى عشرات الصحون مرمية ومكسّرة... وقيل: إن هذه تقاليد إغريقية لا أعرف قصتها!

بعد عدة زيارات لباريس فقد أصبحتُ جزءاً من زحام باريس ولم يعُد صعباً بالنسبة لي أن أتحرك وسط هذه الكتلة من البشر وأصبح من السهولة أن أكتشف طريقي في إنفاق المترو وبدون أن أصطدم بالمتسولين والعشاق وباعة الورد!

ووجدت أن المشي أسهل طريقة للتجول حيث يتيح فرصة أوسع للتعرف أكثر على أي بلد، عندها يكتشف أشياء وأماكن لم تكن تخطر على البال. ولاسيما في الحي اللاتيني وقلب باريس المزدحم بالزوار عند أي مَعْلَم من معالمها الكثيرة، وفي عطلة آخر الأسبوع يخرج كثير من الباريسيين إلى الريف أو يبقون في بيوتهم أما في العطل الصيفية الطويلة فتراهم يقضون إجازاتهم خارج فرنسا وخصوصاً إلى البلدان الفرانكفونية، بينما يزور باريس الملايين من السيَّاح من كل بقاع العالم من جنوب شرق آسيا ومن الأمريكيتين ومن البلدان العربية.

وتطلُّ عليك أثناء تجوالك كنيسة نوتردام التي كانت مسرحاً لأحداث (أحدب نوترادم) لأديب فرنسا الشهير فكتور هوجو، أما إذا تابعت السير على الأقدام فإنك تصل إلى شارع (سان جرمان) حيث المقاهي التي كان يقصدها مشاهير العالم والمثقفون، وإذا ترجَّلت على ضفاف نهر السين ترى نساء باريس مع كلابهن أو قططهنّ المترفة وترى بائعي الكتب القديمة على ضفاف السين.

والبعض يحب السهر على تلة (المونماتر) بجوار الكنيسة البيضاء الشهيرة والتي تسمى (القلب المقدس) وهناك تشاهد السيَّاح من كل بقاع العالم البعض يفضل أخذ صورة بقلم الرصاص أو الفحم، وآخرون يشترون لوحات لمشاهير وغير ذلك.

باريس منفتحة على كل التيارات والأفكار وأكبر دليل على ذلك هو وجود جامع باريس الكبير في ساحة مونج بالدائرة السادسة ففي هذا الصرح الديني الذي يؤمُّه المسلمون من فرنسيين وغير فرنسيين يجذب الكثير من السيَّاح وغدا من معالم باريس ولاسيما بعد أن لحق به حمام تركي ومقهى يلتقي فيه الأصدقاء.

أما معهد العالم العربي والذي يطلُّ بمبناه العملاق على نهر السين فهو الآخر واحدٌ من صروح الثقافة والتقارب والحوار بين الشعوب وتقام فيه فعاليات ثقافية من معارض للكتب وندوات وغير ذلك من النشاطات التي تعزز الروابط بين الفرنسيين والعالم العربي. وهناك ثمة مثل فرنسي شهير يقول: «لا نستطيع أن نضع باريس في قارورة»!

في ساحة (الأنفاليد) رأيت الجسور العظيمة والتماثيل المذهَّبة ونهر السين الخالد يشطر المدينة إلى شطرين وميدان الكونكورد الشهير باتساعه والتماثيل العملاقة في صورة امرأة، كل تمثال يمثل مدينة فرنسية ففي هذا المكان أُعدم لويس السادس عشر مع زوجته ماري أنطوانيت ولفيف من القساوسة ذلك أن شعار الثورة الفرنسية كان: «اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس»، لقد تحالف الإقطاع الديني والسياسي على البلد المغلوب على أمره وكان نصيب الشعب الفاقة والجهل والتخلف، ونهض مفكرو فرنسا يهيبون بالشعب أن يثور ويحطم الأغلال بدءاً من روسو القائل: «خُلق الناس ليعيشوا أحراراً» وفولتير بقوله: «لا أقتنع بما تقول لكن سأدافع عن حقك في القول».

وانتابتني أحاسيس شتى وتذكرت للتوِّ ما قرأته عن هذه المدينة من أعمال رواد الفكر والأدب وتذكرت ثورتها العظيمة وسجن الباستيل وغمرني شعور بالرضا أنني رأيت هذه المدينة وكان ذلك حلماً يراود نفسي...

عند مطالعتي لكتب الأوائل في مجال أدب الرحلات كرفاعة الطهطاوي في كتابه الشهير (تخليص الإبريز في تلخيص مدينة باريز) وكتاب (رحلة إلى أوروبا) للكاتب الشهير جورجي زيدان يصف الفرنسيين بأن «لهم ذوق في الجمال لاتضارعهم فيه أمة ويظهر ذلك في الباريسيين فإنهم قدوة الأمم في الأزياء على اختلاف أشكالها ولهم ذوق في توليد الجمال مما لاجمال فيه من نفسه بترتيب أجزائه»وعندما يصف آثار باريس ومتاحفها على وجه الخصوص فإنه يقول:

«في باريس نحو أربعين متحفاً . . »ولعل أشهرها اللوفر حيث يصفه بأنه من أفخم متاحف باريس من حيث البناء والمحتوى ، وهناك متحف آخر أسماه متحف الأوسمة ، يقول جرجي زيدان[(١)] في كتابه المشار إليه بأنه رأى مقتنيات إسلامية و عربية منها سيف أبي عبد الله بن علي صاحب غرناطة وآخر ملوكها الذي سلَّمها للملك فرناردو والملكة (إيزابيلا) وخرج من غرناطة حزيناً كسيراً[(٢)] .

كما يضيف جرجي زيدان بأنه رأى الساعة الرملية المهداة من الخليفة العباسي هارون الرشيد لشرلمان ملك الفرنجة[(٣)] .

الفرنسية لغة الثقافة والأدب والفكر والقانون، لغة رقيقة لمن يتقنها ويتذوقها، عندما درس أبنائي الفرنسية في بلجيكا وأجادوها كلغة دراسة أساسية لأربع سنوات لم أستطع إجادتها مثلهم رغم أنني درست الفرنسية لعدة دورات قبل تعييني في بلجيكا وأثناء إقامتي فيها، كان أبنائي يتكلمون الفرنسية مع أصدقاء لهم بلجيكيين كالعصافير وهناك مثل فرنسي يقول بأن الفرنسية هي لغة الطيور!

كما أنّ النخب الراقية في الشرق الأوسط سواء في البلدان الفرنكونية مثل لبنان والمغرب العربي أو حتى في مصر وتركيا وإيران يفتخرون بإجادتهم الفرنسية وفي إيران يسمون الفارسية فرنسية الشرق؛ لأنها لغة أدب وهو كناية عن رقّة لغتهم وبأنها تتأقلم مع إنتاجهم الفكري والأدبي! فالفارسية معروف عنها بأنها مثل العربية لغة فن ورقّة وهي تجذب المثقفين في شبه القارة الهندية ففي الهند مثلاً لايجيد الفارسية إلا النخبة الراقية. ولأن الشيء بالشيء يذكر فإن الملاحظ بأن الشعب الإيراني أكثر رقة ورومانسية من الشعب التركي على سبيل المثال والذي اشتهر بجديته وصرامته وصبغته العسكرية الفظَّة رغم جمال تركيا وسحرها وآثارها الرائعة إلا أن الناس في إيران على عكس طبائع الأتراك.

(١) جرجي زيدان هو مؤلف شهير لبناني عاش في مصر وأسس مجلة الهلال قبل أكثر من مئة وعشرين عاماً.
(٢) لمزيد من المعلومات حول موضوع سقوط الأندلس يرجى مراجعة الفصل الخاص بإسبانيا في هذا الكتاب.
(٣) من المعروف تأريخياً أن هارون الرشيد له علاقات جيدة مع ملك الفرنجة وذلك نكاية بجيران الفرنجة وأعدائهم الدولة الأموية في الأندلس وما أشبه اليوم بالبارحة في علاقات العرب الدولية التي تأتي أحياناً على حساب أبناء جلدتهم ودينهم!

من عادات الباريسيين هي اقتناء الحيوانات القطط والكلاب وهي عادة منتشرة في أوروبا وفي أمريكا وبالمناسبة كان لدى جارتي الأمريكية في (فرجينيا) كلب مدلّل من فصيلة معينة وشكله غريب بشعره الطويل وكلما نلتقي صدفة في (الأسانسير) كنت أُظهر لها عدم انزعاجي وأبتسم للكلب وأقول: إنه كلب لطيف وجميل وأسألها مداعباً: هل كلبها يدعى (he) أو (she) وتجيبني بنوع الكلب وجنسه ومن ثمّ تشكرني مبتسمة..! وقد استمعت لنصيحة أمريكي آخر كان يقول لي: لا تكن فظّاً أمام صاحب الكلب؛ لأنه سوف يناصبك العداء وتكسب جاراً لئيماً فأفضل لك ابتسامة وكلمة رقيقة تكسب بها جارك... ولله في خلقه شؤون!

في باريس يشعُر العالم أجمع أن له قطعةً فيها من الشعور والفكر والانتماء، وفي أمريكا يقولون: (زر باريس ومت)!، ويشبهون بوسطن بباريس والكنديون يشبهون مونتريال بباريس وكبار رجال الأدب الأمريكيين يعيشون رِدْحاً من الزمن فيها فهي تلهم وتعلِّم، والعيش فيها ولو لفترة قصيرة مطلب الأدباء.

وصف أحد الأدباء المعجبين بمدينة باريس بأنها كتاب مفتوح تقرأ كل يوم فيه ما يعمّق فيك الإحساس بإنسانيتك وعظمتك كإنسان وأسبقيتك على كل الكائنات، إنها امرأة فاتنة في شرخ الشباب تملأ قلبك حباً، لا تكفّ عن إغرائك وتفجير كوامن عشق الحياة الخبيئة في أغوار نفسك، وقد زرت باريس أول مرة في شتاء بارد مطلع التسعينيات وشاهدت الفرنسيين يحتفلون برأس السنة والبرد على أشده ، ورأيت كيف يعشق الناس الحياة ويحرصون على الاستمتاع بها وكيف يعدون لتلك الليلة ألواناً من لطعام والشراب، وألواناً من المرح إلى الصباح تفاؤلاً بقدوم عام جديد يصيبون فيه حظاً من النجاح والسعادة والصحة أكثر. أما باقي زياراتي لها كانت في الأغلب إما في الصيف أو الربيع وفي كل الفصول باريس هي باريس بحيويتها وأناقتها وجاذبيتها.

لقد زرت باريس اثنتي عشرة مرة وفي كل زيارة أرى شيئاً جديداً أو أكرر مارأيته لتحتفظ به

الذاكرة أكثر فليس من المعقول عند زيارتي لباريس ولو للمرة العاشرة ألاّ أشاهد برجها أو نهر السين[١] ولو عن قرب، فزيارتي الأولى كانت مليئة بالشوق والانبهار صعدت برج إيفل مع أسرتي الصغيرة ومن قمة البرج تسنى لنا رؤية بانورامية شاملة لمعظم أنحاء باريس، وبالمناسبة يمكن للزائر أن يصعد البرج بالسلالم إن كان رياضياً والبعض يفضل ذلك وأجمل شيء عندما تشاهد باريس من أعلى البرج وهناك في الأعلى مقهى ودورات مياه ومتحف صغير جداً عبارة غرفة بداخلها تمثال مجسم لمصمم البرج.

ومن ضمن الأماكن التي تستحق الزيارة هي جادة الشانزلزيه وتعد من أجمل الشوارع ليس في باريس وحدها بل وعلى مستوى العالم وفيه أفخر وأرقى المحلات والماركات العالمية كما ذكرت والمطاعم الراقية مثل مطعم بيتزا بينو، ويوجد فيه مقهى الكارديدور ويلاحظ كثرة المقاهي على جنبات الرصيف والطرقات.

يقال: إنّ مدينة باريس وحدها تضم أكثر من عشرة آلاف مقهى، وهي مشهورة في عالم المقاهي. ويتردد الفرنسيون بصورة مكثفة على المقاهي وخاصة التي تقع على التقاطعات. وبعض هذه المقاهي معروفة من القرن السابع عشر، ولكل مقهى حكاية تُروَى. والأكثر شهرة الآن المقاهي التي تقع في شارع الشانزليزيه ما بين قوس النصر باتجاه متحف اللوفر. وفي الحي اللاتيني وسان جرمان عدد كبير من المقاهي التي يؤمُّها الأدباء والمثقفون عموماً.

برج ايفل.. أشهر معالم باريس:

يعتبر المهندس الكسندر جوزاف ايفل[٢] هو من صممه وتمّ بناؤه بمناسبة معرض باريس

(١) يعتبر نهر السين من أهم المعالم في باريس. جزيرة «ايل دو لا سيت» الواقعة بقلب النهر تضم أماكن سياحية هامه مثل كنيسة نوتردام. هنالك ٣٧ جسراً في باريس فوق نهر السين. طول النهر ٧٧٦ كيلومتراً، ينبع نهر السين من منطقة بورغوندي ويصب في القناة الإنكليزية (المانش). هنالك رحلات بحرية عديدة للسواح تمر عبر النهر. على جوانب النهر هنالك العديد من الدكاكين التي تبيع التحف التذكارية والكتب. في أشهر الصيف تُنظم بلدية باريس فعاليات على ضفاف النهر التي تلقب بشاطئ باريس.

(٢) برج ايفل Eiffel Tower أعلى مكان في باريس ارتفاعه ٢٧٦ متر ويصعد إليه بالمصعد الكهربائي ويفتح للجمهور حتى منتصف الليل.

سنة ١٨٨٩ وأمامه حديقة كبيرة وميدان[1] واسع شهير هو (الدراكيرو) وتصعد للبرج بالمصعد الكهربائي (إسانسير) حتى منتصفه ثم تتابع بمصعد آخر حتى الدور الثاني والثالث حيث يرى الصاعد باريس من أعلى نقطة في البرج ويرى المدينة مترامية الأطراف من على قمته.

أصبح هذا البناء الحديدي العملاق والشاهق رمز العاصمة الفرنسية، وهو الموقع السياحي الأول ويمثل أحد أهم المواقع الباريسية الأكثر زيارة ففي عام ٢٠١٠، على سبيل المثال بلغ عدد الزوار نحو سبعة ملايين زائر. بقي برج إيفل لمدة ٤١ سنة المعلم الأكثر ارتفاعاً في العالم. استعمل في الماضي في العديد من التجارب العلمية، ويستعمل اليوم في بث برامج الراديو والتلفاز.

وهناك سلَّم (درج) للراغب من الزوّار الأصحاء في الصعود بواسطته بدلاً من المصعد الكهربائي. وقد شاهدت طابوراً طويلاً في الانتظار للصعود.. وفي الساحة الرئيسية وقبل الوصول إلى البرج يكثر الباعة المتجولون وأكثرهم من إفريقيا لبيع الرموز التذكارية وهي أشكال للبرج وبصور وألوان مختلفة. يقع البرج على نهر السين على الجانب الذي يضم أكثر متاحف باريس وأشهر بناياتها. وكذلك في الجانب الآخر هناك متنزه جميل قرب البرج للتمتع ولو للحظات وبمهارة تصميمه منذ أكثر من قرن ، ويعتقد الفرنسيون بأن من لم يزر البرج في باريس كأنه لم يزر فرنسا!

واشتهرت باريس بكثرة الرسامين والفنانين، وكانت تُعدّ أيضاً مركزاً أساسياً لأوروبا منذ قرون لكل الفنانين والرسامين والأدباء. ليس هناك رسام أوروبي إلا وقد زار أو قضى جزءاً من عمره في باريس. فكانت مركزاً لكل المدارس الفنية من كلاسيكية وسريالية... ولباريس الثقل الكبير في أعمال الفنانين العالميين..

ومن المناطق التي حرصت في كل زيارة على التجول فيها حي (مونماتر) والصعود للتلة المرتفعة بواسطة آلة عبارة عن مركبة زجاجية هي مزيج بين المصعد والتلفريك يزحف على

(١) يعتبر من أشهر وأجمل ميادين باريس ورغم أنه يعج بالسيارات إلا أنه يبتلعها باتساعه وتتوسطه مسلة مصرية ونافورة جميلة وتحرسها ثمانية تماثيل أحدها مكان المقصلة التي نصبت أيام الثورة الفرنسية ومكان الكونكورد كان المكان الذي هدم فيه سجن الباستيل الشهير في و قت ما قبل الثورة الفرنسية.

منحدر إلى منطقة مونمارتر وهو من الأحياء السياحية المشهورة في قلب باريس وكأنه قرية حالمة تطلُّ على منطقة حيوية، وهناك سلالم حجرية (درج) يمكن لمن يهوى الرياضة أن يصعد من خلالها وهي دقائق معدودة... وفي قمة التلة كنيسة القلب المقدس[(١)] وقيل: إنها أسست في القرن التاسع عشر وغدت هذه المنطقة قِبلَة الرسامين والفنانين والأدباء وعشاق الرقص، أما أزقَّة المنطقة فهي ضيقة للغاية ورومانسية شاعرية ومنطقة حياة للفنانين حالياً. على جانبي الأزقَّة مخازن لبيع اللوحات الفنية المقلدة لأشهر الفنانين ولوحات لفنانين معاصرين محليين. وفيها محلات وأكشاك لبيع التذكارات ومقاهٍ ومطاعم، أجواء المنطقة رائعة ومناسبة للموسيقيين.

أدهشنا منظر البنايات القديمة والمتاحف التي تطلُّ على شواطئ النهر وهذه الجسور بعضها من زمن الثورة الفرنسية. وقد زينت الجسور بتماثيل رائعة وبعضها نقش عليها حرف (إن) (N) باللاتينية نسبة إلى نابليون بونابرت. جسور يختلف بعضها عن الآخر من حيث الفن وطريقة البناء والمادة المستعملة فبعضها جسور حجرية وأخرى حديدية فقط للمشاة. أما أقواس الجسور وتداخلاتها مع بعضها فتولد عند الزائر أثناء الغروب وحمرة المغيب وانعكاسها على نهر السين بأنها ليالي ألف ليلة وليلة في باريس. والعاصمة الفرنسية مشهورة بمحلات بيع الورود والحلويات والكعك والأطباق الفرنسية والخبز المحلى بالسكر حيث يتلذذ الكثيرون بأكل الكعك مع القهوة.

متحف اللوفر Louvre:

وحينما يصل الزائر لباريس فإن أول ما يتبادر إلى ذهنه هو كيفية وضع أولويات رحلته حيث هناك الكثير مما تحمله عاصمة النور لزائرها لأول مرة بما يفوق بعض الأحيان فترة زياراته وفعلاً كمن يريد أن يجمع ماء البحر في إناء صغير.

وعلى الرغم من اختلاف أذواق واهتمامات الزائرين إلا أن هناك ما يشبه الإجماع حول الحرص على زيارة متحف واحد على الأقل من بين متاحفها الشهيرة والمعروفة على مستوى

(١) وتسمى بالفرنسية (بازيليكا دو ساكر كور) Basilique du Sacre Coeur وقد بنيت بين السنوات ١٨٧٥ ـ ١٩١٤ على تلة الشُهداء (مونتمارتر Montmartre) في المكان الذي أُعدم به مطران باريس الأول (دينسوس) في القرن الثالث عشر للميلاد عقاباً على إيمانه. حسب الأسطورة.

العالم كله وهو متحف اللوفر وهناك بالطبع متاحف كثيرة، متحف اورسيه ومتحف جورج بومبيدو إلا أن هذه المتاحف ليست الوحيدة في مدينة يزيد عدد متاحفها على المئة متحف ومركز من أهمها متحف الشمع ومتحف بيكاسو ومتاحف لكل شيء متحف للعطور ومتحف للطوابع ومتحف للشاي ومتحف للعلوم. . .إلخ.

وفي إحدى زياراتي لباريس حرصت على زيارة أهم وأجمل متاحف باريس حيث كان اللوفر قصراً لملوك فرنسا حتى الثورة الفرنسية، ثم حُول القصر إلى متحف سنة ١٧٩٣، والمتحف يضم تشكيلة واسعة من التماثيل، والمنحوتات، والقطع الأثرية والرسوم. بين المجموعات الأساسية في المعرض الآثار الشرقية القديمة التي تعرض حضارات الشرق القديمة التي تعود إلى ٧٠٠٠ سنة قبل الميلاد.

واللوفر[(١)] من أهم المتاحف في العالم، ويقع على الضفة الشمالية لنهر السين، وموقعه خلف ساحة الكونكورد التي يتوسطها مسلَّة مصرية في نهاية الشانزليزيه.

يعدُّ متحف اللوفر أكبر صالة عرض للفن عالمياً، كان عبارة عن قلعة بنيت عام ١١٩٠، تحاشياً للمفاجآت المقلقة هجوماً على المدينة أثناء فترات غياب الملوك الطويلة في الحملات الصليبية، وأخذت القلعة (اللوفر) اسم المكان الذي شُيدت عليه، لتتحول لاحقاً إلى قصر ملكي عُرف باسم قصر اللوفر قَطَنه ملوك فرنسا وكان آخر من اتخذه مقراً رسمياً لويس الرابع عشر حيث غادره إلى قصر فرساي عام ١٦٧٢ مقر الحكم الجديد ليصبح اللوفر متحفاً يحوي مجموعة من التحف الملكية والمنحوتات على وجه الخصوص. وخلال الثورة الفرنسية أعلنت الجمعية الوطنية أن اللوفر ينبغي أن يكون متحفاً قومياً لتعرض فيه روائع الأمة. ليفتتح المتحف في عام ١٧٩٣، ويعدُّ اللوفر أكبر متحف وطني في فرنسا ومن أكثر المتاحف التي يرتادها الزوار في العالم. خضع في عهد الرئيس الفرنسي الراحل فرنسوا ميتيران إلى عمليات إصلاح وتوسعة كبيرة.

والمتحف مقسم إلى أجزاء عدة حسب نوع الفن وتاريخه. ويبلغ مجموع أطوال قاعاته نحو ١٣ كيلومتراً، تحوي أكثر من مليون قطعة فنية سواء كانت لوحة زيتية أو تمثالاً، وبالمتحف

(١) وعرفت مؤخراً بأن عاصمة دولة الإمارات العربية المتحدة بصدد افتتاح فرع لمتحف اللوفر في أبوظبي.

مجموعة رائعة من الآثار الإغريقية والرومانية والمصرية (مسلَّة الأقصر) ومن حضارة بلاد الرافدين (شريعة حمورابي) وتحصى تحف وآثار الحضارتين الفرعونية والعراقية وحدهما بالمئات!

ولم تغب الفنون الإسلامية التي تجسد الحضارة الإسلامية في كل عصورها عن متحف اللوفر ، فقد عرض قسم الكنوز الفنية والتحف التي جلبت من بلدان البحر الأبيض وإيران وجمهوريات آسيا الوسطى والهند. وهذه التحف والكنوز خليط من الخزف والنحت والمعادن والخشب والرسومات[١] .

يدخل الزائر إلى متحف اللوفر من خلال هرم زجاجي ضخم تم افتتاحه في عام ١٩٨٩م، ويحتوي المتحف على العشرات من اللوحات النادرة لعباقرة الرسامين، تتصدرها تحفة (ليوناردو دافينشي (الموناليزا الشهيرة التي رسمها عام ١٥٠٣م وهي الجيوكاندا ليوناردو رسمها لأكثر من أربع سنين، وهي من روائع لوحات القاعة[٢] .

وكما يحتوي المتحف على العديد من الآثار الشرق أوسطية والتي قام الأوروبيون بسرقتها خلال حملاتهم الصليبية والاستعمارية على مدار قرون، حيث يتم عرضها حالياً في المعرض.

ويعتبر اللوفر أهم وأغنى متاحف فرنسا والعالم لما يحتويه من كنوز إنسانية تمثل الحضارات التي قطنت الأرض. ويعدُّ المتحف نقطة الالتقاء بين الشرق والغرب. مبنى المتحف نفسه تحفة معمارية خالدة تفنن بها المصممون والمعماريون على شكل مستطيل ويطل على حدائق (تويلري)، وهناك عدة ممرات تقود إلى المتحف، أما المدخل الرئيسي للمتحف فهو ساحة الهرم حيث يقف الزوار على شكل طابور لمدة ساعات. ويزور المتحف يومياً أكثر من (٣٠) ألف زائر، ثلثهم فرنسيون والباقون سيَّاح من كل بقاع العالم.

واللوفر يضم أعمالاً خالدة في فن الرسم والنحت ومنحوتات من قرون ماقبل الميلاد. وتزدحم أروقة المتحف بزوار من كل أنحاء العالم وفنون من كل بقاع الأرض، إضافة إلى آثار الإغريق ورسومات وتحف فنية نادرة.

(١) «دليل أوربا السياحي» ـ الدار السعودية للنشر جدة ص ٥٥.

(٢) متحف اللوفر استطلاع في مجلة الفيصل. السعودية العددان رقم ٤٢١ و٤٢٢ لشهري يونيو ويوليو من العام ٢٠١١ ص ٣١.

في المتحف قاعتان للفن المعماري تعرضان التاريخ المعماري لقصر اللوفر نفسه والمراحل والفترات والسنوات التي شيد فيها هذا القصر الفني الكبير.

هناك مكتبة وحانوت تحت الهرم الزجاجي المستحدث لبيع كل متعلقات متحف اللوفر والمنحوتات والأعمال والكنوز الفنية على شكل بطاقات وحقائب ودفاتر وأشكال مختلفة. وتنتشر المقاهي في الصالة الداخلية تحت الهرم وفي الطابق الأول للاستراحة وتناول الوجبات السريعة؛ لأن زيارة اللوفر تستغرق وقتاً طويلاً.

لعل من أجمل الذكريات هي ركوبنا الباص النهري وهو عبارة عن سفينة للترويح والنزهات تجول بالزائرين وتمخر عباب نهر السين الشهير الذي يتعرج وسط مدينة باريس وطوله ١٣ كيلومتراً.

في ثاني زيارة لباريس عندما اصطحبت عائلتي حرصنا أن نقضي يوماً كاملاً في مدينة ديزني لاند الشهيرة ولعلها الأكبر والأجمل في أوروبا ولم أكن أدري بأني سوف أرى ماهو أجمل وأضخم منها في أمريكا[(١)].

ديزني لاند Disney Land Paris تبعد ٢٥ كيلومتراً عن وسط باريس، ويمكن الوصول إليها بالسيارة أو بالقطار أو بالباص.. منطقة الديزني عبارة عن منتجع كامل، بحيث يوجد فيها فنادق وحدائق وملاءٍ ومطاعم ،وذات مرة رغب أبنائي مشاهدتها ثانية فأخبرني زميل يعمل في سفارة اليمن في باريس بأن أسهل طريق هي بواسطة المترو السريع والمعروف بالفرنسية (RER) بحيث يقطع الرحلة رأساً من أول شارع الشانزليزيه إلى بوابة مدينة ديزني لاند مقابل مبلغ معقول جداً، ومن ضمن أماكن اللهو الرائعة في الديزني لاند منطقة مائية وهي مشوقة للصغار والكبار على السواء!

وبعيداً عن الزحام والمترو ترى السيَّاح يقضون بعض الوقت في حدائق باريس للاستجمام

(١) وهي (ديزني لاند) ولاية فلوريدا بمدينة ارلاندو الأمريكية فهي أكبر حجماً وتحتاج لنحو أربعة أيام لمشاهدتها بينما باريس ربما يوم كامل يكفي لزيارتها.
وعند إقامتي في بركسل وبحكم القرب الجغرافي فقد زرتها خلال تلك السنوات الأربع عدداً من المرات مع أفراد أسرتي ولكن يظل الانبهار في أول زيارة!

والاسترخاء ولعل أشهر المنتزهات في باريس هي غابات (بولونيا) الشهيرة والتي يوجد فيها بحيرة مفضلة للعشاق الرومانسية والجو اللطيف وكذلك يمارس أغلب السكان فيها رياضة المشي والجري في جنبات الحديقة ويمر فيها نهر السين ولقد عدل مجرى نهر السين بحيث يدخل في وسط العاصمة باريس ويشقها في منتصفها تقريباً، وحدائق باريس كثيرة جداً أشهر الحدائق الموجودة منها جاردان دو توليري وهي قريبة من الشانزليزيه أيضاً وفيها مدينة الملاهي وحديقة النبات. وحديقة اللوكسمبورغ من أجمل حدائق باريس ينشد فيها المتأملون والقراء والعشاق السكينة والجمال.

ومن يزور باريس ولا يتهافت على رؤية كاتدرائية نوتردام بعد أن قرأ رواية (فكتور هوغو) «أحدب نوتردام»حيث تدور أحداث القصة في قصرآل بوربون الأسرة الشهيرة في التاريخ الفكري لفرنسا بهندستها البديعة وعبق القرون الوسطى بين جنباتها وأنت تشم رائحة الشمع وتصطدم أذنك بعزف كلاسيكي عريق.

كنيسة نوتردام Notre Dame وترجمتها للعربية: كنيسة سيدتنا (مريم العذراء)، بنيت في القرن الثالث عشر، واستبدلت كنيسة نوتردام القديمة التي بُنيت في القرن السادس. الكنيسة مَبنية بالطراز القوطي بإبداع باريسي مميز، كانت الكنيسة على مدى العصور مركزاً للصلاة، وللقاءات الثقافية.

عندما يعبر الزائر النهر إلى الضفة اليسرى يجد الحي اللاتيني وهو الحي الخامس عشر من المدينة ويحتوي على الشوارع الملتفَّة حول جامعة (السوربون) والتي تعدُّ أحد أجزائها ويبدأ الحي اللاتيني بميدان سان ميشيل على النهر تتوسط الميدان نافورة رائعة.

والحي اللاتيني شهير فهو قلب باريس الثقافي وفي العصور الوسطى كان الطلبة يتحدثون باللاتينية؛ لأن اللغة اللاتينية في أوروبا كانت لغة العلوم والفكر وما اللغات الأوروبية إلا لهجات شعبية، وفي الحي اللاتيني (السوربون) أشهر جامعة في العالم التي أسسها (روبير دو سوربون) عام ١٢٥٧لتعليم اللاهوت ولكنها اشتهرت بالآداب والفلسفة وتخرَّج مِنْها عددٌ من الأدباء العرب أشهرهم الدكتور طه حسين الذي كان أول مثقف عربي يحمل لقب دكتور، والمكتبات عامرة بالكتب في شارع سان ميشيل الذي شهد الثورة الطلابية في أواخر الستينيات التي أطاحت بالجنرال ديغول وشارع سان جرمان حيث انتشرت الفلسفة الوجودية بين الشباب

في الستينيات وفي شارع سان جرمان مقهى (فلور) التي كان سارتر يتردد عليه رفقة سيمون دي بوفوار وألبير كامي ولفيف من الفلاسفة والمفكرين الوجوديين وهو كاتب كبير في فرنسا حتى أن ديغول لم يقدر على إدخاله السجن حين كان سارتر يشوش على الحكومة ويحتج على حرب فرنسا في شمال إفريقيا فقال الجنرال كلمته الشهيرة: «لا أستطيع أن أضع فرنسا في السجن»! ورئيس فرنسا العظيم ديجول له بعض المقولات الشهيرة فعندما سئل عن طبيعة حكم الشعب الفرنسي.. أجاب بقوله: «من الصعوبة أن تحكم شعباً يأكل خمسين صنفاً من الجبنة» وهذا كناية على أن الشعب الفرنسي متعدد الأذواق.

كما أنهُ رُشِّحَ لولاية ثانية ولم يحظَ سوى بنحو ٥٥٪ من الأصوات وحينها قيل: إنه رفض تسلم المنصب بقوله: لن أقبل أن أكون رئيساً لفرنسا وقرابة نصف الشعب لا يريدني!!

ساعات ممتعة يمكن أن يقضيها الزائر في الحي اللاتيني بين مطاعم يونانية تملأ المكان بالموسيقى وبرائحة الشواء ومطاعم صينية وأكشاك تبيع المثلجات والمشروبات وبين مجموعات تشاهد مهرجاً أو ساحراً أو عازفاً موسيقياً! يحيط به السائحون ويضعون في قبعته قطعاً نقدية بعد أن يمر بها على المتفرجين.

ومترو الأنفاق مجمع ثقافة وترفيه وتأمل فضلاً عن كونه وسيلة تنقُّل، لا يمكنك أن تسمع فيه ضجيجاً، الناس صامتون بعضهم مستغرق في قراءته وآخر غارق في تأملاته، والعربة تفوح بالعطر الفرنسي الراقي خاصة من السيدات ومن حين لآخر تصعد فرقة موسيقية تعزف أو شاب بقيثارته والركاب بعضهم يُمِدُّه بقطع النقود.

وأهل باريس يقرؤون مثل معظم شعوب أوروبا في المترو وفي المكتبات العامة ويقصدون المكتبات، ويقتنون الكتب كما نقتني نحن وسائل الزينة والترفيه بإفراط شديد، ويحدث أن تدخل مكتبة عامة فترى الزائرين جلوساً على الأرض يقرؤون عندما لا يجدون المقاعد الكافية وتمر في آخر الليل على متشرد سكِّير فتراه يقرأ، وهذه أشياء لاحظتها، وشاهدت مرة شاباً يقرأ كتاباً ماشياً لم يكن دليلاً سياحياً بل كان كتاباً ولم يرفع رأسه إلا حين أراد عبور الشارع فرفع رأسه منتظراً ضوء المشاة.!

وفي مكتبات باريس العامة كسائر المدن الأوروبية يوفرون الصحف والمجلات يومياً

للمرتادين بالمجان وقد لا يكون في وسع المرء النَّهِم للقراءة الصحفية شراء هذا الكم يومياً فتشتري المكتبة من ميزانيتها وتوفر للقارئ متعة المطالعة.

ومعهد العالم العربي مثال للتواصل الثقافي بين فرنسا والعرب وهو جدير بالزيارة والاستفادة مما فيه من كنوز أدبية وفكرية وهندسته متميزة وإطلالته على السين زادت في جماله وعبق الشرق ماثل فيه، وكثير من الفرنسيين يداومون على ارتياده لسماع الموسيقى الشرقية وحضور المحاضرات التي يقدمها المفكرون العرب ـ الضيوف والمقيمون ـ والأمسيات الشعرية والمعارض الفنية، وقد قدم كثيراً لفرنسا وللغرب من ثقافة العالم العربي وفكره.

ومتحف الشمع في باريس يحتوي على مجموعة واسعة من تماثيل لشخصيات شهيرة من ممثلين، ومغنين، وسياسيين، جميعها مصنوعة من الشمع. في كل سنة يتم اختيار نحو أربع إلى خمس شخصيات جديدة لصناعة تماثيل لها من الشمع وإضافتها إلى مجموعة المتحف.. من بين التماثيل الموجودة في المتحف شخصيات علمية مثل اينشتاين وشخصيات سياسية مثل: باراك أوباما، وانجيلا مركيل، وساركوزي.![1].

وشاهدت في إحدى الزيارات مركز بمبيدو والذي من السهل زيارته؛ لأنه يقع بالقرب من إحدى محطات المترو لعلها محطة (الشتليه) وفيها المركز الوطني للفنون والحضارة جورج بمبيدو ـ رئيس فرنسا بين السنوات ١٩٦٩ ـ ١٩٧٤ ـ والمركز الذي بُني بأسلوب هندسي فريد عبارة عن متحف متخصص بالفنون الحديثة بجميع أشكالها: الرسم، وفنون البلاستيك، والتصميم، والسينما، إلخ... ألوان المواسير والأشكال الهندسية تختلف حسب محتوياتها وقد افتتح المركز في أواخر السبعينيات.

المتحف الوطني للفنون الحديثة يحتل طابقين من المركز، والطابق الأخير يحتوي على مجموعة رائعة من الفنون من بداية القرن العشرين وحتى الستينيات. ويضم هذا الجناح لوحات فنية لرسامين عظماء مثل بيكاسو وغيره.

---

(١) وهو شبيه لمتاحف للمشاهير من هذا النوع وقد زرت متاحف مشابهة في لندن وبيروت وغيرهما.

قصر فرساي:

في إحدى زياراتي لباريس عندما كان أحد إخواني دبلوماسياً بسفارة اليمن في باريس نصحني ورافقني[(١)] لزيارة هذا القصر. يقع قصر فرساي على بعد ٢٥ كم تقريباً جنوب غرب باريس. وهو من أجمل وأفخم القصور، بُني في عهد الملك لويس الرابع عشر وهو رمز قوة وجبروت فرنسا وأهم مايلفت نظر السائح هذه الأجزاء:

١. قاعه المرايا تحتوي على ١٧ مرآة في جهة واحدة، مقابل كل مرآة في الجهة الأخرى شباك كبير يطل على حدائق القصر. كما تحتوي هذه القاعة على عدد كبير من الثريات النفيسة.

٢. غرفة نوم مخدع الملك، تتميز بموقعها في الجهة الشرقية لكي يرى الملك الشمس في بداية اليوم. كما ويلفت الأنظار القماش المطرز والأثاث الجميل والباهظ الثمن.

٣. حدائق القصر، تتميز بتناسق رائع بين الأشجار، النوافير ، الزهور والأعشاب التي يتم العناية بها وبتنسيقها بشكل دائم لكي تبقى رائعة الجمال. ينصح عند الزيارة في فصل الصيف التجوال بتأنٍ في الحدائق الملكية للتأمل والاستمتاع بجمالها.

تذوق الطعام هو من ضمن ما يرغب فيه الزائر ويوجد في باريس ـ بالمناسبة ـ عدد كبير من المطاعم الشرقية العربية والتركية والهندية وغيرها أما العربية منها فهي في الغالب لبنانية راقية جداً مثل مطعم الديوان وهو يطل على نهر السين، وكذا مطاعم نورا وغيرها. وربما الآن قد زادت المطاعم الشرقية وربما اختفت التي عرفتها في مطلع التسعينيات وبعدها، كما يوجد عدد من المطاعم المتعددة الجنسيات في جنوب العاصمة والحي اللاتيني وهو حي يسكن فيه بعض العرب من شمال إفريقيا.

الملاحظ بأن باريس غدت مرتفعة الأسعار وقد انعكست الأزمة المالية الأوروبية في الآونة الأخيرة على فرنسا بعد أن عصفت باقتصاد اليونان وإسبانيا والبرتغال وأطاحت برئيس حكومة إيطالي، وهاهي تدق أبواب فرنسا، ولاشك بأن ارتفاع الأسعار ينعكس على مزاج وتذمُّر

(١) وفي زيارة أخرى ترفقنا في زيارة لشرق فرنسا نثل بيزانسو وثلاث مدن سويسرية منها جنيف وبازل ومدن أخرى وعبرنا حينها بالسيارة أطراف سلسلة جبال الألب في عز الشتاء.. ولم أتمكن من ذكر تفاصيل رحلاتي لعواصم ومدن أوروبية وأمريكا وآمل أن يتم ذلك في كتاب آخر قريباً بإذن الله.

المواطن والمقيم على حد سواء بحيث تصبح ممتعة لذوي الدخول المرتفعة والسيَّاح الممتلئة جيوبهم بالأموال!

حلاوة باريس وأي بلد جميل تكمن في أول زيارة حيث عنصر الانبهار يفعل فعله ومن تجربتي فإن أول زيارة كانت مختلفة تماماً كما أن الزيارات التالية كنت أكتشف أشياء جديدة وكان التكرار يعدُّ بعد ذلك مملاً ولاسيما من يقطنها ويقل الانبهار في كل زيارة ولكن ضرورات العمل جعلتني أزورها أكثر من أي عاصمة أخرى!

الوجود العربي والإسلامي:

للعرب والمسلمين في باريس حضور لافت، وأغلبهم من بلدان المغرب العربي لاسيما الجزائر الذين يقدر أعدادهم بالملايين وأقرب دليل على ذلك بأن أعدادهم في مدينة مارسيليا مع بقية المغاربة والعرب يشكلون نصف سكان المدينة!

وهناك أعداد هائلة من عرب المشرق من بلدان الشام وبالأخص لبنان [١] ولهم حضور في الحياة الباريسية ومن مصر الذين لهم حضور في الحياة الباريسية، وقد انعكس ذلك في تواجد عشرات المطاعم العربية ومحلات بيع اللحم الحلال والمأكولات العربية والشرقية وكذا بائعي الصحف والمجلات والمطبوعات العربية.

يُعدُّ حي (بربِس) من الأحياء التي يتواجد فيها جاليات المغرب العربي والزائر لهذا الحي عليه أنْ يحذر من اللصوص والصعاليك وتكثر فيه المحلات العربية لبيع الهدايا وبعض المطاعم والمتاجر التي يرتادها عرب باريس ليتزودا بالمؤن التموينية ذات الطابع العربي والشرقي من بهارات ومكسرات وتمور ونحو ذلك.

ومن المعالم العربية والإسلامية في باريس هو جامع باريس الكبير[٢] والذي يقع ضمن

(١) يقدر عدد أفراد الجالية اللبنانية بحوالي (١٥٠) ألف نسمة. النسبة الأكبر منها تنتمي إلى الطائفة المسيحية وبالتحديد المارونية منها حيث تقدر بحوالي (٧٠) ألف ماروني ويبلغ عدد أفراد بقية المذاهب المسيحية حوالي (٢٠) ألفاً والبقية مسلمون سواء كانوا سنة أو شيعة.

(٢) الحضور الإسلامي في فرنسا منذ أكثر من نصف قرن ويقدر عدد المساجد في فرنسا بأكثر من ١١٠٠ مسجد على الأقل.

الدائرة الخامسة لباريس ويحيط به شوارع من كل الجهات وفي فنائه الخلفي يوجد مطعم ومقهى وحمام تركي للرجال والنساء بالتناوب ويرتاده العرب وغير العرب وغدا من معالم باريس المهمة[1]. تم إنشاؤه عام ١٩٢٦، من ميزانية الدولة الفرنسية وافتتح المسجد الرئيس الفرنسي آنذاك «دومارغ». ويعتبر مسجد باريس أول مَعْلَم إسلامي تكفلت الدولة الفرنسية ببنائه، . وجاء بناء المسجد الذي يقع بالمقاطعة الخامسة من باريس، كامتنان وعرفان من الدولة الفرنسية لضحايا المسلمين، الذين حاربوا إلى جانب فرنسا.

وجاء تشييده حسب النمط الأندلسي. ويقع على باحة تتوسطها حديقة محاطة بعدَّة أروقة، وفي مركز البناية نجد بهواً مستلهماً من قصر الحمراء، أبرز آثار المعمار الإسلامي بمدينة غرناطة (إسبانيا)، تحيط به أقواس مزخرفة بشكل رفيع. ومما يلفت الانتباه في قاعة الصلاة هو طريقة تزيينها وجمالية السجاد والذي بعضه هدية من إيران. وفي السنوات التي توالت شهدت العاصمة الفرنسية كغيرها من مدن فرنسا تشييد العديد من المساجد، ومع إحساسها بوزن الجالية العربية الإسلامية قررت فرنسا إنشاء مؤسسة تكون بمثابة قنطرة بين العالم العربي الإسلامي والعالم الغربي، وهي «معهد العالم العربي» هذه المؤسسة هي ثمرة شراكة بين فرنسا واثنتين وعشرين دولة عربية، وقد أنشئت سنة ١٩٨٧ من قبل الرئيس «فرانسوا ميتران» الذي جعل منها إحدى أكبر منجزات حكمه. ومنذ نشأته عمل المعهد على تعميق دراسة وتفهم العالم العربي وثقافته إلى تشجيع التبادل الثقافي والتواصل والتعاون بين فرنسا والعالم العربي، لاسيما في مجالات العلوم والتقنيات والمساهمة في ازدهار العلاقات بين العالم العربي وفرنسا.

ولتحقيق هذه الأهداف فقد تضمن المعهد متحفاً يحتوي على معروضات جُلبت من المتاحف الوطنية الفرنسية «اللوفر»، وغيره ومن مجموعات خاصة ومن بعض الدول العربية، خاصة تونس وسوريا. وهذه المعروضات من منتوجات السيراميك والملابس القديمة والأدوات المتنوعة والحلي، تعطي صورة عن تاريخ الحضارة العربية الإسلامي ،ونجد مثلاً في

(١) وكنت خلال زياراتي العديدة لباريس يصطحبني زملائي بالسفارة هناك للمسجد سواء للصلاة أو للجلوس ساعات في المقهى الذي بداخل المسجد والبعض يحلو له أن يجرب الحمام المغربي في أحد أركان المسجد.

المتحف معروضات من مسجد القيروان ومن التراث الإسلامي في شمال إفريقيا ومجوهرات، وملابس عن العهد الممتد من دولة الأغالبة إلى العثمانيين. وهناك أيضاً قاعة للسمعي والبصري تمكّن الزائر من اكتشاف معالم الحضارة العربية الإسلامية عبر الصوت والصورة.

ويضم المعهد مكتبة غنية، تضم عشرات الألوف من الكتب وأعداداً هائلة من الدوريات بلغات متعددة العربية، الفرنسية، الإنجليزية، الألمانية، الإسبانية والإيطالية. كما اتجه المعهد إلى تنظيم عدة معارض وملتقيات. من أبرز هذه التظاهرات، نذكر «نادي معهد العالم العربي» الذي ينظم شهرياً ندوة حول موضوع الساعة ومعرض الكتاب ومهرجان السينما العربية ومهرجان الموسيقى. وإجمالاً يستقبل هذا المعهد حوالي مليون زائر سنوياً، ويصدر مجلة ثقافية تدعى «قنطرة»، ويقوم بأنشطة تربوية متعددة.

وكان طبيعياً لهذا العدد الكبير من الجاليات العربية في فرنسا وباريس خصوصاً فإن فيهم المبدع والمثقف بل وصاحب مسؤولية سياسية واقتصادية واجتماعية كبيرة فخلال جيلين أو أكثر برز علماء وأدباء لعلّ أشهرهم.. مالك بن نبي والمفكر الكبير محمد اركون وصاحب الروايات الشهيرة أمين معلوف وغيرهم، واحتضنت باريس أيضاً مبدعين عرب آخرين في مجال الفن وساسة واقتصاديين وأطباء وغير ذلك.

وأخيراً فإن باريس رغم أنها من أجمل المدن الأوروبية إلا أنها وبسبب الغلاء ولاسيما بعد الأزمة المالية التي تعاني منها دول اليورو ومنها فرنسا فإن ذلك ينعكس على مزاج الزوار العرب وكثير من البلدان لاسيما محدودي الدخل.

وهكذا فإني في هذه التناولة قد شملت باريس دون سواها رغم أني زرت بعض المدن الفرنسية ولكنها تبقى الأجمل والأكثر شهرة لمن يقصد فرنسا لدرجة زيارة كل شيء فيها حتى القبيح..! ومنها مجاري باريس فعلاً، وهذه ليست مزحة إنها مزار أيضاً وقديماً قيل: للناس فيما يعشقون مذاهب.. فباريس بجمالها وأناقتها وعطرها لم ترُق لبعض من يبحث عن العجيب فيها فالبعض يحلو لهم زيارة تلك المجاري! هذه الجولة السياحية اسمها الرسمي هو «متحف المجاري» وهي جولة تعليمية حول أساليب الصرف الصحي التي تتبعها باريس. ويمكن للمتجول في أحشاء باريس أن يرى أنابيب المجاري وما تحمله من فضلات. وتقول نشرات

هذه الجولة السياحية: إن جولة المجاري الباريسية يجب أن لا يتوقع معها المتجول أن تكون الروائح مثل عطور بوتيكات باريس![1].

وباريس لها مشاكلها الأخرى فالسرقة والسطو والإفراط في تناول الكحول أشياء مميزة، ومما يؤسف له أن كثيراً من المنحرفين هناك هم من أبناء الجالية العربية خاصة من شمال إفريقيا ويبدو أن مشكلة الهوية وفقد الانتماء السبب وراء ذلك فعلى الرغم من كونهم فرنسيين يحتفظون بسمات عربية تميزهم مع الهوية الفرنسية لغة وعادات ونمط معيشة مع إحساس بالدونيَّة وهذا الصراع اللاشعوري!

كما أن عدم معرفة مواطني بلدان المشرق العربي بالفرنسية، وإلمام الكثير بالإنجليزية، تجعلهم يتحولون لخيارات أخرى منها البلدان الناطقة بالإنجليزية سواء في أوروبا أو أمريكا وكذلك بلدان جنوب شرق آسيا، ويبدو أن السيَّاح العرب وهم كثر، ـ وبسبب تأثر بلدان عربية من تداعيات ماعرف بالربيع العربي ـ قد اتجهوا لخيارات وبدائل أخرى عوضاً عن لبنان ومصر وتونس وسوريا فاتجهوا بالإضافة لشرق آسيا إلى تركيا ودول الكاريبي وأمريكا اللاتينية.

(١) صحيفة الشرق الأوسط اللندنية العدد رقم ١٢٥٠٩ الصادر في ٢٦ فبراير ٢٠١٣.

بروكسل عاصمة أوروبا

بحكم عملي بوزارة الخارجية فقد تمكنت من زيارة عدد من البلدان الآسيوية والعربية وأوربا وكذلك أمريكا وكندا، فأول مرة زرت بروكسل هي قبل تعييني بها والإقامة فيها بنحو عشر سنوات عندما ذهبت لمهمة لمدينة باريس وكانت أيضاً أول مرة في شتاء عام ١٩٩١ وكان أخي (وهو أيضاً دوبلوماسي) يعمل في سفارتنا في باريس حينها، وكانت فرصة لزيارة بروكسل حيث كان لي زميل عزيز يعمل بسفارة اليمن في بروكسل ودعاني لزيارته، وبالفعل بعد إنهاء المهمة الرسمية في باريس شددت الرحال بالقطار إلى بروكسل وكان في استقبالي زميلي، وبقيت فيها نحو ثلاثة أيام ولم يخطر في بالي بأني بعد عشر سنوات من ذلك التاريخ سوف أقطن في هذه المدينة الهادئة والرومانسية لمدة أربع سنوات كدبلوماسي في سفارة اليمن في بروكسل التي كنت وقتها بدرجة مستشار ونائباً للسفير. ومن بلجيكا بحكم موقعها كانت فرصة ذهبية لي بعد الإقامة فيها في وقت لاحق لزيارة عدد من الدول الأوروبية وبأقل التكاليف، وفي يسر وسهولة كبيرة فمن بروكسل تمكنت من زيارة باريس عدة مرات وسبق أن زرتها لمرات قبل ذلك للالتحاق بعملي في سفارتنا بواشنطن فكنت أتوقف لبضعة أيام في باريس.

وتتميز مملكة بلجيكا بموقعها الفريد، حيث تقع بين أربعة بلدان أوروبية(١) وقريبة جداً من الجزر البريطانية(٢)، مما جعلها تضم أفضل ما توفره أوروبا. وتعدّ مدينة بروكسل عاصمة بلجيكا واحدة من أهم عواصم أوروبا الغربية، وهي مقر المؤسسات الأوروبية وحلف الناتو، كما أنها تضم شركات المال والتجارة الدولية. وهي أيضاً ملتقى الجنسيات ونموذج للضيافة

(١) هي ألمانيا وفرنسا ولوكسمبرج وهولندا، وقد زرت هذه الدول الأربع فضلاً عن بلدان أوروبية أخرى كالنمسا والتشيك وبعض بلدان شرق أوروبا.

(٢) ولقربها من بريطانيا فقد زرت لندن مع أفراد أسرتي من مدينة بروكسل بالقطار عن طريق نفق بحر المانش الذي يربطها ببقية أوروبا، كما تمكنت من زيارة سويسرا بازل وجنيف وغيرهما براً عن طريق فرنسا ومدينة بيزانزو ومنها إلى الحدود السويسرية، كما تسنى لي زيارة روما وغيرها وفي كتابي المقبل المكمل لهذه الرحلات ستكون بقية بلدان أوروبا إحدى مفردات الجزء الثاني بإذن الله.

والتنوع.. ويعدّ اسمها مرادفاً للحيوية والجودة. وعلى الرغم من كون «بروكسل» مركزاً اقتصادياً مهماً في أوروبا، إلا أنها تعتبر أيضاً مقصداً سياحياً بارزاً على خريطة السياحة الأوروبية، خاصة وأنها تمتلك شبكة خطوط حديدية تربطها مع أمستردام وباريس وكولونيا ولندن، مما يجعلها محطة أساسية للسياحة بين الدول الأوروبية.

ومَن يزُر بروكسل[(١)] لأول مرة فعليه أن يزور مركزها السياحي ساحة «قراند بلاس» أو الميدان الكبير وهو من أهم معالم مدينة بروكسل، حيث يضم مبنى بلدية بروكسل وكنيسة القديس ميخائيل. ويعدّ ميدان قراند بلاس الذي يضم ممرات ضيقة وبيوتاً قديمة أحد المواقع التراثية العالمية لليونسكو، باعتباره واحداً من أجمل ميادين العالم.

وقد وصفه فيكتور هوغو بأنه أجمل ميادين أوروبا، لذا فهو يعدّ نموذجاً رائداً لعمارة القرن الخامس عشر.

سجادة من زهور!

تنفرد ساحة قراند بلاس بتحولها لسجادة عملاقة من الزهور الطبيعية الطرية بصورة مذهلة والتي تعرف عالمياً بالإنجليزية Brussels' Flower Carpet

هو يوم خاص يحدث في بروكسل مرة كل سنتين، و يتم استخدام ما يقرب من ٧٠٠٠٠٠ زهرة لتشكيل سجادة من الزهور توضع في الميدان الرئسي في بروكسل و بالتحديد أمام قاعة المدينة، يبدأ الاحتفال مساء يوم ١٢ أغسطس حيث يبدأ العاملون في تجهيز الزهور و السجادة الكبيرة ثم تفتح تلك السجاده للجمهور والعامة في ١٣ أغسطس، تظل مستمرة و مفتوحة لهم حتى ١٥ أغسطس[(٢)].

المدهش في الأمر أن تلك السجادة تكون كلها مكونة من الزهور المخْتلِفة و الأشكال المتباينة كالقلوب و المثلثات و غيرها من الأشكال، و المدهش أكثر أن التمتع بتلك السجادة

(١) بروكسل (تكتب بالفرنسية: Bruxelles، بالهولندية الفلامنكية: Brussel).

(٢) لذا فإن حظوظ من يتمكن من مشاهدة سجادة الزهور العملاقة قلة لأنها لاتتجاوز ٧٥ ساعة أي ثلاثة أيام كل عامين إلا للمقيم أو الزائر سعيد الحظ إذا جاز لنا تسميته في هذه الحالة!

يكون مجانياً فلا يفرض على أهالي المدينة أي رسوم للقرب من تلك السجادة غير أنه إذا ما أرد شخص رؤية أفضل،يمكنه دفع ٣ يورو ليرتفع أحد المباني و يحصل عى رؤية بانورامية رائعة وربما القليل من المشاهدين يجهلون تفاصيل ترتيب تلك الزهور وأعدادها التي تتكون من ٧٠٠٠٠٠ زهرة. !

أما مبنى Atomium فيعدّ اليوم أحد رموز عاصمة أوروبا بروكسل، وهو صرح يجمع بين فني النحت والهندسة، ويرمز إلى كريستال من الحديد مكبر ١٦٥ مليار مرة... ! ويرتفع هذا الصرح ١٠٢ متراً ويزن ٢٤٠٠ طن، صمّمه المهندس (اندريه واتركين) من الفولاذ المغطى بالألمنيوم، بهدف استقبال معرض بروكسل الدولي للعام ١٩٥٨ الذي شاركت فيه ٤٣ دولة واستمر ستة أشهر، إلا أن رواجه وشعبيته ونجاحه جعله رمزاً شامخاً في السياحة في بروكسل حتى اليوم، وزاره عشرات الملايين منذ بنائه وفي أواخر أيامي في بروكسل أجريت له عمليات ترميم استغرقت نحو عامين(١).

ويتألف (الأتوميوم) من تسع كرات متصلة بأنابيب عملاقة تم ترتيبها وفقاً لنظام تكوين مكعب، ويصل قطر كل منها إلى ١٨ متراً بزنة ٢٥٠ طناً. ويحتوي الأنبوب الرئيسي على مصعد يتيح وصول ٢٢ شخصاً دفعة واحدة إلى قمة (الأتوميوم) في غضون ٢٣ ثانية، إضافة إلى وجود سلالم متحركة في الأنابيب المنحرفة والتي تعتبر الأطول في أوروبا حيث يصل طول أحدها إلى ٣٥ متراً.

ويمكن للجمهور زيارة ست كرات من أصل تسع، وهي مؤلفة جميعها من طابقين رئيسيين، حيث تستقبل الكرة الرئيسية معرضاً دائماً مكرساً للسنوات الـ ٥٠ والمعرض العالمي ومراحل بناء (الأتوميوم). أما الكرات المتبقية فإحداها خصّصت لاستقبال المعارض المؤقتة، وأخرى لتنظيم نشاطات مختلفة كعرض الأفلام وإقامة الحفلات الموسيقية والمهرجانات

(١) مجلة جهينة الثقافية.. استطلاع في صيف ٢٠١١.

والمؤتمرات، والثالثة للتمتع بمناظر بروكسل الخلابة وبانوراما رائعة لمدينة بروكسل، أما الكرة الرابعة يوجد فيها مطعم يقدم الوجبات البلجيكية، وأخيراً كرة مخصّصة للنشاطات الترفيهية للأطفال.

وعلى بعد أمتار من (الأتوميوم) توجد مدينة (أوروبا المصغرة) وهي عبارة عن مبانٍ مصغرة لأهم معالم مدن دول الاتحاد الأوروبي، ويمكن للزائر ملاحظة المهارة والدقة اللتين أنجزت بهما هذه المعالم المصغرة عن الأصل، حيث تمتد على مساحة كبيرة وتعتبر مزاراً مسلياً لأهالي بروكسل وزائريها من بلجيكا وأوروبا ومن بلدان عدة.

والعمل الدبلوماسي في بعثة بحجم بروكسل والتي تضم مؤسسات الاتحاد الأوروبي وحلف الأطلسي ومقراً لمنظمات وهيئات دولية وبعثات لجميع بلدان العالم تقريباً، يعتبر بحق مدرسة لكل دبلوماسي شأنها شأن نيويورك وجنيف، وكنت وقتها بدرجة مستشار (شخص ثانٍ) ونائباً للسفير، وكانت تقدم للسفارة دعوات حضور ندوات ومحاضرات ومؤتمرات (سمنار) ونحو ذلك وقد تسنى لي تلبية حضور أغلب تلك الفعاليات الثقافية التي دعت لها السفارة، على سبيل المثال حوارات الحضارات والأديان، والإسلامفوبيا وحقوق الإنسان، وقضايا الجاليات والأقليات الإسلامية في شرق القارة (البلقان) أو عموم أوروبا ونحو ذلك من المناسبات السياسية أو الثقافية.

وضمن فعاليات السفارة كدبلوماسي مقيم تسنى لي مقابلة العاهل البلجيكي(١) البرت الثاني

(١) استمرت مراسم المقابلة وتقديم أوراق الاعتماد نصف ساعة ولكن التحضير لها والوصول للقصر والنزول من سيارة المراسم الفارهة باب القصر والتحول لعربتين تجرهما الخيول تماماً كمراسم تسليم السفراء أوراقهم لدى الملكة اليزابت. ترجلت العربتان في فناء القصر الواسع وحوله حديقة غناء في قلب بروكسل وخلال دقائق توقفت العربتان اللتين تقلّانا باب القصر الداخلي وصعدنا للطابق الثاني أو الثالث لم أعد أتذكر وحينها وقفنا دقائق مع موظفي المراسم الملكية فخرج علينا العاهل البلجيكي وسلم علينا وأخذنا صوراً تذكارية بعدها كان حديثاً قصيراً ودياً وبروتوكولياً لابد منه وغادرنا بنفس خطوات المراسم لحين وصولنا باب حدائق القصر الخارجي لتقلنا سيارة المراسم للسفارة.!

في قصره بمناسبة تقديم أوراق اعتماد سفيرنا الجديد[١]، كذلك قابلنا رئيس المفوضية الأوروبية حينها السيد (رومانو برودي) الإيطالي الجنسية والذي تقلَّد بعدها منصب رئيس وزراء بلاده[٢]. وكان برودي شخصاً ودوداً لنا وتكلم عن قضايا التعاون الثنائي مع اليمن بشيء من التفصيل وكان ملماً بقضايا المنطقة ومنها بلادنا رغم أن الاتحاد الأوروبي منظمة إقليمية تهتم أساساً بالشأن الأوروبي وما عداه مجرد علاقات دولية ليس إلا . . وفي مناسبات أخرى أُتيح لي مقابلة وزير خارجية الاتحاد الأوروبي والذي كان يوصف وقتها بمستشار الاتحاد الأوروبي للشؤون الخارجية السيد خافير سولانا[٣] الإسباني الجنسية في أكثر من مناسبة.

في ساحة شومان والتي يطل عليها المبنى العملاق للاتحاد الأوربي والمفوضية الأوروبية ضمن سلسلة منشآت هذا الكيان الفاعل في السياسة الدولية وعلى بعد أمتار تقع الحديقة الخمسينية حيث أقيم في إحدى زواياها المركز الإسلامي والمجاور للساحة التي سميت باسم وزير خارجية فرنسا.

وهذا المركز أكثر من مسجد ومدرسة فهو مكون من ثلاثة طوابق وفيه قاعات للصلاة للرجال وأخرى للنساء، ومدرسة من طابقين لأبناء الجالية الإسلامية حيث تدرس علوم الدين واللغة لعربية في أيام العطلة الأسبوعية (السبت والأحد) وكنت أحرص على إيصال أبنائي لحضور الدروس الإضافية لتعزيز استمرار ارتباطهم بلغتهم الأم وأمور دينهم ودنياهم، فقد استفادوا كثيراً وتحسنت لغتهم العربية حيث يستقطب المركز أبرز وأفضل الكوادر التعليمية سواء من الأزهر الشريف أو من فاس المغربية، واندهشت لأسلوب تعليمهم حيث يتضمن

(١) وهو الدكتور جعفر حامد والذي تقلد عدة مناصب في اليمن منها نائب وزير التخطيط والإدارة المحلية ومؤخراً نائباً لمدير مكتب رئاسة الجمهورية.
(٢) خلفاً لبرسكوني ويعتبر برودي شخصية سياسية معتدلة في إيطاليا ويمثل يسار الوسط.
(٣) وهو إسباني الأصل وكان وزيراً للثقافة في مدريد وشخصية مرموقة على المستوى الدولي.

مفردات دروسهم تزاوج بين الأصالة والمعاصرة في تلقين التلاميذ من ضمنها ألفية ابن مالك في النحو وهذه القصيدة التي يحفظها الطفل عن ظهر قلب تظل في ذاكرته مدى الحياه وبوصلة توجهه لتلمس فهم الصعوبات النحوية وكانت تدرس في اليمن حتى منتصف القرن العشرين لذا نرى الجيل القديم في اليمن مقدرتهم العالية في اللغة العربية ولاسيما قواعد النحو والصرف وخلافه . .

ولطالما شاهدنا مواكب رؤساء البلدان الأوروبية في ذلك الشارع عندما ينعقد مؤتمر لدول الاتحاد في عاصمة أوروبا كل ثلاثة أشهر تقريباً حيث لا يمرُّ العام إلا وقد التقى زعماء القارة ثلاث أو أربع مرات تقريباً وبسلاسة تثير الاندهاش فلا انسداد للطرق الرئيسية المؤدية لمباني الاتحاد ولا خوف أو احتراز أمني يلفت انتباه سكان تلك الأحياء، وقارنت ذلك بوصول زعيم أو أكثر لأي عاصمة عربية حيث تعلن حالة الطوارئ في بعض أجزاء تلك المدن ويصبح مقر تجمعهم أشبه بثكنة عسكرية!

بروكسل مدينة المتاحف:

مرّت بروكسل عقب القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين بفترة زمنية من الإثارة وطفرة فنية لا مثيل لها، فقد خرج للنور طراز الفن الحديث في أواخر القرن التاسع عشر حيث بُنيت عدة قصور ومعالم بارزة، وبعدها تنافست مئات المنازل والمدارس والمقاهي والمحلات لإظهار عناصر الأصالة. وبذلك صارت بروكسل إلى جانب فينّا وبرشلونة العاصمة الأوروبية للفن الحديث.

من جهة أخرى، تنتشر المتاحف الفنية العريقة في بروكسل بصورة كبيرة، حيث تقدم العاصمة البلجيكية لمحبي المتاحف والفنون التشكيلية فرصة حقيقية للاستمتاع بأهم إنتاجات الفن التشكيلي القديم والمعاصر؛ إذ تضم متاحف الفنون الجميلة الملكية حوالي ٢٠ ألف لوحة زيتية وتماثيل نحتية ورسومات أخرى. وتتألف مجموعة متاحف الفنون من متحف الفن العتيق (القرن الرابع عشر ـ القرن السابع عشر) ومتحف الفن الحديث (القرن التاسع عشر والقرن العشرين) ومتحف (ويرتز) ومتحف (ميونير).

ويضم متحف الفن العتيق مجموعة من أهم اللوحات التي رسمها كبار الفنانين القدامى في جنوب هولندا. في حين يعرض متحف الفن الحديث مجموعة كبيرة من أعمال القرن العشرين للفنانين البلجيكيين والأجانب.

هنالك أيضاً BOZAR قصر الفنون الجميلة: الذي يعدّ قطعة معمارية رائعة صممها الفنان (فيكتورهورتا) وهو أحد الجواهر الثمينة لتراث بلجيكا المعماري والثقافي.

ويوجد في بروكسل أيضاً متحف الآلات الموسيقية بالقرب من القصر الملكي، إلى جانب المركز البلجيكي لفن رسوم الكارتون، الذي يعدّ من أكبر المزارات السياحية في بروكسل التي تعتبر عاصمة مجلات الرسوم المتحركة (كوميك) على المستوى الأوروبي التي لاقت رواجاً عالمياً، فضلاً عن كون المتحف نموذجاً حقيقياً يعبّر عن العمارة ذات طراز الفن الحديث. أما محبو المسارح، فيمكنهم زيارة مسرح (دي لا مونيه) حيث تقام فيه عروض أوبرا أيضاً.

التسوق في بروكسل:

بالطبع تتيح بروكسل كغيرها من العواصم الأوروبية فرصاً واسعة للتسوق، فبالقرب من ساحة المدينة (ساحة قراند بلاس) مجموعة من الطرقات التي تمتلئ بمحلات التسوق، ويقع شارع (new street) على امتدادها ويوجد به العديد من مراكز التسوق مثل: جاليري سان هوبير الذي افتتح في ١٨٦٤ كأول مركز للتسوق في أوروبا ويضم مختلف المتاجر المتخصصة بالأزياء والتحف والسجاد. ويضم شارع Avenue Louise الواقع في أعلى المدينة منطقة تسوق راقية على امتداد شوارع مناطق (دي لا تويزون ولويز) والتي تضم العديد من البوتيكات الراقية، وفيها ماركات الأزياء العالمية المشهورة، إلى جانب الكثير من المطاعم والمقاهي، إذ تشتهر بالشوكولاته وخاصة النوع الداكن منها، كما يفتخر البلجيكيون بأنهم أول من أوجد البطاطس المقلية، التي ساهم بيعها في شوارع بروكسل بانتشارها عالمياً.

والعاصمة البلجيكية ليست شبيهة بباريس أو بلندن أو حتى ببرلين إنها بروكسل، التي تجمع

متناقضات كثيرة ويخيل لزائرها أنها أكثر من بلد وأكثر من مدينة وأكثر من ثقافة، وهي بالفعل كذلك، كما يَخال أنها أكثر من شعب، بروكسل عاصمة الاتحاد الأوروبي مدينة عائمة على خلافات قديمة، وعلى حساسيات ثقافية ولغوية جمّة، فهي ربما تكون العاصمة الأوروبية الوحيدة التي تعتمد لغتين في الإشارات الدالة على الأماكن ومحطات القطار والمطارات، وحتى في الشارات التي يعلقها رجال الشرطة على بزَّاتهم الكحلية الغامقة. ومردُّ ذلك يعود إلى ازدواجية اللغة في بلجيكا عامة، وبروكسل بشكل خاص، فلكونها عاصمة، تختزن الخليط البشري البلجيكي الذي يتحدث الفرنسية والفلمنكية كلغتين رسميتين للمملكة البلجيكية. ورغم أن هذا العامل قد يعبّر عن الغنى الثقافي للدولة والشعب على حد سواء، فإنه يعتبر من أكبر المشكلات التي تعاني منها بلجيكا على عدة مستويات، منها ما هو ثقافي وعرقي، ومنها ما يتعلق بالسياحة، إذ على السائح أن يعتمد على مهارته الشخصية في معرفة خطِّ سيره وطريقه، سواء في بروكسل أو في المدن الأخرى، التي فيها من يتحدث الفرنسية، ومن يتحدث الفلمنكية حصراً[(١)].

ففي بروكسل يمكن للزائر تحدث الفرنسية والإنجليزية والفلمنكية، أما في بعض المدن المصنفة ضمن المناطق الفلمنكية، مثل ميخلن MACHELEN، على سبيل المثال، فلا يمكنه سوى التحدث باللغة الفلمنكية، رغم أن المدينة لا تبعد أكثر من ١٥ كم عن العاصمة، بحيث يمكن اعتبارها ضاحية من ضواحي العاصمة، وهي إلى ذلك متعددة حتى في معنى اسم المدن لغوياً بين الفرنسية والفلمنكية.

ثمة فارق آخر يمكن تلمُّسه ببساطة بعد جولة قصيرة في المدن البلجيكية، وهو الفارق الاقتصادي بين السكان الفرنكفون والفلمنكيين، إذ يتضح أن المدن الفلمنكية أكثر ثراء، في حين أن المدن الفرنكفونية هي الأكثر فقراً في بلجيكا!، وهذا سببه سيطرة الفلامنك على جميع

(١) الفلامنكية هي اللغة الهولندية ولكنها بلهجة بلجيكية والمناطق الفلامنكية فيها هي المحاددة مع هولندا أي شمال بلجيكا.

المقدرات الاقتصادية المهمة في هذه البلاد، وهذا ليس في السنوات المتأخرة، وإنما منذ عدة قرون خَلَتْ..[(١)].

وبعيداً عن مشكلة التعدد اللغوي، فإن بروكسل تعتبر من أهم العواصم الأوروبية لأسباب عديدة ، فهي عاصمة الاتحاد الأوروبي، حيث يقع مبنى البرلمان والمفوضية وعدد لا حصر له من المراكز الأوروبية المهمة، التي تعنى بكل ما يتعلق بأعمال الاتحاد الأوروبي. وتمتاز بحراك ثقافي رائع ومميز، بدأ منذ مطلع القرن العشرين، من خلال بناء الأحياء الداخلية للمدينة، حيث إن كل واحد من هذه الأحياء يمتاز بقالب ثقافي وهندسي خاص به، كما يمتاز بنوعية خاصة من السكان، الذين يعيشون بأساليبهم الخاصة، التي تميز أحياءهم يومياً، مثل الحي الملكي ووسط المدينة وحي الحرية والحي الأوروبي والحي الخمسيني، الذي يضم، إلى جانب أكبر حديقة في بروكسل، أكبَر مسجد في بروكسل [(٢)] أيضاً، وهو يقع في جنوب شرقي العاصمة، وفي الجانب الشمالي من الحديقة، ويطل على جادة شارتنبرغ، وهي اليوم مدينة تضم جنسيات عديدة، وشوارعها تتحدث بلغات تتجاوز الصراع الثقافي البلجيكي المحلي حول هوية البلد الثقافية بين الفرنكفونية والفلمنكية.

وفي قلب مدينة بروكسل توجد محطة بروكسل الوسطى BRUXELL MIDI التي تعد أكبر محطة في وسط العاصمة، كذلك الترام الأصفر الذي تتميز به بروكسل. من نافذة الترام يحلو للسائح والمقيم التمتع بحركة المدينة ومشاهدة معظم المباني القديمة المبنية بين أواسط القرن التاسع عشر، وحتى خمسينيات القرن العشرين، ومع ذلك ففي وسط المدينة نفسه، بدأت طفرة معمارية حديثة تفضل الأبنية الشاهقة على حساب الأبنية التقليدية المنتشرة في كل شوارع

(١) صحيفة الشرق الأوسط عدد رقم ١١٤١٨ صادر في ٣ مارس ٢٠١٠.

(٢) المركز الإسلامي هو عبارة عن مجمع مدرسة عربية وإسلامية للمراحل الثلاث ومسجد وصالات ومكتبات بني على نفقة الحكومة السعودية عام ١٩٦٨ ويعتبر أقدم مسجد في بلجيكا التي تضم الآن أكثر من ٢٩٠ مسجداً، يذكر أنه في العام ١٩٧٤ تم الاعتراف رسميًا بالإسلام في بلجيكا بمقتضى مرسوم ملكي.

المدينة. حتى أن الحديث يدور في المدينة حول خلق آلية قانونية تمنع تشييد الأبنية الحديثة في الأحياء التي لها طابع هندسي قديم، وهو حديث يتجاوز بروكسل على الأرجح، ويطال معظم العواصم الأوروبية.

وأكثر الأحياء الغنية بالتراث تقع وسط المدينة، لكن ما يميز وسط بروكسل، هو أنه يحوي غالبية الأماكن السياحية والأسواق التجارية القديمة المتعددة، من دون أن يأخذ من الأحياء الأخرى ما يميزها عن غيرها. والحق أن الساحة الكبيرة في وسط بروكسل GRANDE ـ PLACE، هي المعلم الأكثر فرادة في بروكسل، بسبب ما تختزنه من معالم أثرية كثيرة، وأيضاً بسبب ما يميز هذه الأبنية التاريخية عن غيرها من جهة، وعن تعدديتها الهندسية من جهة أخرى. وهي لذلك من الأماكن الموجودة على لائحة اليونسكو للتراث العالمي، وفيها مبنى البلدية، وبيت الملك، الذي شُيِّدَ في القرن الثاني عشر وهو منذ عام ١٨٨٧ يعرف بمتحف المدينة الرئيسي، وجاءت هذه التسمية بسبب وجود عدد كثير من المتاحف في بروكسل. أما واجهة المباني في اليسار الداخلي إلى الساحة من خلف مبنى البورصة، فمعظمها مبانٍ قديمة، يعود أقدمها إلى القرن السادس عشر، وأحدثها إلى أواسط القرن التاسع عشر، كما تضم الساحة منحوتة لفكتور روسو، وهو أحد أهم المعماريين البلجيكيين في القرن العشرين[1].

ومن أجمل الأماكن حي المارون المكان الذي يقع على هضبة تطلّ على وسط المدينة ولا يخلو شارع من شوارعه من غاليري لعرض الفنون، ومحلات الموبيليا والتحف القديمة، وكذلك محلات الصاغة والمتاجر المتخصصة بتجارة الماس، حيث يقع قصر العدل الشهير في بروكسل، الذي شيده الملك ليوبولد الثاني في عام ١٨٦٦، وهو من تصميم مجموعة من المهندسين، وكان يعتبر في حينه أكبر مبنى حجري في العالم، إذ تغطي كتلته الحجرية ٢٦ ألف

(١) صحيفة الشرق الأوسط مصدر سابق.

متر مربع، كما يحتوي على قبة كنيسة القديس بطرس وهي شبيهة بقبة الفاتيكان، وقد أُثيرت حول البناء الأقاويل في حينه، حيث كلف بناؤه نحو ٥٠ مليون فرانك في القرن التاسع عشر، أي ما كان يعادل ميزانية المملكة على مدار سنة كاملة. ورغم كل ما قيل وقت بنائه، يبقى قصر العدل واحداً من أهم المعالم التي تدل على ثقافة البذخ التي كانت عند ملوك بلجيكا في ذلك الوقت.

ليس بعيداً عن قصر العدل، وفي مواجهته تقع ساحة يبولد الثاني والملكة أستريد، التي تنحدر من أصول سويدية[١]. وهو سادس ملوك بلجيكا من العائلة نفسها، حيث جلس على عرش المملكة في عام ١٩٩٣ بعد موت أخيه الملك بودوان، لكنه على عكس والده، يعتبر الملك الأكثر تقنيناً في صرف الأموال العائدة للدولة. كما أن قصره، الذي يتربع على تلة في وسط العاصمة قبالة الحديقة الملكية، لا يحتوي على موقف مخصص، سوى لسيارات العائلة فقط، لذلك عندما كان يقيم حفلاً، أو يستقبل أعضاء السلك الدبلوماسي في المملكة، يحصل على ترخيص من البلدية لاستخدام الرصيف المقابل لقصره كموقف للسيارات. وعلى الدوام لا يظهر من الحرس الملكي سوى اثنين في الأيام العادية. أما في أيام المناسبات، فيظهر حرس الشرف الملكي، وهو مؤلف من ١٠ أفراد، مهمتهم تقديم التحية الملكية لضيوف الملك على باب القصر.

تبدو بروكسل للزائر وكأنها مدينة ملكية بامتياز، فهي ـ وبعيداً عن تاريخها الملكي الذي لا يزال مستمراً إلى اليوم كتقليد يدأب البلجيكيون على ممارسته باحترام كامل ـ تعبر من خلال هندستها وتقسيمها عن العصور الذهبية، التي عاشتها المدينة منذ بدايات القرن التاسع عشر وإلى الآن.

(١) والملك البلجيكي سليل عائلة ألمانية تحكم بلجيكا وقد تسنى لكاتب هذه السطور مصافحته عندما قدمت أوراق اعتماد سفير اليمن الجديد سنة ٢٠٠١ كما لاحظت التقشف في قصر الملك فالسجاد المفروش كان قديماً والأثاث كذلك والضيافة متواضعة وقد قارنت ذلك بقصور ومراسم حكامنا رغم فقر بعض بلداننا إلا أنها لا تخلو من البذخ والترف!

والحق أن الحركة التجارية والسياحية والثقافية في بروكسل لا تهدأ، فهي مدينة دائمة الحركة وتمتلئ بالنشاطات التي لا يمكن للزائر الإحاطة بها. فعلى مدار أربع سنوات لإقامتي فيها، حيث كان يتم كل أسبوع أو كل شهر حدث أو مهرجان أو مناسبة معينة... إلخ. الأمر الذي لا يمكن الإحاطة به خلال أيام قليلة، لكنه في الوقت نفسه يعطي السائح فرصة اختيار النشاطات التي يحبها بسبب تنوعها وشموليتها لمجالات عديدة.

والزائر لبلجيكا في الغالب يزور بروكسل الغنية بالأماكن السياحية، ولكن القاطن فيها قد يشعر بالملل فيبحث عن أماكن أخرى في إطار الحدود البلجيكية أو القريبة منها ولهذا فقد زرت عدداً من مدن بلجيكا خلال الأربع سنوات التي أقمت فيها وذلك مثل مدينة بروج ومدينة ليج التي تبعد نحو مئة كيلومتراً من بروكسل وقريباً منها على المحيط الأطلسي تقع مدينة (اوستن) الساحلية والجميلة في أيام الصيف تحديداً وكذلك مدينة (انتروب) وغيرها من المدن.

وتعتبر مدينة (بروج) البلجيكية واحدة من أجمل المدن التي تستحق الزيارة في أوروبا، فهي تشبه إلى حدٍّ كبير (البندقية) بقنواتها، وجسورها وبيوتها القرميدية القديمة التي بنيت وفقاً للطراز القوطي، وهي تقع على مسافة ١٣ كيلومتراً من بحر الشمال، بحيث تدهش السائح حتماً بتاريخها الذي يعود للقرون الوسطى. وهي شاهدة على الفن العريق من خلال وسطها التاريخي الرائع الذي يضم المجموعة المحصّنة، وتنفرد مدينة بروج البلجيكية التي تبعد مئة كيلو متراً عن العاصمة بروكسل وتضم تمثال (العذراء والطفل) للنحات الإيطالي المشهور مايكل أنجلو في كنيسة السيدة العذراء بطرازها المعماري المحمَّل بأجواء المدن القديمة التي تحمل عبق التاريخ والحضارة.

وتنقلك كنائس وكاتدرائيات المدينة المليئة بالتماثيل والتحف التي تجسد قصة السيدة مريم العذراء وولادتها للسيد المسيح إلى أجواء مدن شرقية عريقة مثل بيت لحم، وتشعر بذلك التمازج بين الحضارات والشعوب رغم تباعد المسافات.

يعود تاريخ بروج إلى القرن الثالث عشر الميلادي حيث إنها تعكس طرازاً فريداً قلَّ مثيله بين المدن الأوروبية، إذ حافظت على هذا الطابع المعماري من خلال منعها المستثمرين من تغيير هذا الطراز الفريد وتركت الحوانيت القديمة على حالها مع إجراء بعض الترميمات، فحوّلتها إلى محلات تجارية ضمن تلك الفترة التي تميزت بها عبر العصور.

وتمتاز بروج بمبانيها المتلاصقة بطريقة فنية مبهرة، وبطابعها الهندسي الذي بُني خلال الفترة بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر، وفيها برج (بلفري) الذي يرمز إلى الحرية، ويبلغ ارتفاعه ٨٣ متراً مما يمكّن صاعده من رؤية المدينة بكاملها وشوارعها المرصوفة بالحجارة.

يتنقل المارّة في شوارع المدينة المخصصة للمشاة فقط بكل حرية ليستمتعوا بجمال بناياتها المعمارية، ولا يُسمح للسيارات بالمرور بداخلها، كما يتنقل قاطنوها وزائروها بالعربات التي تجرها الخيول أو بالقوارب النهرية ليتنقلوا بين أزقَّتها الضيقة، عبر ممرات مائية يعلوها خمسون جسراً ذات ارتفاع منخفض، تضطر أحياناً لخفض رأسك كي تتمكن من المرور الآمن، مما دفع الأوروبيين لتسميتها بفينيسيا الشمال أو فينيسا الصغيرة.!

تشتهر بروج بصناعة أفخر أنواع الشيكولاته البلجيكية التي تتذوقها معظم الشعوب الأمر الذي حدا بأهلها إلى تخصيص متحف لمختلف أنواع الشيكولاته المصنوعة في قوالب تجسد الأماكن التاريخية والدينية في المدينة، إلى جانب ما تتميز به المدينة من مشغولات يدوية، وصناعات مختلفة وبالذات الألماس البلجيكي المشهور.

زرت منطقة (واترلو) قبل تعييني في بروكسل بعشر سنوات تقريباً وحين أقمت في العاصمة البلجيكية زرتها عدة مرات؛ لأنها لابتعد سوى ثلاثين كيلومتراً من مركز المدينة وذلك كنزهة مع أفراد أسرتي أو مرافقة لزميل أتى للزيارة، أبرز معالم واترلو هو الأسد الرابض على قمة تلة صغيرة صناعية وكأنها هرم، تعود أهمية (واترلو) كونها مسرح أحداث مهمة ففيها وقعت آخر معارك نابليون في العقد الثاني من القرن التاسع عشر وقد مُنِيَ بأبشع هزيمة.

وعلى العموم فبروكسل عكس باريس ففي الأخيرة تعتبر الضواحي هي الأماكن الشعبية التي يقطنها الجاليات العربية من المغرب العربي والسود بينما في بروكسل تقع الأحياء العربية للمغاربة بعد خطوات من المحطات الرئيسية في قلب المدينة و (قراندبلاس)الشهير ومنطقة (بورصا) وهي بورصة بروكسل ويقال كما سمعت من مواطنين بلجيكيين بأنه في الماضي وقبل عدة قرون كان يقطن تلك المنطقة يهود ومنهم امرأة يهودية اسمها بورصا وعملها كان في صرف وتغيير العملات الأوروبية والاستثمار، وسمي ذلك الحي باسمها ولا أدري صحة هذه المقولة، المهم أن منطقة (بورصا) هي مبنى شامخ يتخيله المرء قصراً أو برلماناً، ولكنه في الواقع بورصة بروكسل الشهيرة.

رحلة اليونان

كانَتْ رِحْلَتِي لليونَان ثاني تجرِبة لزيارة بلَد أوروبي وقبل عزْمِي علَى تِلك الرِحْلة ترددتُ في القِيام بِها بِسَبب عدم وجود الرفيق، كما لايوجد سِفارة لليمن أو حتى مُبتَعثِين مِن الدارِسين إلاّ ماندر وإن وجد فلا أعرفهم أو عنَاوينهم، وعِند حديثي لمسؤول وصديق في الخطوط اليمنية في صنعاء حينها قال لي بأن هناك شخصاً يونانياً صديق له ويعمل مديراً لمكتب اليمنية ـ عندما كانت تنظم رحلة أو رحلتان أسبوعياً ـ وهو في نفس الوقت قنصل فخري لليمن في اليونان، وقال بأنه قد تواصل معه وهو على استعداد لبذل أي شيء قد أحتاجه بل وقد يرافقني أو يكلف مساعداً له في بعض الأماكن وعندها قررت السفر في أواخر فصل الصيف[(١)] ولم يكن هناك تأشيرات بين البلدين ربما على الأقل لحاملي الجوازات الدبلوماسية وبقيتُ فيها نحو عشرين يوماً مابين أثينا وجُزر قريبة مِنها، وقد تغيّرت أحوالها بعد أكثر من رُبع قرن حيث غدت لاترد الأخبار عنها إلا حول الإضرابات والضائِقة المالية، وكانت في مطلع الثمانينيات قد دخلت للتو عضوة فيما كان يسمى وقتها بالسوق الأوروبية المشتركة أي الاتحاد الأوروبي حالياً، حينها كغيرها من البلدان الأوروبية كان لها عملتها الوطنية الدرهم أو (الدراخما) بالإغريقية.. والمعيشة آنذاك لاتقارن بماهو عليه الآن لذا فقد كانت منْطقة جذب للسيَّاح العرب وقد وصلتها بالخطوط اليمنية عندما كانت عاصمة الإغريق محطة أسبوعية لها وربما مرتين في الأسبوع في رحلتها إلى باريس أو لندن.

حلّقَت الطائِرة فوق الجُزر اليونانية والمتناثِرة في البحر المتوسط، عندما يرى الزائر ذلك المنظر يتمنى لو كان قد وصلها بحراً وعلى سفينة سياحية لروعة وجمال الطبيعة الخلّابة في أرخبيل اليونان وما هي إلا دقائق معدودة حتى أوشكت على الهبوط وكانت إجراءات الدخول سلسلة وفي دقائق وهناك باص يتحرك كل رُبع ساعة من بوابة المطار إلى قلب أثينا في ساحة

(١) وكانت الأولى إسطنبول التي زرتها نهاية السبعينيات أيام بداية سنوات الجامعة أما رحلة أثينا فكانت منتصف الثمانينيات بعد نحو ثلاث سنوات من دخولي خدمة السلك الدبلوماسي.

(سنتغاما)[١] وبِسعر زهيد كما أن أسعار الفنادق حينها معقولة بالنظر كون الموسم في نهايته، وفي صباح اليوم التالي ذهبت لمكتب اليمنية في شارع فرعي من ميدان (أمونيا) الشهير وهناك تعرفت على الشخص المسؤول في (اليمنية) الذي لم أعد أتذكر اسمه الإغريقي ولكنه كان غاية في اللطف فرحب بي وأعطاني كتاب دليل سياحي وأرشدني إلى طريقة استخدام المترو الذي عرفته لأول مرة وخريطة لأثينا، وفي إجازته الأسبوعية (الويكِند) رافقني ليومين في زيارة للمتحف الرئيسي وأكاديموس أي الجامعة العريقة وبعض معالم المدينة مثل البرلمان والاكربلوس وغيرها وفي اليوم التالي رافقني في رحلة لجزيرة قريبة من أثينا قضينا فيها ساعات جميلة وتشبه جزيرة (بيوكودا) في إسطنبول.. نفس الطبيعة والمناخ والوجوه، أما في عطلة الأسبوع الثاني فقد كلف موظفاً لديه في مكتبه بمرافقتي وكان مصري الجنسية وقضينا يومين آخرين يوم في جزيرة أبعد استغرق الوصول إليها نحو ساعتين وعدنا نهاية اليوم التالي، ليس هناك ما هو أروع من سياحة الجُزر الخلاّبة في اليونان والتي لا تحصى والكثير منها صغيرة وغير مسكونة.

تتمركز الحياة في أثينا حول ثلاثة ميادين رئيسة هي ميدان (سينتاجما) ميّدان (أُمونويا)، وميدان (موناسترياكي)، وتعني سنتاجما الدستور والذي تجرى أمامه معظم المظاهرات الذي يُعرف أيضًا باسم الميدان الدستوري المركز الإداري للمدينة، وهو مواجه لمبنى البرلمان[٢].

وتتميز أحياء المدينة القديمة بأزقتها المتناسِقة والمخططة وشوارع أثينا كأغلب مدن جنوب المتوسط ساحرة بألوانها وخضرتها ورائحة ثمرة البرتقال التي تزين أشجار شوارعها، الموسيقى اليونانية تصدح في أكثر من محل سواء كان مقهى أو بائعاً متجولاً وهي على نمط شوارعنا العربية يفوح منها عبيق الشرق وشوى مطاعمها الشهيرة بأكلاتها المتوسطية حتى يخيل للزائر بأنه في إحدى مدن الشام.

في أحد أزقّة المدينة وفي وسط ميدان صغير من القرون الوسطى نافورة جميلة على غرار مدينة بازل في سويسرا، أحياء تصنف أنها شعبية ولكنها كلاسيكية وراقية ونظيفة، هنا تتلمس

(١) وهي أشهر ساحة في أثينا ويطل عليها مبنى البرلمان اليوناني وتجرى فيها المظاهرات أو الاحتفالات.

(٢) وهو مبنى القصر الملكي سابقًا، والذي أعلن من شرفته دستور أثينا عام ١٨٤٣م.

حياة المواطن اليوناني على سجيته أناس بسطاء يمرحون ويضحكون ويكنّون احتراماً للزوار بعكس الأحياء الحديثة والتي اختلط فيها الحابل بالنابل، ويكثر فيها الغرباء والمتسكعون، في أحياء أثينا العتيقة رأيت جمهرة من الناس يتجمعون على فرقة شعبية تغني. . . قيل: إنها جاءت من جنوب اليونان ويطرب لها المتفرجون لقاء بضع دراهم والتي تسمى وقتها (دراخما) قبل أن تقر عملة الاتحاد الأوروبي اليورو، أثينا هي مزيج بين نمط إسطنبول وبعض المدن المتوسطية العربية على الأقل من حيث الطبيعة ومنظر البحر وبعض تفاصيل الحياة بالنظر لخضوع اليونان لزمن طويل للاحتلال التركي، وفيها طابع أوروبي باعتبارها ثقافياً ودينياً ضمن القارة الأوروبية، ويشترك العرب و الإغريق ببعض الصفات الشرقية (بلدان شرق المتوسط) تحديداً في بعض الصفات الاجتماعية وحتى وصفات الأكل والموسيقى ورقصة الدبكة على سبيل المثال لا الحصر.

لاحظت في أحد شوارعها وأحيائها سفارات لمعظم البلدان العربية وقد يأتي يوم يكون لليمن سفارة في هذا البلد الأوروبي العريق أو على الأقل تستعاد الرحلات بين البلدين عما كان عليه في الثمانينيات.

نظافة وجمال شوارع أثينا لاسيما تلك التي بموازاة الشاطئ رائعة ولكنها بالنسبة لي لم تكن مفاجئة أو مذهلة رغم حيويتها، الأكثر ذهولاً هو التجوال في عمق أثينا وأحيائها القديمة أو أحياء بعض الجزر القريبة منها فهناك يتبين لك المجتمع اليوناني على سجيته من طبيعة وبناء وإنسان في بعض أزقة أثنيا المتوارية خلف البنايات العالية والأحياء الصاخبة تشاهد الناس يمارسون حياتهم بحيوية وتفاعل مع الغريب. في أحد الأحياء العتيقة التي تجذب آلاف السيَّاح دخلنا مطعماً يونانياً تقليدياً يقدم وجبات شعبية عريقة، المكان يكتظ برواده، أكلات شعبية متنوعة اخترنا وجبة يونانية مكونة من السمك وبعض الخضروات من بطاطس وطماطم زادهتها البهارات حرارة ومما زاد شهيتها بأن وجبة السمك تلك يحرصون بأن تكون في إناءٍ من الفخار وهو الذي يعتاد عليه بعض بلدان الشرق كما أن من ضمن أكلاتهم الزيتون والأجبان تماماً كأهل الشام.

أغلب مدن اليونان تطل على البحر لذا فإن قطاعاً كبيراً من السكان يعتاشون من البحر فاليونانيون لهم تأريخ وتعايش مع البحر منذ الأزل ووجباتهم يدخل فيها المأكولات البحرية.

لعل أهم مَعْلَم لزائر أثينا هو مبنى (الاكروبلوس) وهو معبد يوناني قديم منذ العصر الذهبي لحضارة الإغريق، ويقع على تلة مرتفعة يشاهد من أنحاء متفرقة لأثينا، وقد بحثت في الموسوعة والقاموس للتأكد من كلمة اكربلوس (Acropolis) وأدركت بأنها تعني مدينة باللغة اليونانية القديمة، ووقتها رغم أهميته لم يكن مصنفاً ضمن أماكن التراث العالمية من قبل اليونسكو وعلمت أنه في العام التالي ١٩٨٧ تم تسجيله شأنه شأن العجائب والغرائب في بناء الحضارات القديمة مثل الأهرام وملوية سامرا وتاج محل وسور الصين العظيم وغيرها من المعالم الشهيرة. وهو أبرز مَعْلَم لأي سائح يبقى في أثينا لأقل من أسبوع وهو بمثابة بقية المعالم التي تشتهر بها بعض الدول بل غدا رمزاً لمدينة أثينا لأنه يطل عليها من على قمة بمبناه المهيب وترى السيَّاح زرافات ووحداناً طيلة اليوم وأغلب أيام السنة. كما يعتبر الأكروبولوس أحد عجائب الدنيا السبع، يصل ارتفاع قمته إلى ١٥٦ متراً فوق سطح البحر، و٩٢ متراً فوق مدينة أثينا المنخفضة.

وقمت بزيارة مبنى الجامعة أو مايسمى اكاديموس أي الأكاديمية التي كانت مركزاً للفلسفة والمعرفة من نهاية القرن الخامس قبل الميلاد، وتحتوي على مبانٍ جميلة محاطة بالحدائق الواسعة، بعيداً عن ضوضاء وصخب المدينة.

من ضمن المعالم التي لايغفلها السائح تجواله في سوق (فرفاكي اغورا) وهو سوق المطاعم واالمأكولات من لحوم وأسماك وخضراوات وفواكه وغيرها وينتشر فيه العرب من متجولين وباعة.

متحف أثينا التاريخي:

المحطة الأخيرة في جولتنا في العاصمة اليونانية أثينا مع مرافقي الموظف في مكتب الخطوط اليمنية، كانت في المتحف التاريخي للمدينة، مخزن الآثار والتحف اليونانية فحين تدخل إليه تحسّ وكأنك في مخزن قديم أو غرفة لتجميع الأغراض القديمة، إنه مخزن الآثار والتحف والوثائق اليونانية التاريخية والقديمة، وفيه آلاف الوثائق التي تشير إلى سقوط الإمبراطورية القديمة، وإلى الثورة اليونانية ضد العثمانيين، ومجسمات تعكس أشكال اليونانيين القدماء.

وفي اليوم التالي كان من ضمن برامج الزيارات متحف آخر يمثل عصر ازدهار حضارة أثينا أيام عزها ومجدها قبل قرون من الميلاد ويضم تماثيل تمثل تلك الحقبة.

تتكون اليونان من عدة جزر قيل: إنها تتجاوز الألف ولكن أغلبها غير مسكونة، وهناك بضع جزر قريبة من العاصمة ويمكن لكثير من الزوار الوصول إليها بالقوارب بينما البعيدة من العاصمة بالطائرات الصغيرة التي تنظمها شركات للرحلات الداخلية.. قمت بزيارة أهمها ولكني لم أزُر إلا بضعاً منها وبعضها مجرد مرور ولم ننزل بها ولعل جزيرة (إيجنه) أقرب الجزر السياحية لأثينا، وهي جزيرة جبلية صغيرة، وبالتالي تجدها مقصد الكثيرين في عطلة نهاية الأسبوع، تتميز ببيوتها البيضاء وبعض المقاهي ومحلات الخبز، ودار للسينما، وإذا توجهت إليها تستطيع أن تقضي جولة على الشاطئ أو تنضم إلى جولة من خلال مزارع الفستق والبرتقال والزيتون وهي منتجات أغلب بلدان حوض المتوسط.

توجد العديد من الجزر الرائعة بالقرب من العاصمة أثينا، ومن هذه الجزر سالامينا، إيجينة، انجيستري، بوروس، هيدرا، بوروس،... إلخ.

ومن أهم الرحلات خارج عاصمة الإغريق هي تلك الرحلة مع مرافقي والتي قضينا فيها نحو يومين في عرض البحر والنزول من وقت لآخر في جزر تذهل الألباب بباخرة كبيرة بها كل وسائل الترفيه (مسبح، مطاعم، غرف) تأخذ السائحين في رحلة طويلة لساعات وهي تطوف بهم حول بعض الجزر اليونانية وتقف عند كل جزيرة حتى يتاح للسيَّاح التجوال بها ويشتروا سلعاً تذكارية وتؤخذ لهم صور في كل جزيرة وعندما يصعدون مجدداً إلى الباخرة يجدون صورهم منشورة فيشترونها فقط للراغبين وليس مجبراً إذا لم تعجب السائح أيٌّ من الصور.!

من أهم تلك الجزر التي لفتت انتباهي ولازلت أتذكرها؛ لأني دوَّنت اسمها في أوراقي تدعى جزيرة (سيبتسيز Spetses) وهي إحدى الجزر المتناثرة في خليج سارونيك في البحر المتوسط بالقرب من (كوستا)، وقد استغرقت الرحلة إليها نحو ساعتين من ميناء (بيريوس)في أطراف مدينة أثينا، ولطالما اشتهرت تلك الجزيرة بكونها مقصداً يتوجه إليه أثرياء أثينا في عطلة نهاية الأسبوع، وذلك نظراً لما تتمتع به من خصوصية في الأجواء واعتدال في الأسعار، كما

أنها ملاذ رائع للأزواج ولقضاء شهر العسل، حيث لا توجد سيارات خاصة هناك، بل يعتمد السياح على العربات التي تجرها الخيول.

وكان لانْضِمام اليونان إلى الاتحاد الأوروبي في مطلع الثمانينيات أثرٌ إيجابي على الاقتصاد اليوناني وداعم للسياسة اليونانية الخارجية مع دول أخرى وخاصة مع تركيا، التي تربطها مع اليونان علاقات مهمة، يشوبها التوتر في معظم الأحيان. وتركيا هي الجارة الكبرى لليونان والمنافس الرئيسي لها في منطقة جنوب البلقان وشرق المتوسط وفي حلف الناتو، ترجع أسباب توتر هذه العلاقة إلى مئات السنين إلى الوراء وخاصة منذ بداية الاحتلال العثماني لليونان وحتى الاستقلال في ١٨٢١. تزايدت خاصة مع تزايد النزاعات الحدودية والتي محورها مشكلة جزيرة قبرص[١] بالإضافة لنزاع الحدود البرية والبحرية بينهما.

ثقافة اليونان الحديثة مرتبطة بشكل وثيق بالإرث الحضاري العريق لليونانيين القدماء أو الإغريق.

وتبدأ قصة الحضارة الأوروبية من بلاد الإغريق فلهم حضور مبكر في عالم البحار في الشرق والغرب وتواصلوا تجارياً وثقافياً بشبه الجزيرة العربية وهم من وصفوا بلاد اليمن بالعربية السعيدة.

ولأثينا تاريخ طويل وغني بالأساطير الإغريقية، وكان القرن الخامس قبل الميلاد بمثابة العصر الذهبي لها، إذ تم خلاله بناء معبد الأكروبولس الشهير، وبقي حتى الآن هذا المعبد مركز أثينا التاريخي. وأثينا مهد الديمقراطية الحضارة الغربية، والألعاب الرياضية الأولومبية.

حضنت عاصمة الإغريق الفلاسفة والعظماء[٢]، وسحرت الكتَّاب والشعراء.. إنها أثينا، صاحبة التاريخ الطويل والعريق الغني بالأساطير الإغريقية، مسقط رأس الديمقراطية، ومهد

---

(١) أبرز المشاكل بين البلدين هي جزيرة قبرص والتي قسمت لقبرص اليونانية والتركية مع أن المجتمع الدولي لم يعترف إلا بقبرص واحدة هي اليونانية.

(٢) يعتبر سقراط (٤٦٩ ـ ٣٩٩ ق م) من أقدم الفلاسفة الذي يمكن اعتباره أبا الفلسفة الغربية وبعده جاء أفلاطون المولود في أثينا عام (٤٢٨) قبل الميلاد الذي تعرف على أستاذ سقراط في بداية شبابه وأخيراً أرسطو (٣٨٤ ـ ٣٢٢ قبل الميلاد) وهو أحد تلاميذ أفلاطون.

الحضارة الغربية، كما تُعدّ، أيضاً، مسقط رأس الألعاب الأولمبية قديماً وحديثاً. إنها بحق جوهرة نادرة تتألق تحت سماء اليونان وتجذب الملايين.

ومنذ القدم ظهرت في أثينا الحكمة والفلسفة منها برز سقراط وأفلاطون وأرسطو، اهتم مفكرو الإغريق بالطبيعة الإنسانية ونشاطها النفسي.

ويفتخر أهل اليونان بأنهم أول من وضع أسس الديمقراطية والحضارة المدنية، كان للفلاسفة والمفكرين اليونانيين فضل كبير في نشوء الفلسفة وفكرة (المدينة الفاضلة) التي نادى بها أفلاطون.

تعتبر دولة اليونان من دول الجوار العربي فقربها من شواطئ سوريا ولبنان ومصر والتلامس الحضاري على مدى قرون، ومن هنا فلا يستغرب الزائر في تلمسه كثيراً من مفردات حياة أهل الإغريق وحتى الموسيقى والأغاني اليونانية فيها نغمة شرقية أوسطية وتمثل مدرسة مستقلة تختلف كثيراً عن بقية بلدان أوروبا.

أثينا مهد الألعاب الأولمبية المناسبة الرياضية التي تجمع كل دول العالم، ومسقط رأس الشعلة الأولمبية ورمزها عبر التاريخ.

شعب اليونان وديع مسالم وأكثر من مرة كانوا يسألوني هل أنت تركي رغم أن ملامحي عربية صرفة واستفسرت عن سبب اعتقاد الغرباء أتراكاً؟! فقال لي مرافقي بأنه لديهم فوبيا عثمانية فبعد احتلال لزمن طويل أصبحت الذاكرة اليونانية تنظر إلى الأتراك بنظرة عداء تأريخي!، وهذا مايفسر انفراد اليونان عن كثير من بلدان أوروبا بتجذُّر العداء التاريخي عبر الكنيسة اليونانية وبالتالي شرائح كبيرة من شعبها الذي لازال في ذاكرة المواطن اليوناني لكل ماهو إسلامي لدرجة خلوِّ العاصمة أثينا من مسجد واحد للجالية الإسلامية الكبيرة هناك، بينما أغلب عواصم أوروبا التي تكثر بها الجاليات العربية تضم مسجداً واحداً على الأقل.

ورغم ذلك يبدو أن أهل اليونان أرقّ قلوباً من جيرانهم الأتراك الذي اصطبغوا بصبغة القوة والفتوحات منذ عهود العثمانيين، فالشعبان أوجه اختلاف أكثر من التشابه ليس بسبب المعتقد والثقافات ولكن بالعودة لجذور كل من الأمتين فاليونان يعتقدون بأنهم أصل الحضارات

الأوروبية بينما الأتراك هو قوم نزحوا من آسيا الوسطى واستوطنوا هضبة الأناضول وعند دخولهم الإسلام حملوا راية الخلافة الإسلامية لقرون وتوسعوا في ثلاث قارات.

على وقع الأغاني الشعبية اليونانية يجول السيَّاح في برها وبحرها وفي الصيف تزدهر السياحة في جزر اليونان بصورة مذهلة فشعبها ودود رقيق المشاعر وعلى صدى الموسيقى اليونانية العذبة تنتعش أسواقها ومراكز تجمعات القاطنين والسيَّاح موسيقى هذا البلد ساحرة تلفِتُ انتباه ضيوفها وترحب بهم، هي مزيج من ألحان غربية بطابع شرقي موسيقى شجيّة ومفرحة في آن واحد!، يكفي أنها باقية في الذاكرة...

خاتمة

يعتقد الكثيرون أن مِن متع الحياة الرحلات. . فهي ليست باستجمام فحسب بل ونافذة ثقافية وتواصل اجتماعي وحضاري، وإذا كانت في الماضي للمغامرين والموهوبين فقد غَدت في عصرنا الحالي في متناول الكثيرين وبأيسر السبل وعلى مستويات متباينة، وبأسرع مما كان يتصور من قبل، ورغم ذلك فلاشك أنها تظل مكلفة مادياً ولكن فيما لو توفر للمرء المال والصحة فهي فرصة ذهبية وقد يأتي المال والوقت ولكن ظروف الحياة أو عائق صحي يحول دون ذلك.

تهفو النفوس، وتتطاول الأمنيات إلى ارتياد الآفاق البعيدة واكتشاف المجهول من عادات وتقاليد وأنماط بشرية مختلفة وطبيعة متباينة، وفي عالمنا الذي نعيش فيه تجتمع فيه المتناقضات والتنوع وهو مايكسبه جمالاً. . ويتباين عُشاق الرّحلات ولهم فيما يعشقون مذاهب، فالبعض تنطوي رحلاته بطابع ثقافي ويهوى التأريخ من معالم وآثار ومتاحف ومؤسسات ثقافية ولقاء مثقفين ونحو ذلك، وآخرون يهوون سياحة المدن وصخب الساحات والأسواق وهناك من ينجذب لسياحة الشواطئ وعالم البحار ومثلهم من تستهويهم الجبال والغابات والسهول والبحيرات. . إنها الطبيعة تجذب كل إنسان وقديماً قال شاعر عربي قديم:

ثلاثةٌ يذهب عن نفسي الحزنْ الماء والخضرة والوجه الحسنْ

في الحقيقة إن طبيعة عملي قد وسعت من طموحاتي رغم أني زرت نحو عشرة بلدان أيام دراستي الجامعية وقبل أن ألتحق بالعمل الدبلوماسي على النحو الذي فصلته في مقدمة هذا الكتاب وقد بذلت بسخاء من أجل بعض الرحلات ولعل أمتعها هي التي خططت لها وليست الزيارات الرسمية أو حتى البلدان التي عملت بها، إلا أنها كانت منطلقاً لبلدان مجاورة أو بعيدة فالمسافات تختصر والزمن يتناغم مع الفرص. . والمتعة في الرحلة تكمن في اختيار البلد المزار والوقت المطلوب المناسب والصاحب المناسب والحرية المطلقة في تفاصيل الرحلة، هنا تتضاعف المتعة. .

شَمِلت هذه المشاهدات بعض البلدان التي زرتها، ولاتشكل سوى أقل من ثُلِث ما عرفته، وكانت رغبتي بدايةً في تناول البلدان التي تمكنت من زيارتها خلال السنوات الماضية بالوصف الدقيق وبشيء من التفصيل ولكنها كثيرة وقد تأخذ ضعف حجم هذا الكتاب وقد تأخذ مني وقتاً طويلاً، وعليه فقد فضلت أن يكون على هذا النحو كي لا تتلاشى ذكرياتها بمرور الزمن!

لذا فقد اقتصر هذا الكتاب على تناول بعضها وهي التي تركت ذكرى في نفسي أكثر من غيرها وآمل بإذن الله تعالى أن أتمكن من إصدار الجزء الثاني لهذا الكتاب وقد يتم جمعها في مجلد واحد إن كتب الله لي عُمراً وصحة.

ولأنني عهدت ومنذ سنين بأن أكتب في تخصصي كالكتابة في الشؤون السياسية إلّا أن تناولي لأدب الرحلات أخذ مني جهداً غير متوقع[١]، وصحيح أنه من السهل الممتنع فقد تطلّب ـ إضافة إلى تنوع مضمونه وتناوله لقضايا اجتماعية واقتصادية وتاريخية وسياسية ـ فضلاً عن جوهر الموضوع وصف الرحلات.... يقتضي الأمر الدقّة في التحرّي عن المعلومة والصدق في نقلِها ومراجعتها أكثر من مرة بعيداً عن الأسلوب الإعلامي المعروف والمستخدم في الكتابات السياسية.

وأعتقد أن هذا النوع من الكتب يلقى رواجاً وقبولاً للقراء لتزايد قرائها من جهة ولأنها ليست آنية كالكتب السياسية، وآمل أن ينال هذا الكتاب رضى القارئ ويحقق له بعضاً من الفائدة والمتعة ورغم احتمال ورود أخطاء لغوية ومطبعية وخلافية إلا أني حرصت على تجاوزها قدر الإمكان وحسبي أنني أرضيت طموحي بتأليفه وإخراجه على هذا النحو بنفسي

(١) قبل نحو عام من صدور الطبعة الأولى لهذا الكتاب تلقيت جملة من الانتقادات التي أفادتني في أغلبها وهي ملاحظات وتعليقات يشكر عليها وأخذت بعين الاعتبار لتلافي ما علق بالطبعة الأولى من أخطاء طفيفة مطبعية ونحوية وقد حاولت تحاشيها قدر الإمكان في هذه الطبعة، إلا أن الثناء وبحمد الله كان الغالب لدرجة وصف الكثيرين ومنهم الدكتور المقالح وأدباء عرب بوصفه أول مؤلف ليمني يتناول أدب الرحلات بشمولية وبعمق تأريخي بنكهة يمنية كما يحلو للبعض وصف مضمون الكتاب، وأرجو أن أكون عند حسن الظن.

معتمداً على جهود ذاتية[(١)]، ولذة الكتابة تكمن في حرية اختيار موضوع البحث ذلك أني لست مكلفاً من أي جهة[(٢)] كانت رسمية أو كضرورة ومتطلبات أكاديمية وعليه فإن صدور هذا الكتاب بهذه الصورة هو جهد ورغبة ذاتية صرفة دون مساعدة من أحد وسأورِد هنا مقولة لأحد الحكماء قبل قرون قوله المأثور «. . إني رأيت أنه لا يكتب أحد كتاباً في يومه إلا قال عنه في غده: لو غير هذا لكان أحسن ولو زيد هذا لكان مستحسناً ولو قدم هذا لكان أفضل ولو ترك هذا لكان أجمل وهو من أعظم العبر. . . وهو استيلاء النقص على جملة البشر. . . »![(٣)].

(١) ويسرني في هذا المقام بأن أذكر الجميل لبعض قراء الطبعة الأولى ممن أبدوا ملاحظات أو تنويهاً أو تصحيحاً فالكمال لله وحده.

(٢) وهذه الملاحظة سردتها في خاتمة كتابي السابق والمعنون «الاتحاد الأوروبي والعلاقات اليمنية الأوروبية» وقد صدر في طبعتين بفارق ثلاث سنوات بينهما وتميزت الطبعة الثانية الصادرة في بيروت بتنقيحها وتناول كل المستجدات في ذلك الموضوع، واعتبره عدد من النقاد والقراء في اليمن وخارجها وبين أعضاء السلك الدبلوماسي اليمني والأكاديميين بأنه أول مؤلف لدبلوماسي يمني يتناول موضوع العلاقات اليمنية الأوروبية بشيء من التفصيل، والذي قدم له الدكتور حسين العمري أستاذ التاريخ الحديث ووزير خارجية سابق ونقحه وراجعه وقدم له أيضاً الدكتور المرحوم حكيم السماوي أستاذ العلوم السياسية بجامعة صنعاء ورئيس قسم العلوم السياسية سابقاً. وأصبح البحث قبل طبعه المرجع الرئيسي والوحيد في البرلمان اليمني مجلس النواب واستدعي رئيس دائرة أوروبا وكاتب هذه السطور (مدير إدارة الاتحاد الأوروبي بدائرة أوروبا بالخارجية اليمنية) وقتها لمناقشة العلاقات اليمنية الأوروبية بحضور كل أعضاء المجلس على مدى يومين وبث على قنوات التلفزيون اليمني آنذاك.

(٣) أبو العماد الأصفهاني.

مراجع ومصادر الكتاب

١ . خضر ـ الدكتور خضر مُوسى محمود، أشهر أعلام الرحالة العرب ونتاجهم، دار الكُتب العِلمية بيروت إصدار عام ٢٠١١م.

٢ . قنديل ـ فؤاد، أدب الرحلة ، الدار العربية القاهرة الطبعة الأولى عام ٢٠٠٢م.

٣ . ـ غريب ـ جورج، أدب الرحلة تاريخه وأعلامه دار الثقافة للنشر والتوزيع ١٩٩١م

٤ . ابن بطوطة ـ أبو عبدالله محمد اللواتي الطنجي تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، المكتبة العصرية . بيروت عام ٢٠٠٤م.

٥ . ابن جُبير ـ أبو الحسين محمد الكِناني الأندلسي رحلة ابن جبير المُسمَّاه تذكِرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار، دار صادر بيروت عام ١٩٥٩م.

٦ . ابن خلدون ـ عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي تاريخ ابن خلدون المسمّى العِبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر الطبعة الأولى، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان عام ١٩٩٩م.

٧ . الحبشي ـ عبد الله الرحالة اليمنيون شرقاً وغرباً مكتبة الإرشاد صنعاء الطبعة الأولى عام ١٩٨٩.

٨ . المخزنجي ـ محمد شرقاً وغرباً . . رحلات ورؤى صادر دار الأدهم للنشر والتوزيع القاهرة عام ١٩٩١م

٩ ـ الجواهري ـ ديوان محمد مهدي الجواهري، طبعة النجف الأشرَف العراق عام ١٩٣٥م.

١٠ ـ السعيدي ـ عباس، دراسة للباحث عباس السعيدي في أدب الرحلة مجلة الجامعة الأردنية العدد ٢٣ .

١١ ـ رحاب كمال ـ عجائب وغرائب العالم، دار الطلائع بيروت دار الخيال عام ٢٠٠٤م.

١٢ ـ سياحة في تركيا ـ منشورات الهيئة التركية لترويج السياحة، صادرة من إسطنبول ٢٠٠٢م

١٣ ـ هيكل ـ محمد حسنين ـ مدافع آية الله ـ دار الشروق القاهرة صادر عام ٢٠٠٦م.

١٤ ـ نجيب ـ الدكتور حسين، أثر المعجم العربي في لغات الشعوب الإسلامية والأردية والتركية والفارسية، صادر عن مكتبة مدبولي القاهرة عام ١٩٩٢م.

١٥ ـ هويدي ـ الدكتور فهمي هويدي، إيران من الداخل صادر عن مركز الأهرام للترجمة والنشر عام ١٩٨٨م.

١٦ ـ نور الدين عبد العظيم ـ دكتور محمد نور الدين (اللغة الفارسية) سلسلة كتابك دار المعارف مصر إصدار عام ١٩٧٧م.

١٧ ـ فوزي ـ حسين، سندباد عصري يعود للهند، صادر عن دار المعارف مصر عام ١٩٧٨م.

١٨ ـ المارديني ـ عبد الرحمن موسوعة الأديان الحية في العالم، دار آية بيروت عام ٢٠٠٨م

١٩ ـ عبد الرحيم ـ الدكتور عبد الواحد ـ عاقل في زمن الجنون ـ مهادير محمد وثورات الربيع العربي الصادر عن دار ميديا هب انترناشيونال دبي عام ٢٠١٢م.

٢٠ ـ قرنفل ـ الدكتور حسن ـ أهل فاس.. المال والسياسة ـ دار أبي قراقر للطباعة والنشر الرباط المغرب الطبعة الأولى عام ٢٠٠٧م

٢١ ـ رزوق ـ محمد، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب، دار أفريقيا للنشر الدار البيضاء الطبعة الأولى عام ١٩٩٨م

٢٢ ـ الندوي ـ مولانا أبو الحسن الندوي الهندي، رحلة مولانا الندوي للمغرب إصدار مؤسسة الرسالة بيروت الطبعة الأولى عام ١٩٨٣م

٢٣ ـ الناعوري ـ الدكتور عيسى ـ في ربوع الأندلس ـ الطبعة الثانية تونس عام ١٩٧٨م

٢٤ ـ البتوني ـ محمد لبيب البتوني (رحلة الأندلس) مطبعة الكشكول القاهرة الطبعة الأولى عام ١٩٢٧م

٢٥ ـ المقري ـ أحمد المقري التلمساني ـ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ـ الجزء الأول ومحققه إحسان عباس ـ دار صادر بيروت الطبعة الأولى عام ١٩٦٨ .

٢٦ ـ ماجد ـ الدكتور عبد المنعم ماجد ـ خواطر سائح مصري في إسبانيا .

٢٧ ـ شبلول ـ أحمد فضل، من إسطنبول إلى قرطبة، الناشر دار قرطبة ـ الدار البيضاء .

٢٨ ـ الخطيب ـ لسان الدين، الإحاطة في تاريخ غرناطة ـ دار المعارف مصر عام ١٩٩٨م .

٢٩ ـ الكيالي ـ سامي، في ربوع الأندلس، دار الشروق حلب عام ١٩٦٣م .

٣٠ ـ غيما ـ ماجد ذيب غيما (يوميات أندلسية) إصدار المطابع التعاونية عمان عام ١٩٧٨م .

٣١ ـ شكري ـ دكتور يوسف شكري فرحات ـ غرناطة في ظل بني الأحمر ـ دار الجيل بيروت الطبعة الأولى عام ١٩٩٤م

٣٢ ـ فروخ ـ مصطفى ـ رحلة إلى بلاد المجد المفقود، بيروت دار المفيد الطبعة الأولى ١٩٨٢م .

٣٣ ـ الصنوي ـ عبد الرب ـ اليمنيون في الأندلس ـ وزارة الثقافة اليمنية الطبعة الأولى ٢٠٠٤م .

٣٤ ـ السماوي ـ أحمد عبد الرحمن ـ الأندلس الفردوس المفقود وزارة الثقافة اليمن عام ٢٠٠٤م .

٣٥ ـ الساعاتي ـ ناجي جواد، رحلة إلى الأندلس ـ دار الأندلس بيروت الطبعة الأولى ١٩٦٧م .

٣٦ ـ القاسم ـ الدكتور سميح دراسة مختصرة بعنوان «أيام في قرطبة . . . مدينة الشعر والعشق والجمال» . نشرت في موقعه الخاص على شبكة الإنترنت في شهر يوليو ٢٠١٠ .

٣٧ ـ الشاطئ ـ دكتورة بنت الشاطئ ـ دراسة بعنوان صفحات مشرقة ضمن نخبة من الكتّاب سلسلة كتاب العربي، العدد الثامن والخمسون عام ٢٠٠٤م .

٣٨ ـ الكزبري ـ سلمى وآخرون ـ إسبانيا أصداء وأصوات عربية من سلسلة كتاب العربي العدد الخامس والثلاثون الصادر في ١٥ يناير عام ١٩٩٩ .

٣٩ ـ أرسلان ـ الأمير شكيب أرسلان، الحلل السندسية وصف البلاد الأندلسية، المكتبة المصرية القاهرة عام ١٩٣٦ .

٤٠ ـ القاسمي ـ خالد بن محمد، تاريخ الحضارة الإسلامية في الأندلس، دار الثقافة العربية بيروت عام ١٩٩٨م.

٤١ ـ من برنامج وثائقي في قناة الجزيرة القطرية وأعيد نشره على موقع القناة في الشبكة العنكبوتية حول مهاجري الأندلس بعد سقوط غرناطة.

٤٢ ـ مؤنس ـ حسين ـ فجر الأندلس، دار المناهل، الطبعة الأولى عام ٢٠٠٢م.

٤٣ ـ الطهطاوي ـ رفاعة، تخليص الإبريز في تلخيص باريز، دار الهلال القاهرة عام ٢٠٠١م.

٤٤ ـ الثقافة العربية في المهجر من إصدارات مجلة العربي الفصلية كتاب دوري فصلي العدد ٩١ يناير من العام ٢٠١٣م.

٤٥ ـ جمال الدين ـ الدكتورة نادية جمال الدين جزء من دراسة نشرت في كتاب العربي الفصلي الذي تصدره حكومة دولة الكويت العدد رقم ٩١ لشهر يناير ٢٠١٣.

٤٦ ـ نعمات ـ الدكتور نعمات أحمد فؤاد، رحلة الشرق والغرب الهيئة المصرية للكتاب عام ١٩٨٦ م.

٤٧ ـ مجلة العربي الكويتية العدد ٣٥٣ أبريل ١٩٨٨م ـ والعدد ٤٠٣ شهر يونيو ١٩٩٢.

٤٨ ـ مجلة دبي الثقافية العدد تسعون السنة التاسعة، الإمارات نوفمبر ٢٠١٢.

٤٩ ـ مجلة الفيصل السعودية العددان ٤٢١ و ٣٢٢. يونيو ويوليو ٢٠١١.

٥٠ ـ مجلة التراث الإماراتية.

٥١ ـ مجلة السياحة الإسلامية الثنائية اللغة والصادرة من لندن العدد١٢ يوليو وأغسطس ٢٠٠٨م.

٥٢ ـ صحيفة الشرق الأوسط العدد أعداد متفرقة وبأزمنة مختلفة.

٥٣ ـ صحيفة ٢٦ سبتمبر اليمنية عدد ١٣٦٥ ٢٧.

٥٤ ـ وكالة الأنباء الألمانية وموقع قناة ألمانيا العربية DW التلفزيونية.

٥٥ ـ الموسوعة العربية العالمية ـ المكونة من ثلاثين جزءاً ـ أعداد متفرقة إصدار مؤسسة أعمال الموسوعات للنشر والتوزيع الرياض الطبعة الثانية عام ١٩٩٩م.

فهرس الكتاب

العنوان	رقم الصفحة
تقديم الأديب الدكتور عبد العزيز المقالح	٧
مقدمة الدكتور السفير حميد العواضي	٩
مدخل (حول أدب الرحلات)	١٩
دور اليمنين في أدب الرحلات	٢٧
مقدمة	١٣
الطريق إلى بغداد	٣٥
رحلة تركيا (اسطنبول)	٨٧
رحلتي لإيران	١٠٧
أصفهان نصف الدنيا	١٢٨
رحلتي إلى الهند	١٥٧
تاج محل أغنية من المرمر!	١٦٤
رحلة للملايو . . ماليزيا	١٩١

العنوان	رقم الصفحة

سنغافورة . . مدينة الأسد ٢٠٧
المغرب بعيون يمنية ٢١٣
إسبانيا بعيون عربية في رحاب الأندلس ٢٤٧
رحلاتي إلى باريس ٣٢٣
بروكسل عاصمة أوروبا ٣٤٥
رحلة اليونان ٣٥٩
خاتمة الكتاب ٣٦٧
مراجع ومصادر الكتاب ٣٧٠
فهرس الكتاب ٣٧٤

الكتاب والمؤلف

تُعتبَر الرّحلات أو قراءتها من أوسع أبواب المعرفة والثقافة الإنسانية لِكشّف المجهول والوصول إلى الغاية ، والمعرفة والإحاطة بالعادات والتقاليد، والتعريف بأوصاف البلدان الطبيعية ومناخاتها ، كما أنها مصدر للمؤرخ والجغرافي والاجتماعي، وفيها قدوة وأسوة لمن يريد أن يعّتبِر ويتأملّ. . فقد فطر الله الإنسان على حب الإستطلاع وإكتشاف المجهول ، ويتباين عُشّاق الرّحلات ولهم فيما يعشقون ،

لأدب الرحلات جاذبيته لأنه ينبض بالحياة، والحركة ، والثقافة والتنوع والسفر ما يكتنف ذلك من مفاجآت ومغامرات أحياناً. . ! ومن خلال سطوره يعانق الكاتب روح المكان والزمان ويتجلى تفاعله مع الناس الذين يلاقيهم وهم يمارسون حياتهم بصورة عفوية بعيداً عن التكلف والتصنع . . وتأتي محاولات كاتب الرحلات في قرأة الوجوه والملامح والبحثث فيما وراء الأسباب ، وقد ينجح في ذلك وربما العكس ولكنه في الجملة سعيداً بما ينقله شفاها أو كتابه حيث يمتزج الأسلوب بالعاطفة والانفعال بالخيال. . . !

ولهذا النوع من الأدب سحرة الخاص وذلك لقدمه من ناحية ، ولأنه ليس أدباً تسجيليًّا من ناحية أخرى فتلك الفنون رغم إبهارها فإنها تحجم من خيال من يتعامل معها بينما الحرف والكلمة يطلقان العنان لخيال القارئ ويحلقان به في آفاق اوسع .

والمؤلف دبلوماسي يمني بوزارة الخارجية ، وسبق وأن مثل بلاده في عواصم عربية وأوروبية والولايات المتحدة ، كما شارك في مؤتمرات دولية ، وكذا ندوات وفعاليات ثقافية داخل اليمن وخارجها ، وللكاتب نشاطات أدبية وثقافية وانضم لعضوية نقابة الصحفيين اليمنيين في الثمانينات كما نشرت له سلسلة من المقالات والأبحاث والدراسات في صحف يمنية وعربية منذ أكثر من ثلاثة عقود ، وصدر له كتاب بعنوان الاتحاد الأوروبي والعلاقات اليمنية الأوروبية نشر في طبعتين، والمؤلف بصدد انهاء مسودة كتاب آخر يتناول جانب نظري وفكري وتاريخي عن دور العرب واليمنيين في أدب الرحلات عبر العصور.